الناس والعلم والمجتمع



الناس والعلم والمجتمع

دار التقدم
موسكو

تنبيه من مكتبة الشيوعيين العرب!

هذا الكتاب ليس من نسخ الصوت الشيوعي، بل وجده في أثناء بحثه في الإنترنت. وقد قامت مكتبة الشيوعيين العرب بـ "تطهيره" من:

١) أفكار شيوعية الخائن خروشوف المزيفة،
٢) أفكار شوفينية الدولة العظيمة،
٣) التهجم المبطن، غير الصريح، على الماوية والثورة الصينية،
٤) المبالغات في تقدير القوة الإقتصادية لدولة خروشوف – بريجينييف السابقة، والتي كانت تسمى عن غير جدارة بـ "اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية"،
٥) بعض الأفكار النظرية المغلوطة الأخرى التي اثبت التاريخ فشلها.

وقد قامت المكتبة بهذا "التطهير" من خلال:

١) حذف وازالة جميع النصوص والفقرات ذات العلاقة، المتضمنة لما ورد أعلاه،
٢) حذف وازالة صفحات كاملة ذات علاقة بما ورد أعلاه،
٣) اعادة صياغة بعض النصوص والجمل والفقرات بما يتوافق والنهج الماركسي – اللينيني الثوري،
٤) حذف بعض العناوين وازالتها من مكانها ومن قائمة "محتويات" الكتاب،
٥) اعادة صياغة بعض العناوين بما يتفق والنهج الماركسي اللينيني.

كذلك قامت المكتبة بإزالة بعض النصوص والفقرات التي تتضمن الصيغة المشوهة للسوفياتات (مجالس السوفيات)، بحيث يأتي الكلام كما لو كان عن السوفياتات في عهد لينين العظيم ...

وقد أضافت المكتبة، أيضاً، بعض الملاحظات من خلال استعمال خيار "اضافة نص" وخيار Sticky Note، اللذان يوفرهما برنامج محرر فايلات PDF.

لذا اقتضى التنويه.

الصوت الشيوعي

اعد الكتاب فريق من المؤلفين :
شاخنازاروف ، بوبوريكين ، كراسين ، لوشنيكوف ،
بيسارجيفسكي ، سوخودييف

يعرض في هذا الكتاب ، بشكل مبسط ، المذهب الفلسفي عن العالم ومعرفته ، والمجتمع وقوانين تطوره . وفى فصول خاصة منه توصف الرأسمالية والمجتمع الاشتراكي السوفييتي والمنظومة الاشتراكية العالمية ، ويكشف عن آفاق التعايش السلمي والتباري الاقتصادي بين العالمين . وتبحث المسائل الاساسية الملحة للنظرية والممارسة الماركسيتين-اللينينيتين لبنـــاء الاشتراكية والشيوعية . ويتناول عدد من الفصول برنامج البناء الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ، وعمل الشعب السوفييتي ونضاله في سبيل تحقيق هذا البرنامج ، ونشوء العلاقات الاجتماعية الشيوعية ، وتربية الانسان الجديد .

والكتاب مكتوب بشكل يكون معه مفهوما لفئة واسعة من القراء .

ЛЮДИ, НАУКА, ОБЩЕСТВО

На арабском языке

الفلسفة
الماركسية ـ اللينينية

القرن العشرون هو عصر التغيرات السريعة والعميقة في حياة البشرية ، وهذا ما يدعو الى تسميته بمختلف الاسماء . فعندما انتشرت الطاقة الكهربائية في التكنيك والحياة اليومية في مطلع القرن ، اخذ الناس يسمونه بعصر الكهرباء . وفيما بعد سمى الفيزيائيون عصرنا هذا بعصر الطاقة الذرية ، والرياضيون بعصر الآلات الحاسبة ، والكيميائيون بعصر المواد الاصطناعية ، والفلكيون بعصر الطيران في الفضاء الخارجي . ولكل من هذه التسميات نصيب من الصحة .

ولكن بالرغم من كل اهمية الاكتشافات العلمية العظيمة ، فهي لا تحدد الاتجاه الرئيسي في تطور المجتمع . بل ان العلم نفسه ، وتطبيقه العملي ، متوقفان الى حد كبير على نوع النظام الاجتماعي ، على طبيعة الفئة المسيطرة في هذا المجتمع ، وعلى نوع المصالح التي يخضع لها التطور الاجتماعي – مصالح الشعب بأسره ، كما هي الحال في الاشتراكية ، ام مصالح حفنة من كبار اصحاب الاملاك ، كما هي الحال في الرأسمالية .

لقد نزعت خيرة ادمغة البشرية الى فهم تاريخ المجتمع . وانشأت مذاهب فلسفية ونظريات اقتصادية ، ورسمت صور النظام الاجتماعي المثالي الذي انعكس فيه ايمان الشعب بانتصار

العدالة القادم . ولكن تخلف العلاقات الاجتماعية ونقص المعارف العلمية اضفيا على هذه النظريات طابعا طوباويا .

وفي حوالى منتصف القرن التاسع عشر اختمرت الممهدات اللازمة لنشوء النظرة الفلسفية الشيوعية العلمية . فقد اظهر تطور الرأسمالية بوضوح ما للاقتصاد من دور حاسم في الحياة الاجتماعية . ومع الرأسمالية نشأت الطبقة العاملة ـ حفارة قبر النظام الاستغلالي . وقد صرحت هذه الطبقة عن وجودها بعدد من الحركات الثورية (انتفاضة حياكي ليون في فرنسا ، انتفاضة حياكي سيليزيا في المانيا ، والحركة الشارتية في بريطانيا) . والى جانب ذلك اثار نمو الانتاج الرأسمالي انطلاقة عاصفة لتطور علوم الطبيعة التي جمعت عددا كافيا من الوقائع اللازمة لرسم صورة علمية للعالم .

وهكذا تهيأت التربة للنظرة الفلسفية الجديدة الشيوعية . ومما كان يشهد ايضا بان ضرورتها اصبحت ماسة ، تطور النظريات الفلسفية والسياسية . ففي ذلك الحين كان الفكر الاجتماعي الطليعي ، اعرابا عن مطالب الممارسة ، قد طرح تلك المسائل التي كان يجب على التعاليم الماركسية ان تجيب عليها . واصبحت الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، والاقتصاد السياسي الانكليزي ، والاشتراكية الطوباوية الفرنسية هي الينابيع النظرية التي نشأت منها الماركسية .

كان هيغل وفورباخ الممثلين البارزين للفلسفة الكلاسيكية الالمانية . وكان فضل هيغل انه وضع نظرية عن التطور . ولكن هذه النظرية كانت محدودة لان هيغل يعتقد ان الذي يتطور ليس الطبيعة بل فكرة مطلقة هي اساس العالم وعلته النهائية . اما فورباخ ، فبالعكس ، اثبت ان الطبيعة يمكن تفسيرها بذاتها دون اللجوء الى تصورات صوفية ولاعلمية عن الفكرة المطلقة .

وانتقد الدين انتقادا حادا . ولكن آراء فورباخ كانت محدودة ايضا . فهو لم يفهم ما لنظرية هيغل عن التطور من اهمية هائلة ولم يستطع ان يطبقها على الطبيعة والتاريخ . وكانت نظريتا هيغل وفورباخ تضمان افكارا اصبحت بمثابة نقطة انطلاق لانشاء الفلسفة الماركسية .

وفي ميدان الاقتصاد السياسي كان الاقتصاديان البريطانيان سميث وريكاردو سلفين للماركسية . فباثباتهما ان الكدح هو ينبوع الثروات التي يصنعها الانسان هيآ التربة لانشاء الاقتصاد السياسي العلمي .

وأما الاشتراكيون الطوباويون الكبار سان سيمون ، وفورييه ، واووين ، فقد انتقدوا النظام الرأسمالي انتقادا لا هوادة فيه ووضعوا خططا لمجتمع مثالي خالص من الاستغلال . ولكن نظرياتهم لم تبين الطرق العملية المؤدية الى هذا الهدف . وكان الاشتراكيون الطوباويون يرون في سذاجة ان الطريق المؤدي الى النظام المثالي هو تنوير المجتمع واثارة الحوافز الاخلاقية عند المستغلين . ومع ذلك فقد يسرت نظرياتهم امر انشاء نظرية الاشتراكية العلمية .

لم يكن كارل ماركس وفردريك انجلس مجرد متابعين لمن سبقهما من النظريين . وانما كيّفا ، انطلاقا من مواقع النقد ، تراث الماضي الفكري وانشآ نظرية تعبر علميا عن المصالح الجذرية لاكثر الطبقات طليعية وثورية — البروليتاريا . وحقق مؤسسا الماركسية ثورة في الفكر الاجتماعي وسلحا الكادحين بسلاح فكري ماض لتحويل العالم .

ان النظرية الماركسية ، في تبيانها لطرق تحويل المجتمع على الاسس الشيوعية ، تنطلق من فهم علمي للعالم . ولهذا فان احد اهم الاجزاء المكوّنة للماركسية هو **الفلسفة ـ اي علم اعمّ قوانين تطور الطبيعة والمجتمع والمعرفة .**

ولكن معرفة القوانين العامة وحدها لا تكفي لفهم اسباب حلول هذا النظام الاجتماعي محل ذاك . فبين جميع العلاقات الاجتماعية تشغل العلاقات الاقتصادية ، او الانتاجية ، المرتبة الاولى . وبدون فهم طبيعة هذه العلاقات لا يمكن الجواب على هذا السؤال : كيف الوصول الى الاشتراكية والشيوعية ؟

ولهذا اصبح **الاقتصاد السياسي ـ اي علم تطور العلاقات الانتاجية** ، جزءا آخر من اهم الاجزاء المكوّنة للماركسية .

والجزء الثالث من اهم الاجزاء المكونة للماركسية هو **نظرية الشيوعية العلمية** التي تكشف ، بالاستناد الى الفلسفة الماركسية والاقتصاد السياسي الماركسي ، عن **قوانين نشوء وتطور المجتمع الشيوعي .**

ولكن الفكر الماركسي لم ينحصر في تطور الفلسفة والاقتصاد السياسي ونظرية الشيوعية العلمية ، بل لقد حقق ثورة في جميع مجالات المعرفة عن المجتمع : في علم التاريخ ، وفي علم الاخلاق ، وفي علم الجمال ، وفي علم اللغة ، وفي الحقوق ، الخ .. واذا اردنا الحق فان كل هذه وغيرها من فروع المعرفة لم تصبح ذات طابع علمي حقا وصدقا الا عندما تسلحت بطريقة البحث الماركسية اي بالاسلوب الماركسي في دراسة هذه او تلك من ظواهر الطبيعة والمجتمع .

وهكذا فان **الماركسية هي نظام منسجم من النظرات العلمية عن القوانين العامة لتطور الطبيعة والمجتمع ، وعن انتصار الثورة الاشتراكية ، وعن طرق بناء الاشتراكية والشيوعية .**

وعندما يدرس المرء الفلسفة الماركسية أو الاقتصاد السياسي الماركسي وعندما يستوعب نظرية الشيوعية العلمية ، يترتب عليه دائما ان يذكر ان هذا نظام واحد : ان جميع الاجزاء المكوّنة للماركسية متصل بعضها ببعض اتصالا لا ينفصم . فليس بين المؤلفات العديدة لمؤسسي الماركسية ـ اللينينية مؤلفات يمكن تسميتها بالاقتصادية «الصرفة» أو الفلسفية «البحتة» . وانما كانت الفلسفة طريقة في يدهم لتحليل العلاقات الاجتماعية من جميع النواحي ، ثم على هذا الاساس كانت تستخلص الاستنتاجات السياسية . كما ان الدراسة العميقة للاقتصاد والسياسة كانت ، بدورها ، تقدم مادة جديدة غزيرة للتعميمات الفلسفية .

لقد نزع مفكرو الماضي الى انشاء نظريات ناجزة ، عليها ان تعطي ، حسب نية مؤسسيها ، جوابا نهائيا على جميع الاسئلة . ولكن هل بوسع نظرية ما ، ايا كانت ، ان تتنبأ مسبقا بكل ما يطرأ في الحياة ؟ فالواقع المحيط بنا يتطور باستمرار ، والمعرفة البشرية تغتني بلا انقطاع . واذا لم تأخذ النظرية الوقائع الجديدة بعين الاعتبار ، وتحولت الى مجموعة من العقائد الجامدة ، فانها تنفصل عن الحياة وتصبح عديمة الفائدة ، بل ضارة ايضا ، لانها تتوقف عن اعطاء صورة صحيحة للواقع . ولهذا يجب على النظرية دائما ان تستند الى الممارسة . وصدق غوته اذ قال :

جافة هي النظرية يا صديقي ،
وشجرة الحياة في اخضرار غزير .

نعم ، ان جميع المحاولات لانشاء نظريات شاملة ناجزة كان محكوما عليها ، مسبقا ، بالاخفاق . فقد كانت السنون تمر فتموت هذه النظريات مع الحقبة الزمنية التي ولدتها وتذهب مع

الطبقة التي كانت تعبر عن مصالحها . وما كانت تبقى في كنز الفكر الاجتماعي الا الافكار التي تعكس الواقع اعمق الانعكاس ، اذ كانت تقتبسها النظريات الجديدة التي تعبر عن مطالب الحياة .

أما النظرية الماركسية فتختلف ، بطبيعتها ، عن النظريات السابقة لها . فـ«الماركسية ليست عقيدة جامدة ، بل ارشاد للعمل» ، — كما كان يحب لينين ان يعيد ويكرر القول . ومبادئ النظرية الماركسية تغتني دائما بالتطور الاجتماعي الجاري وبمنجزات العلم الجديدة . ان الماركسية نظرية خلاقة متطورة .

عند تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين دخل التاريخ حقبة جديدة . وبدأت تظهر طلائع الثورة الاشتراكية التي برهن مؤسسا الماركسية على حتميتها . وقامت امام البروليتاريا مباشرة مهمة التطويح الثوري بالرأسمالية . وتوفرت لدى الحركة الثورية العالمية خبرة جديدة ، وكان تطور علوم الطبيعة العاصف يتطلب تعميما فلسفيا للوقائع والاكتشافات الجديدة : واصبحت الحاجة ماسة الى تطوير الماركسية تطويرا خلاقا . فقام فلاديمير ايليتش لينين بهذه المهمة التاريخية العظيمة .

ففي النضال ضد اصحاب الجمود العقائدي الذين كانوا يعتبرون الماركسية مذهبا متحجرا ، فهم ف . ا . لينين فهما عميقا كنه الحقبة التاريخية الجديدة واغنى نظرية ماركس بافكار جديدة . درس قوانين الامبريالية بوصفها اعلى مرحلة للرأسمالية ، ووضع نظرية الثورة الاشتراكية واستراتيجية وتاكتيك الحركة العمالية العالمية ، ونظرية الحزب . وبتعميم الخبرة الاولى للتحولات الاشتراكية انشأ نظرية طرق بناء الاشتراكية والشيوعية . وطور ف . ا . لينين جميع جوانب الماركسية ؛ ورفعها الى مرتبة اعلى . ولهذا بالضبط نقول : **الماركسية — اللينينية** .

ومرت اربعة عقود من السنين منذ ان توفي ف . ا . لينين . وحدثت في هذه الفترة انعطافات هائلة في حياة البشرية ، وتغيرت نسبة القوى بين الاشتراكية والرأسمالية تغيرا شديدا . واصبحت الظروف الجديدة تتطلب تطويرا آخر للماركسية – اللينينية . وهذا ما تفعله ، بصورة جماعية ، احزاب العالم الماركسية – اللينينية . واسدي قسط ضخم بشكل خاص ، في النظرية الماركسية – اللينينية ، في السنين الاخيرة ، عندما صاغ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي برنامجا ملموسا لبناء الشيوعية في الاتحاد السوفييتي . ان برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ، الذي اقر في المؤتمر الثاني والعشرين للحزب ، هو مرحلة جديدة من تطوير الماركسية – اللينينية الخلاق ، ويسميه طليعيو العالم بحق بالبيان الشيوعي لهذا العصر .

ولكي يفهم المرء طرق تطور المجتمع نحو الشيوعية ، المرسومة في برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي لا بد له من ان يطلع ، ولو في خطوط عامة ، على الافكار الاساسية للنظريتين الماركسيتين – اللينينيتين الفلسفية والاقتصادية .

النظرية الفلسفية عن العالم وعن معرفته

ان كلمة «الفلسفة» توحي للشخص الذي يضع قدمه لاول مرة في عالم المعارف العلمية بشيء معقد وعير يسير على الفهم ولكنه جذاب ويعد بالكشف عن اسرار العالم العميقة . وبالفعل فان الفلسفة احد اكثر العلوم امتاعا . انها تعلم الانسان النظر الى الواقع نظرة واعية متفحصة . وليس عن عبث ان كلمة «الفلسفة» نفسها تعني باللغة اليونانية «حب الحكمة» .

ما هو الواقع المحيط بنا ؟ وما هو اساس جميع الاشياء ؟ وما هو سبب هذا النظام المعين للظواهر الطبيعية ؟ واي مكان يشغل الانسان في العالم ؟ وكيف يستجلي كنهه ؟ كل هذه الاسئلة هي اساس **المفهوم عن العالم ، اي المجموعة المتناسقة من النظرات والتصورات عن العالم** . وعلى هذه الاسئلة تجيب الفلسفة التي تعمم منجزات العلوم الطبيعية والاجتماعية .

المادة والحركة

ما هي المادة . لنلق في فكرنا نظرة على الاشياء والظواهر الموجودة في الطبيعة ، فنرى جسيمات متناهية في الصغر ومجموعات نجمية هائلة ، اجساما بالغة البساطة مؤلفة من خلية واحدة وكائنات حية عالية التنظيم . وتتمايز الاشياء بالقدر والشكل

واللون ودرجة الكثافة وتعقد البنية ، وبالتركيب والعديد من الخصائص الاخرى . فالطبيعة متعددة الاشكال الى حد خارق ، وصفاتها متنوعة جدا . فهل يمكن ، في هذا التنوع ايجاد ناحية عامة تجمع بين كل ظواهر العالم ؟

لقد حاول الفلاسفة والطبيعيون ، منذ اقدم العصور ، ايجاد الاساس الاولي لجميع الاشياء والظواهر الموجودة في الواقع . وقد رأى بعضهم هذا الاساس الاولي في الماء : فكل شيء ينشأ من الماء ويعود اليه ، كما قال الفيلسوف اليوناني القديم فاليس . ورآه آخرون في الهواء ، والنـــار ، والتراب . وكان فيلسوف اليونان القديمة الشهير ديموقريطس يرى ان جميع الاجســـام تتألف من جسيمـات متناهية في الصغر وغير قابلة للتقسيم ، وهي الذرات ، فكأنما هي «اللبنات الاولى » في صرح الكون . ولكن العلماء (في بداية القرن العشرين) اكتشفوا الذرة ووجدوا ان لها بنية بالغة التعقيد . وعلى اثر الذرة اكتشف الايليكترون والبروتون والنيترون والبوزيترون وكثير غير ذلك من الجسيمات «الاولية» وهي ايضا معقدة ولا يمكن تسميتها بابسط «مادة بناء» تتألف منها كل الاجسام . فليس في العالم اية «لبنات اولية» يمكن ارجاع غنى الطبيعة اليها .

ولكن جميع اشياء الطبيعة وظواهرها ، مهما كانت معقدة واية كانت صفاتها ، لها وجود مستقل ، او كما تقول الفلسفة ، **كيان** ، وهي بالنسبة للانسان **اهداف** تتجه اليها افكاره ونشاطه العملي . ولها جميعا صفة مشتركة – هي انها موجودة بصرف النظر عن رأينا فيها وعما اذا كنا اصلا نفكر فيها ام لا . وعلى اساس هذه العلامة بالذات تجمعها الفلسفة الماركسية تحت مفهوم عام واحد هو : **المادة** .

ولكن كيف نتثبت ونتأكد من ان هذه الظاهرة أو غيرها

من الظواهر موجودة بصورة مستقلة عن وعينا ، وانها مادية ؟ عمليا نفعل هذا ، قبل كل شيء ، بواسطة حواسنا . فهذا رجل جبان يدخل غرفة مظلمة فيخيل اليه ان شخصا غريبا فيها . ولكنه عندما يشعل النور يوقن بان ذلك كان من فعل تخيلاته . طبيعي انه لا يمكن مشاهدة أو لمس كل شيء : فالموجة اللاسلكية لا تمس باليد ، والتذبذب ما فوق الصوتي لا تلتقطه الاذن ، والحقل المغنطيسي لا تكتشفه اعضاء الحواس . ولكن كل هذا يمكن اكتشافه بواسطة الاجهزة ، وتدل على وجوده المعطيات العلمية . ان المادة ، مهما اتخذت من شكل عجيب سحري ، لا بد ان نظهر اخيرا عن طريق الحواس .

عرّف لينين المادة بانها **الحقيقة الموضوعية ، الموجودة بصورة مستقلة عن الوعي ، والمعطاة للانسان في حواسه .**

ان كل انسان يعرف ، من خبرته الخاصة ، انه لا وجود لاشياء وظواهر ابدية . وتدل المعطيات العلمية على انه حتى الاجرام السماوية الموجودة منذ المليارات ومئات المليارات من السنين ، لها بداية ونهاية ، وانها تنشأ وتهلك . ولكن **المادة** بمجملها **ازلية ابدية** . ذلك لان الاشياء عندما تفنى وتتفكك لا تزول زوالا مطلقا . فالتفكك الاشعاعي لنوى عنصر من العناصر يؤدي الى تشكل عناصر اخرى وجسيمات حرة . وتفسخ جزيئات احدى المواد يعني نشوء جزيئات مادة أو مواد اخرى . ومحل جيل واحد من الاجسام الحية تأتي اجيال اخرى ، وحتى الموت نفسه لا يجر وراءه زوالا مطلقا للذرات والجزيئات التي يتألف منها الجسم الحي . ان العلم يؤكد ان المادة ، على تحولاتها المتعددة ، لا تضيع ابدا ولا تفنى . وكذلك تثبت خبرة البشرية على مر العصور ، عدم امكان نشوء اهداف مادية من لا شيء . وهذا يعني ان المادة وجدت منذ الازل وستبقى الى الابد .

وليست المادة غير محدودة في الزمان ، وحسب ، بل هي ايضا **غير محدودة في المكان** . ان اكتشافات علوم الطبيعة توسّع باستمرار الحدود المكانية للعالم الذي نعرفه . فالتلسكوبات العصرية تسمح برؤية نجوم تبعد عنا مسافة ١٠ مليارات واكثر من السنين الضوئية . واذا ترجمنا هذه المسافة الى كيلومترات حصلنا على رقم مؤلف من ٢٣ خانة . وليس للعالم من حدود اينما كان .

ان تطور العلم يزيد في كل سنة من عمق تصوراتنا عن تركيب المادة . ففي بداية القرن الماضي كان معروفا نوع واحد للمادة هو الشيء الذي له كتلة ميكانيكية لا تتغير . ثم اكتشف الفيزيائيون نوعا آخر هو الحقل الكهرطيسي . وعندما تبين في تخوم القرن التاسع عشر والقرن العشرين ان كتلة الاليليكترون تتغير تبعا لسرعة الحركة وقع الارتباك بين تلك الفئة من العلماء التي كانت تربط مفهوم المادة بثبات الكتلة . وقد استغل بعض الفلاسفة البرجوازيين هذا فبدأوا يتحدثون عن «تلاشي» المادة . ولكن لينين فضح هذه الاختلاقات اللاعلمية وبرهن على ان المادة لا تتلاشى وانما يتلاشى الحد الذي كانت تقف عنده معلوماتنا عنها . وتبين ان الصفة التي كانت تعتبر من قبل علامة عامة شاملة للاهداف المادية (الكتلة الثابتة) ، ليست في الواقع هكذا . فقد اكتشفت صفة جديدة للجسيمات المادية المتحركة بسرعة (تغير الكتلة تبعا لسرعة الحركة) . ولكن لا يجوز الخلط بين هذه او تلك من انواع المادة وصفاتها الملموسة وبين المادة نفسها .

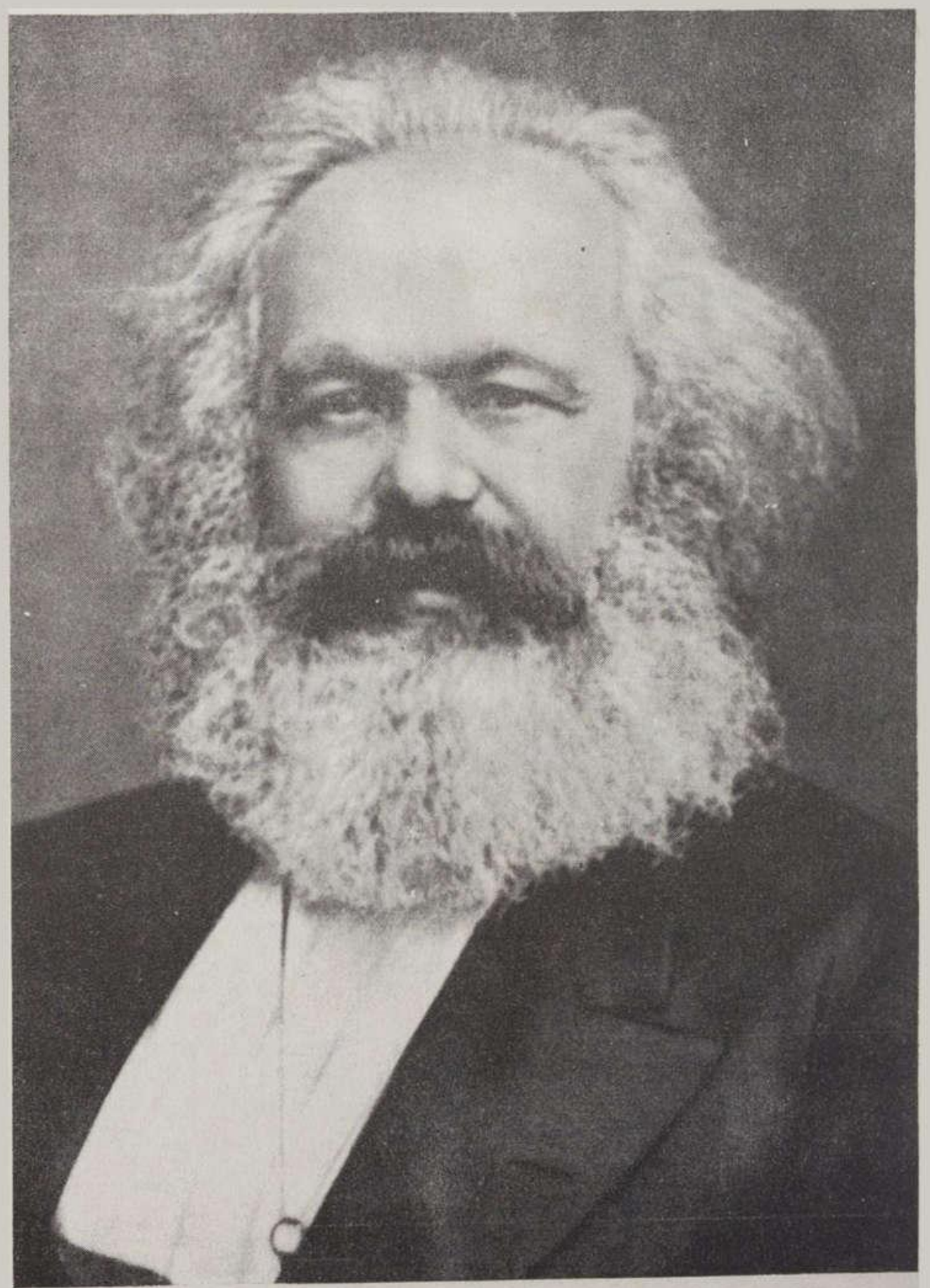
وبالتغلغل في ارجاء الكون التي لا تحد ، وبدراسة اعقد العمليات الجارية في داخل النواة ، يستطيع العلم ان يكتشف

ايضا انواعا جديدة للمادة لا نعرفها حتى الآن . ولكن مهما امتازت هذه من صفات مدهشة فالواقع الثابت ، وهو ان هذه الانواع موجودة كحقيقة موضوعية معطاة لنا فى حواسنا ، يبقى كما هو .

الحركة هي شكل وجود المادة . عندما نتتبع ظواهر الطبيعة المتعددة الاشكال لا يصعب علينا ان نلاحظ انها جميعا في حركة وتغير دائمين . حاولوا ان تجدوا شيئا ساكنا سكونا مطلقا ، ونحن ضامنون انكم لن تنجحوا في هذه المحاولة . صحيح ان الاجسام قد تكون في حالة سكون ولكن السكون نفسه **نسبي** دائمـــا . فالاجسام لا تسكن الا بالنسبة لمجموعة مـــا من الاحداثيات ، معتبرة اتفاقا غير متحركة . فالحجر على الطريق مثلا ساكن بالنسبـة للارض . ولكن الحجر والارض يقومـان معا بدورة كل يوم حول محور الارض ودورة كل سنة حول الشمس . والشمس تتحرك في المجرة ، والمجرة ترسم مسارا معقدا بين المجموعات النجمية الاخرى .

حتى ولو قصدنا ابسط شكل للحركة ، الشكل الميكانيكي ، فلا يمكن ايجاد اشياء ساكنة اطلاقـــا . ففي الاجسام تجري تغيرات فيزيائية وكيميائية اعقد : كحركة الذرات والجزيئات والجسيمات الاولية . والحركة اعقد من هذه ايضا في الطبيعة الحية وفي المجتمع . ففي اجسام الناس والحيوانات تجري عمليات فيزيولوجية معقدة . وتحل انواع محل اخرى في تطور الطبيعة الحية . وفي التاريخ البشري يجري تطور وتجدد دائمان في جميع نواحي الحياة الاجتماعية من اقتصاد وسياسة وحضارة . ولا يتوقف نشاط الناس المعرفي يوما واحدا . وبتطور العلاقات الاجتماعية يتغير الانسان نفسه : نظراته ومثله العليا واخلاقه ومسلكه .

ان العالم المادي يمثـل امامنا كلوحة جليلة للحركة والتغير



کارل مارکس



فريدريك انجلس

العامين ليس فيها مكان لاي شيء جامد ثابت معطى مرة واحدة والى الابد . وكما قال فيلسوف اليونان القديمة هيراقليت فان كل شيء في العالم يسيل وكل شيء يتغير .

ان واقع عمومية الحركة نفسه يحمل على التفكير بان المادة والحركة متصلتان اتصالا وثيقا ولا تنفصلان . وبالفعل فان العلم المعاصر برهن بما لا يقبل الدحض على ان المادة موجودة في الحركة فقط . ولو حدث المستحيل فجأة وتوقفت كل حركة لوقت ما ، لكان هذا يعادل الزوال التام للعالم نفسه وللواقع الموضوعي والمادة .

وبالفعل ما هي نواة الذرة ؟ انها مجموعة جسيمات اولية هي النوكلونات ، متماسكة فيما بينها بالقوى النووية التي تنشأ في اثناء حركتها . واذا ما توقفت هذه الحركة تفككت النواة وكفت الذرة عن الوجود . وبدون حركة لا يعقل ايضا الحقل الكهرطيسي ، والضوء الذي هو سيل من الفوتونات – الجسيمات غير الموجودة الا في الحركة . وايا اخذنا من الاشياء والظواهر المادية نخلص الى الاستنتاج القاطع وهو انه لا وجود الا في الحركة . **ان الحركة ، المفهومة كتغير عموما** ، كعملية تجدد ابدية ، **هي صفة لازمة واساسية للمادة وشكل (اسلوب) عام لوجودها .**

نظرية التطور وقوانينه

مصدر الحركة . من الطبيعي ، عندما تشاهد الحركة في الطبيعة والمجتمع ، ان تطرح هذا السؤال : ما هو مصدرها ؟ وتتبادر الى الذهن ابسط فكرة عن الدفعة التي تنقل الحركة من شيء الى شيء . ولكن لا بد عندئذ من افتراض فكرة الدفعة الاولى التي كانت بداية الحركة . وينتج من ذلك ان المادة كانت

في البدء ميتة ثم ظهرت قوة ما من وراء الطبيعة و«دفعة»ها . وبالضرورة تؤدي فكرة الدفعة كمصدر عام للحركة ، الى الفكرة الدينية عن «خلق العالم» .

ان الدفعات الخارجية موجودة في الطبيعة ولكنها لا تفعل غير ان تنقل الحركة من جسم الى آخر ، دون ان تكون هي مصدرها . واذن فان مصدر الحركة يجب البحث عنه في داخل الظواهر المادية .

لنتذكر مبدأ عمل المحرك النفاث ، حيث تحترق مواد خاصة فتندفع بقوة هائلة من منفث الصاروخ وتؤثر فيه بالقوة نفسها في اتجاه مضاد . وهكذا نرى ان وجود **قوتين متضادتين** هو شرط ضروري لانطلاق الصاروخ . فاصطدام هاتين القوتين وتصارعهما هو مصدر حركته . فكيف الحال في الطبيعة ؟

يتبين ان جميع الاشياء المادية تتضمن في ذاتها اضدادا . فاذا بدت بعض الاشياء وحيدة الماهية اطلاقا فلسبب واحد هو ان الجوانب والعناصر والاتجاهات المتضادة خفية عن انظارنا الى حين . ولكن يكفي ان نتغلغل في داخل هذه الاشيـــاء حتى نكتشف فيها حالا عناصر متضادة .

حتى الحركة الميكانيكية البسيطة لا يمكن تصورها بدون اضداد : فعل ورد فعل ، جذب ودفع ، قوة طاردة مركزية وقوة جاذبة مركزية . وهكذا الحال مع الاشكال الاكثر تعقدا للحركة ، الاشكال الفيزيائية ، حيث نجد في كل خطوة اضدادا : الشحنتين الكهربائيتين الموجبة والسالبة ، الحقلين الكهربائي والمغنطيسي ، المادة والحقل . وكل ذرة تتألف من ضدين من نواة مشحونة شحنة موجبة وغلاف ايليكتروني مشحون شحنة سالبة . وأما نواة الذرة فهي وحدة جسيمات متضادة يجب لفصلها بعضها عن بعض بذل طاقة كبيرة .

ولننظر الآن الى الطبيعة الحية . هنا ايضا تجري في كل جسم حي عمليات متضادة : هضم لبعض المواد وافراز لبعضها الآخر ، نشوء وتفسخ للمادة الحية ، تمثّل وتنافـر . وفي المجتمع ايضا توجد قوى متضادة : قوى طليعية وثورية من جهة ، واخرى متخلفة ومحافظة من الجهة الاخرى .

والاضداد ليست معزولة بعضها عن بعض ، بل هي ، بالعكس ، موجودة في ظواهر نفسها ، وتبرز في وحدة واحدة ، ولا تستطيع ان «تعيش» بدون بعضها البعض . افصل في فكرك ضدين احدهما عن الآخر ، التمثل والتنافر مثلا ، تستنتج ان هذا يجر الى هلاك الجسم الحي ، اي الى تفسخ الظاهرة نفسها . انهما ، مع كونهما ملحومين فيما بينهما ، لا يستطيعان ان يعيشا في «سلام» و«وئام» لانهما ضدان . ومن هنا الاصطدام الدائم ، صراع القوى المتعارضة ، **التناقض** فيما بينها .

ما هو دور التناقضات في التطور ؟ لنتتبع ذلك في مثال التأثير المتبادل بين الوراثة والتغير في الاجسام الحية . ان جميع النباتات والحيوانات تملك القدرة على انتاج مثيلها ونقل علائمها من جيل الى جيل . ولكن ظروف معيشة الخلف لا تماثل دائما بالدقة ظروف معيشة الوالدين . ان تغير الخلف وظهور بعض علائم خاصة فيه غير مماثلة لعلائم الوالدين ، ينشآن عن تأثير ظروف الوسط الخارجي المتغيرة . وهكذا نرى ان الوراثة والتغير هما ضدان ينشأ دائما بينهما تناقض . فالتغير يصطدم بالوراثة ويهدم صفة المحافظة فيه ويأتي بشيء جديد في التطور . ثم تأتي الوراثة فتثبّت من جديد العلائم النافعة المكتسبة وتنقلها الى الاجيـال التالية . ونتيجة لذلك تظهـر انواع جديدة من الحيوانات والنباتات ويحدث التطور . وهكذا فان التناقض بين الوراثة والتغير هو احد مصادر تطور الطبيعة الحية .

ومع ان الاشياء المادية هي وحدة اضداد فانها لا تستطيع ان تكون في حالة سكون مطلق ، لان صراع الاضداد يبعث فيها «الاضطراب» ويمنع عنها الجمود ويحركها . وهذا الصراع هو مصدر تطور جميع الظواهر .

انتقال الكمية الى كيفية . لنأخذ اي شيء كان نر انه يملك حتما **كيفية** معينة تميزه عن غيره من الاشياء ، **وكمية** معينة .

خذ مثلا صفيحة عادية من الالومينيوم . ان الوزن النوعي للالومينيوم ٢,٧ ، ووزنه الذري ٢٧ ، وشحنة نواته ١٣ ، ودرجة حرارة انصهاره ٦٥٩ درجة مئوية . هذه هي مواصفاته الكمية . ولكن الالومينيوم ، الى جانب ذلك ، معدن ذو لون ابيض فضي ، مطواع ، ناقل جيد للحرارة والكهرباء ، ثلاثي التكافؤ في الاتحادات الثابتة ، قريب في فعاليته من الفلزات القلوية ، سريع التأكسد ، الخ .. وهذه هي مواصفات الالومينيوم الكيفية . وبالطريقة ذاتها نستطيع اعطاء المواصفات الكمية الكيفية لاي عنصر ومادة وشيء .

وعندما ننظر الى الامر عن كثب نلاحظ بسهولة ان الكمية والكيفية مرتبطتان فيما بينهما . واوضح ما يتجلى هذا الارتباط في الكيمياء . وليس عبثا ان انجلس سمى الكيمياء علم التغيرات الكيفية للاجسام ، التي تجري بتأثير تغير التركيب الكمي . وبالفعل فان الاوكسيجين والاوزون يتمايزان من حيث التركيب الكيميائي تمايزا كميا صرفا . ومع ذلك فهما مادتان مختلفتان لهما صفات مختلفة . والاتحادات الكيميائية في سلسلة الميتان المتشاكلة تتمايز بكمية المجموعة CH_2 . والدليل على مدى تأثير هذا في كيفيتها هو ان الاتحادات الاربعة الاولى في السلسلة من CH_4

حتى C_4H_{10} هي غازات ،والاحد عشرة التالية هي سوائل ، وابتداء من ماءات الفحم $C_{16}H_{34}$ هي مواد صلبة .

ان النظام الدوري للعناصر الذي ابتكره العالم الروسي مندلييف بني على تبعية صفات العناصر الكيميائية لوزنهـــا الذري ، أو الادق ، كما بين العلم المعاصر ، تتوقف هذه الصفات على مقدار شحنة النواة الذرية . فزيادة شحنة نواة الذرة للوحدة ، أو بكلمات اخرى : تغير الكمية ، يؤدي الى الانتقال لكيفية جديدة .

قد يخيل للمرء اننا اذا غيرنا الناحية الكمية للشيء فلن نمس كيفيته مسا جوهريا . فتسخين المادة الصلبة لعدة درجات اعلى لا يغير حالتها كمجموع . ولكن اذا اوصلنا الحرارة الى نقطة الانصهار تحولت المادة الصلبة الى سائل ، واذا استمررنا في التسخين حتى درجة الغليـان تحول السائل الى غـاز . وبذلك تؤدي التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية .

يمكن مشاهدة هذا الانتقال عيانا في عملية التفكك الاشعاعي للمواد . فان افراز كمية معينة من الطاقة يؤثر في حالة النواة الذرية وتتحول ذرات مادة الى ذرات مادة اخرى . هكذا يتشكل الهيليوم والرودون عند تفكك الراديوم . كما ان امتصاص الطاقة من قبل نويات الذرات يؤدي في آخر الامر الى تحولات كيفية .

ان لكل عنصر كيميائي عددا من النظائر التي تملك الشحنة نفسها وتشغل المكان نفسه في النظام الدوري ويتمايز احدها عن الآخر بالكميـة – بالوزن الذري ، او الادق – بعدد النوترونات الموجودة في نواة الذرة . فاذا اضفنا الى نواة النظير ذي الوزن الذري الاقل ، نوترونا آخر ، ازداد الوزن الذري واحدا ، ولكن لن تحدث تغيرات كيفية عميقة وتبقى صفات العنصر الكيميائي الاساسية على ما هي عليه . أما اذا استمررنا في اضافة النوترونات

واحدا بعد آخر الى نواة الذرة ، فاننا نصل في آخر الامر الى اثقل النظائر . وماذا يحدث اذا اضفنا الى هذا النظير الاثقل نوترونا آخر ؟ يحدث عندئذ تغير كيفي : اذ يتحول احد نوترونات النواة الى بروتون مع اطلاق ايليكترون ، وتزداد شحنة النواة واحدا ويتم الانتقال الى عنصر جديد يشغل المكان التالي في النظام الدوري . مثلا ، نتيجة قصف نويات نظير الاورانيوم (اورانيوم – ٢٣٨) بالنوترونات يتحول الى نبتونيوم ، وهذا بدوره الى بلوتونيوم .

وفي الطبيعة الحية تمكن متابعة التغيرات الكمية الى كيفية بمشاهدة النباتات . ففي تطورها يبرز بوضوح عدد من المراحل المختلفة كيفيا (في القمح مثلا – مرحلة الانتاش والمرحلة الضوئية) . ويتوقف الانتقال من مرحلة الى اخرى على كمية معينة من الحرارة والضوء والماء . وهنا ايضا تمهد التغيرات الكمية للتغيرات الكيفية .

وترى صلة التغيرات الكمية بالتغيرات الكيفية في المجتمع من مثال التعاون في العمل . فاتحاد العاملين في مجموعة واحدة يعطي مفعولا يزيد بكثير على الجداء الحسابي لقواهم وطاقاتهم الفردية . ومن الامثلة الساطعة على الانتقال الى كيفية جديدة في التطور الاجتماعي ، الثورات الاجتماعية التي تختمر مقدماتها بالتدريج في داخل المجتمع .

وهكذا نرى ان التغيرات الكمية تنتقل الى تغيرات كيفية . ويبدو في الظاهر ، ضمن حدود معينة ، ان هذه التغيرات لا تؤثر في كيفية الشيء ، ولكن هذا ضمن حدود معينة فقط . ويكفي تعدي هذه الحدود لكي تتحول التغيرات الكمية غير الملحوظة الى تغيرات كيفية وتتم القفزة ، اي الانتقال من كيفية الى اخرى .

وكل هذا يمكّننا بان نفهم كيف يجري تطور المادة في اثناء حركتها العامة وتغيرها ، وكيف تنشأ الظواهر الجديدة .

لنتصور ماذا كان يحدث لو ان التغيرات الكمية لا تتحول الى تغيرات كيفية . لقد كتب الاكاديمي كوماروف بهذا الصدد فيما يتعلق بالطبيعة الحية : «لو ان الحياة على الارض لم تنم بعد نشوئها الا كميا ، لتغطى سطح الارض بطبقة كثيفة من الهلام الشبيه بذلك الذي تصنعه حتى الآن الباكتيريات والاميبات وغيرها من العضويات القريبة منها . ولكن من صفات الكمية انها تتحول الى كيفية . ولهذا فان اعدادا ضخمة من المواد المتصلة بالوسط الخارجي بعلاقات مختلفة (كيميائية وفيزيائية وغيرها) ، تكتسب كيفيات مختلفة ، اي كما يقال ، تتمايز . وبذلك فان الكتلة المتجانسة تصبح غير متجانسة» .

ان حركة المادة وتغيرها ليس فقط تبادلا كميا للطاقة بين الاجسام ، وليس مجرد نمو بسيط ، بل هو عملية تجدد ابدية للعالم المادي ، وانتقال التغيرات الكمية الى التغيرات الكيفية ، والقفزات ، وهلاك القديم ونشوء الجديد .

من الادنى الى الاعلى ومن البسيط الى المعقد . هل لتطور الطبيعة والمجتمع اتجاه ما ؟ ام انهما يتطوران في دائرة ، ويكرران دائما وابدا طريقا واحدا لا يحيدان عنه ؟

ان الخبرة الحياتية البسيطة ، بله معطيات العلم ، تسمح باستنتاج ان في تطور العالم المادي تقدما وحركة الى امام . ويبدو هذا بوضوح خاص من مثال الطبيعة الحية . فظهورها وحده دليل على انها (اي الطبيعة) قادرة على الانتقال من الاشكال الدنيا ، البسيطة ، غير العضوية ، الى اشكال عليـــا ، اعقد ،

عضوية . لقد اجتازت الطبيعة الحية طريقا طويلا من التطور الصاعد من المادة الحية التي لا تركيب لها ومن ابسط العضويات الوحيدة الخلية الى الانسان . فكأنما كل مرحلة في هذا الارتقاء نفت ما قبلها ، ثم انتفت هي نفسها بالمرحلة التالية . وجرى نوع من **نفي النفي** .

ان النفي في نظرية التطور لا يعني الفناء التام لكل محتوى القديم . فاولا ليس من النادر ان تستمر الظواهر الابسط في البقاء الى جانب الظواهر الجديدة الاعقد . وهذا ما يجري مثلا في الطبيعة الحية : فالى جانب الحيوانات ذات التنظيم الرفيع توجد في الطبيعة حيوانات بالغة البساطة . وثانيا ، وهذا الاهم ، عندما ينشأ الجديد من القديم ، في عملية التطور الصاعد نفسها ، فكأنما يمتص كل ما كان في القديم من ايجابي وقيم .

وكل نوع جديد في الطبيعة الحية يأخذ الصفات المفيدة له ، التي كدسها السلف في عملية التطور التدريجي .

وفي تاريخ المجتمع ينشأ كل نظام اجتماعي جديد لا في مكان فارغ بل على اساس استيعاب الثروات المادية والروحية التي أوجدت في الحقب السابقة

لقد قام اناس من «غلاة الثوريين» بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى فاقترحوا القضاء على كل الحضارة القديمة بحجة انها برجوازية ، وانشاء «حضارة بروليتارية» لا صلة لها بالماضي . وبلغ الامر باكثرهم تحمسا حد المطالبة برمي مؤلفات الشاعر الروسي العبقري بوشكين «خارج سفينة التاريخ» . وقد انتقدهم لينين انتقادا شديدا ، وبين ان البروليتاريا هي حافظة تقاليد حضارة الماضي التقدمية الديموقراطية والمتابعة الكفء لها . ولا يمكن انشاء حضارة

شتراكية في مكان فارغ . ويجب ، لتطويرها والمضي بها قدما الى امام ، اغناء الذاكرة بمعرفة جميع القيم التي صنعتها البشرية .

وهكذا فان النفي لا يعني انعدام **الصلة والاستمرار المترابط في التطور** . فالظاهرة التي تنشأ بنتيجة النفي تحافظ على كل ما كان في المرحلة السابقة من ثمين ، وفي الوقت نفسه تبرز كشيء جديد ، اغنى من حيث المحتوى . وبفضل هذا بالذات لا يكون تطور الطبيعة والمجتمع والمعرفة مراوحة في مكان واحد بل تقدما وحركة الى امام .

وبمقدار ما يبقى المحتوى الايجابي لدرجات التطور الدنيا في درجات التطور العليا ، يكون من الممكن ان يتكرر ، في سلسلة النفي المتتابع ، بعض صفات التطور السابق . فكأنما تحدث عودة الى القديم ولكن في درجة من التقدم اعلى . مثال ذلك : في ظروف النظام الاجتماعي البدائي كانت تهيمن الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج . ثم حدث نفي هذه الملكية ونشأت الملكية الخاصة واستغلال الانسان للانسان . وبانتصار الثورة الاشتراكية تنتفي الملكية الخاصة وتعود الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج ولكن على اساس آخر اعلى مما في المجتمع البدائي .

هذا المثال يسمح بان نفهم ان التطور الصاعد ليس ارتقاء في خط مستقيم بل هو عملية معقدة دورية تشبه الحركة **الحلزونية** .

ان التطور هو سلسلة النفي المتتابع التي يتحقق بواسطتها الارتقاء من الادنى الى الاعلى ، من البسيط الى المعقد .

هذه اعم التصورات عن حركة وتطور العالم المادي .

الصلة العامة للظواهر . في بحثنا لعملية التطور رأينا ان هناك صلة متبادلة بين جوانب الشيء المتضادة ، بين التغيرات

الكمية والكيفية ، بين مراحل التطور الدنيا والعليا . وليست الحركة والتطور ممكنين بدون **التأثير المتبادل** بين الجوانب والظواهر المتضادة ، بدون **الصلة المتبادلة** مع ظروف البيئة .

امعنوا النظر في الواقع المتطور تروا صلة متبادلة وترابطا سببيا بين مختلف الاشياء والظواهر .

انظروا الى ورقة النبات الخضراء فهي مصنع كيميائي كامل يتحول فيه اوكسيد الفحم بواسطة الطاقة الشمسية الى اوكسيجين . ولا تستغني عنه الحيوانات ولا الناس . وليس عبثا ان العالم الروسي تيميريازيف سمى النبات وسيطا بين السماء والارض و« بروميتيه » حقيقيا سرق النار من السماء . ولكن من اين تأتي الطاقة الشعاعية التي تمنح الحياة للنبات ؟ انها نتيجة تحولات نووية معقدة في قلب الشمس . ولكن هذا ليس كل شيء . فالنبات بحاجة الى تربة خصبة نشأت من جهة في عملية تطور الطبيعة العضوية ومن جهة اخرى صنعها الانسان بواسطة الاسمدة الاصطناعية المستحضرة في المصانع الكيميائية . ويحتاج النبات لكي ينمو بنجاح ، الى ماء والى ظروف مناخية معينة . وهكذا تشترك الظواهر الجوية ايضا في عملية الاتصال العام . ولو اردنا تتبع صلة نبات واحد مع اشياء العالم الاخرى لاحتجنا الى مجلدات كثيرة وبقينا مع ذلك عاجزين عن ايفاء الموضوع حقه ، لان الصلات في الطبيعة كثيرة كثرة لا تحصى .

ان كل شيء متصل مع بقية العالم بالوف وملايين الروابط ، وتكون النتيجة انه يشكل عملية واحدة لصلة عامة مشتركة وتاثير متبادل لكل شيء مع كل شيء .

والصلات بين ظواهر العالم المادي متنوعة الى حد خارق .

فلو ان احدا اراد ان يدرس جميع صلات الاشياء دون تعيين لغرق في التنوع اللامتناهي لوقائع فردية وطارئة لا تعطي شيئا أو تعطي قليلا جدا مما يلزم لفهم الصورة العامة . فيجب ان نفرز من مجموع الصلات كله ، ما هو عام واكثر جوهرية وضرورة ، اي ما يسمى في العلم بالصلات **المنتظمة** .

فنحن عندما ندرس دراسة عميقة اية ناحية من نواحي العالم المحيط بنا ، واجدون في تطورها انتظاما وترتيبا طبيعيا معينا .

في اواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر كان يبدو للكثيرين من علماء الطبيعة ان الطبيعة خالية من النظام . ولكن الطبيب وعالم الطبيعيات السويدي كارل ليني اثبت منذ اواسط القرن الثامن عشر ان هناك انتظاما معينا يلازم تنوع الطبيعة الحية . وفي القرن التاسع عشر شرح تشارلز داروين هذا الانتظام بانشائه نظريته الشهيرة ، نظرية تطور الانواع التدريجي . ومن الصفات المميزة للعديد من العناصر الكيميائية هو الانتظام الصارم الذي كشف عنه نظام مندلييف الدوري كما ان النظام والترتيب الموضوعي هما ايضا من صفات التاريخ البشري .

ان في كل مجال من مجالات الواقع صلات موضوعية عميقة تحدد طابع واتجاه تطوره وتسمح بفهمه ككلّ موحد . وهذه الصلات المنتظمة تتجلى في **القوانين** .

يعرف القراء جيدا كثيرا من قوانين الطبيعة التي اكتشفها العلم : قانون نيوتن ، قانون بويل – ماريوت ، قانون الجاذبية العالمية ، قوانين الكهرباء ، قوانين انعكاس الضوء وانكساره ،

قانون آفوغادرو ، قانون مندلييف الدوري ، الخ .. فلنحاول الآن ان نقرر ماذا نعني بكلمة قانون .

لنأخذ قانون ارخميدس . من الواضح قبل كل شيء ان هذا القانون يعبر عن علاقة وصلة بين ظاهرتين (بين جسم صلب غاطس في سائل وبين السائل نفسه) . ولا شك ان هذه الصلة **موضوعية** : فسواء اعجبتنا ام لا فلا بد من اخذها بعين الاعتبار ، ونحن نفعل ذلك حتى عندما نربط بخيط الصنارة ثقلا . وواضح ايضا ان قانون ارخميدس لا يعبر عن صلة جزئية لجسم معين في سائل معين ، بل عن صلـــة **عامة** : فغطس اي جسم كان في سائل كان يعطي النتيجة المنبثقة من القانون . فهذه الصلة **جوهرية وضرورية** ، لانها تكشف عن علاقات هامة جدا بين الاجسام والسوائل وتظهر بالضرورة كلما تبادل الجسم والسائل التأثير . واخيرا ، مهما كان عدد المرات التي نجري فيها التجربة فان القانون ، في كل مرة ، سيثبت وجوده . وهذا يعني انه يعبر عن صلة **ثابتة ومتكررة** بين ظاهرتين .

والآن نستطيع ان نضع صيغة لما ينبغي ان نقصده بكلمة قانون . **القانون هو صلة موضوعية وعامة وضرورية وجوهرية للظواهر والاشياء ، تتصف بالثبات والتكرار .**

ولا يستغني اي علم عن القوانين . وكل علم من العلوم يكتشف قوانين ذلك الميدان من الواقع ، الذي يدرسه هذا العلم .

الدياليكتيك هو علم التطور . ان الفلسفة ايضا لا تستغني عن القوانين . وكنا آنفا قد اطلعنا على الموضوعات الفلسفية في وحدة الاضداد وصراعها ، وفي انتقال التغيرات الكمية الى كيفية ، وفي نفي النفي . وهذه الموضوعات هي **قوانين الدياليكتيك** التي صيغت فيها اعم السمات لاية حركة وتطور ، ايا كان الشيء الذي نأخذه وايا كان ميدان الواقع الذي يتطور فيه . ويخضع

لهذه القوانين تطور الطبيعة وتطور المجتمع وتطور العلم نفسه والمعرفة والتفكير .

فما هو الدياليكتيك اذن ؟ الآن ، وقد اخذنا صورة عن الترابط العام وعن تطور الظواهر المادية وقوانينه ، نستطيع ان نعرّف هذا المفهوم بقولنا ان **الدياليكتيك هو علم الصلة العامة وتطور العالم .**

كانت كلمة «الدياليكتيك» نفسها تعني في الاصل فن الجدل والمناظرة ومعرفة الكشف عن التناقضات في اقوال الخصم . ومع ان هذه الكلمة تستعمل الآن بمعنى اوسع ، الا ان تتبع تناقضات الواقع لا يزال الى الآن يشكل نواة الدياليكتيك وكنهه . وهذا بديهي : فالتناقضات هي مصدر كل تطور وهي القوة الدافعة الداخلية لكل تطور .

اعطى لينين المواصفات التالية لسمات الدياليكتيك الاساسية : «التطور الذي كأنما يعيد الدرجات السابقة ولكنه يعيدها بشكل آخر ، على اساس اعلى («نفي النفي») ، التطور بشكل حلزوني ، كما يقال ، وليس بخط مستقيم ؛ — التطور القافز ، الكارثي ، الثوري ؛ — «انقطاعات التدرج» ؛ تحول الكمية الى كيفية ؛ — الحوافز الداخلية للتطور ، التي تصدر عن التناقض ، عن اصطدام قوى واتجاهات مختلفة مؤثرة في جسم ما او فاعلة في حدود ظاهرة معينة أو داخل مجتمع ما ؛ — الارتباط المتبادل والصلة الوثقى غير المنفصمة بين **جميع** جوانب كل ظاهرة (مع العلم ان التاريخ يكشف عن جوانب جديدة وجديدة دائما) ، الصلة التي تعطي عملية عالمية للحركة ، واحدة ومنتظمة ، — هذه هي بعض سمات الدياليكتيك بوصفه ... نظرية عن التطور» .

ان الدياليكتيك ، اذ يدرس الصلة العامة وتطور العالم ، يبرز **كطريقة علمية للمعرفة** . وبالفعل ، فما دمنا قد ايقنا بان كل ظاهرة مترابطة مع غيرها وتتطور بلا انقطاع ، فاننا ، عندما ندرس شيئا ما ، لا يحق لنا ان ننسى هذا . ولما كان الدياليكتيك يلزمنا بالنظر الى العالم في ترابطه وتطوره ، فانه يساعد على دراسة الواقع دراسة اعمق .

ان العلم المعاصر يكشف لنا عن نسبية الحدود الفاصلة في الطبيعة والمجتمع وعن تغير موقع هذه الحدود وعن ثباتها على حال واحدة . وكثيرا ما تكون الاكتشافات الجديدة غير منطبقة على المفاهيم والتصورات المعتادة والمتعارف عليها ، وتتطلب طريقة في المعالجة جديدة وخلاقة ، ورسم تصورات ونظريات جديدة «غير معتادة» . ويكفي ان نشير الى النظرية الحديثة للجسيمات الاولية ، والى نظرية النسبية . فهل نستطيع ان نفهم هذه الاكتشافات الجديدة اذا انطلقنا من مذاهب مقررة واكتفينا بقوانين الميكانيك الكلاسيكي التي اوجدها القرن التاسع عشر؟

ان الدياليكتيك يحذّر من تحجر الفكر والتزامه جانبا واحدا ، يحذر من الجمود العقائدي . انه يعلمنا ألا نقف عاجزين امام التناقضات ، بل ان ندرس طبيعتها وان نبحث عن طرق للمعالجة جديدة وعن تفسيرات لترابط الطبيعة والمجتمع جديدة واعمق واكمل .

ومما يزيد من ضرورة امتلاك الطريقة الدياليكتيكية الخلاقة في التفكير ، ان الدياليكتيك ليس صفة لاصقة بالعالم الخارجي وحسب بل هو صفة لاصقة ايضا بالوعي البشري وبعملية معرفة العالم . ولكن من الضروري ، قبل ان ننتقل الى هذه المسألة ؛ فهم كنه الوعي وفهم العلاقة بين المادي والروحي .

الوعي هو صفة خاصة بالمادة البالغة شأوا رفيعا من التنظيم

لا وعي بدون مادة . نحن نعرف ان العالم مادي . فما هي المكانة التي يشغلها فيه الوعي – اي مجموع افكار الانسان ومشاعره ؟ ألا يمكن عدها نوعا خاصا من المادة ؟

ان القول بهذا يعني الوقوع في تناقض مع العلم . فالاجسام المادية لها صفات ميكانيكية وفيزيائية وكيميائية . أما الحواس والافكار فليست لها هذه الصفات . انها موجودة في دماغنا كصور مثالية تنعكس فيها اشياء العالم الخارجي وصلاتها المتبادلة .

وفي الوقت نفسه تدل خبرتنا نحن والمعطيات العلمية على ان الوعي غير ممكن بدون المادة . فليس ثمة احد ، في اي زمن من الازمان ، قابل حواس ومفاهيم نشأت من ذاتها بصورة مستقلة عن المادة . ولا وجود للوعي الا حيث يوجد دماغ الانسان الذي هو عضو التفكير . وعندما يطرأ على الدماغ عطل يتعطل الوعي ايضا . واذا اثرت في الدماغ مواد كيميائية معينة كالامينازين أو الريزيربين تغلب الانسان على الشعور بالقلق والخوف وعدم الثقة بالذات . وهناك مواد اخرى تفعل العكس ، فهي تقوي في الانسان شعور الخوف وربما اثارت فيه الهلوسة . وهذا ما يؤكد ان الوعي هو صفة خاصة بمادة بالغة شأوا رفيعا من التنظيم – الدماغ البشري . فما هي هذه الصفة ؟

ان كلمة «الوعي» نفسها تحمل على التفكير باننا ، بواسطته (اي بواسطة الوعي) ، نحصل على معلومات عن العالم ، ونفقه ما يجري من حولنا . وهذا يعني ان الوعي لا يفترض فقط وجود الدماغ ، بل يفترض ايضا وجود اشياء مادية تؤثر في الدماغ .

كيف تفسر فيزيولوجية النشاط العصبي الاعلى نشوء الحواس ؟ انها تقول ان عاملا ما من الوسط الخارجي (شعاع ضوء منعكس عن شيء مثلا) يؤثر في اعضاء الحواس (العين في مثالنا) ، فتتحول طاقة الاثارة الخارجية الى اثارة عصبية ، ثم تتحول الى احساس : وتنشأ في الوعي صورة الشيء .

لنتصور لحظة دماغا لا تدخله اية اشارات من العالم الخارجي . فمهما كان هذا الدماغ في مستوى عال من التنظيم لا يمكن ان يتكون فيه في هذه الحال اي احساس واية فكرة . صحيح ان هذا الدماغ لا وجود له ، ولكن يحدث احيانا ان تختل صلة الدماغ بالعالم الخارجي . وهناك مرضى فاقدون النظر والسمع والى حد تام تقريبا حساسية الجلد . فوعي هؤلاء متعطل معظم الوقت .

يمكن تشبيه الدماغ ، الى حد معين ، بشريط سينمائي يمر مسرعا وعليه تنعكس صور الواقع . فيكفي حجب عدسة آلة التصوير عن العالم الخارجي حتى يصبح الشريط صافيا ويخلو من كل صورة . طبيعي ان هذا التشبيه لا يجوز فهمه بحرفيته . فانعكاس الاشياء على الشريط السينمائي يجري حسب قوانين فيزيائية وكيميائية . اما انعكاس الواقع على دماغ الانسان فهو عملية فيزيولوجية واجتماعية اكثر تعقدا باضعاف مضاعفة .

واذن فالوعي ليس مجرد صفة خاصة بالدماغ بل هو صفة خاصة بدماغ يتبادل التأثير مع العالم المادي . **الوعي هو مقدرة المادة البالغة شأوا رفيعا من التنظيم على عكس العالم الخارجي في صور روحية** . وبفضله يعرف الانسان العالم المحيط به وقوانينه ، وينظّم نشاطه العملي تنظيما صحيحا .

كيف يعرف الانسان العالم . ليست المعرفة مجرد انعكاس

للعالم على دماغ الانسان كانعكاس الاشياء على المرآة . بل ان من صفاتها ، كما من صفات تطور المادة ، التناقضات وانتقال التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية ونفي النفي . ان المعرفة هي عملية معقدة لحركة الفكر من الجهل الى المعرفة ومن المعرفة الناقصة وغير الدقيقة الى المعرفة الاكمل والادق . وبما ان العالم لا نهاية له كذلك المعرفة ليست لها حدود ولا نهاية ايضا .

في قديم الزمان ما كان الناس يعرفون شيئا عن طبيعة الكهرباء . وكان البرق والرعد يثيران فيهم الرعب ويبدوان لهم من عمل الآلهة الغضبى . وليس عبثا ان زيوس يصور بصورة رعّاد يقذف العصاة بالبروق . وبالتدريج جمعت علوم الطبيعة وقائع عن الظواهر الكهربائية . ودرست خاصة بعض الاجسام القابلة للتكهرب بالاحتكاك ، واكتشفت قوانين التأثير المتبادل بين الشحنتين الكهربائيتين . ولم يخل الامر من الاضاليل : فقد جرت محاولات لتفسير الكهرباء بحركة «سائل كهربائى» لا وزن له . وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر تجمعت في العلم والممارسة وقائع كافية لكشف قوانين الكهرباء الاساسية . وتعلم الانسان تحويل الطاقة الميكانيكية والحرارية الى طاقة كهربائية وبالعكس . وانشئت اولى محطات توليد الكهرباء ، وصنعت اولى الآلات الكهربائية . ووضعت الكهرباء ، كما وضع البخار من قبلها ، في خدمة الانسان . ولكن عملية المعرفة لم تتوقف عند هذا الحد . ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر وضع العالم الفيزيائي البريطاني ماكسويل نظريـــة الحقل المغنطيسي التي جمعت بين ميادين من الكهرباء والمغنطيسية والبصريات كانت من قبل متفرقة .

ان المعرفة البشرية تنطلق من المشاهدة والتقبل الحسي او ، كما يقال في الفلسفة ، التأمل الحي ، الى الكشف النظري

عن القوانين ، ومن ثم الى تطبيق هذه القوانين في الممارسة . هذا هو الطريق الدياليكتيكي لمعرفة الحقيقة ، معرفة الواقع الموضوعي .

اننا نعرف العالم قبل كل شيء بواسطة اعضاء الحواس — النظر والسمع واللمس . فكأنما هي اقنية بها تصل الينا المعارف والانباء عن العالم المادي .

ولكن انى لنا ان نتيقن من ان حواسنا تعطينا معلومات صحيحة ؟ أفلا يحدث تشويه عند نقل المعلومات ؟ اننا نتيقن من صحة الصور الحسية لاننا تحققنا منها اكثر من مرة بتجربتنا الخاصة **وبالنشاط العملي** .

تصوروا اية فوضى تدب الى الحياة لو ان احساسات ومدارك الناس لا تعكس صفات مواد العالم الخارجي بشكل صحيح . لو حدث هذا لتاه الناس في الواقع المحيط بهم . صحيح انه يحدث احيانا ان الحواس «تخدعنا» . فالقلم الغاطس في الماء الى منتصفه يبدو منكسرا . ولكن هذا «الخداع» يعكس هو الآخر الصفات الحقيقية للظواهر المادية ، كانكسار شعاع الضوء عندما ينتقل من وسط اقل كثافة الى وسط اكثر كثافة . ان الحواس عند الناس السليمين تعكس مواد العالم الخارجي بشكل صحيح . فاعضاء الحواس نفسها انما تكونت في سياق التطور التدريجي للطبيعة الحية كوسيلة لمعرفة العالم المحيط ، كوسيلة لتكييف الجسم الحي تكييفا افضل حسب ظروف البيئة .

ولكن تأمل المادة وحده لا يعطينا معرفة قوانين تطورها الداخلية . فعندما ننظر الى فروة الشجرة ونلمس اغصانها ونسمع حفيف اوراقها لا نستطيع بعد ان نفهم تلك العمليات الداخلية العميقة التي تجري في الورقة الخضراء بفعل اشعة الشمس . وليست القضية اطلاقا ان هذه العمليات لا يمكن ان ترى . فحتى

لو تسلمنا بالميكروسكوب (المجهر) وتغلغلنا الى الحياة الداخلية للورقة ، لا نستطيع ان نفهمها بالمشاهدة وحدها . فماذا يعني الفهم ؟ انه يعني الكشف عن القوانين ، وفرز الصلات الجوهرية من مجمل التأثيرات المتبادلة المعقدة (قوانين التركيب الضوئي في مثالنا) . وهذا عمل لا تستطيع الحواس ان تقوم به ، ذلك لان العلائم الجوهرية وغير الجوهرية تبدو في الصور الحسية وكأنها مندمجة في كل واحد .

ولتعيين قوانين تطور ظاهرة من الظواهـــر ، يجب فهم وتعميم المعلومات الحاصلة من الحواس . وهنا يجب ان نلجأ الى معونة **التفكير التجريدي او المعرفة المنطقيـــة** التي تخلق ، على اساس المعرفة الحسية ، تجريدات علمية ، اي معرفة تتجلى فيها صلات الواقع الجوهرية .

ان الفيزياء تستعمل مفاهيم «السرعة» و«الكتلة» و«كمية الحركة» و«الطاقة» وغيرها . وكل هذه المفاهيم تجريدات علمية . فلن تجد في الطبيعة سرعة ولا طاقة ولا كتلة بشكل صرف . وانما فيها اجسام مادية تتحرك باسرع أو ابطأ ، وتؤثر في اجسام اخرى بدرجة اكبر او اقل . أو خذوا مفهوم «التكافؤ» في الكيمياء أو مفهوم «الوراثة» في البيولوجيا . ففي الواقع نفسه يمكن اكتشاف ان ذرات الاشياء المختلفة تتحد بنسب معينة ، وان الاجسام الحية تتوارث علائم معينة جيلا عن جيل . ولكن ليس هناك تكافؤ ولا وراثة بشكلهما الصرف . كذلك الامر مع المفاهيم الفلسفية «المادة» و«الحركة» و«القانون» . فالعلماء عندما يضعون مفاهيم علمية ويكتشفون قوانين ، يفرزون ذهنيا الصفات والعلاقات الجوهرية للاجسام المادية فكأنما «يجردونها» عن هذه الاجسام ذاتها . ومن هنا تسمية **التفكير التجريدي** .

ان التجريد العلمي يسمح بفهم الواقع فهما اعمق . فعندما نتجرد عن العلائم والصفات غير الجوهرية للمواد المفردة نتمكن من معرفة اساسها العميق ، **جوهرها** . وهذا يساعد في اجتلاء كنه جمهرة الظواهر والكشف عن قوانينها .

فمثلا عندما نتكلم عن قانون بويل – ماريوت ، نتجرد عن خصائص هذا الغاز او ذاك ، وعن شكل الآنية التي تحتوي الغاز ، وغير ذلك . ولكننا ، في المقابل ، نكتشف علاقات هامة جدا بين الضغط وحجم الغاز ، تسمح بفهم صفات الغاز الخاصة فهما اعمق .

ثم ان التفكير التجريدي مرتبط ارتباطا لا ينفصم باللغة . فعندما نريد التعبير عن فكرة نستنجد بالكلمات . ويمكن التفكير دون التلفظ بشيء بصوت مسموع . ولكن حتى في هذه الحالة يغلف الناس افكارهم بغلاف كلمي ، فكأنما يتحدثون بينهم وبين انفسهم . لماذا يحدث هذا ؟

يحدث هذا لان التفكير التجريدي شيء خاص بالبشر وحدهم . نشأ في سياق نشاطهم العملي المشترك وكان منذ البداية نتاجا اجتماعيا . ففي اثناء العمل تظهر عند الناس حاجة الى تنسيق الاعمال وتبادل الخبرات والمعارف . ومن هذه الحاجة ينشأ الكلام المنطوق ، تنشأ اللغة كوسيلة للاتصال ولتثبيت ما يكسبه الناس في عملهم من معارف عن الواقع المحيط بهم ، في كلمات .

نكون مثلا في غرفة ونقرأ او نسمع كلمة «حريق» ، فنفهم بوضوح معنى ذلك مع اننا لا نرى من حولنا لا نارا ولا حريقا ، لا نرى ما بوسعه ان يثير ، بمفعوله المباشر ، صورة الحريق في وعينا . فكيف نفسر ان الكلمة ، بفعلها في سمعنا أو نظرنا ، تثير في الوعي فكرة معينة تماما ؟ تفسير هذا ان الناس رأوا

الحريق اكثر من مرة في اثناء نشاطهم العملي على مدى مئات السنين من التاريخ ، ففرزوا العلائم العامة لهذه الظاهرة ووضعوا لها مفهوما ربطوه بكلمة «الحريق» . ونحن عندما ندرس اللغة نستوعب بذلك المعارف التي كدستها اجيال كثيرة من الناس عاشت قبلنا . ولهذا فان كل كلمة هي بالنسبة الينا اكثر من مجرد لفظ بل ان لها معنى معينا ندركه بغير ارادة منا حالما نسمع الكلمة ذاتها .

ان اللغة هي وسيلة قيمة لحفظ كنز الحكمة البشرية ونقله وزيادة محتوياته . ولولا اللغة لما استطاع احد منا ان يقرأ كتابا أو يتعلم في مدرسة أو يضيف الى عالمه الروحي قيما جمعتها البشرية حبة حبة ، ولما كانت لدى الناس وسيلة لتأمين ثبات النشاط المتعلق بالمعرفة وتأمين استمراره المترابط ، ولما كانت معرفتهم تفترق الا قليلا عن نفسية الحيوانات ذات التنظيم الرفيع .

ليس من الصعب فهم ان الشخص الذي وجد نفسه ، لسبب من الاسباب ، منذ نعومة اظفاره ، معزولا عن الناس الآخرين ولم يستطع ان يتعلم الكلام ، سيكون عاجزا عن تطوير ملكة التفكير التجريدي ايضا . وتأكيدا لهذا يمكن ذكر الواقعة التالية . وجدت في الهند لبضع سنين خلت ، فتاة اختطفتها ذئبة بعد ان ولدت بقليل . وعاشت الفتاة بين الذئاب عدة سنين . وطبيعي انها لم تكن تعرف الكلام وكان التفكير البشري مفقودا عندها تماما .

ان التفكير التجريدي اداة قوية للمعرفة ، بفضله وحده امكن ان ينشأ العلم الذي فسر للانسان ظواهر غير مفهومة وكشف له عن قوانين تطور الطبيعة والمجتمع .

المعرفة والممارسة . ولكن التفكير التجريدي ليس خاتمة عملية المعرفة : فلكي نكون واثقين بان معارفنا صحيحة يجب ان يكون لدينا **محك** (معيار تقييم) يثبت صحة هذه المعارف .

كثيرا ما نرى اناسا يتناقشون نقاشا حاميا حول مادة ما . وكل واحد منهم مقتنع بان الحق الى جانبه ، وكل واحد يرى ان رأيه هو الحقيقة . فمن يستطيع ان يحكم بينهم ؟ واين يمكن ايجاد «حجر الفلاسفة» الذي يسمح لنا بان نميز الحقيقة من الضلال على اساس من اليقين ؟ ان العلماء أو المخترعين ، عندما يختلفون فيما بينهم ، يلجأون الى التجربة .

فاذا اكد عالم من العلماء ، على اساس الدراسات النظرية ، ان هذا الخليط من المعادن سيكون له كيت وكيت من الصفات ، فان من السهل التحقق من اقواله : يكفي لهذا الحصول على خليط من هذه المعادن في مختبر المصنع . فاذا كانت للخليط الصفات نفسها التي ذكرها العالم كان هذا العالم مصيبا والا فهو مخطئ . واضمن **محك للحقيقة** هو**الممارسة الاجتماعية** ، اي نشاط الناس لتحويل العالم المحيط بهم ، وقبل كل شيء النشاط الانتاجي ، الصناعي .

والممارسة محك صالح لمعرفة الحقيقة لا في علوم الطبيعة وحسب ، بل في النظريات الاجتماعية ايضا . فالتاريخ يعرف عددا غير قليل من مختلف النظريات الاجتماعية والسياسية التي لم يثبت منها شيء امام محك الممارسة الا النظرية الماركسية – اللينينية الصحيحة الى حد عميق : وقد اثبتت ذلك كل عملية التطور الاجتماعي والحركة الثورية العالمية وبناء الاشتراكية والشيوعية .

ولكن الممارسة ليست محكا للحقيقة وحسب . انها هي ايضا نقطة انطلاق للمعرفة . والحاجة نفسها الى معرفة الواقع

تولدت من حاجات الانسان العملية . ومنذ ذلك الحين الى الآن تطرح الممارسة امام المعرفة مهمات معينة . قال انجلس انه اذا ظهرت عند المجتمع حاجة تكنيكية ، فانها تسيّر العلم الى امام شوطا ابعد مما تفعل عشر جامعات . وتتجه قوة العقل البشري اول ما تتجه الى تلك المشاكل التي تنشأ عن حاجات الممارسة .

ثم ان المعرفة نفسها غير معقولة بدون ممارسة . تصوروا اننا نشاهد العالم المحيط بنا مجرد مشاهدة دون ان نتدخل عمليا في تطوره . طبيعي اننا ، عندئذ ، لن نستطيع معرفة قوانين تطور الظواهر المادية . حتى ما في داخل الجوزة يبقى مجهولا اذا لم نكسر قشرتها اولا . فكأنما معرفة القوانين الداخلية للاشياء تتطلب قلب هذه الاشياء والنظر اليها من الداخل . ولا يمكن هذا الا في الممارسة .

ليس من قبيل المصادفات ان تكون التجربة وسيلة قوية لدراسة الطبيعة دراسة علمية . وهل يمكن ان نتصور دراسة الجسيمات الاولية أو بنية نواة الذرة بدون العمل التجريبي الضخم ؟ وان السنكروفازوترونات (مسرّعات الجسيمات) الجبارة وغيرها من الاجهزة البالغة التعقيد ، التي يستعملها العلماء ، هي ايضا نتاج للممارسة وللصناعة الحديثة .

وعلى اساس الممارسة تتطور العلوم الاجتماعية ايضا . فالماركسية نشأت كتعميم لممارسة نضال البروليتاريا الثوري . والتطوير الخلاق للنظرية الماركسية – اللينينية في برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي هو نتيجة فهم عميق لممارسة بناء الاشتراكية والشيوعية .

وهكذا فالممارسة تلعب دورا رئيسيا في المعرفة وهي **اساس** المعرفة . وبالممارسة يجري البرهان على مقدرة الناس على معرفة العالم وعلى الكشف عن قوانين تطوره . ان المادة لا

نهاية لهـــا ولا تنضب ، ولهذا ستبقى دائما في العالم ظواهر مجهولة . ولكن ليست ثمة ظواهر لا يمكن معرفتها . وما كنا حتى الامس القريب نجهله اصبح اليوم معروفا جيدا لدينا اليوم . والمسائل التي يتنطح لها الفكر العلمي اليوم ستحل غدا على اساس المنجزات الجديدة للممارسة .

ثم ان الممارسة نفسها ليست ايضا شيئا جامدا (ستاتيكيا) اعطي مرة والى الابد . فلبضع سنين خلت كان الناس عاجزين عمليا عن الخروج من نطاق الجو الارضي . واليوم تمخر الاقمار الصناعية والسفن الفضائية عباب الكون الفسيح . ان تطور الممارسة يفتح آفاقا جديدة لتعميق معرفة العالم .

ان الممارســـة تدحض دحضـــا قاطعـــا المذهب النسبي (الريلاتيفيزم) والجمود العقائدي في نظرية المعرفة .

ان القائلين بالمذهب النسبي يزعمون ان كل شيء في معارفنا عن العالم نسبي ، وليس هناك اي شيء ثابت ودائم . وما كان يبدو في الامس حقيقة يصبح اليوم خاطئا . ان المذهب النسبي يتناقض مع الممارسة . فاذا كان العلم قد اكتشف قوانين عميقة لظواهر ما وتأكدت هذه القوانين بالممارسة ، فهذا يعني انها صحيحة وستبقى صحيحة ما دامت هذه الظواهر موجودة .

أما اصحاب الجمود العقائدي فبالعكس ، يقولون بان معارفنا لا تتغير ، اي اذا اكتشفت قوانين ما فهذا يعني في رأي اصحاب الجمود العقائدي ، انه لا يبقى علينا الا معرفتها عن ظهر قلب وتطبيقها على الواقع دائما وفي كل الظروف ، بشكل ميكانيكي . ان الجمود العقائدي يتناقض مع الممارسة ايضا . فهو لا يأخذ بعين الاعتبار ان معارفنا عن ظواهر العالم لا تحيط ابدا بكل غناها ، وان المعرفة تتطور وتتعمق ايضا مع تطور الممارسة .

ان قوانين الميكانيكا الكلاسيكية ، التي اكتشفها نيوتن ، صحيحة واكدتها الممارسة اكثر من مرة . ولكن في القرن العشرين ، عندما اصبحت في متناول البشرية سرعات قريبة من سرعة الضوء ، تبين ان قوانين نيوتن ليست الا حالة جزئية من قوانين اعم اكتشفها اينشتاين . بديهي ان قوانين الميكانيكا الكلاسيكية لم تصبح خاطئة بعد هذا ابدا . انها لا تزال ، كسابق عهدها ، تعكس بشكل صحيح التأثير المتبادل الميكانيكي للاجسام في حدود سرعات صغيرة نسبيا . ولكن معارفنا اصبحت الآن اعمق ، وفيها تنعكس قوانين اعم هي قوانين التأثير المتبادل للاجسام في اية سرعة كانت ، حتى في السرعات التي تقرب من سرعة الضوء .

ان هذا المثال يبين ان في المعارف العلمية دائما نواة ثابتة تبقى حقيقية وصحيحة . ولكن هذه النواة لا تظل بدون تغير : بل هي تتكامل وتتسع بلا انقطاع في سياق تطور المعرفة .

ان **وحدة النظرية والممارسة** هي مفتاح لفهم فعالية المعرفة ، وفهم دورها المحوّل العظيم . ان المعرفة تقتحم العالم وتغيره بواسطة نشاط الناس العملي .

أنظروا من حولكم . هل ترون كثيرا من الاشياء التي اعطتها الطبيعة نفسها وليست نتاج نشاط الانسان الخلاق المدعوم بوعيه المبدع ؟ ان المصانع والفبارك والماكينات البالغة التعقيد ، — كل هذا صنعه الانسان من المادة الطبيعية ، وكل هذا يحمل ختم الحاجات البشرية المدركة . حتى الطبيعة نفسها — كالغابات والمروج والحقول والجو الارضي — تتغير اشكالها تحت تأثير الممارسة الاجتماعية . وما معنى نشوء المعرفة وسببها الاخير الا تغيير الواقع في الوجهة التي يريدها الانسان . وتتجلى فعالية المعرفة بسطوع خاص في الحياة الاجتماعية .

ففي البلاد السوفييتية تخلق افكار الماركسية ـ اللينينية التي تجسدت في ممارسة البناء الشيوعي ، عالما جديدا ـ عالم الشيوعية .

المادية والمثالية

اطلعنا بخطوط عامة على النظرية الفلسفية الماركسية عن العالم وعن معرفته . فلنر الآن اي مكان تشغله هذه النظرية بين سائر النظريات الاخرى وما هي علاقتها بنضال الطبقات وبالسياسة .

نهجان في الفلسفة . من كل ما قلناه انفا يتضح ان السمة الاساسية للنظرية الفلسفية الماركسية هي تفسير العالم منه ذاته دون اية اضافات خارجة عنه أو اختلاقات . فالطبيعة ، الكيان* يؤخذان كما هما في الواقع . والنظرية التي تعتبر العالم كلا واحدا ماديا وتفسر كل شيء من المادة تسمى **بالمادية** . وفلسفة الماركسية هي اسمى شكل من اشكال المادية .

للمادية تاريخ طويل . نشأت كنظرية فلسفية منذ القدم . ولكن مادية القدماء كانت تتصف بالسذاجة وعدم اعتمادها على العلوم الدقيقة ، لان هذه العلوم نفسها كانت في الحالة الجنينية . وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر نشأ شكل جديد للمادية كان يسعى الى توحيد جميع المعارف وتسليح العلم بطريقة لدراسة الطبيعة . وكانت الميكانيكا انضج العلوم في ذلك الزمن . وهذا ما يفسر كون مادية ذلك العهد **ميكانيكية** ايضا . فقد كانت تعيد جميع قوانين العالم ، في حقيقة الامر ، الى قوانين الميكانيك . وكان عدم تطور العلوم هو السبب ايضا في نقص آخر من نواقص مادية القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وهو انها لم تستطع ان تتابع

---

* الكيان مفهوم فلسفي يستعمل للدلالة على الطبيعة والمادة والعالم الخارجي تفريقا لهذا كله عن الوعي والتفكير .

بشكل منطقي فكرة تطور العالم والترابط بين جميع ظواهره ، اي انها كانت – كما يقول الفلاسفة – **ميتافيزيقية** . واخيرا كانت هذه المادية **تأملية** ، لانها لم تفهم دور نشاط الناس العملي والثوري التحويلي .

ان النظرية الفلسفية الماركسية تنظر الى العالم وهو في حالة من الحركة والتطور المستمرين ، في سياقهما توجد جميع الظواهر في ترابط فيما بينها وتأثير متبادل . وهذا يعني ان المادية في الفلسفة الماركسية متصلة اتصالا عضويا بالدياليكتيك . ولهذا اطلق على فلسفة الماركسية بمجملها اسم **المادية الدياليكتيكية** .

ليس من الصعب ادراك مصالح من تخدم المادية . فالفلسفة المادية متصلة اتصالا وثيقا بعلوم الطبيعة وتوجه المرء نحو دراسة الطبيعة . وهي تخدم تلك الطبقات الاجتماعية التي تريد ان تكتسب معارف علمية عن العالم وتريد استخدام هذه المعارف لمصلحة التقدم . فالمادية ، كقاعدة عامة ، هي فلسفة طبقات المجتمع الطليعية التقدمية .

واكثر طبقات المجتمع الحديث طليعية وتقدمية هي الطبقة العاملة التي تحتاج في نضالها ضد الرأسمالية وفي سبيل بناء المجتمع الشيوعي الى مذهب علمي واضح . ولهذا فان المادية الدياليكتيكية هي الاساس الفلسفي لمذهب الطبقة العاملة .

ان المادية هي نهج طليعي وتقدمي في الفلسفة . ولكن في الفلسفة ايضا ، عدا المادية ، نهجا او اتجاها آخر . وهو **المثالية** . فلنحاول استجلاء كنهها .

يرى المثاليون ان اساس العالم هو الروح ، هو الفكرة . وخلافا للماديين ، يمتنع المثاليون منذ البداية عن تفسير الطبيعة

والمادة والكيان منها نفسها واعتبارها كما هي . وانما الطبيعة والمادة ، عند المثاليين ، من صنع الوعي والفكر والاله .

وتنقسم المثالية الى تيارين اساسيين : المثالية الذاتية والمثالية الموضوعية . فالمثاليون الذاتيون يعتبرون ان جميع الاشياء والظواهر في العالم الخارجي هي نتاج الوعي البشري . ان كل حكمة المثالية الذاتية تتلخص في قول احدهم : «ان العالم كله هو مجموعة احاسيسي» .

أما المثاليون الموضوعيون فيقولون بان العالم المادي هو نتاج عقل كلي موجود خارج وعي الانسان .

ان المثالية تدحضها كل مجموعة معطيات علوم الطبيعة والممارسة البشرية .

فعلوم الطبيعة الحديثة تثبت ان الارض والقمر والشمس كانت موجودة قبل ظهور الانسان وكل كائن آخر ذي روح بمدة طويلة . افليس هذا برهانا قاطعا على استقلال العالم الخارجي عن وعي الانسان؟

كما تتناقض مع علوم الطبيعة تناقضا غليظا ايضا ، التصورات القائلة بوجود عقل كلي «خالق للعالم» . فقد اثبت العلم ان الوعي هو نتاج مادة بالغة شأوا رفيعا من التنظيم هي الدماغ . ولا يمكن ان يكون هناك وعي عالمي مستقل عن المادة ذات التنظيم الرفيع . ولكن حتى لو فرضنا ان هذا الوعى موجود فكيف يستطيع ان يخلق العالم من لا شيء ؟ فهذا يتناقض مرة اخرى مع كل قوانين العلم . لقد بدأ الانسان يغزو الفضاء الكوني ، وهو يتغلغل في اسرار عالم الصغيرات ولكنه لا يجد في اي مكان منهما اية آثار لنشاط العقل الكلي ، وانما تفسر جميع الظواهر باسباب طبيعية .

كان نابوليون مرة يتحادث مع العالم الفلكي الشهير لابلاس فسأله لماذا لا يأتي على ذكر لله في اي مكان من مؤلفاته . فاجاب العالم باعتزاز : «اني لم احتج الى هذه الفرضية» . لقد توصل العلم منذ ذلك الحين الى غير قليل من الاكتشافات العظيمة ، وتقدم شوطا بعيدا . ونحن اذا استعرنا كلمات لابلاس امكننا ان نقول ان البشرية لا تحتاج ، من اجل تفسير العالم تفسيرا علميا ، الى اختلاقات عن الروح العالمية .

لماذا اذن توجد المثالية وتؤثر في نفس الكثير من الناس ؟ فللمثالية اتباع حتى بين العلماء . ان مرد هذا الى ان المثالية لها جذورها سواء في المعرفة البشرية أو في الظروف الاجتماعية .

لقد كتب لينين ان المعرفة البشرية تشبه الشجرة التي لا تعطي الثمر فقط بل تعطي ايضا زهرا لا ثمر له . وقد سبق ان قلنا ان المعرفة عملية معقدة ومتناقضة الى حد خارق . وانما النظريات المثالية تستند الى موقف وحيد الطرف من المعرفة .

ان لحواس الانسان دورا عظيما في المعرفة . ولكن لا ينبغي ان ننسى ان هناك ، عدا الحواس ، تفكيرا تجريديا وممارسة . فاذا ضخمنا دور الحواس فوق الحد امكن استنتاج ان الحواس هي الشيء الحقيقي الوحيد . وهذا ما يفعله المثاليون الذاتيون اذ يقولون ان الحواس هي «عناصر» العالم . وتلك هي جذور المثالية الذاتية في المعرفة .

ان كلا منا رأى وذاق مرات كثيرة التفاح والكمثرى والبرتقال وغيرها من الفواكه . ولكن احدا منا لم ير ولم يذق «الثمرة» عموما . فمفهوم «الثمرة» هو تجريد ، هو فرز ذهني لتلك السمات العامة الخاصة بالتفاح والكمثرى والبرتقال .

وان التجريد ضروري في عملية المعرفة وبدونه لا يمكن التفكير ، وله مكانه في كل علم . ولكن لا يمكن باي حال من الاحوال ان ننسى عند ذلك ان السمات العامة التي تشكل محتوى التجريد غير موجودة بذاتها منفصلة عن الاشياء المفردة . واذا نسينا هذا امكن بيسر ان نتصور ان هناك ، الى جانب التفاح والكمثرى والبرتقال ، «ثمرة» بوجه عام ، وان هذا المفهوم هو الذي يشكل جوهر جميع الثمار الحقيقية واساسها . وهذا ما يفعله المثاليون الموضوعيون اذ يقولون ان المفهوم أو الفكرة موجودة بذاتها وتولد الاشياء المفردة . وتلك هي جذور المثالية الموضوعية في المعرفة .

ولكن المسألة ليست فقط في تناقض عملية التفكير . ان اسباب حيوية المثالية يجب البحث عنها في الظروف الاجتماعية ايضا .

وبخلاف المادية تعبر المثالية ، كقاعدة عامة ، عن مصالح الطبقات المحافظة الساعية الى الابقاء على الانظمة البالية . وبما ان معرفة قوانين العالم تخدم التقدم الاجتماعي فان الطبقات الذاهبة تتشبث بالمثالية التي تضلل الكادحين وتصرفهم عن مهماتهم العملية وتحملهم الى ميدان المجردات الضبابية العديمة الحياة . ان الطبقات البالية تغرس وتدعم النظريات المثالية ، وهذا هو السبب الرئيسي لبقاء المثالية ، وهذا مرد وفرة النظريات المثالية في البلدان الامبريالية .

وهكذا **فالمادية والمثالية هما نهجان اساسيان ، واتجاهان متضادان ، ومعسكران متناحران في الفلسفة .**

المسألة الاساسية للفلسفة . ان الحد الفاصل بين المعسكرين المتضادين – المادية والمثالية – هو اختلافهما في حل **مسألة علاقة المادة والوعي** . فمبدأ المادية الاساسي هو الاعتراف باولية المادة

وثانوية الوعي (اي ان المادة وجدت اولا ثم وجد الوعي) . يقول الماديون استنادا الى كل الممارسة الاجتماعية والى علوم الطبيعة ، ان الكيان هو الذي يحدد الوعي . وبالعكس فان مبدأ المثالية الاساسي هو الاعتراف باولية الوعي وثانوية المادة والكيان .

ولان مسألة علاقة المادة والوعي ذات اهمية استثنائية في تحديد المواقف الفلسفية ، فقد اطلق عليها اسم **المسألة الاساسية للفلسفة** . وتبعا للجواب عليها تحل جميع المسائل النظرية الاخرى . وبالفعل ، اذا اعترف باولية المادة واستقلالها عن الوعي ، كان من الطبيعي اعتبار الحركة والمكان والزمان اشكالا موضوعية لكيان المادة . واذا اعتبرت المادة ثانوية حاصلة من الوعي ، فان الحركة والمكان والزمان وجب اعتبارها اشكالا للوعي وللروح . او لنأخذ مسألة قوانين العلم . ان الحل المادي للمسألة الاساسية للفلسفة يؤدي في خط مستقيم الى الاعتراف بموضوعية القوانين . اما الحل المثالي لها فيجبر على اعتبار القوانين اما مظهرا للعقل العالمي أو نتيجة لنشاط الوعي البشري . وليست هناك قضية فلسفية لا يتوقف حلها على حل المسألة الاساسية للفلسفة .

وللمسألة الاساسية للفلسفة جانب ثان ايضا وهو : ما هو موقف وعينا من العالم ، او بتعبير آخر ، هل العالم ممكن المعرفة ؟ ان تضاد المادية والمثالية يتجلى في حل هذه المسألة ايضا . فالماديون يقولون عن ثقة : نعم ، ان العالم ممكن المعرفة . أما المثاليون فالاجماع غير متوفر بينهم . فالاكثرية الساحقة من الفلاسفة البرجوازيين الحديثين ينكرون امكان معرفة العالم ويبشرون بعجز العقل البشري . وهناك بعض من المثاليين ينكر امكان المعرفة ولكنه لا يوافق على ان المعرفة هي انعكاس للمادة في دماغ الانسان المفكر . وفي رأي هؤلاء ان المعرفة تنحصر في الاستغراق في عالم الافكار الصرفة ، في ادراك نشاط الروح المطلق ،

او الوعي العالمي ، او بكلمات اخرى ، الله . وواضح ان هذا الفهم للمعرفة لا يهدينا الى دراسة القوانين الموضوعية للطبيعة والمجتمع .

ان بعض المثاليين ، سعيا منهم الى ستر جوهر آرائهم الرجعي ، يزعمون انهم لا يمتون بصلة لا الى الماديين ولا الى المثاليين ، وانهم ارتفعوا فوق تضاد الاتجاهين الاساسيين في الفلسفة .

ولكن كيف يمكن التهرب من الجواب على السؤال عن علاقة الكيان والوعي ؟ ان هذا امر مستحيل . وليس عبثا ان الفلاسفة الذين يحاولون التغلب على وحدة طرف المادية والمثالية ، يبشرون في الحقيقة بالمثالية الصرفة تماما . انهم اولا يعلنون ان المسألة الاساسية للفلسفة خالية في زعمهم من المعنى ، وان مهمة الفلسفة هي تحليل «معطيات الشعور» . ولكن يتضح فيما بعد انهم يقصدون من «معطيات الشعور» الاحاسيس والادراكات . وتبرز معطيات الشعور ، اي الاحاسيس والادراكات ، لا كانعكاس لاشياء العالم الخارجي ، بل كحقيقة واقعية وحيدة . وبالتالي فان المسألة الاساسية قد حلت ، عن تحيز ، لمصلحة المثالية : اذ تعتبر الاحاسيس والادراكات اولية بالنسبة للواقع المادي .

ذكرنا سابقا ان المادية والمثالية كلتيهما مرتبطتان بمصالح طبقات معينة . الاولى تعتمد على العلم وتعبر عن مصالح الطبقات الطليعية والتقدمية في المجتمع . والثانية تلتصق بالدين وتدافع عن مصالح الطبقات المحافظة والرجعية .

طبيعي ان من تبسيط الامور اعتبار ان جميع المثاليين يدافعون عن وعي عن مصالح الطبقات المحافظة والرجعية .

ففيهم من يقف مواقف تقدمية في كثير من مسائل الحياة الاجتماعية والسياسية . وهناك مثلا كثير من الفلاسفة المثاليين يناضلون بنشاط في سبيل السلام . وانما اردنا هنا ان نقول ان محتوى النظريات المثالية ذاته يخدم مصالح الطبقات الرجعية ، شاء ذلك اصحابها ام لا .

ان نضالا حادا ولا هوادة فيه في سبيل كسب عقول الناس يدور بين المادية والمثالية . وقد يبدو للوهلة الاولى ان هذا النضال لا يمت الا بصلة بعيدة جدا الى المسائل الاقتصادية والسياسية والى ذلك النضال الطبقي الذي يغلي في المجتمع . ولكن الواقع غير ذلك . فكل من الاتجاهين الاساسيين يسعى الى تكوين مذهب معين ونمط تفكير معين عند الناس . وعلى هذا يتوقف فهم المهمات السياسية . ولهذا فان صراع المادية والمثالية يتصل ، في آخر الامر ، بصراع الطبقات .

يتضح من هذا ان مسألة علاقة الكيان والوعي هي مسألة اساسية ليس فقط لان على حلها تتوقف مسائل فلسفية اخرى ، بل لسبب آخر ايضا . ان في حل المسألة الاساسية للفلسفة تتكشف **التزامية** (الحزبية) النظرية الفلسفية ، وصلتها بالصراع الطبقي في المجتمع ، وبالسياسة .

أما التزامية المادية الدياليكتيكية فهي في كونها تعبر عن مصالح الطبقة العاملة . يزعم الفلاسفة البرجوازيون ان التزامية المادية الدياليكتيكية تعيق معرفة العالم معرفة علمية موضوعية . ولكن هذا غير صحيح . فمن مصلحة الطبقة العاملة معرفة قوانين الواقع معرفة علمية ، لانها بحاجة الى ذلك لاعادة تنظيم العالم . ولهذا فـــان المصلحة الطبقية في هذه الحـــال لا تعيق بل ، بالعكس ، تساعد المعرفة الموضوعية العلمية . أما الالتزامية البرجوازية فشيء آخر . فهي بالفعل تعيق معرفة العالم معرفة

علمية موضوعية . فليس من مصلحة البرجوازية الحديثة معرفة قوانين تطور الواقع معرفة علمية ، لان هذه القوانين تحمل الهلاك للرأسمالية . فهل يمكن في هذه الحال انتظار اللاتحيز والموضوعية من الفلاسفة البرجوازيين ؟

ان التزامية الفلسفة الماركسية وصلتها بمصالح الطبقة العاملة وبالسياسة ، تتجلى باوضح ما يكون في نظرية قوانين التطور الاجتماعي .

نظرية تطور المجتمع

ان التاريخ البشري معقد ومتعدد الجوانب . فالثورات والانتفاضات والانقلابات الحكومية والحروب الدامية واصطدام المصالح وصراع الافكار – سلسلة لا نهاية لها من الوقائع التاريخية . فكيف نعرف طريقنا في هذا السيل الجياش من الحوادث التي لكل واحد منها صفاته ومميزاته ولا يشبه احدها الآخر ؟ وهل لها قوانين تسيرها ام انها تنشأ عن تلاعب الاقدار والمصادفات ؟

على هذه الاسئلة تجيب النظرية الماركسية عن قوانين تطور المجتمع – اي **المادية التاريخية** التي تسمح بتبيان المنطق الداخلي الموضوعي للتاريخ وبالسير على هدى في الشبكة المعقدة من الظواهر الاجتماعية ، بان تفرز من بينها اهمها واكثرها جوهرية بصفتها اسسا .

الفهم المادي للتاريخ

الكيان الاجتماعي والوعي الاجتماعي . ان تاريخ المجتمع يختلف اختلافا جوهريا عن تطور الطبيعة . فليس في الطبيعة قوى واعية ، والتطور فيها يجري عفويا . أما في المجتمع فالامر يختلف عن ذلك . فهنا يعمل اناس يتحلون بالوعي والارادة ، ويضعون نصب اعينهم اغراضا معينة ويسعون الى تحقيقها .

وبذلك ينشأ وهم يصور الامر وكأن الوعي والافكار والاهداف هي التي تحدد الحياة الاجتماعية .

فلنر هل هذا صحيح . لماذا تأخذ بعض فئات الناس بهذه الآراء فيما تأخذ فئات اخرى بآراء اخرى ؟ ولماذا مثلا تختلف الآراء والمعتقدات في المجتمع البرجوازي بين العمال والرأسماليين ؟ ان الرأسماليين يستغلون العمال ، وفي ايديهم كل السلطة ، ويتمتعون بجميع نعم الحياة . فهم ، لهذا ، بداهة ، راضون عن النظام القائم ويعتبرونه قمة العدالة . أما العمال فاوضاعهم غير هذه . انهم مضطرون الى العمل بعرق جبينهم لحساب الرأسماليين لكي يحصلوا على الوسائل الضرورية للعيش . ولا يمكن للطبقة العاملة ان تعتبر النظام الرأسمالي عادلا . وهكذا نرى ان تضاد آراء الرأسماليين والعمال يعود الى اختلاف اوضاعهم في المجتمع ، الى الظروف المادية لمعيشتهم : **فمثلما يكون نمط الحياة عند الناس يكون كذلك نمط افكارهم .**

ان على الانسان ، لكي يعيش ، ان يسد حاجاته المادية الى الغذاء واللباس والمسكن وغير ذلك . وهذه الحاجات تجبره ، شاء ام ابى ، على الدخول في علاقات معينة مع الطبيعة ومع غيره من الناس : فهو يفلح الحقل ويبنى الدور ويخيط الالبسة ويصنع ادوات الانتاج ويبادل على نتاج عمله . ومن هذا كله تتكون حياة الناس المادية او كيانهم الاجتماعي الذي له قوانينه الموضوعية المستقلة عن نوع الافكار والنظريات الموجودة في المجتمع .

ان المحتوى الرئيسي للكيان الاجتماعي هو نشاط الناس في عملهم لانتاج الخيرات المادية .

فبفضل العمل انفصل الانسان وتميز عن العالم الحيواني . فالحيوانات لا تنتج الخيرات المادية وانما تستهلك ما تجده

جاهزا في الطبيعة . أما الانسان فيقف من الطبيعة موقفا فاعلا ، ويغيرها ، ويصنع بعمله الخيرات المادية الضرورية له . ان العمل هو مصدر الثروات التي صنعتها البشرية على مدى تاريخها . وليس فقط دماغ الانسان ، بل يده ايضا ، هي ، الى حد ما ، نتاج العمل : فان الوف السنين من العمل اتقنتها وحولتها الى عضو ماهر يقدر على القيام باصعب العمليات . ان اليد البشرية لم تبلغ هذا المستوى العالي من الاتقان الا بفضل العمل ، هذا المستوى الذي مكّنها ، حسب قول انجلس ، من ابداع لوحات رافائيل وتماثيل تورفالدسين وموسيقى باغانيني .

ان العمل كان دائما شرطا ازليا وطبيعيا للحياة البشرية ، واساسا رئيسيا لوجود المجتمع وتطوره .

وهل كان بوسع الناس ان يشتغلوا بالعلوم والسياسة والفن وان يبدعوا النظريات الفلسفية والسياسية ، لو لم يكونوا ، بواسطة الانتاج ، يسدون حاجاتهم المادية . واذن فليس الوعي هو الذي يحدد الكيان الاجتماعي ، بل بالعكس ، فان كيان الناس الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم .

لنأخذ اية نظرية اجتماعية كانت نرى انها تضرب بجذورها دائما في الكيان الاجتماعي ، في الظروف المادية لحياة المجتمع . ومن هنا نخلص الى استنتاج هام وهو : ان اساس التطور الاجتماعي يجب البحث عنه لا في وعي الناس بل في كيانهم الاجتماعي ، في تطور **انتاج الخيرات المادية** .

القوى المنتجة وعلاقات الانتاج . لنبين اولا : من اية عناصر يتألف الانتاج .

لا بد للانتاج من مادة اولية تصنع منها الاشياء اللازمة للانسان ، كالخشب والفحم والحديد وغير ذلك ، او بكلمات

اخرى ، مادة يتجه اليها نشاط الانسان في عمله ، اي **مادة العمل** . فليس يمكن للمرء ان يصنع خيرات مادية وهو صفر اليدين . حتى ابسط الاعمال يقوم بها الانسان بواسطة المطرقة أو الفأس أو الرفش . ولا بد لتنظيم الانتاج الحديث من آلات وماكنات وادوات . وكل هذه الاشياء التي يستعملها الانسان للتأثير في مادة العمل بواسطة القوى الميكانيكية والفيزيائية والكيميائية ، تسمى **ادوات العمل** . وقد اشار ماركس الى اهميتها في الانتاج وسماها بالمنظومة العظمية والعضلية للانتاج . وعدا ادوات العمل لا بد للانتاج من مبان للمصانع ومستودعات ومصادر للطاقة وطرق حديدية وخطوط كهربائية وشبكة من اقنية الري وغير ذلك . وهذه كلها ، مع ادوات الانتاج ، تشكل ما يسمى **بوسائل العمل** . ثم ان ادوات العمل ووسائل العمل تشكل معا **وسائل الانتاج** ، اي مجموعة الشروط والظروف المادية التي بدونها يستحيل الانتاج .

واخيرا يشمل الانتاج نشاط الناس العملي بالمعنى الضيق لهذه الكلمة . فالماكنات بدون الانسان جمادات ميتة لا تستطيع ان تنتج الخيرات المادية . والقائمون بالعمل ، اي **منتجو الخيرات المادية** ، هم اهم عامل للانتاج .

ثم ان وسائل الانتاج التي يوجدها المجتمع ، بالاضافة الى الناس وعمل الناس الذين يحركون وسائل الانتاج ، تشكل ما يسمى **بقوى المجتمع المنتجة** . وتدل القوى المنتجة على علاقات مادية بين المجتمع والطبيعة . ومستوى تطورها دليل على مدى سيطرة الانسان على الطبيعة ودرجة تاثيره الفاعل فيها .

ان ادوات الانتاج هي المقياس الاول لمستوى تطور القوى المنتجة . ولهذه الادوات تاريخها الذي يمتد من ادوات

العمل الخشبية والحجرية البدائية للانسان البدائي حتى الآلات الاوتوماتيكية المعقدة العصرية التي تقوم بجميع عمليات الانتاج ولا تترك للانسان غير وظيفة المراقبة والتضبيط . وكلما ازداد اتقان اداة العمل امكن انتاج المزيد من الخيرات المادية . فلقطع شجرة بالفأس الحجرية كان يلزم للانسان البدائى يوم بكامله . امـــا الآن فبواسطة المنشار الكهربائى تنتهي هذه العملية في ثوان . والكراكة (آلة الحفر) الجبارة تستخرج في سبع ساعات من التربة والصخور ما لا يستطيع فعله في هذه المدة الف رجل مزودون بالرفوش .

ويقاس مستوى القوى المنتجة ايضا بمقدار تجهيز الانتاج بالطاقة . فلقد كانت القوة العضلية للانسان والحيوانات ، على مدى الوف السنين ، هي مصدر الطاقة الرئيسي . اما الآن فيحصل الناس على الطاقة من المحطات الكهربائية الجبارة التي تفوق قوة العضلات البشرية بملايين وملايين المرات .

وهناك دليل هام آخر على مستوى تطور القوى المنتجة ، وهو خبرة الناس الانتاجية ومعارفهم ومهارتهم . فالقوى المنتجة الحديثة تتميز عن تلك التي كانت موجودة لمئة او مئة وخمسين سنة خلت ، لا باتقان ادوات الانتاج وحسب ، بل بثقافة العمال ومهارتهم الانتاجية الاعلى ايضا .

هل يمكن القول ان القوى المنتجة تعطي مواصفات وافية شاملة للانتاج ؟ كان يمكننا ان نقول هذا لو ان كل شخص كان ينتج الحاجيات الضرورية له ، لوحده وبصورة مستقلة عن الآخرين . ولكن الانتاج المنفرد غير ممكن . وحتى لو وجد هذا الناسك المتفرد الذي يرغب في الابتعاد عن المجتمع وانتاج كل ما يحتاج اليه من وسائل للعيش بنفسه ، فانه سيستعمل ادوات الانتاج التي صنعها المجتمع واتقنها ، وسيستفيد من الخبرات

والمعارف الانتاجية التي كدستها اجيال كثيرة من الناس . فما وسائل العمل والخبرة الانتاجية ونتاج العمل الا حصيلة نشاط الناس المشترك الذي يدخلون في اثنائه ، فيما بينهم بالضرورة ، في **علاقات انتاج** .

فما هي علاقات الانتاج هذه ؟ من المعروف ان جميع افراد العشيرة الواحدة كانوا ، في المجتمع البدائي ، يشغلون مركزا واحدا في الانتاج الاجتماعي : فقد كانوا يحصّلون ، معا ، على وسائل العيش الضرورية لهم ، ويساعدون ويؤيدون بعضهم بعضا ، ويستهلكون بصورة مشتركة ما ينتجونه من خيرات مادية . وسبب هذا ان وسائل الانتاج كانت ملكا لكل العشيرة . أما في مجتمعات الرق والاقطاع والرأسمال فالعلاقات تختلف عن ذلك كل الاختلاف . ففي هذه المجتمعات يشغل الناس في الانتاج الاجتماعي مراكز مختلفة باختلاف فئات الناس : فبعضهم يستغل بعضا . وكذلك نتاج العمل يوزع بشكل غير متساو ، اذ تستأثر حفنة المستغلين بحصة الاسد من الخيرات المادية المنتجة ، فيما تعاني الطبقات المظلومة العوز والحرمان . وسبب هذا الوضع ان وسائل الانتاج في المجتمع الاستغلالي هي ملك لاقلية ضئيلة ، ملك للمستغلين . وبعد الانتقال الى الاشتراكية تتغير من جديد صورة علاقات الناس في عملية الانتاج : اذ تقوم فيما بينهم علاقات التعاون في العمل ، وتوزع الخيرات المادية حسب العمل . ومرد ذلك الى ان وسائل الانتاج الاساسية في النظام الاشتراكي هي ملك للمجتمع بأسره .

بديهي انه لكي نقول ما هي العلاقات التي تقوم بين الناس في الانتاج ، يجب ان نعرف لمن وسائل الانتاج . ان علاقات الانتاج هي قبل كل شيء **علاقات ملكية** .

ان الناس لا يستطيعون العيش دون استملاك ما ينتجونه من خيرات مادية ، وهم عندما يستملكونها يدخلون فيما بينهم في علاقات ملكية . ولا يمكن ان يتم الانتاج بدون هذا الشكل او ذاك من اشكال الملكية كطريقة محددة تاريخيا لاستملاك الخيرات المادية . ويؤكد الاقتصاديون البرجوازيون ان الملكية هي سلطة الانسان على الشيء . أما في الواقع فان الشيء لا يصبح موضعا للملكية الا عندما يدخل الناس في اثناء عملية الانتاج في علاقات انتاجية فيما بينهم . ان الملكية يمكن تشبيهها باللغة . فاللغة لا معنى لها اذا اعتبرت نتاج شخص واحد ، اذ لا يوجد في هذه الحال من يتحادث معه هذا الشخص . كذلك تماما امر الملكية فهي لا توجد خارج العلاقات الاجتماعية بين الناس .

ان الملكية الخاصة على وسائل الانتاج تولد علاقات الاستغلال أما الملكية الاجتماعية فتولد علاقات التعاون في العمل . وعلى شكل ملكية وسائل الانتاج يتوقف مركز الفئات الاجتماعية المختلفة في الانتاج وتوزيع نتاج العمل .

كيف اذن تتصل القوى المنتجة وعلاقات الانتاج فيما بينها ويؤثر بعضها في بعض ؟

قانون توافق علاقات الانتاج مع طابع القوى المنتجة .

منذ ان نشأ المجتمع البشري والناس ينتجون الخيرات المادية باستمرار . ولو ان الانتاج قد توقف لاستهلك المجتمع ، عاجلا أو آجلا ، كل ما كدسه من خيرات وهلك . ويدل التاريخ على ان الانتاج يتجدد باستمرار ويتكامل ، وتتغير القوى المنتجة وعلاقات الانتاج على السواء .

في مراحل التاريخ البشري الباكرة كان مستوى القوى المنتجة متدنيا للغاية . وكانت الهراوة والفأس الحجرية والرمح ، ثم فيما

بعد القوس والنشاب ، هي ادوات الانتاج الاساسية لذلك الزمن . وكان الناس لا يسدون الحد الادنى الضروري من حاجاتهم الا بصعوبة بالغة . وما كانوا يحصلون على هذا الحد الادنى الا لكونهم يعملون معا وبصورة مشتركة . وطبيعي ان نتاج العمل ووسائل الانتاج ، لم تكن في هذه الظروف ملكا لاشخاص مفردين بل للعشيرة كلها . وكان سبب الملكية الاجتماعية هو المستوى المتدني لتطور القوى المنتجة . وكان الاستغلال ايضا غير ممكن لان العامل لم يكن يستطيع ان ينتج من المنتجات اكثر مما هو ضروري للقيـام بالاود . وكانت علاقات التعاون في العمل هي السائدة داخل العشيرة . وكانت علاقات الانتاج توافق مستوى تطور القوى المنتجة .

يسمى نظام المشاعية البدائية احيانا بالنظام الشيوعي . ولكنها شيوعية بدائية ، لم تقم على الوفرة بل على العوز والحرمان . وفي ذلك كانت تنحصر محدوديتها وتكمن حتمية هلاكها .

واذا تتبعنا سير التطور بعد ذلك وجدنا ان ادوات الانتاج كانت تتكامل وتتقن بالتدريج ، فتنشأ ادوات العمل المعدنية ، ويجري تقسيم العمل في المجتمع ، فتظهر الى جانب الزراعة ، تربية الماشية ثم الصناعة اليدوية . ويؤدي تقسيم العمل حتما الى تبادل المنتجات ، لان الزارع يحتاج الى حاصلات تربية المواشي ، ومربي المواشي يحتاج الى حاصلات الزراعة . ولا يستطيعان سد هذه الحاجة الا بالتبادل . وكان من ذلك ان علاقات الانتاج في النظام البدائي ، التي كانت تحصر الناس في اطار العشيرة والقبيلة ، لم تعد توافق القوى المنتجة لانها لا تجتمع مع تقسيم العمل والتبادل .

ونتجت عن تقدم الانتاج حتمية هلاك هذه العلاقات . ذلك ان استعمال ادوات العمل الجديدة رفع كثيرا عدد المنتجات ، واصبح من الممكن انتاجها لا في اطار العشيرة او القبيلة بل في

اطار كل اسرة على حدة . وفي الوقت نفسه انتقلت ملكية وسائل الانتاج بالتدريج الى كل اسرة على حدة . وتولدت عن ذلك الملكية الخاصة وتولد معها التفاوت الاقتصادى بين الناس . وزاد التفاوت ايضا بسبب ان الكبار والرؤساء استغلوا هذا الوضع للاثراء . وبفضل وسائل العمل الجديدة اصبح العامل ينتج اكثر مما هو ضروري لمعيشته . وظهر استغلال الانسان للانسان ، واصبح الاغنياء يستعبدون الفقراء واسرى الحرب ويجعلون منهم ارقاء . وحل نظام الرق محل نظام المشاعية البدائية .

في مجتمع نظام الرق يملك الاسياد وسائل الانتاج ويملكون ايضا المشتغل (العبد) الذي هو في الحقيقة «اداة عمل ناطقة»

وفي الفترات الاولى تكون علاقات الانتاج في مجتمع نظام الرق موافقة للقوى المنتجة ، ذلك لان تقدم الثقافة المادية والروحية ، عندما يكون مستوى القوى المنتجة متدنيا نسبيا ، لا يمكن ان يتحقق الا بالاستغلال الذي لا يرحم لجماهير العبيد الغفيرة . وهذا ما كان يمكّن من نمو الانتاج واشتداد عمق تقسيم العمل وتطور الثقافة . وانفصل العمل الذهني عن العمل الجسدي . واصبح في وسع العلماء والشعراء والنحاتين والفلاسفة المتحررين من العمل الجسدي ، وقف انفسهم للنشاط الروحي . وهكذا تطور العلم والفن .

ولكن نمل التاريخ الذي لا يعرف التعب كان يواصل عمله غير الملحوظ . وازداد اتقان القوى المنتجة : فارتفع مستوى الزراعة واصبح الناس يحرزون نجاحات كبيرة في انتاج المعادن والادوات المعدنية ، وزادت مهارة الصناع . وباتت علاقات الانتاج الرقية تزداد ضيقا على القوى المنتجة . فالرق ليست له مصلحة في عمله وانما يعمل تحت كرباج الناظر ولهذا فان

عمله قليل الفعالية . واستنفدت العبودية نفسها بالتدريج وحلت محلها العلاقات الاقطاعية .

ان وسائل الانتاج الاساسية في المجتمع الاقطاعي هي ملك للاقطاعيين اصحاب الاطيان . أما المشتغلون (الفلاحون) فلا يملكون غير العدة الصغيرة لحرث الارض وصيانة القطيع . ويستغل صاحب الاطيان كون الفلاحين بلا ارض فيسخّرهم ويجبرهم على العمل لحسابه . ويقدم لهم قطعة ارض ولكنه ، في مقابل ذلك ، يجبرهم على ان يقدموا له جزءا من المحصول (الاجرة العينية أو المحاصصة) او ان يفلحوا ارضه (السخرة) .

في البدء توافق علاقات الانتاج مستوى القوى المنتجة وتتيح بعض المجال لتطورها ، لان للفلاح القن بعض المصلحة المادية في نتائج عمله ويذهب جزء من المحصول له . ولهذا يبدي همة اكبر في العمل ويستخدم ادوات الانتاج بفعالية اكثر .

ولكن مع مرور الزمن تنمو في قلب النظام الاقطاعي قوى منتجة جديدة . وتتطور المدن ، ويتطور معها انتاج الصناعة اليدوية . ويتعمق تقسيم العمل ويتسع التبادل وتنشأ بالتدريج الاسواق الوطنية . وتتأكل العلاقات البضاعية النقدية كبد النظام الاقطاعي . ويسير التطور شوطا ابعد ، وتنشأ المانيفاكتورة التي تضيّق الخناق على الصانع المستقل . وتظهر اولى الماكنات ، وتنمو المصانع والفبارك بسرعة نمو الفطر بعد المطر .

ويولد التكنيك الجديد الحاجة الى مشتغلين متحررين من القنانة ومثقفين نسبيا . ويصبح النظام الاقطاعي عائقا للتقدم الاجتماعي . ويخلي المكان للنظام الرأسمالي .

وفي النظـــام الرأسمالي توجد وسائل الانتـــاج في ايدي الرأسماليين . أما المشتغل في الانتاج فمحروم من هذه الوسائل ولهذا فهو مضطر الى بيع قوة عمله للرأسمالي .

ان علاقات الانتاج الرأسمالية تخلق امكانيات واسعة لنمو القوى المنتجة . ويفوق تقدم التكنيك كثيرا كل ما تم صنعه في تاريخ البشرية السابق . ولكن الرأسمالية ، اذ تطور القوى المنتجة بهذه الشدة ، تهيئ المقدمات المادية لهلاكها ذاتها . ولا تعود العلاقات الرأسمالية تسع القوى المنتجة الجديدة . فالرأسمالية عاجزة عن الاستفادة لخير البشرية من اغنى امكانيات التكنيك الجديد . وفضلا عن ذلك فهي تولد تناقضات حادة تتجلى في الازمات والبطالة والحروب وخراب القوى المنتجة . ويحين الحين للانتقال الحتمي الى الاشتراكية .

ان تاريخ القوى المنتجة وعلاقات الانتاج يثبت ان بين هذه وتلك وحدة داخلية : اذ ان مستوى معينا للقوى المنتجة يتطلب علاقات انتاج معينة تماما . وان اخذها معا هو وحده الذي يبين كيف وباي شكل ينتج الناس الخيرات المادية في هذه المرحلة أو تلك من تاريخ المجتمع . وبكلمات اخرى فان القوى المنتجة وعلاقات الانتاج ، مجتمعة ، تعين **اسلوب انتاج** الخيرات المادية .

ان القوى المنتجة هي الجانب الاكثر حركة والاكثر تغيرا في اسلوب الانتاج . وهذا بديهي ، لان الناس ، بصنعهم الخيرات المادية ، يكدسون بالتدريج الخبرة الانتاجية ، وهذا بدوره يسمح لهم بتحسين ادوات الانتاج واختراع الجديد منها . ولهذا فان القوى المنتجة هي في حركة مستمرة . أما علاقات الانتاج فشأنها شأن آخر . فان اشكال الملكية لا تتغير كل يوم ، وهي نسبيا ثابتة . ولقد بقيت الملكية الاجتماعية على وسائل الانتاج في النظام البدائي على مدى مئات الوف السنين . وظلت ملكية الرق بضعة الوف من السنين ، كما ظل كل من الملكية الاقطاعية والرأسمالية بضعة قرون .

ما الذي يجري اذن بنتيجة تطور جانبي اسلوب الانتاج تطورا غير متساو ؟ الجواب : ان علاقات الانتاج تتأخر عن القوى المنتجة وتصبح في تناقض معها ، وهذا التناقض يزداد ويتعمق حتى يصبح نزاعا . وتصبح علاقات الانتاج عائقا لاستمرار تطور القوى المنتجة . وينحل النزاع بان تزول علاقات الانتاج القديمة لتأتي محلها علاقات انتاج جديدة توافق مستوى القوى المنتجة . وتخلق علاقات الانتاج الجديدة امكانيات واسعة لنمو القوى المنتجة وتكون هي نفسها في الاطوار الاولى بمثابة المحرك لها . ثم تسبق القوى المنتجة علاقات الانتاج من جديد ، ومن جديد ينشأ عدم توافق بين جانبي اسلوب الانتاج . ويحقق التاريخ قفزة جديدة في تطوره .

وهكذا توجد صلة عميقـــة بين جانبي اسلوب الانتاج . فعلاقات الانتاج متوقفة على القوى المنتجة وعليها ان توافقها : وهذا ما يتطلبه تطور الانتاج . ويولد عدم التوافق تناقضات داخل اسلوب الانتاج ويسبب حتمية تغيير علاقات الانتاج وجعلها موافقة للقوى المنتجة الجديدة .

هذا هو جوهر **قانون توافق علاقات الانتاج مع طابع القوى المنتجة** ، هذا القانون الذي هو المحرك الاساسي للتقدم التاريخي .

وفي دوامة الاحداث العاصفة تصطدم على مقدمة مسرح التاريخ وتفور اهواء السياسيين ورجال الدين والديبلوماسيين والقادة العسكريين . وقد يبدو للمراقب الغر ان هؤلاء هم الذين يصنعون التاريخ حسب هواهم . ولا يخطر بباله ان هناك عمليات تاريخية عميقة ناشئة عن فعل قوانين تطور اسلوب الانتاج وعن التأثير المتبادل بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج ، مع ان هذه العمليات هي اساس التاريخ البشري .

النظام الاقتصادي وحياة المجتمع الروحية . والآن ، وقد تعرفنا على قوانين تطور الانتاج ، لنعد الى الوعي الاجتماعي وحياة المجتمع الروحية ، لنر كيف يحددهما الكيان الاجتماعي وحياة المجتمع المادية .

لنر اي تأثير للقوى المنتجة وعلاقات الانتاج على تطور الوعي الاجتماعي . ولنبدأ بالقوى المنتجة . ان اتقان وسائل الانتاج وتكديس الناس للخبرة الانتاجية يساعدان في نمو معارف الناس العلمية عن الطبيعة . ولكننا نقع في السخف واللامعقول اذا حاولنا استخلاص الافكار والنظريات الاجتماعية من تطور القوى المنتجة مباشرة . وبالفعل تستعمل في البلدان الاشتراكية والبلدان الرأسمالية على السواء ماكنات متماثلة ومع ذلك فان النظام السياسي والايديولوجيا والمبادئ الاخلاقية هي في البلدان الاشتراكية غير ما في الرأسمالية حتى الجذور . وهذا يعني ان اساس النظريات الاجتماعية والانظمة السياسية والعلاقات الاخلاقية لا يجوز البحث عنه في القوى المنتجة مباشرة .

ما هو اذن دور علاقات الانتاج ؟ لنأخذ على سبيل المثل المجتمع الرأسمالي حيث تهيمن علاقات الانتاج الرأسمالية المبنية على الملكية الخاصة واستغلال البرجوازية للعمال . ان النظام السياسي يوافق علاقات الانتاج هذه كل الموافقة : فسلطة الدولة هي في يد البرجوازية التي تسيطر على الاقتصاد . ثم ان الاخلاق البرجوازية مشبعة بالروح التجارية : فهي ايضا تعكس علاقات الانتاج التي الهدف الرئيسي فيها الاثراء والركض وراء الارباح . كما ان النظريات والآراء البرجوازية الفلسفية والسياسية والجمالية والاخلاقية خاضعة لمصالح كيس النقود . قد يعترض معترض

قائلا ان في النظام الرأسمالي ايضا نظريات وآراء طليعية تعبر عن مصالح الطبقة العاملة وغيرها من القوى التقدمية . هذا صحيح . ولكن هذه ايضا لا تنشأ على غير اساس وانما تنعكس فيها تناقضات النظام الرأسمالي .

ولنقارن المجتمع الرأسمالي بالمجتمع الاشتراكي . في النظام الاشتراكي يقوم بين الناس نمط جديد من علاقات الانتاج المبنية على الملكية الاجتماعية . فكيف انعكس هذا في الحياة الروحية والسياسية وفي العلاقات الايديولوجية وفي الوعي الاجتماعي ؟ لقد تغيرت هذه ايضا وفقا لعلاقات الانتاج الجديدة . ففي البلاد السوفييتية دولة للشعب بأسره . وفي العلاقات بين الناس ترسخ مبادئ الاخلاق الشيوعية . وتعبر ايديولوجية المجتمع الاشتراكي ، اي الماركسية – اللينينية ، عن مصالح الشعب بأسره .

ومن المنطقي استنتاج ان منظومة علاقات الانتاج التي تشكل النظام الاقتصادي للمجتمع ، هي بالذات اساس حياة المجتمع الروحية . فالنظام الاقتصادي هو نوع من **قاعدة** يقوم عليها **بناء فوقي من** مختلف الافكار والنظريات الاجتماعية والعلاقات الايديولوجية المتنوعة والمؤسسات السياسية والحقوقية والثقافية .

دور البناء الفوقي الايديولوجي . ان الحياة الاجتماعية متعددة الاشكال ، ولا يمكن ارجاعها الى الاقتصاد وانما هي ترابط معقد من العلاقات الاقتصادية والسياسية والاخلاقية والحقوقية وغيرها من العلاقات بين الناس . ولا شك ان للافكار والنظريات والآراء الاجتماعية دورا عظيما في التاريخ . فهي ، اذ تعكس النظام الاقتصادي ، توجّه نشاط الناس وتؤثر من خلاله على تطور المجتمع ، وعلى الاقتصاد من جملته . قال ماركس ان الافكار تصبح قوة مادية عندما تستحوذ على الجماهير .

طبيعي ان هناك افكارا وافكارا . فاذا كانت الافكار الطليعية تعجل التطور الاجتماعي فالافكار الرجعية ، بالعكس ، تعيقه .

وعلى هدى افكار معينة يدخل الناس في علاقات ايديولوجية فيما بينهم ويصنعون انواعا مختلفة من المؤسسات والمنظمات الاجتماعية . كما ان العلاقات والمؤسسات الايديولوجية تؤثر في الاقتصاد ايضا .

وهكذا فان البناء الفوقي الايديولوجي ليس مجرد مرآة ينعكس عليها النظام الاقتصادي بشكل سلبي ولا مجرد آلة تسجل تغيراته اوتوماتيكيا . وانما يؤثر تأثيرا راجعا فاعلا في الاقتصاد ويتشابك عضويا في السيل العام لتطور المجتمع . وكل من حاول ارجاع الحوادث التاريخية الى الاقتصاد وحده كان حتما يستعيض عن غنى الحياة الاجتماعية وتنوع الوانها بمصور جاف يبسّط الماركسية ويبتذلها .

فكيف مثلا يمكن فهم ازدهار الفن الواقعي الروسي في القرن التاسع عشر ؟ ان تفسيره بالعوامل الاقتصادية وحدها لا يمكن بدون الاساءة للحقيقة . فقد كان في البلاد آنذاك نظام اقطاعي متأخر ، فكيف امكن ان تنشأ على هذه القاعدة مؤلفات الادب والرسم والموسيقى الرائعة ؟ ولكن اسباب انطلاقة الفكر الفني والادبي الخارقة ستكون مفهومة اذا اخذنا بعين الاعتبار ، الى جانب الاقتصاد ، الجوانب الاخرى من الحياة ايضا . ان المحتوى الفكري للفن الواقعي الروسي يحدده في الدرجة الاولى ذلك الصراع السياسي العنيف الذي اتسع في البلاد ضد القنانة . واثرت فيه تقاليد الفولكلور وتيارات الغرب الفكرية التقدمية وكثير من العوامل الاخرى . قد تسألون : واين الدور الاولي للاقتصاد ؟ ولكن يجب الا ننسى ان الصراع السياسي في روسيا ، وتقاليد

الفولكلور وتيارات الفكر الاجتماعي التقدمية في البلدان الاخرى ، كانت متوقفة ايضا على النظام الاقتصادي ، وكانت جذورها تضرب فيه . وهكذا فان النظام الاقتصادي هنا ايضا لعب دورا اوليا ، ولكن بشكل غير مباشر وانما بواسطة السياسة والاخلاق والفلسفة وغيرها .

ان ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى في روسيا سنة ١٩١٧ هي حدث هام في تاريخ البشرية . ولكن هل يمكن لنا ان نعتبر انها لم تحدث الا بنتيجة تطور الاقتصاد والقوى المنتجة ؟ وهل كان يمكن للثورة ان تنتصر لو ان الطبقة العاملة في روسيا لم تكدس خبرة سياسية كبيرة ، ولو انها لم تمر بمدرسة عام ١٩٠٥ القاسية ، ولم تصنع التحالف السياسي المتين مع الفلاحين ؟ الجواب طبعا بالنفي . فلا يمكن ان نتصور انتصار الثورة لولا الحزب الشيوعي الذي قاد نضال الطبقة العاملة وكان هيئة الاركان الكفاحية للثورة . طبيعي ان ثورة اكتوبر كانت في آخر كل حساب تعبر عن ضرورة اقتصادية ولكن هذه الضرورة نفسها كانت تتجلى في صراع الطبقات السياسي وفي نشاط الحزب وفي النضال الفكري الذي خاضه لينين ضد الايديولوجية البرجوازية والتحريفية والجمود العقائدي .

ان تطور المجتمع هو تأثير متبادل بين الاقتصاد وبين السياسة والايديولوجيا وجميع جوانب الحياة الاجتماعية الاخرى . ومن الخرق انكار دورهـــا . ولكن يجب ان نرى دائما في هذا التأثير المتبادل ، الاساس الاقتصادي الذي يتخلله بوضوح والذي يسمح بفهم المنطق القانوني للتطور الاجتماعي .

ما هي التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية . لنحاول الآن تكوين صورة لانفسنا عن الحياة الاجتماعية بمجملها . انها لم

تعد تبدو لنا تراكما فوضويا من الوقائع والحوادث ، وتشابكا لا نظام فيه بين افعال البشر . ففي منظومة علاقات الانتاج وجدنا ما يصح تشبيهه بالهيكل العظمي للمجتمع ، الذي يعطي هذا المجتمع وحدته وكماله . أما علاقات الناس الايديولوجية ونشاطهم الروحي وآراؤهم ومصالحهم السياسية ومثلهم العليا الاخلاقية فهي تغلف الهيكل العظمي باللحم والدم وتشكل معه كائنا عضويا اجتماعيا حيا متطورا . وهكذا فان المجتمع ، مأخوذا في وحدة جميع جوانبه ومع النظـــام الاقتصادي والبنـــاء الفوقي الايديولوجي والسياسي الخاصين به ، يشكل في كل درجة من درجات التطور التاريخي ، **تشكيلة اجتماعية اقتصادية** متكاملة .

وما تاريخ المجتمع الا تاريخ تطور وتبدل التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية . وتجري هذه العملية حسب قوانين موضوعية غير متوقفة على وعي الناس وارادتهم بل انها هي التي تحدد هذه الارادة والوعي . ومجموع ما يعرفه التاريخ خمسة تشكيلات : المشاعية الابتدائية ، ونظام الرق ، والاقطاعية ، والرأسمالية ، والشيوعية . وتبدل اسلوب الانتاج يعني تغير بنية المجتمع الاقتصادية . وعلى اثر ذلك يحدث ، بسرعة تزيد او تنقص ، انقلاب في كل البناء الفوقي الايديولوجي . ويتم الانتقال من تشكيلة اجتماعية اقتصادية الى أخرى . وكل تشكيلة تالية تعني درجة جديدة في التاريخ .

في علم الاجتماع البرجوازي نظرية تقول بالتطور الدوري للتاريخ ومفادها ان التاريخ يتألف من سلسلة متتابعة من الدورات كل دورة فيها تكرر الدورة السابقة وليس ثمة اية حركة الى امام اجمالا . ولكن هذا غير صحيح .

قارنوا مستوى تطور القوى المنتجة في تشكيلات مختلفة تحققوا من ان هذا المستوى يرتفع بلا انقطاع مع الانتقال من

تشكيلة الى أخرى . ولا شك ان التقدم يلاحظ في تطور الثقافة الروحية ايضا .

قد يحدث في بعض فترات التاريخ ركود وحتى حركات رجوع الى وراء في تطور الثقافة . فمع الانتقال من مجتمع الرق الى المجتمع الاقطاعي جرى في اوروبا ، في الاوقات الاولى ، انحطاط ملاحظ في تطور الفن وهذا يدل مرة اخرى على ان الوعي الاجتماعي لا يتبع النظام الاقتصادي ميكانيكيا . ولكن اذا اخذنا الثقافة بمجملها وليس بعض ميادينها ، وقارنا التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية بمجملها وليس بعض فترات التاريخ ، ظهر لنا ان كل تشكيلة اجتماعية اقتصادية هي خطوة الى امام بالقياس الى سابقها في ميدان تطور الثقافة الروحية .

ان التطور الاجتماعي لا يجري في دائرة بل بحركة صاعدة ، من الادنى الى الاعلى . وفي هذا جوهر **التقدم الاجتماعي** .

الضرورة التاريخية ونشاط الناس

الناس هم الذين يصنعون التاريخ . بعد ان عرفنا ان المجتمع ، مثله مثل الطبيعة ، يتطور حسب قوانين موضوعية ، يكون من المنطق ان نطرح على انفسنا هذا السؤال : ما هو اذن دور الناس في المجرى التاريخي ؟ أوليس الانسان اداة عمياء في يد الضرورة التاريخية ؟

تحكي لنا الاساطير القديمة عن قدر لا يرحم يسيطر على الناس وعلى الآلهة . ويعجز الانسان عن تغيير ما كتبته له آلهة القدر . فهل الضرورة التاريخية شبيهة بالقدر ؟ وما دامت موجودة ، أفليس من الافضل اصلا الابتعاد عن النشاط الاجتماعي وانتظار نتيجة الاحداث الحتمية انتظارا خاملا .

ان الايديولوجيين البرجوازيين ، في محاولتهم دحض الماركسية-اللينينية ، يزعمون انها تؤدي الى **الجبرية** ، اي الى تلك النظرة للعالم التي تقول ان جميع الاحداث التاريخية مقدرة مسبقا . فلماذا النضال في سبيل الاشتراكية والشيوعية ، كما يقول هؤلاء ، ما دامت قوانين التاريخ توصل حتما الى الشيوعية ؟ وهل يخطر في بال احد ان يناضل لكي يأتي الربيع او الصيف ؟

ان بطلان طرح المسألة على هذا الشكل واضح بين . فقوانين التاريخ تختلف عن قوانين الطبيعة بانها تشق لنفسها الطريق الزاما بواسطة نشاط الناس . ولا تتجلى الضرورة التاريخية في وجود عمليات جبرية خارج النشاط البشري ، بل في انه ، بسبب تطور الانتاج ، تختمر في المجتمع حاجات مادية جديدة تحفز مجموعات كبيرة من الناس الى العمل في اتجاه معين .

فعندما تحولت العلاقات الاقطاعية الى اغلال للقوى المنتجة ، نشأت حاجة مادية الى القضاء عليها . وقد تجلت هذه الحاجة في النشاط الثوري للبرجوازية والفلاحين الذين كانوا يعانون من نير العلاقات الاقطاعية . فكنس نضال هذه الطبقات الثوري النظام الاقطاعي . وهجم جنود الثورة باعظم النشاط والبسالة على الباستيل وحموا النظام الجديد من الثورة المعاكسة الاقطاعية . ولولا نضالهم الثوري لما انهار النظام الاقطاعي من تلقاء نفسه . ويتضح من هذا المثال ان قوانين التاريخ لا تفعل اوتوماتيكيا . وان الناس هم الذين يصنعون تاريخهم ، ولكن لا بشكل اعتباطي بل تحت تأثير الظروف المحيطة بهم واهمها الضرورة الاقتصادية التي تتحقق بواسطة نشاط الناس الذين يعون بدرجة متفاوتة من الوضوح حاجات التطور الاجتماعي المختمرة .

لا يناضل الجميع في المجتمع في سبيل تحقيق حاجات التطور الاجتماعي المختمرة . فالقوى الرجعية تعارض الضرورة التاريخية لان هذه تشكل خطرا على رفاهها وسلطتها . ويعيق نشاط الرجعيين التقدم الاجتماعي ، ولكنه لا يستطيع الغاءه . فمحاولات الامبرياليين مثلا للابقاء بكل الوسائل على الاستعمار تعيق تحرر الشعوب المستعمرة ولكنها لا تستطيع اطفاء شعلة الحركة الوطنية التحررية ودرء انهيار النظام الاستعماري انهيارا نهائيا .

لقد هاجم لينين بشدة الانتهازيين الذين يستصغرون اهمية النضال الثوري النشيط في سبيل الاشتراكية ودور الوعي الاشتراكي والنظرية الثورية ودور الحزب في النضال .

وبديهي انه كلما وعت القوى الثورية ، بوضوح اكبر ، ضرورة انتصار النظام الجديد وكلما ناضلت في سبيله بنشاط اكبر ، كان تحقق التقدم الاجتماعي اسرع .

الضرورة التاريخيـــة والحريـــة . يزعم الايديولوجيون البرجوازيون ان الضرورة التاريخية تسلب الناس الحرية . فالحرية والضرورة التاريخية لا تجتمعان في نظرهم .

لنحلل هذه المسألة . لنفترض ان رجلين ضلا السبيل في غابة ، وان احدهما لا يأبه للصلات الضرورية الموجودة في الطبيعة ولذلك يتصور نفسه حرا ويبدأ السير في اول اتجاه يلقاه . ان بوسع هذا ان يعلل النفس بانه «حر» في اي وقت لتغيير اتجاهه والانطلاق في اتجاه آخر . وبعد ان يضيع ساعات كثيرة بلا جدوى ويتعب ويجوع يدرك اخيرا ان «حريته» كانت سرابا . فهو في الحقيقة غير حر وانما هو خاضع كليا للبيئة التي هو فيها والتي تثير فيه الرعب واليأس . أما الآخر فيفعل غير ذلك . انه يعرف ان في الطبيعة صلات ضرورية بين الجهات الاربع وموقع

الاجرام السماوية . فيتذكر كل ما يعرفه عن هذه الصلات من الكتب ومن الخبرة الشخصية ويختار الطريق الذي يوصله في اقصر وقت الى بيته . وهكذا فان معرفة الضرورة والعمل وفق هذه الضرورة يسمحان لهذا الرجل بان يحدد طريقه في البيئة التي هو فيها وبذلك يكون حرا فعلا بالنسبة لها .

هذا التشبيه الذي ذكرناه يساعدنا في ان نفهم ان معرفة الضرورة الموضوعية تعطي للناس حرية التصرف التاريخي . وخير مثال على ذلك نشاط الشعب السوفييتي بقيادة الحزب الشيوعي . فالحزب مسلح بمعرفة قوانين التطور الاجتماعي وينظم اعمال الشعب وفقا للضرورة التاريخية التي تؤدي الى الشيوعية . أما النتائج فمعروفة : فقد تم في الاتحاد السوفييتي بناء الاشتراكية ، والشعوب السوفييتية واثقة بغدها وتتقدم الى امام في خط السير الذي رسم ، وفقا لقوانين التاريخ ، في برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي . ان الشعب السوفييتي حر ويختار اتجاه حركته بدقة ، كشخص يعرف جيدا بما يهتدي .

وهكذا فان الضرورة لا تنفي الحرية ابدا ، كما ان الحرية لا تنفي الضرورة . **ان الحرية هي في معرفة الضرورة وفي استخدام هذه الضرورة عمليا .**

الجماهير الشعبية والفرد . اذا تصفحنا كتاب التاريخ صادفنا على صفحاته بضع مئات من اسماء اناس تركوا اثرا عميقا جدا في حيـــاة المجتمع . هؤلاء كبـــار العلمـــاء والقادة العسكريين والشخصيات الاجتماعية وعباقرة الفن والفكر وزعماء الحركات الثورية . وهل ثمة من لا يعرف اسماء اسكندر المقدوني ويوليوس قيصر وسبارتاكوس وبطرس الاول ونابوليون ؟ وقد يبدو ان هؤلاء هم صانعو التاريخ الوحيدون .

لا مشاحة في ان الافراد البارزين يلعبون دورا كبيرا في التاريخ . وهل يمكن ، مثلا ، انكار اهمية روبيسبيير في تاريخ فرنسا ؟ ولكن فيم كانت قوة روبيسبيير ؟ ان دراسة اعماله وخطبه ومراسيمه تدل انه كان يعبر عن مصالح حركة الشعب الفرنسي الجماهيرية المعادية للاقطاعية . ولهذا اختارته الجماهير زعيما لها وايدته . وبعكس ذلك فيم كان ضعف روبيسبيير الذي اوصله الى سكين المقصلة نفسها التي اعدم بها اعداء الثورة ؟ ان روبيسبيير ، في الفترة الاخيرة من نشاطه ، فقد دعامته في الجماهير . واذن فان نشاط عظماء الناس التاريخي يستند الى حركات الجماهير الشعبية التي تنشأ عن الحاجات العميقة لتطور المجتمع والامة .

كان بين الشعبيين الروس في السبعينيات عدد غير قليل من الناس البواسل الموهوبين . ولكنهم كانوا ابطالا منعزلين ، بعيدين عن الشعب . ولهذا لم يأت نشاطهم بالنتائج المتوخاة . ان الفرد ، مهما كانت صفاته الشخصية ممتازة ، يمنى حتما بالهزيمة اذا كان منفصلا عن الجماهير ولا يعبر عن حاجات التطور الاجتماعي المختمرة .

لنطرح هذا السؤال : ماذا كان يحل بالتاريخ لو لم يظهر هذا الرجل العظيم او ذاك على مسرحه ؟ وهل اذا كان كروميل قد مات لمصادفة من المصادفات في سن الطفولة لم تحدث الثورة البرجوازية البريطانية ؟ كلا ، انها كانت ستحدث طبعا ، لان التاريخ تحدده قوانين موضوعيـــة عميقة لتطـور التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية . ولقد كانت الثورة البرجوازية في بريطانيا في القرن الثامن عشر ضرورة تاريخية . ولو لم يكن كروميل لكان غيره قد حل محله . ربما لو حدث ذلك لكانت كثير من

الاحداث التاريخية قد جرت آنذاك بشكل آخر وفي مواعيد اخرى ، ولكن الاتجاه الاساسي للتطور كان سيبقى على حاله .

يعرف التاريخ حالات طمع فيها عدة اشخاص دفعة واحدة بهذا الدور الاجتماعي او ذاك . فعلى مدى عشرين سنة دافع نابوليون عن مصالح البرجوازية الفرنسية . ولكن من السهل افتراض ان يهلك فى احدى المعارك قبل انقلاب ١٨ برومير . ولو كان ذلك قد حدث لانتقل دوره الى احد الجنرالات الذين كانوا معه يطمعون بالسلطة .

ان دور الفرد العظيم ينحصر في ان يعي الحاجات الاجتماعية باوضح من الآخرين ويعبر عنها بادق منهم ، وينظم القوى الطليعية ويقود نضالها في سبيل سد هذه الحاجات .

وبمقارنة الشخصيات البارزة في مختلف العصور يمكن القول ان اهمية نشاطهم التاريخية كانت تحددها دائما مقاييس تلك الحركة الاجتماعية التي كانوا يعبرون عن مهماتها . فالحركة الثورية للبروليتاريا التي لا تضاهيها من حيث الشأن اية حركة اجتماعية اخرى في تاريخ البشرية ، تتطلب من زعمائها وقادتها مطالب عالية بشكل خاص .

لقد انجبت الحركة العمالية عباقرة البشرية الكبار ، مبدعي الايديولوجية الشيوعية ، معلمي وزعماء كادحي العالم بأسره كارل ماركس وفريدريك انجلس وفلاديمير لينين . وكان مؤسسا الماركسية يتحليان بصفات ممتازة : بموهبة الاستشفاف العملي العميق ، وملكة التعميم الخلاق لخبرة الحركة الثورية ، والمقدرة على الجمع بين النظرية والممارسة ، والنبوغ التنظيمي ، والارادة الحديدية للنصر ، والرجولة الشخصية والجاذبية . وان البشرية تتقدم بواجب الاحترام العميق والحب الشديد لهما لما اسدياه

من مساهمة عظيمة في قضية النضال من اجل تحرير الكادحين وفي سبيل التقدم الاجتماعي .

ومهما كان دور كبار الشخصيات عظيما ، فليس في ذلك اي شيء خارق للطبيعة . أما الايديولوجيون البرجوازيون فانهم ، اذ ينكرون دور الجماهير الشعبية في التاريخ يحاولون احاطة نشاط الرجال العظام بستار من الغموض الصوفي وينسبون اليهم المقدرة على صنع التاريخ حسب هواهم ويشيدون بالخضوع الاعمى لهم وبعبادة الانسان الاعلى (السوبرمان) . ولكن عبادة الفرد غريبة تماما عن الفهم المادي للتاريخ ، الذي يقول برؤية اساس التاريخ في الانتاج المادي ، **في نشاط الجماهير الشعبية .**

لقد كان ماركس وانجلس ولينين يستنكرون دائما تعظيم الشخصيات تعظيما فائق الحد والتبخير لهم ؛ وكانوا خصوما اشداء لعبادة الفرد ، ويبينون اي ضرر عظيم يمكن ان تلحقه بالحركة الثورية .

حتى في ميادين العلم والفن والثقافة ، حيث المواهب الشخصية للناس هامة بشكل خاص ، تحدد التقدم الثقافي في آخر كل حساب ، الحاجات الاجتماعية . فالعلماء الكبار يحققون الاكتشافات التي مهدت الممارسة الاجتماعية لها الطريق ، والفنانون الكبار يعبرون في آثارهم عن نظرات عصرهم الاجتماعية .

بديهي ان نظرية التطور التدريجي التي قال بها داروين قد هيأ لها السبيل تطور الممارسة الزراعية . ومما يدل على ان ضرورة انشاء هذه النظرية قد حانت ، الافكار التي قال بها العلماء السابقون لداروين . وانما عمم داروين ممارسة الزراعة وخبرة تطور العلم البيولوجي وانجز عملهم بشكل عبقري .

وفي ميدان الفن الكلاسيكي لن تجد اثرا لا يعكس المصالح الاجتماعية بشكل من الاشكال . وليس من قبيل المصادفات ان

عصور الانعطافات الشديدة في التاريخ تنجب اعمالا فنية عظيمة . فعصر النهضة مثلا انجب كوكبة كاملة من الشعراء والفنانين الكبار .

ولكن من اين تظهر الحاجات الاجتماعية التي تنجب الناس العظماء ؟ انها تنشأ قبل كل شيء نتيجة لتطور الانتاج . وما دام الامر كذلك فعلينا ان نستنتج ان الدور الحاسم في التاريخ هو لاولئك الناس الذين يشتغلون في الانتاج ويصنعون الخيرات المادية . وهذا العمل التاريخي العظيم كانت الجماهير الكادحة تقوم به دائما .

لنعد الى ميدان السياسة . يمكن القول بيقين : ليس في التاريخ انعطاف شديد واحد لم يكن فيه الدور الحاسم للجماهير الشعبية . ففي الثورات وفي الحروب التحررية كانت الكلمة الرئيسية للشعب دائما . ولكن حتى في فترات السلام ، عندما تحاول الطبقات المسيطرة منع الشعب من الاشتراك في السياسة ، كان الشعب مع ذلك يؤثر فيها . وكان الملوك ورؤساء الجمهوريات والوزراء الذين يدافعون عن مصالح المستغلين ، يضطرون الى اخذ مطالب الشعب بعين الاعتبار . وكانت الجماهير الكادحة تحد بنضالها من جشع الطبقات المسيطرة وكانت في احوال غير قليلة تجبرها على التراجع .

وفي الميدان الروحي يبدو لاول وهلة ان الافراد البارزين هم وحدهم ذوو التأثير . فالعلماء والكتاب والشعراء والفنانون والموسيقيون سلسلة متواصلة من الاسماء اللامعة . ولكن من اين تنزح العقول العظيمة افكارها والهامها ؟ من المعروف للجميع ان العلم يتطور على اساس الممارسة ، على اساس نجاحات الانتاج . وهذا يعني ان مصادر الافكار العلمية تكمن في الخبرة

الانتاجية العظيمة التي يجمعها ، حبة حبة ، المنتجون المباشرون للخيرات المادية – اي الجماهير الشعبية .

أما فيما يتعلق بالفن الكلاسيكي ، فنحن نعرف جيدا من تاريخ الادب ان جذوره شعبية عميقة . ومن منا لا يهتز طربا للاغاني والحكايات والسير الشعبية . ان الشعب هو شاعر وفنان وموسيقى عظيم . وان اساتذة الفن الحقيقيين يستقون المحتوى الفكري والصور الفنية لمؤلفاتهم من حياة الشعب وابداع الشعب . قال غوركي : «ان الشعب هو الذي خلق زفس ثم جاء فيدياس فجسده بالمرمر» .

فكما نرى ليس في الحياة الاجتماعية ميدان ليس فيه الدور الحاسم للشعب . وهذا الدور يزداد طول الوقت في سياق التطور التاريخي . وهو عظيم بنوع خاص في عصرنا الحاضر حيث تنتقل البشرية الى الشيوعية . فمهمات بناء المجتمع الشيوعي التاريخية العظيمة للغاية لا يمكن تحقيقها اذا لم تشترك اوسع الجماهير الكادحة في هذا العمل .

الطبقات والنضال الطبقي

ما هي الطبقة . في كل مجتمع ، عدا المشاعية البدائية ، توجد فئات كبيرة من الناس يختلف بعضها عن بعض بعدد من العلائم الاساسية . فهناك عبيد واسياد ، اقطاعيون وفلاحون ، رأسماليون وعمال – وهذه هي الفئات الاجتماعية التي تسمى بالطبقات . فما هي العلائم الاساسية للطبقة ؟

لنأخذ المجتمع الرأسمالي ولنحلل الفروق الموجودة بين العمال والرأسماليين . انهم يختلفون فيما بينهم من حيث ظروف



مدينة سورموفو . متراس . ديسمبر ١٩٠٥ . لوحة الرسام فينوغرادوف

المعيشة والآراء السياسية والاخلاق واحيانا حتى من حيث اللغة والملبس والسلوك . وهذه العلائم التي عددناها هامة ولكنها لا تكفي للكشف عن الفروق الطبقية الجذرية التي تجعلنا نفهم لماذا يأخذ العامل والرأسمالي بآراء مختلفة ويعيشان نمطي حياة مختلفين . واذا قلنا ان هذا يحدث لان للرأسمالي ايرادات كبيرة فاننا بذلك نقترب من الفروق الطبقية الاعمق التي تتغلغل في دائرة الاقتصاد : فالعامل والرأسمالي يختلفان من حيث طريقة الحصول على الايراد ومن حيث مقدار هذا الايراد . ولكن من جديد ينشأ سؤال : لماذا ينال الرأسمالي ثروات اجتماعية اكثر من العامل ؟ السبب الوحيد لذلك ان في يد الرأسمالي وسائل الانتاج . وبفضل ذلك يشغل الرأسمالي مركزا مهيمنا في الاقتصاد ويتمكن من استغلال العمال والاستئثار بثمار عملهم .

ان العلاقة بوسائل الانتاج هي العلامة الرئيسية للفروق الطبقية . منها تنبع العلائم الاخرى : كالمكانة في منظومة الانتاج الاجتماعي ، والدور في التنظيم الاجتماعي للعمل ، وطرق الحصول على الثروة الاجتماعية ومقادير تلك الحصة من الثروة الاجتماعية التي تتصرف بها كل طبقة ، وكذلك العلائم والصفات السياسية والاخلاقية والسيكولوجية والفكرية .

يتضح رأسا ان الطبقات لا توجد الا حيث تكون علاقة مختلف فئات الناس تجاه وسائل الانتاج مختلفة . والطبقات ليست ازلية ولا ابدية . ففي المجتمع البدائي ، حيث لا ملكية خاصة ، لم يكن من الممكن وجود الطبقات . وانما ظهرت مع ظهور الملكية الخاصة ولسوف تزول بالتدريج بعد القضاء على الملكية الخاصة .

اداة السيطرة الطبقية . ان الطبقات المستغلة ، بامتلاكها وسائل الانتاج ، تمتلك قوة اقتصادية عظيمة تستخدمها لفرض مشيئتها على المجتمع . وتعلن الملكية الخاصة على وسائل الانتاج ، والانظمة التي تضمن امكانية استغلال الاقلية للاكثرية ، دعائم للمجتمع مقدسة خالدة . ويعلن كل نشاط موجه ضد مصالح المستغلين ، مخالفا للقانون ويلاحق . وتضبط العلاقات الاجتماعية في المجتمع الطبقي بواسطة القوانين والاعراف الحقوقية التي تعبر عن ارادة الطبقة المسيطرة . ومجموع هذه القوانين والاعراف يسمى **بالحقوق** .

ولكن لماذا يجب على الجميع ان يذعنوا لمشيئة الطبقة المسيطرة والتقيد بالقوانين التي تضعها ؟ الجواب : لان في ايدي الطبقة المسيطرة هيئات السلطة كالبوليس والجيش والمحاكم والسجون وغير ذلك . وكل هذه الهيئات تشكل الجهاز السياسي وماكينة قمع الطبقـــات المظلومة ـ **الدولة** . **والدولة** في جميع

التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية المتناحرة **هي اداة في ايدي المستغِلين للسيطرة الطبقية على المستغَلين .**

لقد نشأت الدولة مع انقسام المجتمع الى طبقات . أما قبل ذلك فكانت الشؤون الاجتماعية يسيرها الناس جميعا بصورة مشتركة ، ولم تكن السلطة منفصلة عن الشعب . وكانت هيبة ونفوذ مشايخ القبائل وزعمائها يقومان على صفاتهم الشخصية : الخبرة الكبيرة ، والحكمة ، والجرأة ، الخ .. ومع نشوء الملكية الخاصة استولت الطبقة المالكة على السيطرة السياسية في المجتمع . ومنذ ذلك الحين انفصلت السلطة عن الشعب وتحولت الى سلطة دولة للمستغِلين ، اصبحت وظيفتها الرئيسية قمع مقاومة الجماهير المظلومة .

ان حلول تشكيلة اجتماعية اقتصادية محل أخرى يجر وراءه طبعا تغيرا في محتوى الدولة الطبقي . وتبعا لهذا نميز ثلاثة نماذج اساسية للدول الاستغلالية : القائمة على الرق ، والاقطاعية ، والبرجوازية .

لنقارن بين بعض الدول البرجوازية : في بريطانيا ملكية دستورية ، في الولايات المتحدة حكم رئاسي ، في اسبانيا ديكتاتورية فرانكوية . وكل هذه الدول من نموذج واحد . ولكنها مع ذلك تختلف فيما بينها ... تختلف في الشكل . ويتوقف شكل الدولة ، اولا ، على **شكل الحكم** ، وثانيا ، على **النظام السياسي** . وهناك شكلان اساسيان للحكم : الملكية والجمهورية .

ان **الملكية** هي سلطة شخص واحد (الملك او القيصر او الامبراطور) وتنتقل بالوراثة . وفي هذا يستند الملك الى الطبقة المسيطرة وينفذ ارادتها .

واذا بدأت اعماله ونواياه تختلف عن مصالح الطبقة المسيطرة وجدت هذه الاخيرة طريقة لتغيير الملك بآخر اكثر

تساهلا . فعندما عقد الامبراطور الروسي بولس الاول حلفا مع نابوليون قتلته طبقة الاعيـان ، لان التحالف مع البرجوازية الفرنسية كان يتناقض مع مصالح الارستقراطية الاقطاعية . وقد قال احد المؤرخين في هذا الصدد ان في روسيا «حكما مطلقا محدودا باغتيال الملوك» .

أما **الجمهورية** فهي السلطة التي تقوم بها هيئات منتخبة . وطبيعي ان الجمهورية ، في المجتمع الاستغلالي ، تعبر ايضا عن مصالح الطبقة المسيطرة .

ان النظام السياسي يعين طرائق الحكم . فالطبقة المستغلة المسيطرة تستطيع اللجوء الى الطرائق الارهابية السافرة لقمع الطبقات المظلومة ، وتستطيع ان تحكم ايضا بالطرائق الديموقراطية ، وهي في اغلب الاحيان تجمع بين «سياسة الكرباج وسياسة الحلوى» اي بين سياسة الترهيب وسياسة الترغيب .

اقتربنا من توضيح مفهوم هام جدا هو **الديموقراطية** . وهي تعني نظاما للدولة يضمن اشتراك الجماهير الشعبية في الحكم وحرية الفرد اي امكان المواطنين الاستفادة من الحقوق السياسية (كتساوي الجميع امام القانون ، وحرية القول والصحافة والاجتماع ، وحرمة المسكن ، الخ .) .

لا يمكن للديموقراطية الا ان تكون محدودة في المجتمعات الاستغلالية . فمن المعروف ان جزءا كبيرا من السكان — العبيد — في جمهوريات نظام الرق الديموقراطية من طراز أثينا او روما القديمة ، كان اصلا محروما من كل الحقوق . وفي جمهوريات المدن في القرون الوسطى — فينيسيا وفلورنسيا في ايطاليا ، ونوفغورود في روسيا — كانت السلطة بيد الاغنياء

من التجار ومعلمي الحرف . وفي الجمهوريات البرجوازية الحديثة ، بالرغم من حق الانتخاب العام ، تدير دفة السلطة البرجوازية الكبيرة التي تستعمل كل جبروتها الاقتصادي وكل حلقات جهاز الدولة ووسائل الدعاية ، ولا تأنف من اللجوء الى الرشوة والخداع والتزوير ، لمنع الجماهير الكادحة من الوصول الى حكم الدولة . وهكذا فان وجود المؤسسات الديموقراطية لا يغير الطابع الطبقي للدولة .

ان الدولة في المجتمع الاستغلالي هي دائما من حيث محتواها اداة لسيطرة المستغلين ، وليست الديموقراطية الا من صفات احد اشكال هذه السيطرة .

وفي الوقت نفسه فان الديموقراطية ، مهما كانت محدودة واحيانا زائفة ، هي في ظروف المجتمع الاستغلالي احظى اشكال السيطرة قبولا عند الكادحين . فجميع المؤسسات الديموقراطية هى مكسب من مكاسب الجماهير الشعبية التي ناضلت على مدى الوف السنين في سبيل حقوقها وظفرت بتنازلات من الطبقات المسيطرة .

ان الديموقراطية البرجوازية ، بالرغم من محدوديتها الطبقية ، تخلق الظروف الملائمة للنضال في سبيل تحسين اوضاع الطبقة العاملة التي تستطيع ، بالاستفادة من الحريات السياسية المعلنة في الدستور ، ان تنظم نفسها بشكل افضل للنضال الثوري من اجل اسقاط النظام الرأسمالي . وليس من قبيل المصادفات ان البرجوازية الاحتكارية ، خوفا من نمو الحركات الثورية ، تسعى الى التخلص من الديموقراطية واقامة ديكتاتوريتها الارهابية السافرة . ولهذا فان من اهم مهمات الطبقة العاملة النضال في سبيل حفظ الديموقراطية وتوسيعها .

أما الديموقراطية الحقة فغير ممكنة الا في ظروف الاشتراكية ، حيث المبدآن الرئيسيان للديموقراطية – سلطة الشعب وحرية الفرد – يجدان اساسا متينا في العلاقات الاقتصادية .

قوة التاريخ المحركة . ان التاريخ كله مليء بنضال الطبقات . وكم من مرة اهتزت دول الرق في الشرق واليونان وروما تحت ضربات العبيد الثائرين . وفي عصر الاقطاعية جرت انتفاضات الفلاحين الجماهيرية : ووت تايلر في بريطانيا ، والجاكيري في فرنسا ، وحرب الفلاحين في المانيا ، وانتفاضات بولوتنيكوف وورازين وبوغاتشوف في روسيا ، وحروب الفلاحين في الصين . وابتداء من مطلع القرن التاسع عشر حتى ايامنا هذه تقوم في البلدان الرأسمالية معارك طبقية للبروليتاريا .

فما هي اسباب النضال الطبقي وما هو دوره في تاريخ المجتمع ؟

ان النضال الطبقي ينبع حتما من التناحرات* الاجتماعية بين المستغِلين والمستغَلين . فوضع الطبقات المظلومة نفسه في المجتمع ، والضيق الذي تعانيه من جانب الظالمين ، يدفعانها الى النضال الثوري .

يزعم الايديولوجيون البرجوازيون ان مصالح الطبقات المتضادة يمكن ان تتفق . ولكن كيف يمكن التوفيق بين الظالم والمظلوم ؟ ان على المستغِلين ، من اجل ذلك ، ان يتخلوا طواعية عن ملكيتهم لوسائل الانتاج . ولكن بيت القصيد هو ان المستغِلين لم يفعلوا ذلك ولن يفعلوه ابدا . ولا يمكن

---

* نطلق كلمة التناحرات على التناقضات القائمة بين الطبقات ذات المصالح المتضادة التي لا يمكن ان تتفق .

بغير النضال الطبقي تخليصهم وسائل الانتاج والقضاء على الاستغلال .

ان تبدل التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية يحدث ، كما سبق القول ، بنتيجة حل النزاع بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج العتيقة . فما هو موقف الطبقات المختلفة من هذا ؟ من الواضح ان الطبقات المستغلة لا تريد القضاء على علاقات الانتاج العتيقة ، بل تتشبث بها بكل قواها وتدافع عن ثرواتها وسلطتها .

واذن فان زوال نظام اجتماعي وقيام آخر مكانه اكثر تقدمية ، لا يمكن ان يحدث من تلقاء ذاته ، عفويا ، حتى ولو تحولت علاقات الانتاج الى عائق للتقدم . وانما يجب ، لكي يحدث هذا ، تحطيم مقاومة الطبقات الرجعية التي تدافع عن علاقات الانتاج القديمة . وهذا هو المغزى التاريخي لنضال الطبقات المظلومة الثوري . انها تكنس من طريق التطور الاجتماعي ، العقبات والحواجز التي تقيمها الطبقات الرجعية . **ان النضال الطبقي هو قوة التاريخ المحركة في جميع التشكيلات الاستغلالية** . وبدونه لا يمكن التقدم الاجتماعي في المجتمع المتناحر .

ويبلغ النضال الطبقي ذروته واقصى حدته في عصور الثورات الاجتماعية .

الثورة الاجتماعية . يمكن التمييز بوضوح في تاريخ المجتمع بين فترات التطور التدريجي وفترات التحطيم الشديد لكل النظام الاجتماعي .

فبعد سقوط الامبراطورية الرومانية غرقت اوروبا في ليل القرون الوسطى القاتم المديد . وكانت الاسر الملكية تتعاقب ، والحروب وانقلابات القصور تجري ، والاملاك الاقطاعية تجزأ مرة بعد المرة . ولكن كل هذه الحوادث لم تغير من جوهر

النظام الاقطاعي شيئا . ومع ان لهيب ثورات الفلاحين كان يشمل ، بين الفينة والفينة ، بلادا بأسرها ، مهددا باحتراق الاقطاعيين والملوك ، كان الاريستقراطيون يستغلون جهل الفلاحين فيشقون صفوفهم ويغرقون ثوراتهم في الدماء .

ولكن ها قد جاء عصر الهزات الاجتماعية الكبيرة : القرن السادس عشر في هولندا ، والقرن السابع عشر في بريطانيا ، والقرن الثامن عشر في فرنسا . وطرأت على النظام الاجتماعي للدول الاوروبية الرئيسية ، في هذه القرون الثلاثة ، تغيرات جذرية . وحلت الرأسمالية محل الاقطاعية في مدة وجيزة نسبيا .

ان التحطيم الجذري للنظام الاجتماعي ، الذي بواسطته يتحقق الانتقال من تشكيلة اجتماعية اقتصادية الى اخرى ، يسمى بالثورة الاجتماعية . واساسها الاقتصادي هو النزاع بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج . فالطبقات الرجعية تعارض حل هذا النزاع الذي يزداد شدة بمقدار تطور القوى المنتجة ويصبح المجتمع اشبه بمرجل بخاري اغلقت فيه جميع الصمامات . فكلما مر الوقت ازداد الضغط . وتأتي النقطة الحرجة فينفجر المرجل – ويدخل المجتمع عصر الثورة الاجتماعية .

طبيعي ان الطبقة المسيطرة تستخدم ، في صراعها مع الحركة الثورية ، كل قوة الدولة . ولهذا **فان المسألة الرئيسية لكل ثورة هي مسألة السلطة** . فعندما تستلم الطبقة الثورية سلطة الدولة تهدم بواسطة هذه السلطة النظام القديم نهائيا وتقيم الانظمة الجديدة .

وتدل خبرة التاريخ على ان الثورة لا تجري حسب الطلب ، وانما لا بد لها من توفر **الحالة الثورية** ، اي عندما لا تستطيع

الطبقات المسيطرة الاستمرار في الحكم ولا ترغب الطبقات المظلومة في الاستمرار في العيش كالسابق .

ليست كل حالة ثورية تنقلب دائما الى ثورة . بل لا بد لكي تتحقق الثورة من توفر القوى السياسية . وهذه تتكون من بين تلك الطبقات التي لها مصلحة في القضاء على النظام القائم والتي لها المقدرة على الوصول بالثورة الى نهايتها الظافرة . وهذه الطبقات هي **القوى المحركة للثورة** . ومن الضروري لتوحيد القوى السياسية للثورة ، ان تكتسب الطبقات الثورية خبرة معينة في النضال الطبقي وان تنشئ احزابا ومنظمات سياسية ، وان تطلع زعماء وقادة ثوريين ، وان تكون عازمة كل العزم على العمل بنكران ذات .

وتختلف الثورات باختلاف المهمات التي تنفذها . فاذا اقامت الثورة علاقات برجوازية فهي ثورة برجوازية . اما اذا ادت الى اقامة النظام الاشتراكي فان طابعها يكون اشتراكيا .

ويتجلى بقوة خاصة في الثورات الاجتماعية ، الدور العظيم للطبقات المظلومة والمستغلة . فهي بنضالها المفعم بنكران الذات تحطم اعمدة المجتمع القديم ، ومنها بالذات تتكون كتائب الثورة الضاربة التي تهاجم قلاع سلطة الدولة للطبقات الرجعية وتحمي بثبات متفان المنجزات الثورية من تعديات الثورة المعاكسة . ان الطبقات المظلومة هي القوة المحركة الرئيسية لجميع الثورات العظيمة . قال لينين ان الثورات هي عيد للمظلومين والمستغلين . وبفضل اشتراك الجماهير النشيط في الحياة السياسية تتطور الاحداث عندئذ بسرعة لا تصدق . ويمكن تشبيه الثورة الاجتماعية بالعاصفة الرعدية المطهرة التي يصبح التنفس بعدها سهلا وطليقا . ان الثورات تكنس العفبات من

طريق التقدم الاجتماعي ، وليس عن عبث اسماها ماركس بقاطرات التاريخ .

سلاح البروليتاريا الروحي . عرفنا الموضوعات الاساسية للفلسفة الماركسية . ولنر الآن فيم اهميتها الاجتماعية .

ان الفلسفة موجودة منذ مئات السنين . ولكنها ، حتى نشوء المادية الدياليكتيكيـــة والتاريخيـــة ، كانت بعيدة عن الجماهير وعن النضال الثوري .

تقول الحكاية ان الفيلسوف اليوناني ديوجين قضى حياته كلها في برميل . ولم يكن يشغل باله الا شيء واحد وهو ألا يقلقه الناس بهمومهم الدنيوية وألا يمنعوه من التفكير . ليس جميع فلاسفة الماضي طبعا مثل ديوجين . فقد كان كثيرون منهم يشتركون اشتراكا نشيطـــا في حياة زمانهـــم الاجتماعيـــة والسياسية . ولكن حتى اكثر النظريات الفلسفية تقدمية لم تكن علمية على طول الخط . وانما كان الفلاسفة القدامى في نظرتهم الى المجتمع يأخذون بمواقف المثالية . وما كان بوسع مذاهبهم الفلسفية ان تدل الجماهير الشعبية على طريق الخلاص من الفاقة وطريق التحرر من الاستغلال .

أما الفلسفة الماركسية فقد نشأت كتعبير عن مصالح البروليتاريا اي الطبقة التي رسالتها التاريخية هي ازالة النظام الاستغلالي وبناء الشيوعية . فكيف سيكون ذلك ؟ — هذا هو السؤال الذي كان على الفلسفة ان تجيب عليه . ولقد كتب ماركس يقول : «ان الفلاسفة كانوا فقط **يفسرون** العالم باشكال مختلفة ، ولكن القضية هي في **تغييره**» .

ان الفلسفة الماركسية ، باعطائها صورة علمية عن العالم ، وبكشفها عن قوانين التطور الاجتماعي ، تحولت الى سلاح روحي

للبروليتاريا . واصبحت دماغ الحركة التحرريّة التي تشكل الطبقة العاملة فؤادها . وبما ان الماركسية هي فلسفة الجماهير الشعبية الواسعة فقد اكتسبت تلك الفاعلية التي كانت تنقص مذاهب الماضي الفلسفية . وقد تحولت المادية الدياليكتيكية والتاريخية الى اساس فكري لنضال البروليتاريا الطبقي والى اساس نظري لبناء الشيوعية ، اليها تستند الاحزاب الشيوعية والعمالية عندما تضع سياستها في ظروف العصر الحديث المعقدة .

ان مؤسسي الماركسية ، باستخدام الفلسفة المادية الدياليكتيكية كاساس للبحث العلمي ، حللا نظام الرأسمالية الاقتصادي تحليلا شاملا وكشفا عن اسباب ونوابض الاستغلال الرأسمالي ، واثبتا بالحجج حتمية هلاك التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية المتناحرة الاخيرة وهي الرأسمالية .

الرأسمالية

كتب ماركس في كتابه العبقري «الرأسمال» : «ان مادة بحثي في هذا الكتاب هي اسلوب الانتاج الرأسمالي وما يوافقه من علاقات انتاج وتبادل» . وبالكشف عن القوانين التي تسيّر الانتاج وتسير توزيع الخيرات المادية ، بين ماركس ان اسباب هلاك الرأسمالية المحتوم وانتصار الاشتراكية متأصلة في الظروف الاقتصادية لحياة المجتمع .

الانتاج الرأسمالي

البضاعة والقيمة . من صفات الرأسمالية الخاصة بها السيطرة التي لا منازع فيها **لانتاج البضائع (الانتاج البضاعي)** وهو تنظيم للاقتصاد الاجتماعي تنتج فيه المنتجات لا للاستهلاك الشخصي بل للبيع . وفي البضاعة وفي تبادل البضاعة بالبضاعة تكمن جميع تناقضات المجتمع البرجوازي .

مع ان تبادل البضائع كان موجودا قبل الرأسمالية بزمان طويل ، الا ان الاقتصاد في التشكيلات السابقة للرأسمالية كان في الاساس عينيا (طبيعيا)

أما في الرأسمالية فالفبارك والمصانع والمزارع تنتج منتجاتها للبيع عادة . والعلاقات البضاعية النقدية تتخلل جميع جوانب حياة المجتمع الرأسمالي . ان تبادل البضائع هو اكثر علاقات المجتمع البرجوازي اتساعا واكثرها عادية وتصادفه في طريقك مليار مرة . فكل شيء يصبح مادة للبيع والشراء : «البيوت ، والاراضي ، والوجاهة ، والرتب ، والبلاد ، والممالك ، والاهواء ، والمسرات ، والضمير ، والشرف ، والزوجات ، والازواج ، والاولاد ، والاسياد ، والخدم ، والحياة ، والمأوى ، والجسد ، والروح» ، — كما قال عن المجتمع البرجوازي الكاتب البريطاني بينيان .

في اية ظروف اجتماعية تصبح فيها منتجات العمل بضائع ؟

لكي تتحول منتجات العمل الى بضائع يجب ، اولا ، وجود تقسيم اجتماعي للعمل لا يعود فيه اي شخص ينتج كل ما هو ضروري لنفسه وانما يشتغل بنوع واحد من الانتاج . ويجب ، ثانيا ، ان تكون وسائل الانتاج ملكا لافراد أو مجموعات . بهذين الشرطين يصبح بيع وشراء البضائع ضرورة اقتصادية .

ان البضاعة هي نتاج عمل انتج من اجل المبادلة . وواضح ان عليها ان تسد حاجات بشرية ما ، والا لما اشتراها احد . وفائدة الشيء ومقدرته على سد هذه او تلك من حاجات الناس تسمى **بالقيمة الاستهلاكية** .

فالقيمة الاستهلاكية للخبز والسكر والزبدة والحليب واللحم والخضروات هي في كون هذه البضائع تسد حاجة الناس الى الطعام . والقيمة الاستهلاكية للاحذية على اختلاف انواعها هي في كون هذه البضائع تسد حاجة الناس الى الانتعال .

ويستطيع الناس ان ينالوا السلع اللازمة لهم اذا اشتروها فمثلا يمكن ، بالمبلغ نفسه من النقود ، اقتناء ثلاجة أو خمس دراجات عادية أو ثلاث ماكنات خياطة أو اربع بدلات رجالية .

ان هذه البضائع لا يقاس بعضها ببعض كقيم استهلاكية : فالثلاجة تسد حاجة لا تسدها البدلة ، وفي هذه الصفة لا يمكن المقارنة بين الثلاجة والبدلة . ومع ذلك ففي جميع هذه البضائع شيء مشترك يجعلها قابلة للمقايسة . فما هي هذه الصفة العامة للبضائع ؟

ان للبضائع صفة واحدة مشتركة هي **انها جميعا نتاج العمل البشري** . وهذا ما يجعلها قابلة للمقايسة . وعندما يقابل الناس البضائع بعضها ببعض فانما يقابلون ، في الحقيقة ، العمل المتجسد فيها . وهذا العمل المتجسد في السلع يشكل **قيمة** البضاعة . وان فهم ماهية القيمة امر غير سهل لانه ليس فيها ، كما قال ماركس في «الرأسمال» ، ذرة من مادة . ومع ذلك فلنحاول استجلاء مفهوم القيمة بالتدريج .

بما ان القيمة هي العمل المتجسد في البضاعة ، فان مقدارها يتوقف على كمية العمل المبذول في صنع البضاعة . وتقاس كمية العمل بطول مدته ، بالوقت اللازم للعمل (وقت العمل) . واذن فان مقياس العمل ومقياس القيمة هو وقت العمل . أما وقت العمل فهو يقاس بالساعات والايام وما اشبه .

كلما زاد العمل المبذول في صنع البضاعة ، ازدادت قيمة هذه البضاعة . ويمكن الاقتناع بيسر بذلك من ابسط الامثلة . لنفترض ان عامل المنجم استخرج فلزات حديدية بمبلغ ١٠ دولارات . وانتج عامل التعدين من هذه الفلزات حديدا صبا بقيمة ٣٠ دولارا . ومن الحديد الصب صنع فولاذ قيمته ٩٠

دولارا . ومن هذا الفولاذ يمكن صنع دبابيس بما مجموع قيمته ٣٠٠ دولار أو شفرات لامواس جيبر بقيمة ٩٠٠ دولار أو نوابض للساعات بقيمة ٣ آلاف دولار . في كل هذه البضائع انفقت كمية واحدة من الفولاذ . فلماذا اذن شفرات الامواس اغلى من الدبابيس ، والنوابض اغلى من شفرات الامواس ؟ الجواب : لان انتاج هذه البضائع تطلب كميات مختلفة من العمل .

ويعمل منتجو البضائع في ظروف غير واحدة ، ويستخدمون ادوات عمل مختلفة ، ويملكون درجات متفاوتة من المهارة ، وبالتالي يبذلون في انتاج سلع متماثلة كميات مختلفة من العمل . ولكن البضائع المتماثلة لها في السوق قيمة واحدة . وهذا يعني ان مقدار قيمة السلعة لا يتوقف على الخصائص الفردية للانتاج والمنتج ، وانما تحدده ظروف العمل السائدة ، **وقت العمل الضروري اجتماعيا .**

لنفترض ان هناك ثلاث فئات من منتجي الاحذية . احداها تنتج زوج الاحذية في ٧ ساعات ، والثانية تنتج هذا الزوج في ١٠ ساعات والفئة الثالثة تنتجه في ١٤ ساعة . ولنفترض ان الفئتين الاولى والثالثة صغيرتان وترسلان للسوق كمية صغيرة من الاحذية ، أما الفئة الثانية فتنتج الكمية الاساسية من هذه السلعة .

فما هو هنا وقت العمل الضروري اجتماعيا ؟ انه ذلك الذي تنفقه الفئة الثانية ، اي عشر ساعات . لماذا ؟ لان الوقت الضروري اجتماعيا يقترب أو ينطبق على وقت عمل تلك المؤسسات (الافضل او الاسوأ) التي تنتج الكميه الاساسية من بضائع هذا الفرع .

وهكذا فان **القيمة هي العمل الضروري اجتماعيا ، المبذول في انتاج البضاعة .**

وتظهر قيمة البضاعة ومقدارها في عملية التداول ، بواسطة المبادلة بالنقد . وقيمة البضاعة المعبر عنها بالنقد تسمى **السعر** .

في القيمة وفي النقود تظهر العلاقات الاجتماعية والصلات المتبادلة بين منتجي البضائع . فحيث تتم هذه الصلة عفويا ، بواسطة تبادل البضائع ، تتغلف العلاقات بين الناس بغلاف خارجي وتبدو كعلاقات بين الاشياء .

ففي المجتمع البرجوازي تسيطر النقود على الناس وتستعبدهم . وفي هذا العالم ، كما قال بلزاك ، «تقف فوق الميثاق قطعة الخمسة فرنكات المقدسة الفاضلة النبيلة الفتية ابدا القادرة على كل شيء» .

ان الوقت الضروري اجتماعيا ، المبذول في صنع النسخة الواحدة من البضاعة ، لا يبقى دون تغير . وانما ينقص بمقدار تطور القوى المنتجة وتطور التكنيك والعلوم وغير ذلك .

ففي بريطانيا كان سعر الليبرة الواحدة من الغزل يزيد في سنة ١٧٨٤ على ١٣٠ بنسا ، فنقص في سنة ١٨٢٣ الى ١١ بنسا تقريبا ، وذلك لانه ، بعد اختراع ماكنة الغزل وانتشار استعمالها ، اصبحت الكمية الاساسية من الغزل تصنع في الفبارك ، واصبح الانتاج الآلي هو الذي يحدد قيمة الغزل . وكان اصحاب الانوال اليدوية المشتغلون على الغزل الذي يصنعونه هم بايديهم ، ينفقون في صنع الغزل وقت عمل اكبر بمرات كثيرة مما في الفبركة ، ولكن قيمة الغزل الذي ينتجونه سقطت الى مستوى قيمة الغزل الآلي ، فلم يصمد اصحاب الانوال اليدوية للمزاحمة وافلسوا .

وهكذا نرى ان قيمة النسخة الواحدة من البضاعة تتوقف على **انتاجية العمل** .فكلما كانت انتاجية العمل اكبر وكلما كان الوقت المبذول في صنع البضاعة اقل ، كانت قيمة البضاعة اقل .

وتقاس **انتاجية العمل** بكمية المنتجات المصنوعة في وحدة الزمن (في ساعة ، في يوم) . وهي تتوقف ، قبل كل شيء ، على ادوات العمل ودرجة اتقانها التكنيكي : فكلما كانت الماكنات اتقن كان عمل العمال اخصب . وتتعين انتاجية العمل ايضا بدرجة تخصص العمال التكنيكي وبحسن معرفتهم في استخدام التكنيك . ولمستوى تطور العلم ايضا اهمية كبيرة . فكلما كان استعمال احدث منجزاته في الانتاج اسرع ، كانت انتاجية العمل في المجتمع اعلى . واخيرا تتوقف انتاجية العمل على الظروف الطبيعية : ففي الزراعة تتوقف على خصب التربة وجودة المناخ ، وفي صناعة الاستخراج – على غنى المناجم وآبار البترول وغير ذلك .

ان انتاجية العمل لا تزداد في آن واحد في جميع المؤسسات . بل هي ، كقاعدة عامة ، ترتفع اولا في بعض المؤسسات الرأسمالية ، المتقدمة تكنيكيا .

لنفترض ان كل عامل ينتج ثماني نسخ من بضاعة ما في ثماني ساعات ، في الاكثرية الساحقة من مؤسسات فرع معين . وفي ساعة واحدة يصنع العامل قيمة جديدة تعادل دولارين ، وفي يوم العمل باكمله ١٦ دولارا .

ولنفترض الآن ان اتقانا ما قد استحدث في احدى المؤسسات ، وكان من استخدام هذه الاداة الجديدة أو الطرائق الجديدة للعمل ان ارتفعت انتاجية العمل الى الضعف . وعندئذ ستصنع في هذه المؤسسة ، في ٨ ساعات ، لا ثماني نسخ بل ١٦ نسخة . وبالتالي فان القيمة الفردية للنسخة الواحدة من البضاعة ستنخفض وستكون معادلة لا لدولارين بل لدولار واحد .

ولكن القيمة الاجتماعية للبضاعة من هذا النوع لم تتغير بسبب ارتفاع انتاجية العمل في المؤسسة الطليعية . وانما ظلت كالسابق معادلة لدولارين للنسخة الواحدة . والرأسمالي الذي استعمل الطريقة الجديدة في الانتاج سيبيع بضاعته بالقيمة الاجتماعية التي تعود عليه ، بالنسبة للرأسماليين الآخرين ، بربح اضافي قدره دولار واحد لكل نسخة من البضاعة . وهذه الزيادة ستكون معادلة للفرق بين القيمة الاجتماعية للبضاعة وبين قيمتها الفردية .

وبديهي تماما ان الرأسماليين الآخرين ستستولي عليهم الرغبة ايضا في الحصول على المزيد من الربح ، وسيحاولون اللحاق بالمؤسسات الطليعية تكنيكيا وسيبحثون عن الوسائل اللازمة لاتقان الانتاج وزيادة انتاجية العمل . واذا رفعت اكثرية مؤسسات هذا الفرع انتاجية العمل بحيث يصبح من العادي اجتماعيا ومن السائد اجتماعيا ان ينتج العامل الواحد ، مثلا ، في ثماني ساعات ، لا ثماني نسخ بل ١٦ نسخة من البضاعة ، عندئذ ينقص الوقت الضروري اجتماعيا لانتاج نسخة واحدة من البضاعة من ساعة الى ٣٠ دقيقة ، وتنخفض قيمتها الاجتماعية الى النصف . وتكون النتيجة ان جميع الرأسماليين سيصبحون في وضع واحد متكافئ . ولكي ينال الرأسماليون الكبار ربحا اكثر من الآخرين ، سيسعون من جديد الى زيادة انتاجية العمل في مؤسساتهم ، وعندئذ تتكرر العملية كلها من البداية ، ولكن على مستوى من تطور القوى المنتجة اعلى .

ان زيادة انتاجية العمل هي ضرورة اقتصادية لجميع التشكيلات ، لانها اساس التطور الاقتصادي والثقافي للمجتمع .

ففيها يتجلى المستوى الجديد لتطور القوى المنتجة ، وطابع علاقات الانتاج ، اي اسلوب الانتاج وخصائصه وحركته وتطوره .

وان كل اسلوب للانتاج يستحدث ، بالقياس الى سابقه ، انتاجية عمل اعلى ، ويؤمن للمجتمع كمية اكبر من المنتجات ويجعله اغنى . وفي زيادة انتاجية العمل تتجلى جميع افضال النظام الاجتماعي الجديد على القديم . وقد اشار لينين الى ان «انتاجية العمل هي ، في آخر الحساب ، الشيء الاهم والرئيسي لانتصار النظام الاجتماعي الجديد . وقد استحدثت الرأسمالية انتاجية عمل لا مثيل لها في النظام الاقطاعي . ويمكن التغلب نهائيا على الرأسمالية ولسوف يتم التغلب عليها نهائيا بان تستحدث الاشتراكية انتاجية عمل جديدة اعلى كثيرا» .

قانون القيمة . عندما ينظم الرأسماليون الانتاج يعملون في معظمهم منعزلين بعضهم عن بعض ، على مسؤوليتهم . ولهذا لا يعرف احد مسبقا كم مؤسسة ستشتغل بانتاج هذه البضائع او تلك ، وما هي كمية البضائع التي ستنتج بعد سنة او سنتين ، وما هي كمية البضائع التي سترسل الى السوق وكم يستطيع السكان ان يشتروا . وهذا يؤدي الى التطور العفوي ، ويولد **فوضى الانتاج** ـ اي عدم تنظيم وعدم تخطيط الاقتصاد الرأسمالي بمجمله . فالرأسمالي ، مع انه رب مؤسسته الكامل السلطة ، يبقى عبدا للسوق ، حيث تعمل القوانين الاقتصادية عفويا .

وبفوضى الانتاج ترتبط ارتباطا وثيقا **المزاحمة** ـ الصراع الضاري بين الرأسماليين على ظروف اربح للانتاج والتصريف ، وعلى نيل المزيد من الربح . وليس بوسع احد في العالم الرأسمالي اجبار المالكين على استخدام وسائلهم باكثر ما يكون النفع للمجتمع . كيف يمكن ان يعيش هذا الانتاج وكيف يمكن ان يتطور ؟

ان القانون الذي يضبط الانتاج الرأسمالي بصورة عفوية هو **قانون القيمة** .

يقول قانون القيمة ان تبادل السلع يتم وفقا لكمية العمل الضروري اجتماعيا ، المبذول في صنعها . وعلى السعر المدفوع لقاء البضاعة ان يوافق قيمتها ولكن الاسعار في النظام الرأسمالي تتكون في السوق عفويا ، بتأثير العرض والطلب . فاذا كان عرض البضائع اكثر من الطلب عليها نزل السعر عن القيمة . والعكس بالعكس . وعندما يتوافق العرض والطلب يتوافق السعر والقيمة . وبتأثير تقلب الاسعار ينقل الرأسماليون رساميلهم من الفروع التي تكون فيها اسعار البضائع ادنى من قيمتها الى الفروع التي تكون فيها الاسعار اعلى من القيمة .

لنفترض ان قيمة السيارة تعادل ٤ آلاف دولار ، وليس في السوق طلب مناسب : فالرأسماليون لم يعرفوا كمية ما يحتاج اليه المشترون من السيارات فانتجوا منها اكثر مما يلزم . عندئذ يردّ السوق بتقلب عفوي في الاسعار . ونتيجة للمزاحمة ينخفض سعر السيارة الى ادنى من قيمتها ، ويصبح معادلا لا لاربعة آلاف دولار بل لثلاثة آلاف فقط . ونزول السعر عن القيمة يجبر اصحاب مصانع السيارات على انقاص الانتاج ، ويضطر الكثيرون منهم ، ممن لا يصمدون للمزاحمة ، الى نقل رساميلهم الى فروع تكون فيها الاسعار اعلى من القيمة . واذا كان عدد ما ينتج من السيارات في السابق يعادل ٢٥٠ الف سيارة ، فسينتج الآن ، مثلا ، ١٧٠ الفا فقط . ولكن يظهر ان الرأسماليين اخطأوا الحساب مرة اخرى : اذ ان الطلب يعادل ٢٠٠ الف سيارة . فيرتفع السعر مرة اخرى فوق القيمة ، ويصل مثلا الى ٤٥٠٠ دولار . وعندئذ يبدأ من جديد توسيع

الانتاج وتدفق الرساميل الجديدة والقوى العاملة من الفروع الاخرى ، فتتحرك الاسعار وتصبح اقل من القيمة . فينخفض الانتاج مرة اخرى ، وترتفع الاسعار الى ما فوق القيمة ، وهكذا دواليك .

ان التقلب العفوي للاسعار حول القيمة هو المفتاح الممكن الوحيد لضبط الانتاج البضاعي الرأسمالي . فتقلب الاسعار يحدد توسيع او تخفيض حجم الانتاج ، بان يجعل الانتاج في هذا الفرع او ذاك اكثر أو اقل ربحا . هذه هي ماهية **قانون القيمة الذي ينظم ، في النظام الرأسمالي ، تبادل البضائع وتوزيع وسائل الانتاج والعمل بين مختلف فروع الانتاج .**

ان المزاحمة تدفع الى حد ما ، الى استعمال التكنيك الجديد وتحديث الانتاج . وفي الوقت نفسه تثير المزاحمة والفوضى خراب القوى المنتجة وتجلبان للكادحين مصائب لا يحصرها العد . اما كيف يجري ذلك فيمكن فهمه اذا عرفنا كيف يستغل الرأسمال العمل .

استغلال الرأسمال للعمل

القيمة الزائدة . ان الانتاج الرأسمالي خاضع لهدف واحد هو اثراء الرأسماليين . فكيف يتم بلوغ ذلك وعلى حساب من ؟

قبل بيع البضائع في السوق وقبض سعرها يجب انتاجها . ولكن القيمة يستطيع ان يصنعها العمل ، والعمل وحده . والرأسمالي ليس صاحب عبيد وليس اقطاعيا ، وليس عنده عبيد ولا فلاحون اقنان يستطيع ان يتصرف بهم كما يتصرف بملكه . ولكن عنده وسائل الانتاج ، وفي المجتمع طبقة من البروليتاريين المحرومين من هذه الوسائل . والعامل حر وغير تابع شخصيا

للرأسمالي ، ولكنه ، لكي يعيش ، يضطر الى تأجير نفسه للرأسمالي وبيعه **قوة عمله** . وبشرائها يحصل الرأسمالي على البضاعة الوحيدة القادرة على صنع القيمة .

تباع قوة العمل كبضاعة حسب قيمة محددة . فالانسان لا يقدر على العمل الا اذا سدت حاجاته الاساسية . فالعامل يستهلك في اليوم كذا خبزا ولحما وزبدة وسكرا ، ويبلى كذا ملابس واحذية ، وينفق كذا حطبا أو فحما لتدفئة منزله . وعليه ان يقوم باود عائلته . ومن هنا تكون قيمة قوة العمل معادلة لقيمة وسائل العيش الضرورية للقيام باود العامل وعائلته .

ان قيمة قوة العمل تختلف باختلاف البلدان والازمان . فهي تتوقف على الظروف الطبيعية وعلى المستوى المتكون تاريخيا لحياة الكادحين . وتؤثر فيها اسباب اقتصادية – كتطور الانتاج والتقدم التكنيكي وغير ذلك . ومن جهة تؤدي زيادة انتاجية العمل الى تخفيض قيمة وسائل عيش العمال ، وبالتالي ، الى تخفيض قيمة قوة العمل . ومن جهة اخرى تزداد نفقات الانتقال مع نمو حجم المدن ، وتزداد النفقات على الخدمات المعيشية الجديدة ، كالغاز والتلفون مثلا . وتظهر طلبات ثقافية جديدة . فالعامل الحديث في البلدان الرأسمالية المتطورة لا يستطيع الاستغناء عن الجرائد والسينما والراديو والتلفزيون وغير ذلك . وبما ان حاجات العامل وعائلته تزداد ، فان قيمة قوة عمله تزداد ايضا .

ولكن اهم ما يؤثر في حجم قيمة قوة العمل هو نضال البروليتاريا الطبقي ضد البرجوازية في سبيل تحسين اوضاعهم .

عندما يشتري الرأسمالي قوة العمل يجمعها الى وسائل الانتاج . ويدور دولاب العمل بعدما تبنى مباني المصنع وتجلب المواد الاولية ويقف العامل وراء الماكنة .

ان دور قوة العمل يختلف عن دور وسائل الانتاج . فقوة العمل تصنع قيمة جديدة ، اما وسائل الانتاج فلا تستطيع ان تصنع اية قيمة . وتبقى قيمة وسائل الانتاج ، بعمل العمال ، محفوظة وتنتقل الى البضاعة المصنوعة من جديد بمقدار ما تبلى وسائل الانتاج . واذا كان بوسع الماكنة ان تعمل مدة عشر سنين مثلا ، تفقد كل سنة عشر قيمتها . وهذا العشر ينتقل الى قيمة البضاعة المصنوعة من جديد . أما المادة الاولية ، كالقطن مثلا ، فتدخل بكاملها ، بعد الشغل عليها ، الى المنتوج الجديد ، الى النسيج القطني ، وتنتقل قيمتها ايضا بكاملها الى قيمة هذا النسيج .

واذا كانت قيمة القماش اللازم لصنع معطف ، مع البطانة والازرار وغير ذلك ، تعادل ٥٠ دولارا ، واخذ الخياط ٣٠ دولارا اجرة عمله ، كانت قيمة المعطف الجاهز معادلة لثمانين دولارا . اي ان القيمة القديمة المعادلة لخمسين دولارا قد بقيت محفوظة وانتقلت بعمل الخياط الى المعطف ، وان القيمة الجديدة التي صنعها الخياط في عمله هذا ، تعادل ٣٠ دولارا .

ولنفترض ان العامل يصنع في ساعة عمل ، قيمة جديدة معادلة لدولارين ، وان القيمة اليومية لقوة العمل تعادل ٦ دولارات . فللتعويض عنها في هذه الحالة يجب ان يعمل مدة ثلاث ساعات . ولكن العامل لم يبع كمية ما من العمل وانما باع قوة عمله ، ويتصرف بقوة عمله ذلك الذي اشتراها . ولهذا يعمل البروليتاري طول مدة يوم العمل . واذا كانت هذه المدة

تعادل ٨ ساعات ، فان العامل في هذه المدة يصنع قيمة جديدة تعادل ١٦ دولارا . وهكذا ففي اثناء الانتاج يضنع العامل بعمله قيمة اكبر من قيمة قوة عمله . وهذا الفرق ، الذي يستملكه الرأسمالي بالمجان ، هو مصدر اثرائه ، وهو **القيمة الزائدة** .

وعلى هذا **فان جوهر الاستغلال الرأسمالي يكمن في انتاج القيمة الزائدة واستملاك الرأسمالي لها** . وما نظام العمل المأجور الا نظام العبودية المأجورة .

وهكذا نرى ان يوم العمل ينقسم الى جزئين : في اثناء الجزء الاول (وقت العمل الضروري) يصنع العامل قيمة تعادل قيمة قوة عمله ، وفي اثناء الجزء الثاني (وقت العمل الزائد) يصنع قيمة زائدة للرأسمالي . ولهذا فكلما زاد وقت عمل العامل لحسابه قل وقت عمله لحساب الرأسمالي ، والعكس بالعكس . وبديهي تماما ان الرأسمالي يسعى دائما قدر الامكان الى تمديد الوقت الزائد وتشديد استغلال العمال والحصول من عملهم على ربح اكبر .

ان الحصول على القيمة الزائدة هو الحافز الرئيسي لنشاط الرأسمالي . انه في الاعم الاغلب لا يهمه ما ينتج ، لا يهمه ان انتج اشياء نافعة للانسان – كالملابس والاحذية واللحم والخبز والسكر مثلا – أو انتج ادوات موت وتخريب . ولكن لا بد له ان ينتج قيما استهلاكية لان هذا شرط ضروري لانتاج القيمة الزائدة . قال ماركس ان انتاج الفولاذ ليس الا ذريعة لانتاج القيمة الزائدة .

ان انتاج القيمة الزائدة عن طريق استغلال العمال المأجورين هو **القانون الاقتصادي الاساسي للرأسمالية** . وهو ، كما ترون ، يكشف عن هدف الانتاج الرأسمالي وعن وسائل تحقيق هذا الهدف .

ولا تصنع القيمة الزائدة الا في دائرة الانتاج المادي ، وقد يبدو للوهلة الاولى ، انها بكاملها يستملكها الرأسماليون الصناعيون . أما في الواقع فيجري توزيع للقيمة الزائدة بين مختلف فئات الرأسماليين عن طريق الصراع المتواصل والمزاحمة الضارية . ففي البداية تذهب القيمة الزائدة بكاملها الى تصرف الصناعيين ؛ ومنها ينال التجار واصحاب البنوك وغيرهم حصتهم فيها ، لان البضائع لا يجب انتاجها وحسب بل يجب ايضا بيعها . والصناعي ، عادة ، يبيع بضاعته بالجملة للرأسمالي التاجر الذي يوصل البضاعة الى المستهلك . ولو ان الصناعي اشتغل ببيع البضائع بنفسه لكان عليه ان ينفق موارد اضافية على المحلات التجارية وعلى استئجار المستخدمين التجاريين وغير ذلك . ولهذا يجعل الصناعي قضية بيع السلع في يد الرأسمالي التاجر ولقاء هذا يضطر الى التخلي له عن جزء من القيمة الزائدة .

واذن فان جميع الايرادات غير الناتجة عن العمل في المجتمع الرأسمالي : كالربح التجاري ، وفائدة القرض والربح المصرفي وغير ذلك ، هي شكل من اشكال القيمة الزائدة ، وأما المصدر الوحيد لجميع الايرادات غير الناتجة عن العمل في المجتمع الرأسمالي فهو العمل الزائد للعمال المشتغلين في دائرة الانتاج المادي . وهذا يعني ان العمال لا يستغلهم ذلك الرأسمالي الذي يعملون عنده وحسب ، بل كل طبقة الرأسماليين بمجملها .

الرأسمال . ان وسائل الانتاج في المجتمع الرأسمالي تباع وتشرى بالمال ، اي انها بضاعة لها قيمة . وتبدأ عملية الانتاج من شراء الرأسمالي لوسائل الانتاج وقوة العمل . وتكون نتيجة توحيد هذه بتلك انتاج البضائع . ثم يبيع الرأسمالي

مصنوعات مؤسسته لقاء مبلغ اكبر مما انفقه على انتاجها . **والقيمة التي تأتي بالقيمة الزائدة عن طريق استغلال العمل المأجور هي الرأسمال .**

يقول الايديولوجيون البرجوازيون ان الرأسمال نشأ بادئ ذي بدء نتيجة لاجتهاد صاحبه وفضائله الاخرى ، ويزعمون ان الحريصين المقترين اصبحوا رأسماليين فيما تحول الكسالى والمبذرون الى عمال مأجورين . وقد فضح ماركس هذا الاختلاق الذي لا ينطلي الا على السذج وبين ان الرأسمال نشأ بنتيجة النهب والعنف وانتزاع ملكية الاراضي من الفلاحين وسلب المستعمرات . ولكن حتى لو وافقنا على ان الرأسمال الاول كان العمل مصدره لما غير هذا من كنهه ، لان الرأسمال كله ، مع مرور عدة سنين ، تحل محله القيمة الزائدة مهما كان الحال ، اي يكون نتيجة الاستغلال . فالرأسماليون يغطون نفقاتهم من القيمة الزائدة . ولولا استغلال العمال المأجورين الذين يصنعون القيمة الزائدة ، لانفق الرأسماليون في زمن وجيز رأسمالهم الاولي وبقوا صفر الايدي .

لنفترض ان جميع الاموال الموظفة في المؤسسة الرأسمالية ، اي الرأسمال كله ، تعادل ١٠٠ الف دولار ، وان العمال المأجورين ينتجون كل سنة ٢٠ الف دولار من القيمة الزائدة . ثم لنفترض ان الرأسمالي ينفق كل ما يحصل عليه من قيمة زائدة . في هذه الحال يكون مجموع ما ينفقه في خمس سنين من القيمة الزائدة معادلا لمبلغ الرأسمال الاولي . وبالتالي فبدون استغلال العمال المأجورين لا يبقى من موارد الرأسمالي شيء بعد خمس سنين : ولكن رب العمل يحافظ على الرأسمال بفضل القيمة الزائدة التي يعتصرها من العمال .

ان ارباب العمل ، في الواقع ، لا يلقون في الهواء كل القيمة الزائدة . فان التعطش للثراء يدفعهم الى توسيع الانتاج وينفقون لهذه الاغراض جزءا من ارباحهم . ولكن توسيع الانتاج وزيادة عدد العمال المستغلين يؤديان الى نمو القيمة الزائدة التي ينالها الرأسمالي . وقصارى القول ان خاتم سليمان هذا لن تراه حتى في الحكايات : اذ يزداد رب العمل ترفا وبذخا ومع ذلك تزداد ثروته وتنمو .

ومن هنا استنتاجان : الاول ان كل رأسمال هو نتيجة استغلال . والثاني انه لا مبلغ النقود ، مهما كان كبيرا ، ولا مجموع وسائل الانتاج – الفبارك والمصانع والمواد الاولية والوقود والماكنات – هما بحد ذاتهما رأسمال . وانما يمكن ان يصبحا رأسمالا بشروط معينة : عندما تكون هناك طبقة من المالكين الخاصين لوسائل الانتاج وطبقة من العمال المأجورين الذين يبيعون قوة عملهم كبضاعة . **واذن فالرأسمال هو علاقة اجتماعية بين الرأسماليين والعمال ، وجوهره استغلال العمل .**

ومع القضاء على النظام الرأسمالي تنتقل وسائل الانتاج الى ملكية اجتماعية ، ولا تعود قوة العمل بضاعة ولا يعود للرأسمال كمقولة تاريخية وجود .

تراكم الرأسمال وتردي اوضاع البروليتاريا . ان مصدر التراكم الرأسمالي هو القيمة الزائدة . فالرأسماليون ينفقون جزءا منها لسد حاجاتهم الشخصية ، وبالجزء الآخر يوسعون الانتاج : فتنقلب هي نفسها الى الرأسمال ، أو تترسمل . وهذه العملية تسمى **تراكم الرأسمال** .

ومع توسيع الانتاج تزداد كمية القيمة الزائدة التي يستملكها الرأسمالي ، ويصبح في وسعه توسيع الانتاج واستغلال

المزيد من العمال واستملاك كمية متنامية من القيمة الزائدة . وفي الوقت الذي تتجمع فيه ، في احد قطبي المجتمع ، ثروات ضخمة وينمو ترف وطفيلية الطبقات المستغلة ، يزداد في القطب الآخر استغلال البروليتاريا . وتزداد الهوة بين من يصنع بعمله كل الثروات وبين من يستملك هذه الثروات . وهذا هو قانون التراكم الرأسمالي .

عندما كانت الرأسمالية في اول عهدها كان رب العمل المبتدئ لا يستنزف من البروليتاريا كل ما في وسعه ، وحسب ، بل كان في احيانٍ غير قليلة يقتر في الامور التافهة لكي يكثّر رأسماله . وليس من قبيل المصادفات ان المؤلفات الادبية كانت تقابل بين الارستوقراطيين المبذرين الذين يرمون في الهواء بثروات ضخمة ، وبين الصناعيين واصحاب البنوك والمرابين الحيسوبين البخلاء من امثال دومبي ونوسينغين وغوبسيك . وكان الرأسمالي في ذلك الزمن يقضي ايامه ولياليه في احيان غير قليلة في الفبركة ويعرف عماله باسمائهم ويمسك هو نفسه دفاتر الحسابات .

ومع تراكم الرأسمال يجمع انجح ارباب الاعمال ثروات هائلة ولا يعودون يعذبون انفسهم بالعمل التافه . وليس احفاد دومبي وغوبسيك الذين يملكون مليارات الفرنكات او الدولارات أو الجنيهات الاسترلينية ، بحاجة الى التوفير ، فهم غارقون في النعمة بكل ما في الكلمة من معنى : انهم يشيدون القصور المحتوية على احواض السباحة المبلطة بالبلاط المذهب ، ويشترون في بريطانيا القصور وينقلونها الى اميركا ، ويقيمون الحفلات الراقصة لكلابهم المحبوبة ، بل يوصون لها بالارث .

ولا تؤمن الرأسمالية لحفنة من الاغنياء الطفيليين امكانية العيش والبذخ من استغلال العمل ، وحسب ، بل تحكم على قسم من البروليتاريا بالبطالة والفقر ، وتحرمهم وسائل العيش .

ان **البطالة** هي رفيقة النظام الرأسمالي التي لا مفر منها ، وقد اثبتت وجودها منذ المراحل الاولى من تطور الرأسمالية . فالتقدم التكنيكي واستخدام الماكنات الاكثر اتقانا ، اديا الى انقاص الطلب على قوة العمل . واذا كانت البطالة في بادئ الامر قد اتصفت بالطابع الموقت وكانت تتلاشى بسرعة نوعا ما ، فقد اصبحت فيما بعد دائمة : ففي المجتمع يتكون جيش كامل من الناس المحرومين من العمل – وهو ما يسمى بالجيش الاحتياطي للعمل . ففي الولايات المتحدة مثلا كان عدد العاطلين عن العمل في السنين الاخيرة يتراوح بين ٣,٥ و ٥ ملايين شخص .

فما هي اسباب البطالة ؟ أوليس التكنيك الجديد هو المسؤول عن حرمان قسم من الناس خبز يومهم ؟ نعرف من التاريخ ان هذا ما كان يحسبه اللوديون* عندما صبوا جام غضبهم على الماكنات . ولكن التكنيك ، طبعا ، نظيف اليد من هذا . واقطع برهان على ذلك ان البلدان الاشتراكية ، حيث التكنيك الجديد يستعمل في الانتاج على نطاق واسع ، لا توجد فيها ولا يمكن ان توجد فيها بطالة .

ان سبب البطالة هو في نظام الاقتصاد الرأسمالي . فالتقدم

* اللوديون ؛ جماعة من العمال قاموا في المنتصف الثاني من القرن الثامن عشر بتحطيم الماكنات في بريطانيا لانهم رأوا فيها اصل البلاء الذي يعانون . ولودا كما يقال هو اسم العامل الذي كان اول من حطم ماكنته . **المترجم** .

التكنيكي ، اذ يمكن من صنع المزيد من المنتجات بنفقات عمل اقل ، يسمح بانقاص مدة يوم العمل وزيادة الاجرة . ولكن الرأسمالي يجدد التجهيزات لا من اجل العمال بل من اجل زيادة ارباحه . ولهذا يتصرف تصرفا معاكسا تماما : فيسرح قسما من العمال ويجبر الباقين على العمل بتأجيد* اشد . والرأسمالي يستطيع ذلك لان العمال الباقين في العمل يزدادون تشبثا بعملهم بمقدار ما يزداد عدد العاطلين عن العمل : فالخوف من فقدان وسائل العيش هو كرباج على ظهورهم اقوى من اية عصا اخرى . وهكذا يستعمل الرأسماليون البطالة للضغط على القسم المشغول من الطبقة العاملة .

وقد كتبت في هذا ، بصراحة ، مجلة «وول ستريت جورنال» اذ قالت : «ان عامل البناء الذي يرى عند الباب اثنين من العاطلين عن العمل يتحرقان للحلول محله ، سيضع من الطوب اكثر ولن يطلب اجرا اضافيا أو تشجيعيا» .

ويمكن ان نعرف معنى فقدان العمل في الولايات المتحدة بالاطلاع على رسالة دافيد هيوم الى احدى الجرائد الاميركية . كتب هذا يقول : «انا مهندس واشتغلت ست سنين في مصنع التعدين قرب فيلاديلفيا . وفي الثلاثين من تشرين الثاني (نوفمبر) تلقيت اخطارا باني ساسرح في الثلاثين من كانون الاول (ديسمبر) . فرجوت وتوسلت ان يبقوني في عملي ، لان صحتي سيئة ولان زوجتي تنتظر مولودا . ولكن الشركة ردت

---

* التأجيد لغة : التقوية والاحكام . وقد رأينا استعماله في مقابل intensification عند اطلاقها على العمل . فتأجيد العمل اذن هو زيادة مبذول العمل في الوحدة الزمنية وزيادة الطاقة العضلية والعصبية التي يبذلها العامل في وقت محدد . **المترجم** .

طلبي ببرود . وذهلنا انا وزوجتي من هول الصدمة . ونقلت الى المستشفى ، ولكن كان علي بعد اسبوع ان اخرج منه لان زوجتي مرضت من شدة الانفعال . وولد الطفل قبل اوانه ومات بعد ١٢ ساعة . وعدت الى المستشفى من جديد . ولكن المستشفى ليس مجانيا ويجب الدفع للاطباء المعالجين وللسرير فيه ولدار التوليد ولدفن الوليد . في القريب العاجل نفقد بيتنا وحوائجنا . ولا نعرف اين نذهب . ولم تبق لنا رغبة في الحياة » .

ان التكنيك الحديث اعجوبة من اعاجيب العقل البشري قادرة على تيسير عمل الناس وتأمين البحبوحة المتزايدة في الحياة لهم . ولكن الاستخدام الرأسمالي له يؤدي الى تردي اوضاع البروليتاريا ، لان نمو تأجيد العمل لا يعني غير اتلاف قوة العمل قبل الاوان . وهناك كثير من العمال الذين ذاقوا ما يسمى بانظمة العمل المعرقة ، المستخدمة في الانتاج الرأسمالي ، يصبحون مقعدين منذ السن الاربعين او الخمسة والاربعين .

وليست عملية تردي اوضاع البروليتاريا عملية مستقيمة الاتجاه ومتواصلة ، بل يمكن ان تشتد أو تضعف تبعا للظروف الملموسة ولخصائص هذا البلد أو ذلك . فزحف الرأسماليين على حقوق الكادحين الحيوية يصطدم بمقاومة الطبقة العاملة ، وتستطيع البروليتاريا باعمالها الحازمة (كالاضرابات وغيرها) ان تحصل على شيء من التنازلات تجاهها : كزيادة الاجور بعض الشيء ، وتقصير يوم العمل . ولكن هذا كله لا يغير شيئا من كون استغلال البروليتاريا في العالم الرأسمالي يزداد عموما .

واشد ما يعاني الكادحون من **الازمات الاقتصادية** ـ اي تدهور الانتاج تدهورا كارثيا . فالرأسماليون يسعون كل الوقت

لزيادة الانتاج ، تدفعهم الى ذلك المزاحمة فضلا عن الرغبة في الثراء . ولكن ايرادات السكان لا تنمو أو تنمو ببطء شديد . وبتعبير آخر فان القدرة الشرائية اللازمة لاقتناء البضائع تتخلف اكثر فاكثر عن انتاج هذه البضائع . وهذا التخلف يبلغ ، بصورة دورية ، حدودا تتراكم عندها احتياطيات هائلة من المنتجات في المستودعات ، ويفلس الرأسماليون والمزارعون الوسط ، وتغلق الالوف من المصانع ، وتزداد البطالة بشدة ، وتنخفض الاجور .

ويبدو للوهلة الاولى ان سبب الازمة هو فيض الانتاج . ولكن الواقع ان السلع لا تجد من يشتريها لا لانها غير لازمة بل لعدم وجود ما يمكن شراؤها به : فليست حاجة المعدة بل محتوى كيس النقود هو الذي يحدد امكانية الاستهلاك . وتكون النتيجة هذه الظاهرة المضادة للطبيعة وهي انتشار المجاعة مع توفر الحاجيات . فالمخازن والمستودعات غاصة بالمواد الغذائية والسلع ولكن من الافضل للرأسماليين ان تتعفن وتفسد من ان تباع باسعار زهيدة . انهم يحاولون بكل ما في وسعهم وقف تدهور الاسعار حتى يعوضوا فيما بعد عن خسائرهم ، ولاجل هذا يقدمون على اتلاف احتياطيات هائلة من المواد الغذائية .

ففي سنة ١٩٣٤ مات من الجوع في البلدان الرأسمالية مليونان و٤٠٠ الف شخص . اما في الولايات المتحدة فقد اتلف اكثر من مليون عربة من الحبوب (اي ما يكفي لتغذية ١٠٠ مليون شخص لمدة سنة) و٢٦٧ الف عربة من البن و٢٥٨ الف طن من السكر و٢٦ الف طن من الرز و٢٥ الف طن من اللحم وكثير من المواد الاخرى .

«ان ما عملت له جذور الكروم والشجر يجب اتلافه حتى لا تهبط الاسعار ، وهذا احزن ما يحزن . ان البرتقال يرمي على الارض عربات بكاملها . والناس يذهبون عدة اميال لالتقاط الفواكه المرمية ، ولكن هذا غير ممكن اطلاقا ! فمن سيدفع ثمنا للبرتقال عشرين سنتا للدزينة اذا كان من الممكن الذهاب الى خارج المدينة والحصول عليه بالمجان ؟ ولهذا يرش الكيروسين من الخرطوم على جبال البرتقال ، وان من يفعل ذلك يكره نفسه لهذه الجريمة ويكره الناس الذين يأتون لالتقاط الفواكه . الملايين من الجائعين يحتاجون الى الفواكه ، والجبال الذهبية ترش بالكيروسين .

وتنتشر فوق البلاد رائحة العفونة .

احرقوا البن في مواقد البواخر . احرقوا الذرة بدلا من الحطب – انها تحترق بحرارة . ارموا البطاطس في الانهار وضعوا الحراس على طول الضفاف حتى لا يلتقطها الجائعون . اذبحوا الخنازير وادفنوا جلودها في الارض ولتتشرب الارض العفونة .

هذه جريمة لا اسم لها . هذه مصيبة لا تقاس باية دموع . هذه هزيمة تبدد كل نجاحاتنا . ارض خصبة وصفوف مستقيمة من الاشجار ، وجذوع متينة وفواكه طيبة . والاطفال الذين يحتضرون من البيلاغرا يجب ان يموتوا لان البرتقال لا يدر ربحا . وعلى المحققين ان يقدموا التقارير : حصل الموت بنتيجة سوء التغذية ، لان المأكولات يجب ان تتعفن ، لانها تعفن عن قصد .

ويأتي الناس ومعهم الشباك لصيد البطاطس من النهر ، ولكن الحراس يطردونهم . انهم يأتون على سيارات مطرطقة سعيا وراء البرتقال المرمي ، ولكن الكيروسين يكون قد فعل فعله . فيقفون واجمين ينظرون الى البطاطس السابحة على مقربة

منهم ويسمعون صراخ الخنازير التي تذبح ويرون الى الكلس وهو يرمى في النزع ، وينظرون الى جبال البرتقال التي يسيل عليها السائل اللزج ذو الرائحة البشعة ، وفي اعين الناس الخذلان ، في اعين الجائعين يختمر الغضب . في نفوس النـاس تنصب وتختمر عناقيد الغضب – عناقيد ثقيلة ولن يمضي وقت طويل حتى تنضج» (جون ستاينبيك ، «عناقيد الغضب») .

ان الازمات تشهد بوضوح ان الرأسمالية تعيق تطور القوى المنتجة وتعيد البشرية الى وراء شوطا بعيدا . وقد اصبح هذا جليا بشكل خاص الآن ، حيث الرأسمالية تمر بآخر مرحلة من مراحل وجودها .

الامبريالية

المرحلة الاخيرة للرأسمالية . في اواخر القرن التاسع عشر انصب انتباه العالم بأسره على اميركا الوسطى وافريقيا الجنوبية ، حيث كانت تجري الحرب الاسبانية الاميركية والحرب البريطانية البويرية . وكانت هاتان الحربان صوّتين داميتين تشيران الى دخول الرأسمالية اعلى وآخر مرحلة من تطورها ، وهي **الامبريالية** .

ان مفهوم «الامبريالية» لا يمكن ربطه بالاستيلاء عنوة على البلدان الاخرى ، وحسب . وانما ادى تطور الرأسمالية الى تغيرات كبيرة في النظام الاقتصادي والسياسي للمجتمع البرجوازي ، وهذا ما دفع الى الحديث عن دخولها آخر مرحلة من تطورها . قال لينين : اذا وجب اعطاء اوجز تعريف للامبريالية امكن وصفها بانها **الرأسمالية الاحتكارية**

فما هي الاحتكارات وبم تختلف الرأسمالية الاحتكارية عن رأسمالية ما قبل الاحتكارات ؟ ان الاحتكارات هي اتحادات



رأسمالية جبارة تحتكر لنفسها التصرف في فرع أو حتى بضعة فروع من الاقتصاد . ولقد نشأت كنتيجة منطقية لتجمع الانتاج والرأسمال .

فالمزاحمة الحرة في عصر الرأسمالية الصناعية تؤدي الى ازاحة المؤسسات الكبيرة للمؤسسات الصغيرة . وبذلك **يجري تجمع الانتاج ، اي تراكمه في مؤسسات متزايدة الكبر .**

كما يتجمع ايضا الرأسمال ويصبح اضخم فاضخم بسبب انضمام جزء من القيمة الزائدة اليه . ومع تجمع الرأسمال يجري ايضا **تمركزه** . والتمركز هو اتحاد كثير من الرساميل الصغيرة اتحادا طوعيا أو اكراهيا : طوعيا عندما تنشأ الشركات المساهمة ، واكراهيا عندما تبتلع الشركات الكبرى الشركات الصغرى في معترك المزاحمة .

تصبح المزاحمة بين الرأسماليين الكبار حادة جدا وهدامة . فكل واحد منهم يسعى الى الاستيلاء على السوق والقضاء على مزاحميه . واذا تعذر ذلك حاولوا الاتفاق فيما بينهم حول مقادير الانتاج وحول الاسعار وغير ذلك . والوصول الى الاتفاق بين بضع عشرات من المؤسسات الجبارة ايسر منه بين المئات والالوف من المؤسسات الصغيرة . وهكذا يؤدي تجمع الرأسمال والانتاج وتمركزهما الى نشوء الاحتكارات .

والاشكال الرئيسية للاحتكارات هي الكارتيلات والسنديكات والتروستات والكونسورسيومات .

منذ بداية القرن العشرين تكونت في البلدان الرأسمالية المتطورة مجموعات احتكارية جبارة ، نوع من امبراطوريات للفحم والبترول والفولاذ وغيرها . ففي الولايات المتحدة تسيطر في صناعة التعدين ثمانية احتكارات اكبرها تروست الفولاذ وشركة بيت لحم للفولاذ . وهي تجمع في ايديها اكثر من اربعة اخماس انتاج الفولاذ . وفي صناعة البترول يهيمن احد اكبر تروستات العالم – «ستاندارد اويل» ، وفي الصناعة الكيميائية يسيطر كونسورسيوم «ديبونْ دي نيمور» ، وفي صناعة الهكرباء ـ كونسورسيوم «جنرال ايليكتريك» ، وفي صناعة السيـــارات – احتكارات «جنرال موتورز» و«فورد موتورز» و«كرايسلر» .

وفي المانيا الغربية يسيطر في الصناعـــة الكيميائيـة كونسورسيوم «اي . غي . فاربين اندوستري» ، وفي صناعة الماكنات كونسورسيومات كروب ومانيسمان وكليكنر ، وفي انتاج الفولاذ كونسورسيوما فليك وتيسين وغيرهما .

وفي بريطانيا يسيطر في بعض فروع الانتاج كونسورسيوم «فيكيرز» الحربي التعديني ، وتروست «امبيريال كيميكل انداستريز» الكيميائي ، واحتكار «رويال داتش شيل» البترولي . وفي فرنسا تستأثر اربع مجموعات احتكارية بثمانين بالمئة من انتاج الفولاذ . ويشرف تروست «بيشيني اوجين» اشرافا تاما على كل انتاج الالومينيوم ، وتشرف شركة «بوساك» للنسيج على ٧٠ بالمئة من انتاج الاقمشة القطنية .

وتسيطر الاحتكارات الضخمة ايضا في المال والتجارة وغيرهما . ففي الولايات المتحدة مثلا تسيطر بضع مجموعات مالية جبارة على كل اقتصاد البلد وتحدد سياسته . وهي مورغان وروكفلر وديبون وميلون وغيرها . وتنشأ ايضا احتكارات

دولية ، اي اتحادات تضم رأسماليين من مختلف البلدان ، تتقاسم فيما بينها اسواق التصريف ومصادر المواد الاولية .

ان حلول الاحتكارات محل المزاحمة الحرة في الامبريالية لا يعني زوال كل مزاحمة . وانما تبقى في البلدان الرأسمالية مؤسسات متوسطة وصغيرة كبيرة العدد وجمهرة من المنتجين الصغار – الفلاحين والحرفيين . وطبيعي ان هؤلاء لا يستطيعون مصارعة الاتحادات الاحتكارية ويضطرون الى دفع نوع من الجزية للاحتكارات . ففي الولايات المتحدة مثلا يبيع معظم المزارعين انتاجهم بالجملة الى الشركات التجارية الكبيرة التي تبيعه بدورها بالمفرق . ويقف المزارع اعزل من السلاح امام الاحتكارات ، ويضطر الى القبول بالسعر المفروض عليه . ويستغل الاحتكاريون هذا فيخفضون اسعار الجملة ويرفعون اسعار المفرق . وهذا الفرق في الاسعار (ويسمى «مقص الاسعار») يأتيهم بارباح لا يحدها الخيال . وفي الوقت نفسه يفلس كل سنة الوف من المزارعين .

هذا المثال يسمح لنا ان نفهم آلية تكوّن الاسعار الاحتكارية . ففي عصر الامبريالية لا تباع الكمية الاساسية من السلع باسعار تتكون في السوق بشكل حر : وانما في وسع الاحتكارات تعيين اسعار اعلى تضمن لها الحصول على **فائق الربح** من نهب العمال وغيرهم من فئات السكان الكادحة الاخرى .

وبعد ان تحوش الاحتكارات رساميل فائضة هائلة تسعى الى توظيفها . ولكن ايجاد توظيف مربح لها يزداد صعوبة في داخل اقتصاد البلدان الرأسمالية المتطورة . ولهذا يبحث الاحتكاريون بحثا محموما عن حقل جديد لنشاطهم ، **ويصدرون الرساميل** بمقادير متزايدة ، ويوظفونها في المؤسسات الصناعية

والتجارية في الخارج . واكثر ما يجري تصدير الرأسمال الى المستعمرات والبلدان المتخلفة المتأخرة اقتصاديا . فاستخدامها هنا يبشر بارباح كبيرة جدا ، لان رب العمل هنا يستطيع ان يدفع للعمال اقل بكثير مما يدفعه في اوروبا أو الولايات المتحدة .

وظف الاحتكاريون رساميلهم في المستعمرات ، وسالت اليهم انهار الذهب والماس من افريقيا ، والبترول من الشرق الادنى والاوسط ، والكاوتشوك من مالايو ، والبن والفواكه من بلدان اميركا الجنوبية . وبديهي تماما ان احتكارات تلك الدول التي لها املاك استعمارية وجدت نفسها في وضع افضل . أما تلك التي تخلفت ، على حد تعبير لينين ، عن مائدة الاطايب الامبريالية ، فقد اصبحت تطالب بمزيد من الالحاح بـ«حصتها» من نهب المستعمرات . ومن هنا يتضح ان الامبريالية ، اذ تحد من المزاحمة الحرة الخاصة برأسمالية ما قبل الاحتكارات ، تولد مزاحمة اعنف واشد : بين الاحتكارات في داخل كل بلد ، وبين احتكارات مختلف البلدان التي تناضل في سبيل اسواق التصريف ومناطق توظيف الرساميل . وتدخل غمار هذا النضال الدول البرجوازية المطيعة لاوامر احتكارييـ«ها» . ونتيجة لذلك تنشأ الحروب الامبريالية لتقاسم العالم من جديد .

ويشتد خطر نشوب الحروب بسبب ان تطور البلدان الرأسمالية يجري بشكل متفاوت جدا ، اشبه ما يكون بمباراة في العدو لمسافة طويلة ، حيث يتغير وضع المشتركين فيه باستمرار . فالبلدان التي كانت بالامس هي الاقوى من الناحية الاقتصادية والعسكرية ، تضطر اليوم الى الابتعاد وفسح الطريق لمنافسيها . وبعد غد تتغير نسبة قوى الدول الامبريالية من جديد . وكل واحدة منها ، في اندفاعها الى امام ، تسعى الى

الاستفادة من رجحان الكفة (ولو موقتا) لاعادة تقسيم الاسواق ومناطق النفوذ والاراضي لصالحها . ويطمع اقواها بالسيطرة على العالم . ويؤدي فعل القانون الذي اكتشفه لينين ، **قانون تطور الرأسمالية غير المتفاوت في عصر الامبريالية** ، الى نشوء تكتلات متعادية من الدول الامبريالية ، تمزقها التناقضات الحادة .

حلل لينين نظام الامبريالية الاقتصادي تحليلا عميقا وبين ان التغيرات التي تطرأ على اقتصاد الرأسمالية تستدعي تغيرات في سياستها . واشار الى ان من الصفات المميزة للامبريالية «الانعطاف من الديموقراطية الى الرجعية» . وتشديدا لاستغلال الكادحين تزداد البرجوازية الاحتكارية لجوءا الى اساليب الحكم الارهابية لكي تقمع مقاومة الجماهير الشعبية . وما الفاشستية الا اكثر اشكال الديكتاتورية الارهابية للاحتكارات صراحة .

ولكن ، لحسن الحظ ، ليس كل شيء يخضع لارادة الاحتكاريين ، وليس في وسعهم دائما اقامة النظام الارهابي . فالاحتكارات تجد مقاومة من الطبقة العاملة وكل قوى المجتمع التقدمية القادرة على الحؤول دون انتصار الرجعية .

رأسمالية الدولة الاحتكارية . ان الاحتكارات ، في صراعها على الاسواق ومناطق توظيف الرساميل ، وفي تشديدها لاستغلال الكادحين ، لا تستطيع الاستغناء عن مساعدة الدولة البرجوازية . وليس اتحاد الاحتكارات والدولة تواطؤا عرضيا ولا التحاما موقتا بين قوتين رجعيتين . وانما هو نتيجة حتمية لتطور المجتمع الرأسمالي الحديث .

ولفهم طبيعة هذه الظاهرة يجب ان نتذكر كيف كانت الحال في الماضي . ففي عصر المزاحمة الحرة كانت الدولة البرجوازية تعبر عن مصالح الطبقة البرجوازية كلها . وكانت

قليلا ما تتدخل في شؤون الاقتصاد ، مطلقة حرية العمل التامة لارباب العمل الفرديين – الرأسماليين . وكان النظريون البرجوازيون في ذلك العصر يسمون الدولة بـ«الحارس الليلي» ، راغبين بذلك في التأكيد على انها يجب ان تحرس النظام القائم وما عدا ذلك فليس من شأنها .

ولكن الحال تغير بدخول الرأسمالية المرحلة الامبريالية . فمع نمو جبروت الاحتكارات الاقتصادي اصبحت هذه تستولي على السلطة السياسية ايضا . أما الفئات الاخرى من البرجوازية فلم يكن بمقدورها مجاراتها . وكان الاحتكاريون في بادئ الامر يعملون ، بشكل رئيسي بواسطة اشخاص مؤتمنين ، وينفقون على البرلمانيين والوزراء ، ويرشون زعماء الاحزاب السياسية . وكلما كانت قوتهم تزداد كان حياؤهم يتضاءل فراحوا يخضعون كل جهاز الدولة لمشيئتهم . وفي آخر الامر لم يعد الاحتكاريون يكتفون بالحكم بواسطة اعوانهم ، بل راحوا يخرجون من الكواليس ويشغلون اكبر المناصب في الدولة بانفسهم . وقد اتسعت هذه العملية اتساعا كبيرا بوجه خاص في السنين الاخيرة .

فحكومة الرئيس ايزنهاور (١٩٥٢–١٩٦٠) كانت تسمى في الولايات المتحدة بحكومة السبعة عشر مليونيرا . وحاكم ولاية نيويورك ، نيلسون روكفلر ، هو رئيس اكبر مجموعة مالية .

هذا ، طبعا ، لا يعني ان الاحتكارات تخلت عن اساليبها السابقة كلا ، بل انها تستعمل هذه الاساليب . ففي كونغرس الولايات المتحدة تتكون الاكثرية الساحقة من المحامين البرجوازيين الذين يخدمون الشركات الكبرى أو يقبضون الرشوات منها . ويدافع حزبا البلد الرئيسيان كلاهما – الجمهوري والديموقراطي – عن مصالح الرأسمال الاحتكاري . وقد اشار

ماركس الى هذه الظاهرة بعبارة دقيقة اذ قال ان نظام الحزبين ضروري للبرجوازية حتى اذا افلت زمام السلطة من يد تلقفته باليد الاخرى . وتفاديا للخسران والخطأ ، يقدم كثير من اصحاب المليارات اشتراكات نقدية ضخمة في صندوقي كلا الحزبين في وقت واحد .

وهكذا **فان الدولة ، بعد ان كانت لجنة تدير شؤون البرجوازية كلها ، انقلبت الى لجنة لتصريف شؤون القمة الاحتكارية من البرجوازية** . ولكن هل يتغير ، لهذا السبب ، جوهر الدولة البرجوازية ؟ كلا ، لا يتغير على الاطلاق . فهي الآن ، كما كانت منذ مئة سنة ، تحرس الملكية الخاصة على وسائل الانتاج ، وما ينبني عليها من استغلال للعمل . ولكنها ، مع حراستها الشروط العامة لوجود طبقة البرجوازية كلها ، اصبحت اداة للدفاع عن المصالح الجشعة لاقوى جزء من هذه الطبقة ، تساعد الاحتكارات في استنزاف **فائق الارباح** .

ولما كانت الدولة تعمل لمصلحة الاحتكارات فهي تنشى هيئات خاصة لضبط مختلف جوانب الحياة الاقتصادية ، وتضمن لها طلبيات مربحة ومشتريات مفيدة باسعار تعينها هي بشكل تعسفي ، وتقدم لها القروض ، وتحد تشريعيا من مقدار الاجور ، الخ .. واستنادا الى هذا كله يزعم ايديولوجيو الرأسمالية المعاصرون ان فوضى الانتاج قد قضي عليها وان الانتاج الرأسمالي يصبح منظما بل مخططا . أما في الواقع فان ضبط الدولة للاقتصاد الرأسمالي لا يمكن ان يزيل المزاحمة وفوضى الانتاج . فهذا غير ممكن ما دام اساس الانتاج هو الملكية الخاصة واستغلال العمل المأجور . ولا يمكن ضبط الاقتصاد الا ضمن حدود ضيقة ولمصلحة طواغيت الرأسمال الاحتكاري .

وبتقوية سلطة الاحتكارات على حياة الامة ، تجمع رأسمالية الدولة الاحتكارية قوة الاحتكارات الى قوة الدولة في آلة واحدة لانقاذ النظام الرأسمالي وقمع حركة العمال ونضال الشعوب الوطني التحرري .

تفاقم تناقضات الرأسمالية . ان النزاع بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج هو النابض الداخلي للعملية التاريخية ، وهو الاساس الاقتصادي للثورات الاجتماعية التي يتم بنتيجتها الانتقال من اسلوب انتاج الى آخر . والمثـال على هذا النزاع ما نراه امام اعيننا من تفاقم **التناقض بين الطابع الاجتماعي للانتاج والشكل الرأسمالي الخاص للاستملاك ، هذا التناقض الذي هو التناقض الاساسي للرأسمالية** .

ومع تطور الرأسمالية ترتفع باستمرار درجة اضفاء الطابع الاجتماعي على العمل وتشتد الصلات الاقتصادية والترابط سواء بين بعض المؤسسات على حدة أو فروع كاملة من الانتاج ، من جهة ، وبين كل الاقتصاد الوطني من جهة اخرى .

فلانتاج حذاء في فبركة حديثة ، لا بد من تربية الماشية وتحضير الجلد في مصنع الجلود وتلوينه بالاصبغة الكيميائية . ويجب ان تنتج فبارك اخرى النسيج والخيوط وان تقدم مصانع الماكنات ما هو ضروري لفبركة الاحذية من تجهيزات وماكنات ، ومن اجل مصانع الماكنات لا بد من استخراج الفلزات وانتاج الفولاذ . وفي الوقت نفسه تحتاج جميع المؤسسات الى الوقود والطاقة الكهربائية وزيوت التشحيم وغير ذلك .

ان الرأسمالية ، بتوحيدها للعمل على نطاق واسع ، تضفي على الانتاج **طابعا اجتماعيا** . ولكن مع كون عملية الانتاج اجتماعية ، يبقى شكل الاستملاك فرديا : ولان وسائل الانتاج

ملك للرأسماليين ، يذهب نتاج العمل ايضا الى ملكيتهم . وهذه الملكية الخاصة تعيق الانتاج ويتباطأ تطور القوى المنتجة .

وهكذا فعلى الرغم من المستوى العالي والامكانيات الكبيرة لاقتصاد البلدان الرأسمالية المتطورة ، ينمو الانتاج بوتائر متدنية للغاية (١–٣ بالمئة في السنة عادة) ، وفي بعض السنين يراوح الانتاج في مكانه . والظاهرة العادية بالنسبة للرأسمالية الحديثة هي الاستخدام غير الكامل المزمن للطاقات الانتاجية . واوضح ما يظهر تشوه الرأسمالية في اشاعة العسكرية على الاقتصاد الوطني ، التي تتولد لا عن نيات الامبرياليين العدوانية وحسب بل عن جشعهم الشديد للاثراء ايضا . ولقد جلب سباق التسلح الذي تدفع نفقاته الدولة من الضرائب المجبية من الاهلين ، ارباحا لا يتصورها العقل للاحتكارات التي تخصصت في انتاج السلاح الذري وغيره من انواع الاسلحة الحديثة الاخرى . وهذه الاحتكارات تعيق ، بكل قواها ، تخفيف التوتر الدولي . واما القوى المنتجة المتطورة تطورا كبيرا والتي كان بوسعها ان تؤمن لمئات الملايين من الناس ، في مدة وجيزة ، حياة سعادة ، فتستخدم الى حد كبير ضد مصالح البشرية ولانتاج وسائل الابادة والخراب . وكل هذا لان الذي يتصرف بها ليس الكادحين وليس المجتمع كله وانما اقلية هزيلة من المستغلين .

ان علاقات الانتاج الرأسمالية كفت منذ زمان بعيد عن ان تكون موافقة لطابع القوى المنتجة ، ودخلت معها في نزاع . وقد بلغ التناقض التناحري المستعصي بين الطابع الاجتماعي للانتاج والطريقة الفردية للاستملاك ، حدة خاصة الآن . واعدت رأسمالية الدولة الاحتكارية كل **الممهدات المادية للانتقال الى الاشتراكية** . فالصناعة الآلية الضخمة والدرجة

العالية جدا لاجتماعية الانتاج ، توفران الظروف اللازمة للقضاء على الفوضى والازمات ولتأمين التطور المخطط للقوى المنتجة لما فيه مصلحة المجتمع بأسره . وطبيعي ان هذا لا يعني ان الرأسمالية ستضمحل من تلقاء ذاتها ، بدون نضال حازم من الجماهير الشعبية برئاسة الطبقة العاملة . كلا ، ان البرجوازية الاحتكارية لن تستسلم بدون معركة ، وانها تبذل كل جهودها لانقاذ النظام الرأسمالي . ولكن ليس في مقدورها دفع القدر : فتناقضات الرأسمالية ، بتفاقمها الى نهاية الحد ، تؤدي الى هلاكها .

ان البرجوازية الاحتكارية ، اذ تشدد استغلال الكادحين ، تلقى مقاومة متزايدة من جانبهم . فتتسع وتقوى **الحركة الثورية للبروليتاريا** في سبيل التحرر من النير الرأسمالي وفي سبيل اعادة تنظيم المجتمع على اسس اشتراكية .

وباستعباد شعوب المستعمرات والبلدان التابعة تحكم البرجوازية الاحتكارية بالاضمحلال على ملايين النـــاس الذين لا يبقى امامهم مجال للخيار : فاما ان يظفروا باستقلالهم أو يموتوا . ومن هنا تنمو موجة **حركة التحرر الوطني للشعوب** ضد العبودية الامبريالية .

وعندما تحمل البرجوازية الاحتكارية الفاشستيين الى سدة الحكم وتشن الحروب ، تضحي على مذبح جشعها بعشرات الملايين من النفوس البشرية وتبيد في نار القتال الثروات التي صنعتها الشعوب بعملها على مدى سنين طوال . ومن هنا اشتداد **نضال الشعوب في سبيل الديموقراطية والسلام** .

وجميع هذه القوى الجبارة ، اذ تتحد في سيل واحد ، تقضي على الامبريالية ، ويحين عهد الانتقال الى الاشتراكية .

الازمة العامة للرأسمالية . بما ان الرأسمالية تتطور تطورا غير متعادل فلا يمكن ان يحدث انتقال المجتمع الى الاشتراكية في آن واحد . وانما تتشكل في منظومة الامبريالية اماكن تتجمع فيها التناقضات وترتفع فيها مرجات النضال الطبقي والنضال الوطني التحرري الى مستوى عال جدا . ولقد كانت روسيا في بداية القرن العشرين مجمع تناقضات وتحولت الى اضعف حلقة في السلسلة الامبريالية . فجاءت ثورة اكتوبر الاشتراكية ففصمت هذه الحلقة وقطعت سلسلة الامبريالية ودشنت بداية الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية .

ان هلاك الرأسمالية وانتصار الاشتراكية عملية طويلة الامد تستغرق حقبة زمنية كاملة ، حقبة **الازمة العامة للرأسمالية** .

لا يجوز الخلط بين الازمة العامة والازمات الاقتصادية الدورية . فهي تسمى **بالعامة** لانها لا تشمل الاقتصاد وحده بل تشمل سياسة المجتمع الرأسمالي وايديولوجيته ايضا . وتزداد البرجوازية الاحتكارية لجوءا في سياستها الى قوة الحراب للابقاء على سيطرتها . واخيرا تخسر البرجوازية خسارة لا عوض لها عنها في المعركة على عقول الناس ، لانها داست على المثل العليا التي استطاعت بواسطتها في الماضي ان تؤثر في الجماهير .

ان الازمة العامة للرأسمالية هي ، حسب تعريف لينين ، فترة انهيار الرأسمالية في كامل نطاقها وولادة المجتمع الاشتراكي . واساسها هو تفاقم التناقضات الداخلية للمنظومة الرأسمالية الى الحد الذي تصبح معه عاجزة عن حفظ سيطرتها على بعض البلدان التي تنفصل عنها بالتتابع وتنطلق في الطريق الاشتراكي . ومن جهة اخرى فان واقع نشوء المنظومة الاشتراكية ذاته ، ونموها وتوطدها ، يعجل من تفسخ الامبريالية .

بدأت **المرحلة الاولى من الازمة العامة للرأسمالية** بنتيجة الحرب العالمية الاولى وانتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية . فقد اثرت ثورة اكتوبر تأثيرا عظيما على الحركة العمالية وحركة التحرر الوطني واعطت دفعا جبارا لكل التطور الاجتماعي . ويمكن القول ان قاطرة التاريخ بعد اكتوبر ١٩١٧ انطلقت في الطريق الرئيسي العام واندفعت بكل قوتها نحو الشيوعية .

وادت الحرب العالمية الثانية الى تفاقم وتعمق الازمة العامة للرأسمالية ، فبانفصال عدد من بلدان اوروبا وآسيا عن المنظومة الرأسمالية بدأت **المرحلة الثانية** لهذه الازمة . وخرجت الاشتراكية من حدود بلد واحد وتحولت الى منظومة عالمية . وفي الوقت نفسه ادت ثورات التحرر الوطني الى نشوء دول مستقلة محل المستعمرات وانصاف المستعمرات السابقة .

وابتداء من النصف الثاني من الخمسينيات بدأت مرحلة جديدة ، **ثالثة** ، في الازمة العامة للرأسمالية .

ان نتائج التطور التاريخي تدل بما لا يقبل الدحض عى ما للماركسية ـ اللينينية من قوة حياة وسداد . انها تشير الى طرق بناء النظام الاجتماعي الجديد ، العادل . وان الحركة الشيوعية مدينة بنجاحاتها الى التطبيق الدائب في الحياة للنظرية الماركسية ـ اللينينية عن الثورة الاشتراكية وديكتاتورية البروليتاريا

ولادة
المجتمع الجديد

من الرأسمالية الى الاشتراكية

الثورة الاشتراكية

الرسالة التاريخية للطبقة العاملة . ان مؤسسي الماركسية ، باكتشافهما القوانين الاقتصادية التي تسيّر تطور الرأسمالية ، بينا ان هذا النظام يربي بنفسه حافر قبره – وهو البروليتاريا .

لماذا ترأس البروليتاريا وليس غيرها النضال ضد الرأسمالية ؟الجواب : لأن ظروف المعيشة والعمل تجعل من البروليتاريا أكثر طبقات المجتمع البرجوازي طليعية وثورية .

ان اشتغال العمال بالتكنيك الآلي يتطلب معارف معينة واتساع افق . ويضطر الرأسماليون الى اعطاء العامل الحد الادنى من المعارف لانه بدون ذلك لن يستطيع ادارة الماكنة . وكلما ازداد عمل الانسان تعقدا ارتفع وعيه وازداد طموحه الى معرفة ظواهر الحياة المختلفة وفهم اسباب وضعه البائس والى النضال في سبيل تحرره .

وليست البروليتاريا **اوعى** الطبقات الكادحة جميعا وحسب ، بل هي ، الى ذلك ، **اكثرها تنظيما** . فالعمال يكدحون في المصانع والفبارك حيث يتوقف مجرى العمل نفسه على جهودهم المشتركة ، وحيث كل واحد منهم يعتاد يوما بعد يوم على الشعور

بقرب رفاقه اليه ، ويعي ذاته جزءا من جيش لجب من امثاله من الكادحين المستعبدين . وعندما تشترك البروليتاريا في الاضرابات تقتنع ، من خبرتها ، بان التلاحم والمقدرة على العمل المنظم هما سلاح ماض في النضال ضد العدو الطبقي .

ان وعي البروليتاريا وتنظيمها يجعلانها **اكثر الطبقات ثورية** . ويساعد على ذلك ايضا انها ، في النظام الرأسمالي ، لا تملك ما تخشى على فقده . وتتعرض طبقة الكادحين الاخرى ، الفلاحون ، للاستغلال الشديد ايضا . ولكن بما ان للفلاح قطعة ارضه ففي وعيه تصطرع آراء الكادح وآراء المالك الصغير : الاولى تدفعه الى امام ، الى الاشتراكية ، والاخرى الى وراء ، الى الرأسمالية . أما البروليتاريا فليس عندها غير قوة عملها . وليس عندها ، حسب تعبير ماركس ، ما تفقده غير قيودها ، ولكنها ستكسب العالم كله .

واذ تنفذ البروليتاريا رسالتها التاريخية تصبح القائدة والقوة المحركة الرئيسية **للثورة الاشتراكية** – اعمق ثورة اجتماعية تكمن مهمتها في تصفية الملكية الخاصة على وسائل الانتاج والقضاء على استغلال الانسان للانسان . وعندما تقوم البروليتاريا بالثورة الاجتماعية لا تحرر نفسها فقط بل تحرر جميع الكادحين وكل المجتمع . وبما ان المصالح الجذرية لجميع الكادحين تتفق مع مصالح البروليتاريا ، فمن الطبيعي ان تشترك في الثورة الاشتراكية ، بقيادة الطبقة العاملة ، جماهير الشعب الواسعة ولا سيما الفلاحون الكادحون .

ان البرجوازية في عصر الامبريالية تعجز عن النضال بدأب واستمرار ضد الاقطاعية ، وتخشى البروليتاريا اكثر مما تخشى النار ، ولهذا تسعى الى وقف الثورة البرجوازية الديموقراطية

عند منتصف الطريق والى عقد مصالحة مع الاقطاعيين والتحالف معهم ضد الشعب . وليس يقدر على السير بالثورة البرجوازية الديموقراطية الى نهايتها غير البروليتاريا بالتحالف مع الفلاحين . وطبيعي انها ، اذ تصبح هي المهيمنة في الثورة ، لا تقف عند تنفيذ المهمات الديموقراطية بل تقود الكادحين شوطا ابعد ، الى القضاء على كل استغلال . وتنمو الثورة البرجوازية الديموقراطية حتى تتحول الى ثورة اشتراكية .

ان المسألة الرئيسية لكل ثورة هي مسألة السلطة . وعلى الطبقة العاملة ، لكي تنفذ المهمات الجليلة القائمة امامها ، ان تستولي على مقاليد السلطة . أما كيف تفعل ذلك فهذا يتوقف على الظروف التاريخية الملموسة للبلد الذى تجري فيه الثورة .

ديكتاتورية البروليتاريا . ان الفكرة القائلة بانه لا يمكن الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية بدون ديكتاتورية البروليتاريا ، هي الفكرة الرئيسية في كل النظرية الماركسية ـ اللينينية عن الثورة الاشتراكية . وبالفعل تصوروا لحظة ان الطبقة العاملة استولت على السلطة واعلنت جعل وسائل الانتاج ملكا اجتماعيا ثم «جلست مطمئنة» . فماذا سيحدث ؟ ان البرجوازية ستعود في اليوم الثاني الى السلطة ويبقى كل شيء على حاله .

لا يمكن الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية بمرسوم او قرار . فالبروليتاريا في الواقع تحقق مهمات الثورة ، وتحمي الملكية الاجتماعية ومصالح الشعب الكادح من الطبقات المستغلة التي تقاوم الثورة مقاومة يائسة وتستعمل لذلك كل الوسائل حتى النضال المسلح في كثير من الاحوال .

وبعد ان تصبح وسائل الانتاج ملكا اجتماعيا تقوم امام البروليتاريا مهمات جديدة : ان تنظم الاقتصاد تنظيما علميا وان تؤمن نموا سريعا للقوى المنتجة ، وان تجري الكثير من التدابير الاخرى المتصلة ببناء الاشتراكية . وكل هذا غير ممكن بدون ديكتاتورية البروليتاريا .

ان البرجوازية ومحاميها في الحركة العمالية اختاروا ديكتاتورية البروليتاريا هدفا رئيسيا للتهجم على الماركسية . انهم يشجبون العنف رياء ونفاقا آملين بذلك تجريد الطبقة العاملة من سلاحها .



لينين

ولكن كل تاريخ الرأسمالية هو تاريخ العنف الدائم والقسوة التي لا مثيل لها تجاه الكادحين وتجاه شعوب المستعمرات والبلدان التابعة . وهل من حاجة للقول ان هذا العنف لا يمكن ان يقارن بعنف الثورة البروليتارية القصير الامد الذي هدفه في آخر الامر ازالة كل عنف . فكما يشفي الجراح المريض بعملية جريئة من مرض طويل وعضال ، كذلك الثورة الاشتراكية تحرر المجتمع بحزم من قروح الرأسمالية التي تقض راحته .

وليس الشيء الرئيسي في هذه العملية الانتقام من المستغلين لجرائمهم ضد الكادحين . بل ان البروليتاريا تمنح مالكي الامس امكانية العمل والعيش بعملهم الى جانب افراد المجتمع الآخرين . ولكنهم اذا قاموا بنشاط معاد للثورة وحاولوا الاعتداء على منجزات الشعب ، فانهم عندئذ يقمعون . وفي هذا بالذات العدالة والانسانية السامية لديكتاتورية البروليتاريا التي تدافع عن مصالح الجماهير الشعبية .

اذا كانت السلطة البروليتارية **ديكتاتورية تجاه المستغلين** فهي في الوقت نفسه **ديموقراطية للشغيلة** .

ولا يمكن ان يكون الامر بخلاف ذلك : اذ ان للبروليتاريا والطبقات وفئات السكان الكادحة الاخرى مصالح مشتركة . وعندما تحقق الطبقة العاملة قيادة الدولة للمجتمع ، لا تطالب لنفسها باية امتيازات – بل بالعكس ، فهي دائما في المقدمة ، في اصعب قطاعات البناء الاشتراكي ، تلهب حماسة الجماهير بما فيها هي من حماسة ثورية .

ماذا تفعل البروليتاريا لكي تستطيع ديكتاتوريتها تنفيذ المهمات التي يضعها التاريخ امامها ؟ ألا يمكن استعمال ماكنة

الدولة البرجوازية الجاهزة مع تحويلها في الاتجاه المعاكس ؟ ألا يمكن للموظفين الذين اعتادوا على شؤون الادارة ان يواصلوا كتابة التعليمات (ولكن حسب التوجيهات الجديدة التي تعطيها لهم السلطة البروليتارية) ، وللقضاة ان يفصلوا في القضايا ويصدروا الاحكام (ولكن على اساس القوانين الثورية) ، وللجنرالات ان يتصرفوا بالقوات (ولكن بامر من اركان القيادة البروليتارية) ، وللسجانين ان يحافظوا على السجناء (ولكن المعتدين منهم على الثورة والمجرمين العاديين) ...

لو حلت المسألة هكذا لادى ذلك الى تسيير ماكنة الدولة على الفاضي . فالموظفون سيعمدون الى تشويش ارادة الحكومة البروليتارية ، والجنرالات الى تنظيم المؤامرات على الثورة ، والقضاة الى تشويه القوانين الثورية . ذلك لان كل تنظيم الدولة البرجوازية مبني بشكل هدفه قمع الكادحين .

ان مهمة البروليتاريا **تحطيم ماكنة الدولة البرجوازية وانشاء دولة جديدة اشتراكية** . وهي دولة من طراز تاريخي أعلى ، نشاطها واشكال تنظيمها خاضعة لمصالح الكادحين ولبناء المجتمع الشيوعي .

ولا بد لها ، من اجل ذلك ، ان تتفهم اهدافها القريبة والنهائية تفهما عميقا على اساس نظرية الشيوعية العلمية . وبدون هذا يكون حتما على الحركة العمالية ان تسير على غير هدى وان «تخبط خبط عشواء» في البحث عن الطرق الصحيحة . ومن يستطيع ان يجمع الحركة العمالية الى علم الشيوعية ، وان يشرح للكادحين اسباب اوضاعهم البائسة وطرق الخلاص منها ؟ لن يكون في مقدور اي شخص بمفرده أو عدة اشخاص ، مهما بلغوا من العبقرية والجرأة ، القيام بهذه المهمة ابدا . لن يقوم بها الا الحزب – **الفصيلة الامامية**

للطبقة العاملة ، طليعتها التي تجمع في صفوفها اوعى الثوريين واصلبهم عودا واكثرهم اخلاصا لقضية الشيوعية .

ان دور الحزب لا يقتصر على نشر افكار العلم الماركسي – اللينيني . فمهما كان المحاربون أو البناءون واعين ومهما ادركوا جيدا في سبيل ماذا يجب النضال وماذا يجب بناؤه ، فان نجاح نشاطهم يتوقف الى حد حاسم على وجود قائد عارف محنك لهم ينظم النضال والبناء ، ويستشف ما يمكن ان ينشأ من عقبات ، ويعبئ الناس لتذليل الصعوبات . وحزب الشيوعيين هو ذلك القائد الجريء لجيش المحاربين فى سبيل الثورة ، وهو ذلك المهندس الحكيم للبناء الشيوعي .

ان كل الثورات السابقة المعروفة كانت تؤدي الى استبدال شكل للاستغلال بآخر . أما **الثورة الاشتراكية فتضع الى الابد حدا لاضطهاد الانسان للانسان وتفتح امام المجتمع طريقا رحبة الى المستقبل الوضاء** . وفي هذا مغزاها التاريخي وعظمتها .

الخطة اللينينية لبناء الاشتراكية

الاشتراكية هي الطور الاول من الشيوعية . انجزت ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى انعطافا عالميا تاريخيا للبشرية من الرأسمالية الى الاشتراكية . ودشنت عهدا جديدا – عهد بناء الاشتراكية والشيوعية .

وكما لا يمكن بناء قصر قبل وضع اساسه ، كذلك لا يمكن بناء الشيوعية قبل بناء الاشتراكية وقبل انتصار الاشتراكية التام والنهائي . فالرأسمالية لا تورثنا مستوى عظيما لتطور القوى المنتجة ومستوى عاليا لتطور الوعي البشري يسمحان لنا بتطبيق المبادئ الشيوعية لتوزيع المنتجات وتثبيت اسس الشيوعية .

لقد استشف مؤسسا الماركسية ان المجتمع الشيوعي سيكون له ، حتما ، مرحلتان أو طوران من التطور : الطور الادنى وهو الاشتراكية والطور الاعلى وهو الشيوعية . فما هي السمات العامة للاشتراكية والشيوعية وما هو الفرق المبدئي بين الطور الادنى للمجتمع الشيوعي وطوره الاعلى ، وكيف تجري صيرورة الاشتراكية الى شيوعية ؟ كل هذا سنعرفه فيما بعد . أما الآن فنكتفي باستنتاج ان المجتمع غير قادر على ان «يقفز» دفعة واحدة من الرأسمالية الى الشيوعية ، وان **الشيوعية لا تنمو الا على اساسها هي ـ لا تنمو الا من الاشتراكية .**

ضرورة المرحلة الانتقالية . طرح انتصار ثورة اكتوبر امام البروليتاريا الروسية وحزبها الشيوعي كثيرا من المسائل المعقدة التي كانت ترجع في آخر الامر الى مسألة واحدة وهي : من اين البدء ؟ وفي طرح المسألة ذاته ظهر بوضوح الفرق الجذري بين الثورة الاشتراكية وسائر انواع الثورات السابقة . فالثورة البرجوازية انتصرت عندما كانت قد تكونت في المجتمع اشكال النموذج الرأسمالي ، وكانت امامها مهمة ازالة العقبات الاقطاعية من طريق علاقات الانتاج الرأسمالية ، وتأمين تطورها الطليق . أما الثورة الاشتراكية فلا تنال اشكالا جاهزة للنموذج الجديد : فليس يمكن للعلاقات الاشتراكية ان تتكون في قلب الرأسمالية كما تتكون العلاقات الرأسمالية في قلب الاقطاعية . وانما كان عليها ، بالاستناد الى الممهدات المادية المناسبة (واولها الطابع الاجتماعي للانتاج) ، ان تستحدث اشكالا اشتراكية للاقتصاد وان تؤمن صيرورة وتطور العلاقات الاشتراكية .

وهذه المهمات الانشائية الجبارة للثورة الاشتراكية هي التي قضت بضرورة **المرحلة الانتقالية** من الرأسمالية الى الاشتراكية ـ مرحلة تحطيم العلاقات القديمة ، الرأسمالية ، وتثبيت

العلاقات الجديدة ، الاشتراكية . وللاجابة على سؤال «من اين البدء ؟» كان يجب تعيين المهمات الاساسية للفترة الانتقالية وايجاد اكثر الوسائل فعالية لتحقيقها . وبكلمات اخرى كانت الحياة تتطلب خطة مبنية على أساس علمي لبناء الاشتراكية . وهذه الخطة التي وضعها لينين ، جعلها الحزب اساسا لكل نشاطه .

وفي الظروف الصعبة التي عم فيها الخراب البلاد وتحولت المصانع الى مستودعات لخردة الحديد ، اقر المؤتمر الثامن للحزب ، الذي كان يمثل اكثر من ٣٠٠ الف من افراد طليعة الثورة وحرسها ودماغها وروحها الحية ، البرنامج الثاني للحزب الذي رسمت في سطوره الواضحة معالم غد البلاد الاشتراكي .

المهمات الاساسية الثلاث للمرحلة الانتقالية . تصنيع البلد ، وجعل الزراعة تعاونية ، والثورة الثقافية — هذه هي المهمات العامة للمرحلة الانتقالية ، والاهداف الاساسية الثلاثة للخطة اللينينية لبناء الاشتراكية .

كانت روسيا القيصرية ، كما هو معروف ، تشغل المكانة الاخيرة بين بلدان العالم الرئيسية من حيث مستوى التطور الاقتصادي . وكان التأخر الاقتصادي يجعل الجمهورية السوفييتية الناشئة ضعيفة امام الدول الامبريالية الجبارة سواء من الناحية الاقتصادية الصرف أو من الناحية العسكرية . وكان من غير الممكن ، في ظروف التطويق الرأسمالي ، حتى التفكير بتنفيذ مهمات البناء الاشتراكي الاخرى بدون انشاء **صناعة ثقيلة** قوية .

ولكن القضية ، طبعا ، لا تنحصر في كون الصناعة الثقيلة هي ضمانة مقدرة البلد على الدفاع : وانما كان التصنيع في نظر لينين الطريق الوحيد المؤدي الى اعادة تجهيز جميع فروع الاقتصاد الوطني على اساس التكنيك الحديث ، والى نمو انتاجية العمل نموا سريعا ، والى زيادة رخاء الشعب . وما كان بغير

التصنيع يمكن تحويل روسيا الفقيرة العاجزة الى دولة اشتراكية قوية ومزدهرة ، وتأمين حياة ميسورة للكادحين ، وانشاء ذلك الاساس الاقتصادي نفسه الذي بدونه لا يمكن الانتقال من الطور الادنى للمجتمع الشيوعي الى الطور الاعلى .

هذه الفكرة مبينة بوضوح في صيغة لينين الشهيرة : «الشيوعية هي السلطة السوفييتية مضافة اليها كهربة البلاد جميعا» . فهذه الصيغة تكشف اولا عن جانب الشيوعية السياسي : فالسلطة السوفييتية هي ذلك التنظيم السياسي الذي يسمح للجماهير الشعبية الواسعة بان تنجز بنفسها كل شؤونها في المجتمع وتثير طاقتها الخلاقة وتمكن من تحقيق اعظم افكار تحويل الطبيعة لمصلحة الانسان الكادح . وثانيا ان جانب الشيوعية الاقتصادي : كهربة البلاد كلها وتطوير القوى المنتجة تطويرا جبارا ، يؤدي الى انشاء الاقتصاد الشيوعي ويؤمن وفرة الخيرات المادية ويسمح بتحقيق المبادئ النبيلة للعلاقات الاجتماعية الشيوعية . وكانت خطة «غوئيلرو» («خطة الدولة لكهربة روسيا») التي صنعت بقيادة لينين لا تنص على بناء شبكة المحطات الكهربائية فقط بل كانت ترسم ايضا معالم تطور شامل ومنسق لجميع فروع الصناعة ، وكانت في الحقيقة خطة للتصنيع . وقد اصبحت خطة «غوئيلرو» اساسا لاولى الخطط الخمسية للتنمية الاقتصادية في الاتحاد السوفييتي .

وما كان يمكن ، بغير انشاء الصناعة الثقيلة ، تنفيذ مهمة اخرى معقدة للغاية من مهمات المرحلة الانتقالية وهي : **اعادة تنظيم الاقتصاد الفلاحي الفردى المتفرق الصغير في اقتصاد اشتراكي جماعي ضخم .**

وهذه هي ماهية الخطة التعاونية اللينينية : ان تنشئ الدولة

السوفييتية صناعة اشتراكية قوية قادرة على اعادة تنظيم الانتاج الزراعي وتزويده بالمعدات التكنيكية الحديثة . وبالتدريج يعوّد الفلاح على الحياة التعاونية ، ولهذا تستعمل ابسط اشكال التعاون ، اي توحيد القوى والوسائل . وعندما يقتنع الفلاحون ، في الممارسة ، بحسنات العمل التعاوني المبني على استخدام الجرارات والحصادات الدارسات وغيرها من الماكنات الزراعية ، يتحدون بطيبة خاطر في كولخوزات (مزارع تعاونية) ويتخلون عن الطريقة الفردية في استثماراتهم .

واخيرا يتطلب بناء الاشتراكية تحقيق **الثور الثقافية** . فبدون ثورة ثقافية لا يتعذر جعل حياة الكادحين ميسورة وحسب ، بل يتعذر ايضا جعلها غنية من الناحية الروحية . أما الثورة الثقافية فانها ، مع تصنيع البلد وجعل الزراعة تعاونية ، تحضّر ذلك الاساس الذي منه تترعرع الشيوعية .

ان مغزى الثورة الثقافية هو نشر الثقافة **عرضا** (اي جعل جميع قيم العلم والفن في متناول الجماهير الشعبية الواسعة) وتطويرها **عمقا** (اي رفع العلم والتكنيك والفن السوفييتي الى المرتبة الاولى في العالم وتأمين ازدهارها) .

ولكن كان يجب قبل كل شيء القضاء على الجهل لدى الجماهير الشعبية . فقد كان ثلاثة ارباع السكان عموما ، واربعة اخماس الشبان والشابات في روسيا قبل الثورة اميين . وقد اجرت احدى المجلات حسابا تبين لها منه ان تطبيق التعليم الابتدائي العام يتطلب ، في ظروف وتائر تطور التعليم الموجودة آنذاك في روسيا ، لا اقل من ١٢٥ سنة ، أما تعليم شعوب آسيا الوسطى القراءة والكتابة فيتطلب ٤٦٠٠ سنة !

ولهذا قامت بمثل تلك الحدة مهمة مكافحة الامية وتنظيم قضية التعليم الوطني .

كانت السلطة السوفييتية ترى من اولى مهماتهـا كسب اختصاصيي العلم والتكنيك الذين تكونوا في روسيا الرأسمالية ، الى جانبها . فكان يجب اقناع هؤلاء واستهوائهم بعظمة القضية الشعبية .

قال لينين لمكسيم غوركي : «قل للمثقفين ان يأتوا الينا . أليسوا في رأيك يخدمون مصالح العدالة باخلاص ؟ فما الحكاية ؟ تفضلوا الينا : اننا نحن الذين اخذنا على عاتقنا عملا جبارا هو انهاض الشعب على قدميه واطلاع العالم على كل حقيقة الحياة ، ونحن الذين ندل الشعوب على الطريق المباشر المفضي الى الحياة الجديرة بالانسان ، الطريق المفضي من العبودية والفقر والذل» .

وكان يجب ايضا اعداد المئات والالوف من الاختصاصيين الشباب ، ولهذا الغرض فتح باب التعليم العالي والثانوي التخصصي على مصراعيه .

النصر التام . وبقيـادة الحزب الشيوعي حققت الطبقة العاملة والكادحون في البلاد السوفييتية الخطة اللينينية لبناء الاشتراكية . وانتصرت الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي انتصارا **كليا** . وبنتيجة تنفيذ اولى الخطط الخمسية تحولت البلاد من دولة زراعية الى دولة صناعية . وفي سنة ١٩٣٧ جاء الاتحاد السوفييتي من حيث حجم الانتاج الصناعي في المرتبة الاولى في اوروبا والمرتبة الثانية في العالم . وادى جعل الزراعة تعاونية الى زوال آخر طبقة استغلالية – الكولاك . وترعرعت فئة المثقفين الشعبيين . وحلت مسألة القوميات بنجاح . وتكونت الوحدة الفكرية والاجتماعية والسياسية لكل الشعب السوفييتي .

يسأل احيانا هذا السؤال : هل من الصحيح الحديث عن الانتصار التام للاشتراكية اذا كانت لا تزال في البلاد صعوبات

في مسألة السكن ، وتوجد ثغرات في التجارة ، ورواسب من الماضي في وعي الناس ونمط حياتهم ؟

تلك مسألتان مختلفتان . فمسألة انتصار الاشتراكية كنظام اجتماعي طليعي ، شيء ، ومسألة درجة النضج الاقتصادي ومستوى تطور الاشتراكية كطور اول للشيوعية ، شيء آخر . ان انتصار الاشتراكية التام لا يعني ان المجتمع الجديد قد وصل الى ذلك المستوى من التطور الاقتصادي والثقافي ، الذي هو هدفه النهائي . فبعد انتصار الاشتراكية التام ، بالذات ، تبدأ بالظهور كل ما تنطوي عليه من امكانيات هائلة لايجاد الوفرة من الخيرات المادية والثقافية ولاستئصال بقايا الرأسمالية في الوعي ونمط المعيشة استئصالا حاسما .

ان قوى الرجعية العالمية والامبريالية لم تسلم بانتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي . فغذت الامبريالية العالمية الفاشستية الالمانية وحاولت بيدي هذه القضاء على دولة العمال والفلاحين الاشتراكية الاولى في العالم . وحتى في الظروف الراهنة لا تتخلى الامبريالية عن املها في القضاء على الاشتراكية واعادة النظام الرأسمالي من جديد .

النظام الاقتصادي للاشتراكية

الملكية الاشتراكية

الاساس الاقتصادي للاشتراكية . ان وسائل الانتاج في الاتحاد السوفييتي هي ملك المجتمع . وهذا ما يعين طابع علاقات الانتاج والنظام الاقتصادي للاشتراكية . فليس في الاتحاد السوفييتي طبقة محرومة من وسائل الانتاج ولا طبقة من المالكين الفرديين . وليس من احد ، من ناحية تملك وسائل الانتاج ، يشغل وضعا ممتازا أو بالعكس وضعا ادنى بالنسبة للآخرين . ونتيجة لهذا زالت امكانية تحوّل وسائل الانتاج الى رأسمال ، والقوة العاملة الى بضاعة . وبذلك فان الملكية الاجتماعية تنفي استغلال الانسان للانسان .

وحيث لا يوجد استغلال وحيث لا يستطيع بعض الناس استملاك ثمار عمل البعض الآخر ، يكون المصدر المشروع الوحيد لوسائل العيش هو العمل الشخصي . فالملكية الاجتماعية تنفي الطفيلية والتنبلة وتلزم الجميع بالتساوي بالعمل حسب المبدأ القائل : «من لا يشتغل لا يأكل» .

وبما ان ثمار العمل تذهب الى المجتمع ومن ثم توزع بين الناس ، فان معيار دفع اتعاب العمل يتوقف توقفا كليا

على مستوى الثروة الاجتماعية : فكلما ازداد غنى المجتمع كانت معيشة افراده افضل . فلهم جميعا مصلحة في تطوير الانتاج الاشتراكي ، وهذه المصلحة الاقتصادية المشتركة توحد الناس وتجمعهم . ان علاقات الانتاج الاشتراكية هي علاقات زمالة ومساعدة متبادلة بين كادحين خالصين من الاستغلال .

وما يحدد تطور الاقتصاد الوطني الاشتراكي ليس الاعمال المتفرقة المتناقضة لجماعات وافراد ، بل الارادة الواحدة للمجتمع كله الذي هو مالك وسائل الانتاج . فالملكية الاجتماعية تنفي فوضى الانتاج والازمات والبطالة وتجعل من الممكن (ومن الضروري) تخطيط تطوره عن وعي ولهدف معين . وبتعبير آخر فان سيطرة الملكية الاجتماعية تعني انه لم تعد القوانين العفوية للرأسمالية تتحكم بالانتاج وانه قد بدأت تعمل **القوانين الاقتصادية للاشتراكية** .

هذه هي اهم سمات النظام الاقتصادي للاشتراكية الناجمة عن الملكية الاجتماعية .

ان الملكية هي علاقة اجتماعية تعبر عن ظروف انتاج وتوزيع واستهلاك الخيرات المادية . وتبرز علاقات الملكية ، في الحياة اليومية ، **كحق في التملك** ، كنظام عام مثبّت بقانون يستفيد الافراد أو الجماعات او الدولة بموجبه من هذا الملك او ذاك وتتصرف به . واهم علامة على حق التملك هي التحكم بالملك . فالمالك يستطيع ان ينقل الى اشخاص آخرين أو منظمات اخرى حق الاستفادة من ملكه ، والى حد ما ، حق التصرف به ، ويبقى في الحالين مالكا . ولا يفقد كل حق في ملكية الشيء الا اذا تخلى عن امتلاكه (بان يبيعه أو يهبه) .

وتتجلى الملكية الاجتماعية قبل كل شيء في ان الجزء الاكبر من وسائل الانتاج وغيرها من القيم المادية هو في يد الدولة

الاشتراكية . وبتفويض من الشعب ونيابة عنه تستعمل الدولة جميع حقوق المالك ، بما فيها حق التخلي عن الملك (بان تبيع الماكنات والسلع الاخرى ، مثلا ، للدول الاجنبية) .

ويستعمل املاك الدولة مباشرة ، جميع الناس السوفييتيين : فالعمال في اثناء العمل يستعملون الماكنات والآلات ، والعلماء يستعملون تجهيزات المعاهد والمختبرات ، والتلاميذ يستعملون المباني المدرسية وادوات الورشات واجهزة غرف التدريس .

أما التصرف باملاك الدولة فلا يعود الى جميع الناس ، وانما الى الدوائر والمؤسسات التابعة للدولة ، التي هي أجزاء من كيان الدولة الكبير الواحد .

وتعهد الدولة الى قادة المؤسسات والدوائر بصلاحيات تسمح لهم بان يتصرفوا بهذه او تلك من القيم المادية ، كما تعهد الى مجموعات العمال والموظفين في كل دائرة ومؤسسة بالحق في مراقبة اعمال القادة .

ولكن صلاحيات وحق التصرف بملك الدولة لا تعطى شخصيا لفلان أو فلان من الناس وانما للمدير أو غيره من القادة ولمجموعة العمال والموظفين . ولهذا فان المجموعة هي صاحبة مؤسستها أو دائرتها .

وتستطيع الدولة ان تنقل الى المواطنين حق استعمال الملك الاجتماعي لا بواسطة منظماتهـــا وحسب (فالمصنع والمعهد والمدرسة هي كلها منظمات للدولة) بل بصورة مباشرة ايضا . فدور السكن التي هي ملك الدولة في المدن والبلدات العمالية تعطى للاستعمال الى الناس السوفييتيين . ولكن الدولة تبقى في جميع الاحوال هي صاحبة املاك الدولة وهي المتصرفة العليا بها .

لماذا يدور الحديث هنا ، في هذه الحال ، حول املاك الدولة وليس حول كل الاملاك الاجتماعية ؟ الجواب : لأن جزءا من وسائل الانتاج وغيرها من القيم المادية الاخرى (وبالتالي حق ملكيتها) لا يعود الى الشعب كله بل الى اتحادات الفلاحين في العمل ـ الكولخوزات .

شكلان للملكية الاشتراكية . ان ملكية الدولـــة والملكية الكولخوزية هما ، من حيث طبيعتهما ، من طراز واحد ، ولهذا تسميان بالشكلين المختلفين للملكية الاشتراكية الاجتماعية . انهما تنفيان وجود الطبقات الطفيلية واستغلال الانسان للانسان وتشكلان الاساس لعلاقات الانتاج المهيمنة في النظام الاشتراكي .

بما ان الدور الحاسم في اقتصاد المجتمع الحديث هو للصناعة ، فان المحتوى الاجتماعي والاقتصادي للملكية التعاونية يتوقف كليا على ما يلي : الى من تعود المؤسسات الصناعية والبنوك ووسائل النقل وغيرها من وسائل الانتاج الاساسية . ففي البلدان الرأسمالية الآن عدد غير قليل من التعاونيات ولكنها ، في ظروف هيمنة الملكية الخاصة ، لا تصبح مؤسسات اشتراكية مع انها تخفف اوضاع الكادحين والمزارعين والحرفيين . وكثيرا ما تفلس هذه التعاونيات نتيجة لمزاحمة الرأسماليين والمزارعين الكبار ، أو تتفكك نتيجة لاغتناء بعض افرادها ووضع يدهم على كل الاستثمارة التعاونية .

أما في ظروف هيمنة الملكية الاجتماعية على وسائل الانتاج ، عندما يكون الكادحون هم اصحاب السلطة ، فان الملكية التعاونية لا تنفي فقط الافلاس واستغلال العمل وغير ذلك ، بل تصبح نفسها دعامة لعلاقات الانتـاج الجديدة . فمحتواها اشتراكي تماما .

والفرق الرئيسي بين شكلي الملكية الاجتماعية هو في مستوى الطابع الاجتماعي لوسائل الانتاج . فملكية الدولة تجعل وسائل الانتاج اجتماعية على نطاق البلد كله ، وتجعلها ملكا للشعب كله . أما الملكية الكولخوزية فتجعل وسائل الانتاج اجتماعية ضمن نطاق كل مؤسسة زراعية على حدة ، وتجعلها ملكا لفئة من الناس .

ملكية الدولة
(ملكية الشعب بأسره)

الارض ، ثروات باطن الارض ، المياه ، الغابات ، المؤسسات الصناعية ومنتجاتها ، المؤسسات الزراعية الكبيرة التي تنظمها الدولة (السوفخوزات) ومنتجاتها ، محطات التصليح التكنيكي ، البنوك ، وسائل النقل ، وسائل الاتصال ، مؤسسات الخدمة المعاشية العامة والمؤسسات الثقافية (المستشفيات ، العيادات العامة ، دور الاستجمام ، المدارس ، المعاهد ، الملاعب الرياضية ، الخ .) ، القسم الاساسي من المساكن في المدن والمراكز الصناعية .

الملكية التعاونية الكولخوزية
(الجماعية)

المؤسسات الاجتماعية للكولخوزات والتعاونيات بمواشيها وطيورها الداجنة وبادوات انتاجها (الجرارات ، الحصادات الدارسات ، الخ .) ومنشآتها الانتاجية والاجتماعية .

(الارض التي تستعملها الكولخوزات مطوبة لها الى الابد ومعطاة لها للاستعمال بالمجان) .

بديهي تماما ان لملكية الدولة الدور الرئيسي في نظام الملكية الاشتراكية ، وليس ذلك فقط لكونها تشمل جميع وسائل الانتاج الاساسية . وانما ايضا لكون ملكية الدولة تمكّن من تنظيم تطور الاقتصاد الوطني حسب خطة واحدة ، وتحفز الناس الى الاسترشاد بمصالح الشعب بأسره وتعوّدهم التفكير على نطاق الدولة كلها .

وهذا لا يعني ابدا ان الناس الذين يرتبط عملهم بالملكية الكولخوزية ، مهضومو الحقوق نسبيا : فهم ، كجزء من الشعب ، يشتركون في تملك ملكية الدولة . وفضلا عن هذا فان الشكل الكولخوزي للملكية يتفق كل الاتفاق مع المستوى الراهن لتطور القوى المنتجة في القرية ويخلق جميع الظروف اللازمة للمضي في رفع مستوى الانتاج .

ووجود شكلي الملكية الاجتماعية هو الذي يوجد الفروق بين مؤسسات الدولة والكولخوزات .

فالعاملون في مؤسسات الدولة يقبضون اجرهم نقدا وحسب .

أما اجور عمل الكولخوزيين فتدفع نقدا وعينا من حساب ايام العمل المسجلة لهم . والآن يجري تطبيق اشكال اخرى اكثر تقدمية في دفع اجور العمل في الكولخوزات . ثم ان العمل في الاقتصاد المساعد الشخصي يشكل مصدرا اضافيا لايرادات الكولخوزيين .

ان الموارد التي منها تدفع اجور عمل الكولخوزيين تسمى **بصندوق الاستهلاك** . أما الجزء الآخر من ايرادات الكولخوزات فيذهب الى **الصندوق غير المجزأ** وهو يتألف من وسائل الانتاج الاساسية : الماكنات الزراعية والمحركات ومعدات العمل والمحطات الكهربائية الكولخوزية ووسائل النقل والانشاءات ذات الهدف الانتاجي والثقافي وماشية الجر والانتاج والموارد المادية والنقدية

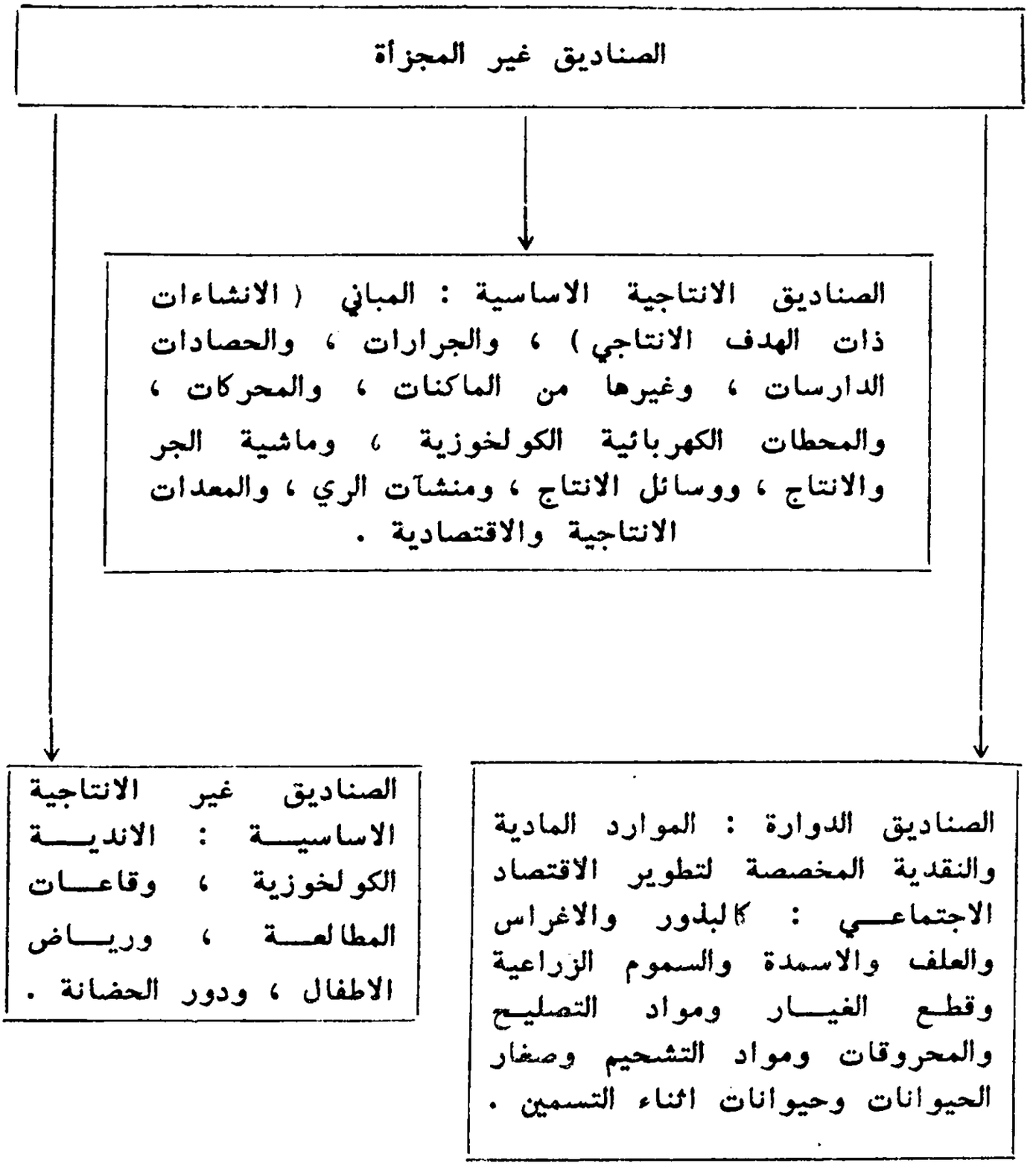
المخصصة لتوسيع الانتاج الكولخوزي . وهو غير مجزأ لانه لا يمكن انقاصه ولا يمكن تحويله الى استهلاك اعضاء الكولخوز ولا توزيعه حسب ايام العمل . كما انه لا يخضع للتقسيم أو لاعطائه الى الكولخوزيين في حالة خروجهم من الكولخوز .

ان الصناديق غير المجزأة يصنعها عمل الكولخوزيين بمساعدة الشعب السوفييتي كله وتشبه ، من حيث مستواها التكنيكي ، الصناديق العائدة للشعب بأسره . وقد كانت الملكية الكولخوزية ، لثلاثين سنة خلت ، تتألف من وسائل انتاج الاستثمارات الفلاحية المحولة الى وسائل انتاج اجتماعية : كالخيول والمحاريث والمناجل والامشاط وغيرها من الادوات . أما الآن فالصناديق غير المجزأة للكولخوزات هي ، بصورة رئيسية ، الجرارات والحصادات الدارسات والكميونات وغير ذلك من العتاد التكنيكي .

وتزداد الصناديق غير المجزأة كل سنة من حساب ما يقتطع من ايرادات السنة الجارية ومن حساب المبذول المباشر من عمل الكولخوزيين في صنع وسائل الانتاج والبناء الثقافي . ففي سنة ١٩٥٣ ، مثلا ، كانت الصناديق غير المجزأة تقدر بمبلغ ٥٤٤٤ الف روبل ، ثم ازدادت في سنة ١٩٦٣ الى ٢٩٩٠٠ الف روبل .

كما ان طرازي المؤسسات الاشتراكية يختلفان من حيث اشكال الادارة ايضا .

فالمؤسسات الصناعية ومنظمات البناء تديرها الوزارات . فان مدير المؤسسة معين من قبل الدولة ومسؤول امامها عن كل نشاط المؤسسة . أما في الكولخوز فالهيئة العليا هي اجتماع الكولخوزيين العام الذي ينتخب الادارة ورئيس التعاونية . ويحل الكولخوزيون مسائل تنظيم وادارة الاقتصاد على اساس القوانين السارية (وخصوصا النظام الداخلي



للتعاونية الزراعية) ، ويقرون الخطط انطلاقا من مصلحة الكولخوز نفسه ومصلحة الدولة على السواء ، ويصادقون على التقارير ، ويعينون نظام توزيع الايرادات ، الخ ..

وتقدم الدولة الاشتراكية مساعدة كبيرة للكولخوزات . فهي تزودها بالماكنات الزراعية والاسمدة والبذور المنتقاة ، وتنظم

اعداد الكادرات القيادية والاختصاصيين للزراعة ، وتقوم بالاشراف البيطري ، وتسهم في نشر الخبرة الطليعية وتطبيقها في الانتاج ، وتمنح التسليفات للكولخوزات ، وتشتري من الكولخوزات ، بصورة منظمة ، حاصلاتها .

الملكية الشخصية . الى جانب الملكية الاجتماعية توجد في الاشتراكية ملكية شخصية ايضا . وهي ايرادات السكان الناتجة عن العمل ، وادخاراتهم ، ودور السكن العائدة للمواطنين ، وادوات الاقتصاد المنزلي والاستعمال اليومي ، وادوات الاستهلاك الشخصي .

والملكية الشخصية للبيت الكولخوزي هي نوع خاص من الملكية الشخصية يمكن ان يشتمل على الاقتصاد المساعد في قطعة الارض الملحقة بالبيت وعلى ماشية الانتاج والدواجن والانشاءات المنزلية وغيرها . وتتأتى ضرورة الاقتصاد المساعد من كون مستوى الانتاج في الكولخوزات لا يسمح بعد بسد جميع حاجات الكولخوزيين الشخصية .

ولكن الملكية الشخصية في النظام الاشتراكي لا يجمعها جامع بالملكية الخاصة الرأسمالية ، فهي مبنية على العمل الشخصي ولا يمكن استعمالها للاستغلال .

ومع ازدياد الثروة الاجتماعية تزداد كمية منتجات الانتاج الاجتماعي التي تذهب الى سد الحاجات الشخصية للكادحين . وهذا ما يفضي الى نمو الملكية الشخصية . ولكن الدولة تضبط نمو الملكية الشخصية ومقاديرها . ويتم ذلك عن طريق نظام دفع اتعاب العمل تبعا لكميته وكيفيته ، وعن طريق سياسة الاسعار على سلع الاستهلاك الواسع ، وكذلك عن طريق اعطاء الافضلية لتطوير صناديق الاستهلاك الاجتماعية وهو ما سيأتي الكلام عنه .

هدف الانتاج الاشتراكي . ان هدف الانتاج الاشتراكي هو ايجاد الظروف اللازمة لحياة الناس السعيدة . ولهذا ظل الشعب

قرونا وقرونا يحلم بالشيوعية ، ومن اجل هذا قامت الثورة الاشتراكية وبنيت الاشتراكية وتبنى الشيوعية .

ان كل الانتاج ، في النظام الاشتراكي ، خاضع لمهمة رفع مستوى حياة الشعب . وليس هذا دليلا على انسانية النظام الاشتراكي وحسب ، بل هو ايضا **ضرورة اقتصادية** . فلو ان الانتاج الذي يتطور لن يقابله طلب متزايد على منتجاته لتباطأت حتما وتائر تطوره . ان نمو استهلاك الشعب هو الذي يدفع الانتاج الى امام بدون توقف ، كما ان نمو الانتاج ، بدوره ، يدفع الاستهلاك الى امام .

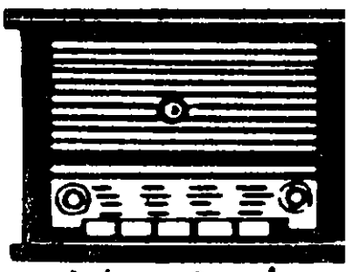
مثالنا على ذلك الازدياد السريع لمبيع السلع الثقافية المعيشية . ففي سنة ١٩٦٣ اقتنى السوفييتيون اكثر مما في سنة ١٩٥٣ : من الساعات بـ ١,٧ مرة ، ومن الراديوهات بـ ٢,٦ مرات ، ومن الدراجات النارية بـ ٤,٨ مرات ، ومن الثلاجات والتلفزيونات بـ ١٧ مرة . ان الطلب على بعض هذه السلع لا يلبى بعد بصورة كافية ، وهذا امر غير طبيعي : لان العرض في النظام الاشتراكي يجب ان يسبق الطلب . ولسوف يقضى على تأخر الانتاج في السنين القريبة القادمة . وعندئذ كيف تكون الحال ؟ على هذا السؤال يجيب مثال مأخوذ من صناعة الساعات في الاتحاد السوفييتي . فهي ، منذ عدة سنين ، تلبي الطلب على منتجاتها تلبية تامة . والآن يعمل صانعو الساعات على ايجاد ساعات اعلى نوعية وطريفة وظريفة . ومع تحسن الساعات تتناقص اسعارها .

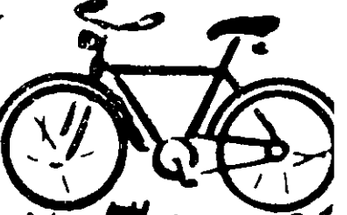
كيف يتم بلوغ هدف الانتاج الاشتراكي ؟ من الواضح تماما ان هذا الهدف لا يمكن بلوغه بتوسيع الانتاج توسيعا بسيطا : لانه يجب الاهتمام برفع مستوى نوعية المصنوعات وايجاد انواع جديدة من الانتاج وانقاص اسعارها . وانما هناك

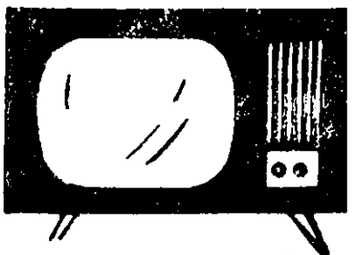
وسيلة واحدة تسمح بتحقيق ذلك كله في آن واحد وهي : **التقدم التكنيكي** . فالتقدم التكنيكي هو الذي يضمن النمو المتواصل لانتاجية العمل الاجتماعي .



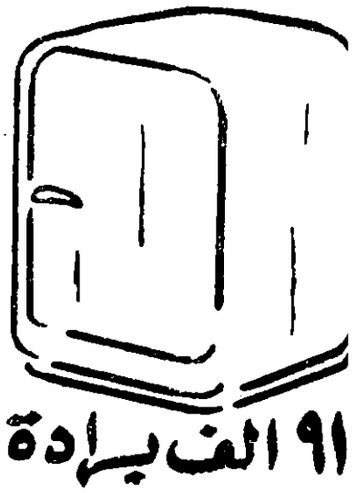
في سنة ١٩٦٣ انتج في الاتحاد السوفييتي ٢٨٨ مليون زوج من الاحذية ذات النعل المصنوع من الجلد الاصطناعي . ولو ان كل هذه الاحذية قد صنعت من الجلد الطبيعي لتطلب ذلك اكثر من عشرة ملايين فروة من فراء الابقار . كما ان مجموع مبذول العمل في الحصول على المواد الجلدية الاصطناعية وصنع الاحذية منها هو اقل بعشر مرات مما في انتاج هذه الاحذية نفسها من الجلد الطبيعي .



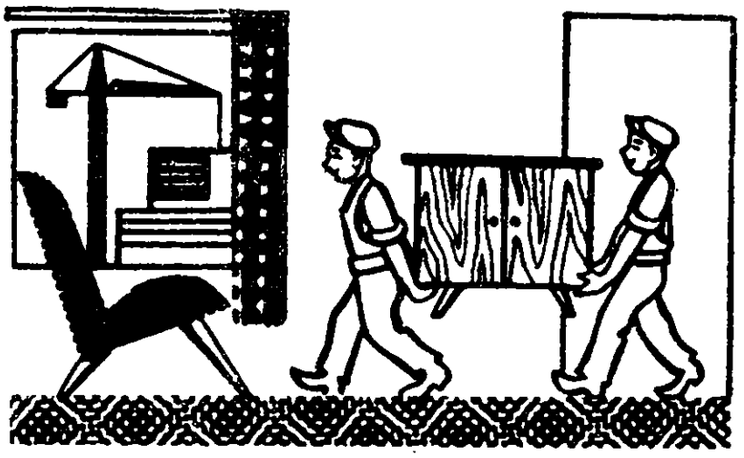




ان تطوير الانتاج على اساس التكنيك الطليعي هو ضرورة من الضرورات ، مثله مثل الارتفاع المستمر لمستوى معيشة الشعب : بدون احدهما لا يمكن ان يتم الآخر . ولهذا فان التوسيع المتواصل للانتاج واتقانه على اساس التكنيك الطليعي والعمل الجماعي لتلبية حاجات جميع اعضاء



المجتمع النامية باستمرار باتم ما تكون التلبية وتطوير اعضاء المجتمع من جميع الجوانب هو **القانون الاقتصادي الاساسي للاشتراكية .**



واستنادا الى القانون الاقتصادي الاساسي وباستخدامه في النشاط الانتاجي ، يزيد المجتمع الاشتراكي بسرعة ، من سنة الى سنة ، كمية الخيرات المادية المنتجة في الاقتصاد الوطني .

وبفضل نجاحات الصناعة والزراعة يرتفع بلا انقطاع مستوى معيشة السوفييتيين ويزداد من سنة الى اخرى استهلاك المواد الغذائية كاللحم والزبدة والسكر والحليب . وزاد كثيرا استهلاك المواد الصناعية وخصوصا الالبسة والاحذية والكثير من السلع الاخرى التي تنتج لتحسين معيشة الناس . ويوجه لبناء المساكن اهتمام شديد .

سبق الاتحاد السوفييتي كثيرا ، من حيث احجام البناء السكني ، اكثر البلدان الرأسمالية تطورا . في خلال عشر سنوات ، من ١٩٥٤ الى ١٩٦٣ ، تم في المدن والدساكر بناء اكثر من ١٧ مليون شقة كما تم في المناطق الريفية بناء حوالى ٦ ملايين بيت . وانتقل الى الشقق والبيوت الجديدة ١٠٨ ملايين شخص ، اي زهاء نصف سكان الاتحاد السوفييتي .

العمل والتوزيع

ظروف العمل . ان العمل ، هذا المصدر للرخاء القادر على جلب اعظم مسرات الحياة للانسان – مسرة الخلق والابداع ، ظل طول الوف السنين من حياة النظام الاستغلالي ، يعتبر

عبئا ثقيلا على الانسان . وما كان يمكن ان يكون غير ذلك بالنسبة لاولئك الذين كانوا يجنون المحاصيل الطيبة ولا يكادون يسدون رمقهم ، ويصنعون الاقمشة الرائعة ويرتدون الاسمال ، ويشيدون القصور الفخمة ويقيمون في الاكواخ .

أما في النظام الاشتراكي فقد اصبح الكادحون هم اصحاب جميع ثروات البلد لا ينازعهم فيها منازع . انهم يعملون لا لاثراء حفنة من الطفيليين بل لانفسهم ولمجتمعهم . ان تحويل العمل من اجباري الى حر هو اعظم انجاز للاشتراكية .

وترتبط بهذا التحول ، التغيرات المبدئية في ظروف العمل .

فالعمل قبل كل شيء يصبح **ايسر واكثر انتاجية** . وطبيعي ان هذا لا يعني ان في وسع المرء ، في النظام الاشتراكي ، العمل بنصف الطاقة ، بفتور . ان العمل عمل وسيتطلب دائما بذلا معينا من قوى الانسان الجسدية والروحية وهمة واجتهادا . أما عندما نقول : تيسير العمل ، فنعني النمو المتواصل لتسلحه بالتكنيك . فتطور الصناعة الثقيلة وخصوصا صناعة الماكنات ، ومكننة العمليات الانتاجية في الصناعة والنقل والزراعة ، يؤديان الى نقصان متواصل في الحاجة الى العمل اليدوي المرهق ، والى اضمحلال المهن التي تضر بصحة الانسان وتقصّر حياته .

فحفر الارض بالرفش اخلى المكان للكراكة التي يديرها سائق وميكانيكي . والعمل المرهق للحطابين وغيرهم من العاملين في صناعة الاخشاب حلت محله المناشير الكهربائية والجرارات . واضمحلت مهن جراري العجلات باليد في ورشات التعدين ، وعمال الشحن اليدوي في الافران العالية وفي افران مارتان . وحل محل عمل النقالين والعتالين في صناعة الماكنات وتشغيل المعادن والبناء ، عمل سواقي الونشات والرافعات . وفي استخراج

البترول زال عمل الحفر اليدوي والنزح بالاسطوانات ، وحل محله عمل البريمات والآلات ذات الاجهزة المعقدة .

وحدثت امثال هذه التغيرات في الزراعة ايضا ، حيث اصبح سواق الآلات الزراعية — سواق الجرار والحصادة الدارسة — هو الشخصية الرئيسية في الانتاج .

ولا يزال العمل اليدوي المضني موجودا في بعض فروع الانتاج ، ومن اسباب ذلك ان بعض الاعمال لا تخضع للمكننة بسهولة . ولكن هذا ليس عقبة غير ممكنة التذليل ، ولن يمر وقت طويل حتى يسمح التقدم التكنيكي بازالة العمل اليدوي المضني .

ان مكننة واتمتة الانتاج الاشتراكي تستدعيان الحاجة الى رفع مستوى كفاءة العمال وتضيفان على العمل **طابعا خلاقا** اكثر . فبديهي ان العمل بالرفش ليس مثل ادارة الونش . وهل يجلب العمل بالرفش كثيرا من المسرات ؟ وطبيعي ايضا انه لا يأتي بفرص كثيرة للخلق والابداع ، لانه لا يتطلب ذكاء خاصا . أما سائق الونش فليس عليه فقط ان يكون عارفا بحد ادنى من المعلومات العلمية والتكنيكية ، وانما يتوقف على حسن عمله وتفتق ذهنه استخدام الآلة استخداما فعالا ، فهو يبحث عن اكثر طرائق واساليب العمل سدادا وصحة . وتستيقظ في الكثيرين الرغبة في اتقان الاجهزة . فظروف العمل الجديدة هي التي اوجدت ذلك النوع من الابداع الشعبي الجماهيري ، ألا وهو الاستنباط والاختراع .

ان من اهم التغيرات التي طرأت على ظروف العمل في النظام الاشتراكي ، هو ان **التشغيل الكامل لليد العاملة** قد تأمن . ففي سنة ١٩٣٠ علق القفل على ابواب آخر بورصة للعمل

في الاتحاد السوفييتي ومنذ ذلك الحين لا تعرف شبيبة البلاد السوفييتية البطالة الا من الكتب والجرائد . وبالاضافة الى ذلك يستطيع السوفييتيون ان يختاروا لانفسهم المهنة التي تلائم ميولهم وان يحصلوا على التعليم المهني المناسب .

كان الايديولوجيون البرجوازيون يتنبأون بان البلدان الاشتراكية لن تستطيع – مع تطور الانتاج – ان تتفادى البطالة . ولكن الواضح الآن ان هذه الحسابات كانت مبنية على الرمال . فالانتاج في الاتحاد السوفييتي ينمو بخطوات جبارة وتتطور مكننة واتمتة الانتاج تطورا متواصلا ، ومع ذلك فان العمل يكفي الجميع في الاقتصاد الوطني . ويزداد عدد العمال والمستخدمين المشتغلين في الاقتصاد الوطني ازديادا متواصلا ، وبلغ في سنة ١٩٦٣ ، سبعين مليونا و ٥٠٠ الف شخص .

وبمقدار ما تتطور القوى المنتجة يجري **نقصان وقت العمل** . ويبقى عند العاملين ما يكفي من الوقت للراحة والتعلم والحياة الخاصة .

ان ساعات العمل الاضافية محدودة بشدة في الاتحاد السوفييتي . وفي سنة ١٩٦١ تم انتقال جميع العمال والمستخدمين الى يوم العمل المؤلف من ٧ – ٦ ساعات . وترافق نقصان يوم العمل واسبوع العمل زيادة في انتاجية العمل (بفضل التقدم التكنيكي واتقان تنظيم الانتاج) ونمو الاجور .

ويوجه اهتمام خاص في النظام الاشتراكي الى **حماية العمل** . ففي كثير من فروع الانتاج الحديث يمكن ان تحدث اصابات عمل وحتى حوادث وفاة . وفي الشيوعية ستنتفي امكانية اصابات العمل عمليا في الانتاج المؤتمت . ولكن منذ الآن امكن انقاص الاصابات الى الحد الادنى بفضل عناية المجتمع الاشتراكي بحماية العمل .

واخيرا فان الاشتراكية تقرر للجميع بالتساوي **الحق في الحصول على الخيرات المادية حسب العمل** .

لكل حسب عمله . ان المستوى الذي تم بلوغه في تطور القوى المنتجة لا يزال غير كاف لتطبيق المبدأ الشيوعي للتوزيع تطبيقا عاجلا وسد حاجات جميع الناس بالمجان بصرف النظر عن قسطهم الشخصي في الخزينة الاجتماعية . فعلى اي مبدأ اذن يجب توزيع الخيرات المادية الآن ، في النظام الاشتراكي ؟

أليس يمكن دفع اجور العمل للجميع بالتساوي : لخراط الفئة الاولى وخراط الفئة السابعة ، للخبير الاختصاصي ذي التعليم العالي وللمتدرب في المصنع ؟

هذه الطريقة في التوزيع تسمى **طريقة التساوي** وهي مثال اعلى برجوازي صغير للاشتراكية . ومن السهل ان نفهم ماذا يمكن ان تكون نتائج التوزيع بالتساوي . فلو طبق ذلك لزال اهتمام الناس في رفع مستوى تخصصهم وانتاجية عملهم : اذ لماذا بذل همة خاصة واتقان عادات الانتاج والمهارة ما دمت ستنال في كل حال اجرا معينا ؟ وسيكون هذا الاجر بحد ذاته زهيدا حتما وسيتناقص ولن يزداد : اذ كلما ساء عمل الناس ازداد فقر المجتمع .

وهكذا فان التوزيع بالتساوي يؤدي لا الى المساواة بل الى صورة مشوهة للمساواة : وهل يجلب للمعدمين مسرات كثيرة ادراكهم انهم جميعا «متساوون» لان احدا لا يملك اكثر من الآخر ؟ ان هذا يعني استهلاك الثروة الاجتماعية بالتدريج . ولهذا ترفض النظرية الماركسية ـ اللينينية رفضا قاطعا طريقة التوزيع بالتساوي .

ان مبدأ التوزيع في الاشتراكية يجب ان يسهم في انماء الثروة الاجتماعية انماء متواصلا وان يؤمن ، في الوقت نفسه ، رفع مستوى معيشة جميع الكادحين بالتدريج : بهذا الشرط وحده يمكن ايجاد الوفرة والانتقال الى المساواة الفعلية – اعطاء الجميع حسب حاجاتهم . وكلا هذين المطلبين يوافقهما كل الموافقة المبدأ الاشتراكي للتوزيع : **حسب كمية العمل ونوعيته** .

عندما يتناول الحديث قانون التوزيع حسب العمل يجب ان يقصد منه ان ما يوزع ليس كل المنتوج بل جزء منه . فقبل الانتقال الى توزيع منتجات العمل بين العاملين ، من الضروري اجراء عدد من الحسومات من المنتوج الاجتماعي للحاجات الاجتماعية : للتعويض عن وسائل الانتاج المستهلكة ، ولتوسيع الانتاج ، ولانشاء صندوق التثقيف والصحة العامة ، ومساعدة العجّز ، ولتغطية نفقات الدفاع والادارة ، الخ .. والجزء المتبقى بعد هذه الحسومات يوزع بين المشتركين في الانتاج الاشتراكي .

ان الملكية الاجتماعية على وسائل الانتاج تثبّت وحدة المصالح الشخصية والاجتماعية . فكل عامل في المجتمع الاشتراكي له مصلحة في تلبية الحاجات الاجتماعية – في توسيع الانتاج ، والتثقيف ومساعدة العجّز وتقوية دفاع البلد ، وغير ذلك . وبالتالي فان المنتوج الذي يصنع لسد الحاجات الاجتماعية ضروري لكل عضو من اعضاء المجتمع ضرورة المنتوج لسد الحاجات الشخصية .

ان مبدأ التوزيع حسب العمل يضع حدا لاعظم جور في المجتمع الاستغلالي ، حيث المستغلون يستملكون القسم الاكبر من القيم المادية المنتجة . ففي الاشتراكية ، كما سبق القول ،

يشكل العمل ، والعمل فقط ، المصدر المشروع الوحيد لوسائل العيش وهو الذي يحدد وضع الانسان في المجتمع .

ان المال ، ولو كان وفيرا ، لم يعد في الاشتراكية اداة للسلطة ومادة للاحترام . وفقدت بعض المفاهيم ، كمفهوم «الميراث الوفير» ومفهوم «الزواج المربح» ، معناها وبدأت تزول بالتدريج من الحياة اليومية . ولا يمكن في المجتمع الاشتراكي شراء مصنع لاستغلال العمال ولا شراء مقعد برلماني او وزاري . ان المؤهلات الشخصية والعمل لمصلحة المجتمع هي في النظام الاشتراكي معيار قيمة الانسان .

ويسمح دفع الاجور حسب العمل بتطبيق مبدأ اقتصادي آخر للاشتراكية ، تطبيقا مستمرا ، وهو مبدأ **مصلحة الناس المادية في نتائج عملهم** . فكلما عمل الانسان بشكل افضل وكلما ازداد ما يعطيه للمجتمع ، ازداد مقدار اجره . وهذا ما يحفز الناس الى السعي وراء زيادة انتاجية العمل . ألا وان زيادة انتاجية العمل هي الشيء الرئيسي والاهم لانتصار الشيوعية .

ان المصلحة المادية تعلم الناس ان يعملوا بكامل طاقتهم ، وتسهم في تطوير **الحوافز** المعنوية ، وبكلمة ادق ، **الفكرية الى العمل** .

هذه الحوافز ظهرت بعد انتصار ثورة اكتوبر مباشرة . فقد ولد تحرير العمل من الاستغلال حماسة عظيمة وسعيا الى بناء المجتمع الجديد وانشاء حياة افضل للجميع باسرع ما يمكن . وهل يمكن بالمصلحة المادية وحدها تفسير بطولة بناة محطة دنيبر الكهرمائية ومصنع ماغنيتوغورسك للتعدين ومدينة كومسومولسك ؟ لقد كان الناس يرضون بالحرمانات في سبيل الفكرة العظيمة ، وما كان يدفعهم الجشع بل الايمان بمستقبل

مشرق والسعي الى تقريب موعده باعمالهم . وهذه الحوافز نفسها كانت تتملك ايضا مئات الالوف من الشباب والشابات ، الذين اشتركوا في استصلاح الاراضي البكر وانشاء القواعد الصناعية الجديدة في سيبيريا والشرق الاقصى .

ويتجلى الجمع بين الحوافز المادية والفكرية الى العمل تجليا ساطعا في احدى اشد قوى الانتاج الاشتراكي المحركة جبروتا وهي : **المباراة الاشتراكية** .

المباراة الاشتراكية . ان المباراة الاشتراكية هي تعبير عن العلاقات الجديدة ، الاشتراكية ، في عملية الانتاج ، ونتيجة للعمل الخلاق الحر ، ومظهر للحوافز الفكرية الى العمل ، التي اثارتها الثورة . فيها ، بايجاز العبارة ، تتجسد عناية الكادحين بتطوير الانتاج وزيادة الثروة الاجتماعية . ويتبارى الكادحون على تنفيذ الخطط بنجاح وتجاوزها وعلى تحسين صفات الانتاج وتخفيض تكاليفه وعلى الاقتصاد في المواد الاولية والمواد المساعدة والوقود والطاقة الكهربائية وعلى رفع مستوى نظام العمل وزيادة درجة التخصص ، الى آخر ما هنالك .

كانت السبوت الشيوعية* في فترة الحرب الاهلية اولى براعم المباراة الاشتراكية .

ففي ربيع سنة ١٩١٩ قرر عمال مستودع موسكفا — سورتيروفوتشنايا ، وفي طليعتهم الشيوعيون ، بمبادرة منهم انفسهم ، ان يصلحوا القاطرات بالمجان بعد انتهاء يوم عملهم .

---

* السبت الشيوعي تعبير اطلق على العمل الذي كان يتطوع به الناس ، بعد انتهاء يوم عملهم العادي ، للمشاركة في اعمال البناء العامة . المترجم .

ويوجد شيخ القاطرات هذا ، الآن ، في المتحف ، شاهدا حسيا على مولد الموقف الجديد ، الشيوعي ، من العمل .

وفي فترة التصنيع الاشتراكي وجعل الزراعة تعاونية ، اتسعت حركة الصداميين ثم حركة اتباع ستاخانوف . وفي سني الحرب الوطنية الكبرى نظمت في المؤسسات الصناعية فرق صدامية لتنفيذ مهام الجبهة قبل الموعد . وبعد الحرب نشأت حركة جماهيرية للمجددين والمستنبطين والمخترعين . والآن ، في فترة بناء الشيوعية على نطاق واسع ، ارتقت المباراة الاشتراكية الى درجة جديدة اعلى : ولدت حركة الصداميين ومجموعات العمل الشيوعي .

والمبدأ الاساسي للمباراة الاشتراكية هو مساعدة المتقدمين للمتأخرين ، والسعي الى تصفية تأخرهم قصد التوصل الى نهوض عام للانتاج .

والشيء الرئيسي في المباراة هو نشر الخبرة . فاذا كان كل اتقان في ظروف الانتاج الرأسمالي يمنع عن المزاحمين بكل حرص وعناية ، فالمباراة في النظام الاشتراكي هي التي تساعد على تطبيق خبرة المجددين في الانتاج تطبيقا سريعا وواسعا وهي متصلة اتصالا لا ينفصم بالعلنية الواسعة .

ان المباراة الاشتراكية تختلف اختلافا جذريا عن المزاحمة لرأسمالية التي شعارها هزيمة وموت البعض وانتصار وسيطرة لبعض الآخر . أما المباراة الاشتراكية فتنفي بكل جوهرها قوانين لمزاحمة غير الجديرة الا بالذئاب ، ولكن هذا لا يعني ابدا تفريغ مفهوم «المباراة» نفسه : فمن يحرز نتائج افضل يحاط بالتكريم والاحترام الخاصين . ويحاط بتكريم واحترام اكبر ايضا كل من يضع منجزاته في متناول رفاقه . وبتعبير آخر فان في المباراة غالبا ولكن ليس فيها مغلوبون ، لان الجميع يكسبون في المباراة .

لماذا يبقى الانتاج البضاعي في الاشتراكية ؟ يوجد الانتاج البضاعي في الرأسمالية بحكم التقسيم الاجتماعي للعمل والملكية الخاصة على وسائل الانتاج . أما في الاشتراكية فلا ملكية خاصة على وسائل الانتاج . فلماذا اذن ، بالرغم من هذا ، تبقى ضرورة الانتاج البضاعي ؟

لكي يفقد تبادل المنتجات الشكل البضاعي يجب ايجاد وفرة من الخيرات المادية والثقافية وسد حاجات جميع الناس بالمجان . وهذا ما سيكون في الشيوعية . أما في الاشتراكية فالمجتمع مضطر الى توزيع المنتجات بين الناس حسب كمية العمل وكيفيته . ومن الضروري هنا حساب مقدار العمل ومقدار الاستهلاك . واداة هذا الحساب هي النقد الذي يمكن اقتناء البضائع به .

والسبب الآخر لبقاء الانتاج البضاعي هو ان الملكية الاشتراكية تبدو في شكلين . وبما ان من الضروري التبادل بين المالكين الاساسيين – الدولة والكولخوزات ، فان جزءا هاما من الانتاج يأخذ الشكل البضاعي والانتاج نفسه يكون بضاعيا .

ولكن الانتاج البضاعي في الاشتراكية يختلف مبدئيا عن الانتاج البضاعي الرأسمالي ، لانه انتاج بدون ملكية خاصة وبدون رأسماليين ، صغار او كبار ، وبدون استغلال انسان لانسان .

ولا يجري انتاج البضائع وتوزيعها وتبادلها عفويا بل على اساس خطط اقتصادية واحدة . ثم ان مجال عمل الانتاج البضاعي محدود : فالارض وما في باطن الارض والغابات والفبارك والمصانع والخطوط الحديدية وغيرها من اهم عناصر الثروة الاجتماعية لا يمكن ان تكون بضائع ، وهي مستثناة من التداول البضاعي ، كما ان قوة العمل ليست ايضا بضاعة .

ويتجلى اختلاف الانتاج البضاعي الاشتراكي عن الانتاج البضاعي الرأسمالي تجليا محسوسا في تغير مفعول قانون القيمة .

قانون القيمة في الاشتراكية . حيث يوجد الانتاج البضاعي ، يعمل قانون القيمة . وهذا القانون يفرض ، كما يجب عليه ان يفعل ، ضرورة انتاج البضائع وتبادلها وفقا لمبذول العمل الضروري اجتماعيا . فعندما تقرر الدولة اسعار البضائع لا تستطيع ان تنطلق من المبذول الفردي لمؤسسة معينة . وانما تسترشد بالمبذول الضروري اجتماعيا ، اي الضروري في مرحلة معينة من تطور القوى المنتجة وفي مستوى معين من التكنيك وفي الدرجة الوسطية الموجودة لمهارة وتأجيد العمل .

ان الاسعار في الاقتصاد الرأسمالي تتكون في السوق عفويا ، أما في ظروف الاشتراكية فيجري تعيين **اسعار مخططة** (ما عدا اسعار السوق الكولخوزية *) . وفي هذا تنطلق الدولة السوفييتية ، في الدرجة الاولى ، من قيمة المنتجات المصنوعة ، آخذة في الحسبان مختلف الاعتبارات الاقتصادية والسياسية .

ويجب ان يكون سعر البضاعة قريبا الى اقصى حد من قيمتها ، اي من مبذول العمل في انتاجه . وكلما كان السعر يعكس قيمة البضاعة بشكل ادقّ ، كان من الاسهل تعيين مقدار فائدة هذه او تلك من التجهيزات والمواد الاولية وعمليات الانتاج التكنولوجية .

---

* ان الاسعار في السوق الكولخوزية لا تخططها الدولة وانما تتكون بتأثير العرض والطلب . ويعمل قانون القيمة هنا عفويا ، مع ان الدولة الاشتراكية تؤثر في السوق الكولخوزية بكون الكمية الاساسية من البضائع تباع في شبكة مخازن الدولة باسعار مخططة ثابتة .

لنفترض ان قطعة يمكن صنعها من مادة «آ» أو من مادة «ب» . وان قيمة المادة «آ» تعادل روبلا و ٥٠ كوبيكا ، وقيمة «ب» ٤ روبلات . وان القطعة المصنوعة من المادة «ب» تخدم ٥ سنين ، اما القطعة المصنوعة من المادة «آ» فتخدم سنة واحدة . فبديهي ان صنع القطع من المادة «ب» اربح . ولكن اذا تبين ان السعر المقرر للمادة «آ» ادنى من قيمتها ، وان السعر المقرر للمادة «ب» اعلى من قيمتها ، امكن الظن ان من الاربح استعمال المادة «آ» .

ان استعمال قانون القيمة يسمح باعطاء حافز مادي لتطبيق التكنيك الجديد وتحسين تنظيم الانتاج . وتكون النتيجة تأمين نمو متواصل لانتاجية العمل وتخفيض قيمة الوحدة من المنتجات .

وفي الوقت نفسه تعمد الدولة عن وعي الى تعيين اسعار بعيدة عن القيمة ، اذا ما تطلبت ذلك مصالح تطوير الانتاج الاجتماعي ومصالح السكان . وهذا مثلا ما يحدث عندما تستدعي الضرورة استخدام جزء من الايرادات الحاصلة في بعض الفروع لتعجيل تطوير الفروع الاخرى التي لها اهمية اقتصادية كبيرة . ويجري هذا ، مثلا ، عندما يراد تنظيم طلب الاهلين ، وبالتالي طابع الاستهلاك . وهكذا فان اسعار البضائع في مخازن الاطفال كثيرا ما تكون ادنى من قيمتها ، ولكن هناك ، في مقابل ذلك ، بضائع اسعارها اعلى من قيمتها (كالتبغ والفودكا وغيرهما) .

وهكذا نرى مما سلف ان قانون القيمة يعمل في الرأسمالية عفويا ، وان انحراف السعر عن القيمة هو نتيجة لفوضى الانتاج الرأسمالي . أما في الاقتصاد الاشتراكي فبالضد من ذلك لا يصير انحراف السعر عن القيمة الا قصدا ولمصلحة المجتمع .

النقد في الاشتراكية . في الانتاج البضاعي لا بد من وجود النقد .

والنقد هو بضاعة انفصلت عفويا عن عالم البضائع واستقلت بدور العديل العام (اي ان النقد بضاعة تعبر عن قيمة البضائع الاخرى جميعا) . وتعدل بالبضاعة النقدية قيمة باقي البضائع ، وبها **تقاس قيمتها** . وهذه البضاعة النقدية هي الذهب . وللنقد في الاتحاد السوفييتي محتوى ذهبي .

ويقوم الذهب بدور **النقد العالمي** – فهو وسيلة للحسابات الدولية بين الدول في ميدان التجارة الخارجية .

ولكن الدور الاجتماعي للنقد يختلف في المجتمع الاشتراكي كل الاختلاف عما في المجتمع الرأسمالي . فالنقد في الاشتراكية لا يمكن ان يتحول الى رأسمال وبه لا يمكن شراء فبركة أو مصنع او قوة عمل او ارض أو محطة كهربائية . والنقد في ظروف الرأسمالية اداة لقوانين السوق العفوية . أما الدولة الاشتراكية فتستخدم النقد عن وعي كوسيلة للحسابات العامة والمراقبة على الانتاج وعلى توزيع السلع وعلى قياس العمل وقياس الاستهلاك .

والنقد في الاشتراكية اداة ضرورية للتوزيع حسب العمل . فالكادحون عندما يشترون بالنقد سلعا استهلاكية يحصلون على حصة من المنتوج الاجتماعي تناسب كمية وكيفية العمل الذي بذلوه .

وبواسطة النقد تتمكن الدولة من تلخيص نتائج نشاط المؤسسات الاقتصادي حيث يصير التعبير ، بواسطة النقد ، عن مبذول العمل الضروري لانتاج هذه السلعة او تلك ونفقات الادارة ونقل السلع وايصالها الى المستهلك بواسطة الشبكة التجارية . ان المراقبة بالنقد على عمل المؤسسات الاشتراكية هو اكثر طرائق ادارة الاقتصاد مرونة .

ان النقد هو عنصر ضروري للتجارة وهو **وسيلة للتداول** لان عمليات البيع والشراء بدونه غير ممكنة .

يأتي النقد الى التداول بواسطة بنك الدولة . وتجري الحسابات بين المؤسسات والدوائر والمنظمات بطريقة التقاص . اذ يحول البنك مبلغ النقد من حساب احدى المؤسسات والدوائر لحساب اخرى . أما الكمية الاساسية من الاموال النقدية التي يصدرها بنك الدولة فتذهب لدفع الاجور ومعاشات التقاعد والاعانات والمنح الدراسية وشراء الحاصلات الزراعية والحيوانية . وتعود الاموال النقدية الى البنك بواسطة الشبكة التجارية .

وتحدد كمية النقد الضرورية للتداول ، بمجموع اسعار البضائع مقسوما على عدد دورات الوحدة النقدية . مثلا ، اذا كان مجموع اسعار البضائع التي تم تصريفها في اثناء السنة في بلد من البلدان يشكل ١٠٠ مليار وحدة نقدية ، وكانت كل وحدة نقدية تقوم وسطيا في السنة بخمس دورات ، فان كمية النقد الضرورية للتداول ستكون معادلة لعشرين مليارا . اما اذا كانت كل وحدة نقدية تقوم بعشر دورات تطلب الامر عشرة مليارات فقط . وهكذا فكلما زادت سرعة دوران النقد كانت الكمية المطلوبة منه للتداول اقل .

وعند دفع اجور العمال والمستخدمين ، وعند اخذ وتسديد التسليفات الى بنك الدولة من قبل المؤسسات الاشتراكية ، وعند دفع الضرائب واقساط التأمين ، وعند توزيع الايرادات النقدية بين الكولخوزيين ، اي عندما يتحقق انتقال النقد من يد الى يد بدون عملية بيع او شراء ، فالنقد يكون **وسيلة للدفع** .

كما يكون النقد ايضا **وسيلة للتراكم** . فالمصانع والفبارك والسوفخوزات والكولخوزات تدخر في البنك الايرادات النقدية

والموارد النقدية الحرة موقتا . وهذه التراكمات والادخارات تستعملها الدولة الاشتراكية لتوسيع الانتاج ولتكوين الاختياطيات ولتسليف المؤسسات والمنظمات الاخرى .

التخطيط

قوة الخطة . ان كل مؤسسة في البلاد السوفييتية هي خلية في جسم اقتصادي واحد ، توحده الملكية الاجتماعية على وسائل الانتاج ، وتتصل جميع الخلايا فيما بينها بالوف العرى . ومن السهل تصور الفوضى التي قد تسود الاقتصاد الوطنى لو راحت جميع المؤسسات تشتغل كل على حدة وعلى مسؤوليتها . ولكن هذا ، لحسن الحظ ، لا يمكـــن ان يحدث اذ لا يوجد في الاتحاد السوفييتي ارباب عمل خاصون وانما جميع المؤسسات تعود الى سيد واحد هو الشعب . وحيث يوجد سيد واحد يتولد هدف مشترك وبرنامج اعمال واحد – هو الخطة .

ان قوة الخطة قوة عجيبة . لنفترض مثلا ان مصنعا كيميائيا جديدا يبنى . ففيما يشيد البناة مباني المصنع ، تكون مصانع الماكنات الكيميائية في كل انحاء البلاد قد راحت تحضّر المعدات الضرورية . فمصانع تكرير البترول تتلقى مهمة تأمين المواد الاولية للانتاج الجديد ، وقادة الخطوط الحديدية يقررون كيف يمكن ايصال المواد الاولية الى المصنع في الوقت المناسب وكيف يمكن شحن المنتوج الجاهز الى المستهلك ، وتقرر معاهد التكنولوجيا الكيميائية في الصفوف الاخيرة تخصصا اضافيا للطلاب الذين عليهم ان يكونوا مصممين ومهندسين واسطوات ، وفي المدارس العادية والصناعية يحصل عمال المصنع المقبل على العادات والمعارف اللازمة .

فلا بد في كل مكان وكل شيء من حساب دقيق ، وعمل منسق ، ووحدة اعمال . وكل هذا يتم بلوغه بواسطة الخطة ـ الوثيقة الحكومية التي يبيّن فيها ماذا يجب انتاجه ولمن ومن اين يحصل على المواد والى اين سيذهب الانتاج وكم شخصا يجب تدريبهم وعلى ماذا يجب تدريبهم . وتقرر الخطة مهمات لانماء الانتاج ورفع مستوى معيشة الكادحين وتطوير الثقافة ومقادير التجارة الداخلية والخارجية وكثير غير ذلك من الامور الاخرى .

ان تخطيط تطور الاقتصاد الوطني هو من اهم افضليات الاشتراكية على الرأسمالية . فلاول مرة في مدى الوف السنين من تاريخ المجتمع يتحكم المجتمع بظروف الانتاج ويبنيه عن وعي وبامعان فكر ويبلغ بذلك اقصى حدود التوفير في العمل الاجتماعي . ويتخلص الى الابد مما للمزاحمة وفوضى الانتاج من تأثير مخرب ، ومن الازمات الاقتصادية .

واليكم مثـــالا بسيطـــا للغاية . لنفترض ان عددا من المؤسسات الاشتراكية انتجت ، وفقا لمهمات الخطة ، بضائع بمقادير تفيض عن حاجة السكان . عندئذ تعمل هيئات التخطيط سلفا لتحويل جزء من المؤسسات الى انتاج انواع اخرى من المنتجات ، وما تبقى منها يتلقى مهمة الاستمرار في انتاج البضاعة السابقة لكي يسبق العرض الطلب ولا ينشأ نقص .

لماذا تنشأ في الاشتراكية امكانية تخطيط الاقتصاد الوطني ولا تنشأ في الرأسمالية ؟ السبب الاول لهذا ان في الاشتراكية ملكية اجتماعية على وسائل الانتاج . فالملكية الاجتماعية والنظام الاشتراكي للاقتصاد يسمحان بتخطيط الاقتصاد وتسيير الانتاج عن وعي .

ولكن التسيير الواعي للاقتصاد الوطني لا يعني امكانية العمل اعتباطا . فمن الواضح تماما ، مثلا ، اننا لا نستطيع تخطيط انشاء مصانع جديدة قبل تأمين قاعدتها من المواد الاولية . ولا يمكن تقرير زيادة في انتاج الاحذية قدرها عشرة امثال في السنة اذا لم تتوفر المواد الاولية اللازمة لذلك ، الخ ..

من هنا نخلص الىُ استنتاج هام واضح ، وهو ان التخطيط يعبر عن فعل احد القوانين الاقتصادية الموضوعية للاشتراكية — **قانون التطور المنتظم المتناسب للاقتصاد الوطني** . ومع ان هذا القانون يمكّن من التخطيط فهو يتطلب التقيد حتما بنسب معينة بين مختلف فروع الاقتصاد (انظر الرسم التوضيحي على الصفحة ١٦٧) .

وتستعمل الدولة الاشتراكية قانون التطور المنتظم المتناسب ، لكي تقرر عن وعي وتحافظ على النسب الاقتصادية ، ولكن هذا لا ينفي امكان نشوء خلل جزئي بين النسب . ويعود السبب الرئيسي لهذا الخلل الى الاخطاء في التخطيط والنواقص في العمل التنظيمي .

ويمكن ان ينشأ خلل جزئي بين النسب ايضا بفعل قوى الطبيعة . فاذا ساءت الاحوال الجوية امكن ان ينقص محصول بعض المزروعات نقصانا شديدا وان تعاني فروع الصناعة المرتبطة بتحويل هذه المزروعات نقصا في المواد الاولية .

وهكذا فان الخلل في النسب ليس في الاشتراكية ناشئا عن نظام الاقتصاد كما في الرأسمالية ، وانما يمكن ان يكون نتيجة لاخطاء الناس وللكوارث الطبيعية ويكون موقتا وجزئيا ولا يؤدي الى خراب القوى المنتجة والى البطالة والى الازمات الاقتصادية .

وتستعمل احتياطيات الدولة وسيلة لمكافحة نشوء الخلل الجزئي بين النسب .

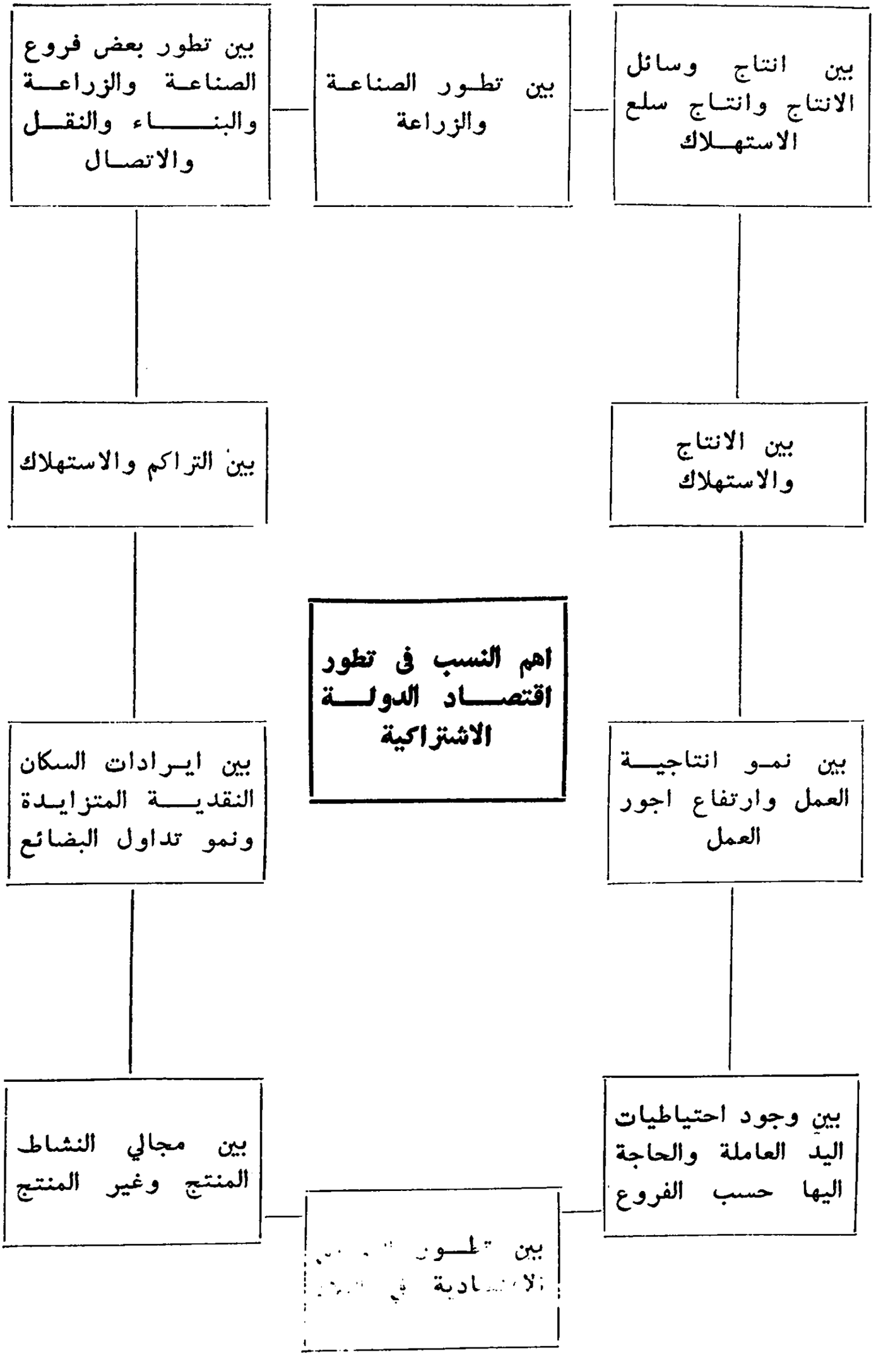
مولد الخطة . وعلى الخطط ان تنعكس القانون الموضوعي لتطور الاقتصاد الوطني تطورا منتظما ومتناسبا . ومهمة هيئات الدولة هي وضع الخطط بشكل يتفق اتفاقا كليا مع هذا القانون وان تنعكس فيها مطاليبه انعكاسا تاما .

ويمكن ان يكون التخطيط جاريا او بعيد المدى ، اي لعدة سنين مسبقا (٥ او ٧ او ٢٠ سنة) . والدور الرئيسي هو للتخطيط البعيد المدى ، ففيه بالذات تتجلى ، بقوة خاصة ، مقدرة الدولة الاشتراكية لا على استشفاف سير التطور الاقتصادي وحسب ، بل على تحقيق مجموعة من التدابير الفعالة التي تحدد طرق تطور الاقتصاد الوطني كله .

ويبدأ وضع الخطط في المؤسسة ، أو الكولخوز ، أو السوفخوز ، بالاشتراك المباشر من مجموعة العاملين فيها . فهم يعرفون احتياطياتهم وامكانياتهم خيرا من اي شخص آخر ويقدمون الاقتراحات لمكننة الاعمال التي تتطلب جهدا كبيرا ولتحديث الآلات وتوفير المواد وغير ذلك . والخطة الآن لا توضع لسنة واحدة بل لسنتين مقدما دفعة واحدة . وهذا ما يفسح مجالا واسعا للمصانع ويضمن عدم الانقطاع في التخطيط .

يمكن تقسيم العمل في وضع الخطة الى ثلاث مراحل .

في تموز – آب (يوليو – اغسطس) من كل سنة تبدأ اقسام التخطيط في المصانع بوضع مسودة الخطة . وتكون نتائج عمل المؤسسة في السنة الجارية ومهمات الخطة البعيدة المدى ودراسة خبرة خيرة مصانع البلاد هي المعطيات التي تنطلق


اهم النسب فى تطور اقتصاد الدولة الاشتراكية
بين انتاج وسائل الانتاج وانتاج سلع الاستهلاك
بين تطور الصناعة والزراعة
بين تطور بعض فروع الصناعة والزراعة والبناء والنقل والاتصال
بين الانتاج والاستهلاك
بين التراكم والاستهلاك
بين نمو انتاجية العمل وارتفاع اجور العمل
بين ايرادات السكان النقدية المتزايدة ونمو تداول البضائع
بين وجود احتياطيات اليد العاملة والحاجة اليها حسب الفروع
بين مجالي النشاط المنتج وغير المنتج

منها لوضع مسودة الخطة . ثم ترسل خطة المؤسسة الى ادارة الاقتصاد ومنها الى لجنة الدولة للتخطيط .

اما مهمة لجنة الدولة للتخطيط في الجمهورية المتحدة فهي مراعاة التخصص ، والحؤول دون التكرار غير اللازم لانتاج هذه او تلك من انواع المنتجات في كثير من المناطق ، وللحؤول دون الميول المحليـــة ودون النقليـــات المتقابلـــة والبعيدة للغاية ، الخ ..

واهـــم مهمـــة للجنة الدولـــة للتخطيط في الاتحـــاد السوفييتي هي تأمين سياسة مركزية واحدة في تطوير الفروع الرئيسية للصناعة . وتوجه لجنة الدولة للتخطيط في الاتحاد السوفييتي اهتماما خاصا لكي يتطور الاقتصاد تطورا متناسبا ولكي تستجيب الخطة للمتطلبـــات الواردة في برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي وفي توجيهات الحزب والحكومة السوفييتية فيما يتعلق بالتنمية الاقتصادية للبلاد .

والمرحلة الثانية من العمل في الخطة هي وضع الموازين . ومفهوم الميزان يتفق تماما مع المفهوم الشائع لهذه الكلمة اي «حفظ التوازن» . وتنقسم الموازين الى موازين مادية ونقدية وقوة عمل . فالموازين المادية توضع حسب الانواع الهامة من المنتجات الصناعية والزراعية معبرا عنها تعبيرا عينيـــا (اي بالاطنان أو القطع أو غير ذلك) . مثلا : ميزان الفحم ، وميزان حاصلات الحبوب ، وميزان الطاقة الكهربائية ، وميزان اللحم ، وميزان الفولاذ ، وميزان الاقمشة القطنية ، الخ .. وتوضع الموازين ايضا حسب فئات المنتجات التي هي من نوع واحد : كميزان الوقود ، وميزان التجهيزات ، الخ ..

ويتألف كل ميزان من جزئين : جزء الداخل وجزء الخارج . في الجزء الاول تحسب موارد الدخل الممكنة ، وفي الجزء الثاني تحسب جميع النفقات في فترة الخطة .

مثال على الميزان المادي . ميزان الزجاج

موارد الدخل	
١ ـ المتبقى عند المورّدين لبداية السنة	١٠٠
٢ ـ الانتاج	٢٠٦٥٠
٣ ـ الاستيراد	ـ
٤ ـ الوارد من احتياطي الدولة	ـ
المجموع	٢٠٧٥٠

توزيع الموارد	
١ ـ الى حاجات الانتاج والاستغلال	١٥٠٠٠
٢ ـ الى البناء الاساسي	٣٠٠٠
٣ ـ نفقة الموردين على الحاجات الخاصة	١٠٠
٤ ـ للسوق	٢٠٠٠
٥ ـ التصدير	٣٠٠
٦ ـ قسط الاشتراك في احتياط الدولة	٢٢٥
٧ ـ احتياطي مجلس وزراء الاتحاد السوفييتي	٧٥
٨ ـ متبقى الخطة عند الموردين لنهاية السنة	٥٠
المجموع	٢٠٧٥٠

يصار عادة الى اكمال الميزان المادي بجدول شطرنجي يشار فيه من جهة الى منتجي المواد المعينة ومن جهة اخرى الى مستهلكيها . وفي نقاط التقاطع يشار الى كميات المنتجات الموردة لكل مستهلك . وهذا ما يسمح برؤية صلة الموردين بالمستهلكين رؤية حسية واضحة .

ان الموازين المادية تبين نوعا واحدا فقط من النسب ـ هو النسبة بين انتاج بعض البضائع واستهلاكها . ولكن من الضروري ، لتوازن الاقتصاد بمجموعه ، تعيين عدد كامل آخر من النسب ،

كالنسبة مثلا بين ايرادات السكان النقدية – الاجور ، والمدفوعات للكولخوزيين حسب ايام العمل ، ومعاشات التقاعد ، والمنح الدراسية ، الخ . – وتغطيتها – شراء السلع في المخازن ، ودفع بدل خدمات النقل ، والاتصال ، والعروض المسرحية ، والتغذية العامة ، الخ ..

وعندما توضع جميع الموازين وتنسق فيما بينها يقر مجلس الوزراء ودورة السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتي الصيغة النهائية للخطة . وبعد اقرار الخطة من هيئات السلطة العليا تكتسب قوة **القانون الحقوقي** الملزم للجميع . وتلك هي المرحلة الثالثة . وعندئذ يجري تبليغ الجمهوريات مهمات الخطة ، وعند نهاية السنة تتلقى المؤسسات المهمات الملموسة (في صنع المنتجات معبرا عنها عينا ونقدا ، وفي استعمال التكنيك الجديد وتنمية انتاجية العمل ، وفي كلفة الانتاج وغير ذلك من الامور) . وتدقق كل مؤسسة خطتها فتكيفها اذا اقتضى الامر لكي تستطيع تنفيذ برنامج الدولة كليا وتجاوزه قدر الامكان ، لان الاخلال بالخطة أو عدم تنفيذها كاملة في فرع ما يلحق الضرر بكل الاقتصاد الوطني ويؤثر في فروع الانتاج الاخرى ، في النقل والتجارة والمالية وغيرها .

وتقسم الخطط السنوية في المؤسسات الى اربعة ارباع ، اي لكل ثلاثة اشهر ، وتوزع خطط الاشهر الثلاثة الى اشهر – وكل هذه تسمى بالخطط **الجارية** .

وفي خطة المؤسسة يصار الى ربط مسائل التكنيك والاقتصاد والمالية فيما بينها ربطا عضويا ولهذا تسمى **بالخطة التكنيكية الصناعية المالية** (اختصارا : التكصنمالية) . وهي تجيب على اربعة اسئلة : ماذا ستفعل المؤسسة ، وكم سيكلفها صنع المنتجات ، وكم سيكون الايراد الصافي الحاصل ، وبفضل ماذا

سيتأمن تنفيذ جميع ابواب الخطة . والبرنامج الانتاجي هو الحلقة الاساسية في الخطة التكصنمالية . ويتألف من المهمات المرسومة لصنع المنتجات معبرا عنها عينا (بالقطع ، بالامتار ، بالاطنان) ، ونقدا (بالروبلات) . وفي البرنامج الانتاجي ايضا معطيات تبين نوعية الانتاج (مثلا : رمادية الفحم ، او تصنيفة سلع الاستهلاك الواسع) . والابواب الاخرى للخطة التكصنمالية هي : خطة التنمية التكنيكية ، خطة التموين المادي التكنيكي ، خطة البناء الاساسي ، خطة العمل والاجور ، خطة تكاليف الانتاج ، الخطة المالية .

وتزداد قوة الخطة اضعافا مضاعفة عندما تجتمع مع مبادرة الناس الذين يستغلون جميع افضليات الاشتراكية والذين تعلموا تسيير الاقتصاد الوطني في حرص وباندفاع كبير .

نظام التوفير

الطريقة العامة لتسيير الاقتصاد الاشتراكي . ان الشعب في النظام الاشتراكي هو صاحب كل الثروة الاجتماعية ، وله مصلحة حيوية في ان يكون حريصا على العمل الاجتماعي وفي ان يستفيد ، باقصى الفعالية ، من الموارد الموجودة تحت تصرفه .فكلما نقص اهتراء المعدات والماكنات وزاد التوفير في استهلاك المواد الاولية والوقود والطاقة الكهربائية وغيرها من وسائل الانتاج ، كان يمكن صنع منتجات اكثر بالمصروف نفسه .

وبديهي تماما ان التوفير لا يمكن فقط عن طريق انفاق المواد الاولية والمواد الاخرى بحرص اكبر ، بل ايضا عن طريق زيادة انتاجية العمل . وبالجمع بين هذا وذاك أسس الشباب العمالي «الحصالة الكومسومولية» التي جمعت الآن انتاجا فائضا عن الخطة بمبلغ عشرات ملايين الروبلات .

ويسعى السوفييتيون الى التوفير لا للجلوس على الصناديق الملآنة والاستمتاع بالشعور بالقوة ، كذلك الفارس البخيل الذي تحكي عنه الحكايات . كلا ، انما يوفرون ، في آخر كل حساب ، لا النقد ولا المعدن ولا النسيج ، بل اعز ما عند الانسان – وهو العمل الاجتماعي . ويفعلون هذا كله لزيادة رخاء الشعب . فالموارد الموفرة تتيح للمجتمع زيادة بناء المساكن والمدارس ودور الاستجمام ، اي العمل بسخاء متزايد ، دونما بخل ، لسد حاجات السوفييتيين .

ان الاقتصاد الاشتراكي المخطط هو اكثر الاقتصادات توفيرا وحرصا . ولكن هل يعني هذا ان كل تضييع قد قضي عليه اصلا في الاقتصاد الاشتراكي ؟ كلا ، فلا يزال يحدث في بعض المؤسسات والانشـــاءات ، وفي الكولخوزات والسوفخوزات ، تبذير في الموارد النقدية ، ولا تزال المواد الاولية تستعمل بشكل غير سديد ، ولا يزال التكنيك الجديد يطبق بشكل ضعيف .

فماذا يعني اذن نظام التوفير ؟ انه يعني الحرص على الملكية الاشتراكية ، والنهوض المستمر بانتاجية العمل واتقان التكنيك ، وانقاص مبذول العمل بانتظام ، واستهلاك الخامـــات والمواد والوقود والطاقة الكهربائية بشكل اقتصادي ، وانقاص كمية فضلات الانتاج والسقط وغير ذلك . وقصارى القول ان نظام التوفير هو طريقة للتسيير الاقتصـادي الاشتراكي مفادها صنع منتجات جيدة اكثر باقل مصروف في وسائل الانتاج والعمل . والوسيلة الرئيسية لبلوغ هذا الهدف هي **الميزان الاقتصادي** .

الميزان الاقتصادي . ان المؤسسة التابعة للدولة والعاملة على اساس الميزان الاقتصادي تنال من الدولة المباني والماكنات والتجهيزات واحتياطيات المواد الاولية والوقود والاموال . وتكون مسؤولة عن سلامة وسائل الانتاج واستعمالها بشكل صحيح .

وبعد ان تتلقى المؤسسة المهمة المعينة لها في الخطة ، تنظم ، بشكل مستقل ، نشاطها الانتاجي .

وتتعامل المؤسسات العاملة حسب الميزان الاقتصادي ماليا مع غيرها من المؤسسات . فمصنع الغزول القطنية مثلا يدفع للسوفخوز ثمن القطن ويدفع للخطوط الحديدية تكاليف نقله ويبيع الانتاج الجاهز لمصنع المنسوجات القطنية وهذا بدوره يبيع منسوجاته الجاهزة للمؤسسات التجارية وهكذا دواليك . ولاجل هذا تعقد العقود الاقتصادية مع المؤسسات الموردة للتجهيزات والوقود والمواد الاولية ومع المؤسسات المستهلكة للمنتجات . وتعين في العقود شروط التوريد وحجم المنتجات وتصنيفتها ونوعيتها وموعد التوريد والسعر وموعد الدفع ونظامه وكذلك المسؤولية عن الاخلال بكل هذه الشروط .

وكلما ازداد انتاج المؤسسة ونقص مصروفها على الانتاج ، ازداد ما تحصل عليه من موارد . واذا نفذت جميع منصوصات الخطة كميا وكيفيا اصبح تحت تصرفها ما يسمى بصندوق المؤسسة المفروز من مجموع تراكمات الخطة وتراكمات فائض الخطة . وتنفق اموال صندوق المؤسسة على تطبيق التكنيك الجديد ، وتوسيع الانتاج ، وبناء المساكن واصلاحها ، وصيانة مؤسسات الاطفال – دور الحضانة ورياض الاطفال ومخيمات الطلائع الاحداث وعلى تجهيز دور الاستجمام والمصحات والمطاعم

والاندية ، والحصول على بطاقات الاقامة في دور الاستجمام والمصحات ، وعلى منح المكافآت للعمال والمستخدمين . وبديهي ان المؤسسة ذات الميزان الاقتصادي بمجملها ، والعاملين فيها ؛ على السواء ، ذو مصلحة في استخدام وقت العمل على احسن وجه وفي انفاق الموارد المادية والنقدية بحرص وفي تحسين نوعية الانتاج .

كلفة الانتاج . للمؤسسات الاشتراكية نوع من ميزان حرارة يسمح بالحكم على مدى حسن تسيير الاقتصاد . وهو كلفة الانتاج التي تبين كم كلف انتاج سلعة معينة هذه المؤسسة او تلك .

عند حساب كلفة الانتاج تؤخذ بعين الاعتبار المصروفات التي انفقت على الخامات والمواد المساعدة (زيوت التشحيم ، الاصبغة ، الخ .) ، وعلى الوقود والطاقة الكهربائية ، وعلى استهلاك وسائل العمل – المباني والماكنات والتجهيزات ، وعلى الاجور ، والحسومات بموجب التأمين الاجتماعي ، والنفقات على جهاز الادارة . وبعد حساب كل مبلغ المصروفات يقسم هذا المبلغ على عدد المنتجات المصنوعة فيكون الحاصل كلفة انتاج الوحدة من المنتجات . وهكذا فان **كلفة الانتاج هي نفقات المؤسسة على صنع المنتجات وتصريفها معبرا عنها بالشكل النقدي .**

فاذا كانت كلفة انتاج المنتجات في هذه المؤسسة او تلك عالية الى حد فائق فتش قادة المؤسسة وكل موظفيها وعمالها عن اسباب المرض وازالوه . وقد يكون السبب في بعض الاحوال التبذير في المواد الاولية ، وقد يكون في حالات اخرى استخدام التكنيك بشكل غير منتج ، وقد يكون في حالات ثالثة تضخم نفقات الادارة .

ولكن لا بد من سؤال : متى تكون كلفة الانتاج عالية ومتى تكون متدنية ، وعلام يتوقف تدنيها ؟

ان كلفة الانتاج تكون عادة في المؤسسات الطليعية ادنى مما في المؤسسات المتأخرة . فما تفسير ذلك ؟ تفسير ذلك ان التكنيك الجديد ، الطليعي يستعمل في هذه المؤسسات ، وبالتالي تنمو انتاجية العمل وتنفق المواد بشكل اقتصادي وتستعمل اكثر انواعها تقدمية ، كأن يستعاض مثلا عن المعدن بالبلاستيك ، ويتقن باستمرار تصميم المصنوعات المنتجة . وكل هذا يسمح بتخفيض كلفة الانتاج . أما اذا جرى تسيير الاقتصاد بغير مهارة ولم تنم انتاجية العمل ، واذا حدث تبذير في الخامات والمواد وغيرها ، فان كلفة الانتاج في هذه المؤسسة ستكون عالية .

ان رب العمل الذي لا يبدي مهارة في تسيير امور عمله ، في العالم الرأسمالي ، يفلس حتمـــا وقد يطلق النار على نفسه وينتحر . أما في الاتحاد السوفييتي فالافلاس غير ممكن لان جميع المؤسسات لها صاحب واحد ، هو الشعب . وتقوم منظمات الحزب والدولة ، وهيئات المراقبة الشعبية ، والصحف ، والرأي العام السوفييتي ، بمراقبة نشاط المؤسسات ، واسداء المعونة لها ، والاشارة الى النواقص ، ودق جرس الانذار عندما تكون الحال سيئة . واذا اظهر القادة عدم مقدرة على تدبير الانتاج احيلوا الى عمل آخر . واذا بدا منهم استهتـــار آثم او سوء تصرف أو حتى خداع للدولة عوقبوا بكل صرامة القانون .

ولا يخلو الامر ، في اقتصاد هائل ومتواصل النمو كالاقتصاد السوفييتي ، من صعوبات وتناقضات . فلا يسترها الحزب الشيوعي بل يكشف عنها بجرأة ويبحث باصرار عن الطرق المؤدية الى تذليلها ، ويتقن بلا كلل اساليب التسيير الاقتصادي الاشتراكي .

وتائر النمو . على الناس ، يوما فيوما وسنة فسنة ، ان ينتجوا الغذاء والكساء والحذاء والمسكن . ويجب ايضا تجديد وسائل الانتاج – الحصول على الخامات والوقود ، وتغيير الآلات والاجهزة المهترئة . واذن فان اهم شرط لوجود المجتمع هو التكرار الدائم لعملية الانتاج ، أو **تجديد الانتاج** .

فاذا لم يزدد الانتاج الاجتماعي من حيث المقدار ، واذا تكرر سنة بعد سنة بالحجم ذاته – كان ذلك هو **تجديد الانتاج البسيط** . وفيه لا يحدث غير تعويض للقيم المادية المستهلكة بمقدارها السابق من قيم اخرى . أما اذا زاد حجم الانتاج كان ذلك هو **تجديد الانتاج الموسع** . وفيه لا يعوض المجتمع عما استهلكه من خيرات مادية وحسب بل ينتج كمية اضافية من وسائل الانتاج وسلع الاستهلاك .

ولا يتم تجديد انتاج القيم المادية وحدها ، بل علاقات الانتاج ايضا . فمن الصفات المميزة للانتاج الرأسمالي مثلا شخص الرأسمالي من جهة والعامل المأجور من الجهة الاخرى . فماذا نرى ؟ ان عملية تجديد الانتاج الرأسمالية تولد وتوطد ظروف استغلال العامل وتجبر العامل باستمرار على بيع قوة عمله وتغني الرأسمالي .

وطبيعي تماما ان تجديد الانتاج الاشتراكي يجدد علاقات التعاون والتآزر الرفاقي . ولكنه ، اذ يفعل ذلك ، لا يكرر هذه العلاقات مجرد تكرار ، وانما يتقنها ، لان الاشتراكية تتطور الى الشيوعية .

ان تطور الاقتصاد الوطني وفقا لمتطلبات القوانين الاقتصادية للاشتراكية يتيح الحصول على وتائر سريعة لتجديد الانتاج الموسع غير ممكنة في النظام الرأسمالي .

ففي سنة ١٩٦٣ زاد الانتاج الصناعي في الاتحاد السوفييتي عما في روسيا سنة ١٩١٣ الى ٥٢ مثلا .

ومن سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٦٣ نمت الصناعة في الاتحاد السوفييتي بسرعة تعادل ثلاثة امثال سرعة نموها في الولايات المتحدة التي هي ارقى بلد رأسمالي .

ومنذ الآن ينتج الاتحاد السوفييتي اكثر مما تنتج الولايات المتحدة ويشغل المرتبة الاولى في العالم من حيث الحجم العام لانتاج فلزات الحديد ، والفحم ، والكوك ، وبعض انواع منتجات صناعة الماكنات ، والاسمنت ، وزجاج النوافذ ، والخرسانة المسلحة المجمعة ، والاخشاب ، والمنجورات ، والمنسوجات الصوفية ، والزبدة ، والسكر ، وبعض المنتجات الاخرى .

وقد بلغ حجم الانتاج الصناعي بمجمله في البلاد السوفييتية ، في سنة ١٩٦٣ ، زهاء ٦٥ بالمئة من انتاج الولايات المتحدة .

لنر ما هي القوانين التي تتحكم بتجديد الانتاج الاشتراكي ، وكيف توزع القيم المادية التي تنتج من جديد .

ان كل كمية الخيرات المادية التي تنتج في المجتمع في مدة معينة (في سنة مثلا) تشكل **المنتوج الاجتماعي الاجمالي** .

وينقسم المنتوج الاجمالي ، من حيث شكله العيني ، الى وسائل انتاج وسلع استهلاك . ووفقا لهذا يوجد قسمان كبيران من الانتاج الاجتماعي : **القسم الاول هو انتاج وسائل الانتاج ، والقسم الثاني هو انتاج سلع الاستهلاك .**

ان لمنتجات القسم الاول شكلا عينيا يجعلها غير صالحة اطلاقا للاستهلاك الشخصي . وانما ترتدي «القميص الحديدي لوسائل الانتاج» اي انها هي الفحم والاسمنت والفولاذ والآلات

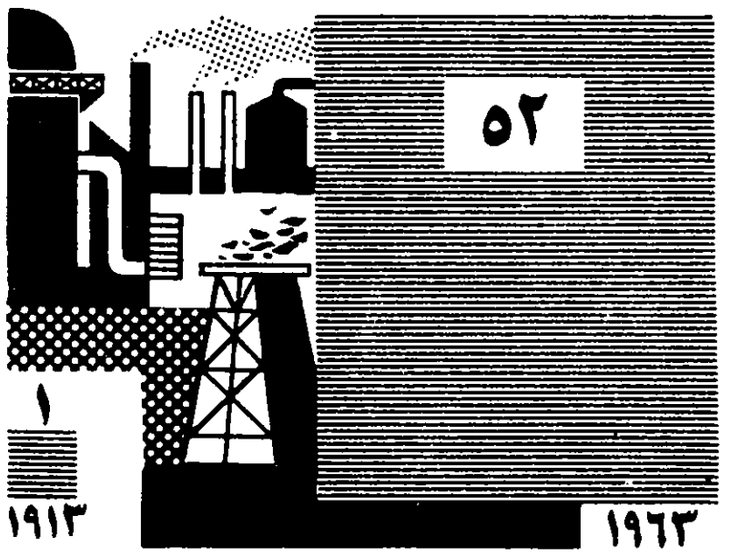
والقاطرات الكهربائية ومختلف انواع الخامات المعدة للدخول من جديد في عملية الانتاج كادوات ومواضيع للانتاج .

أما منتجات القسم الثاني فهي مواد الغذاء والاحذية والالبسة والموبيليا والاواني وغيرها . ولا يمكن استعمالها الا للاستهلاك الشخصي .

ما هي الشروط الضرورية لكي تتمكن جميع المؤسسات من سد حاجاتها الى الخامات والوقود والتجهيزات ، ولكي يتمكن جميع الكادحين من ايجاد مواد الاستهلاك الضرورية في المخازن ، وبالتالي لكي يمكن لعملية تجديد الانتاج ، نتيجة لهذا كله ، ان تستمر ؟

ان الجواب يأتي من تلقاء ذاته : في القسم الاول يجب ان يصنع مقدار معين من المنتجات يمكن به لا التعويض عن وسائل الانتاج المستهلكة وحسب (اهتراء الماكنات والمباني وانفاق الخامات والوقود وغير ذلك) ، بل يمكن به ايضا تأمين الاستمرار في توسيع كل الانتاج الاجتماعي .

وفي القسم الثاني يجب ان يصنع مقدار معين من مواد الاستهلاك يمكن به تأمين حاجات جميع الكادحين بشكل اتم . اما وتائر توسيع الانتاج والتقدم التكنيكي في القسم الثاني فتحددها قبل كل شيء كمية وكيفية وسائل الانتاج التي تحصل عليها من القسم الاول . ومن هنا كان لا بد من **افضلية تطوير انتاج وسائل الانتاج على انتاج مواد الاستهلاك .**



نمو الانتاج الصناعي في الاتحاد السوفييتي .

واذا نظرنا الى المنتوج الاجتماعي الاجمالي من ناحية قيمته ، وجدنا انه يساوي مجموع القيم المنتجة في جميع مجالات الانتاج المادي . وهو يتجزأ الى ثلاثة اجزاء . الجزء الاول معد للتعويض عن وسائل الانتاج المستهلكة في القسمين الاول والثاني ، والجزء الثاني معد للاستهلاك الشخصي ، والجزء الثالث يذهب الى توسيع الانتاج ونفقات المجال غير المنتج والى انشاء الاحتياطي وغير ذلك . ومجموع جزئي القيمة الثاني والثالث يشكل **الدخل القومي** .

الدخل القومي وميزانية الدولة . يتألف الدخل القومي المعبر عنه عينيا من وسائل الانتاج ومواد الاستهلاك : الخامات والمواد والماكنات والآلات والخبز والسكر والملابس والاحذية والكتب وما الى ذلك . وبما ان الانتاج في الاشتراكية بضاعي فان للدخل القومي ، عدا شكله العيني ، شكلا نقديا ايضا .

يصنع الدخل القومي العاملون في مجالات الانتاج المادي : الصناعة والزراعة والبناء والنقل وغير ذلك . أما العاملون في المجال غير المنتج – في الصحة العامة ، في التعليم العام ، في الفن ، في الجيش ، – فلا يصنعون الدخل القومي . ولكن عملهم مفيد ايضا وضروري للمجتمع . ولهذا فان جميع نفقات تمويل المجال غير المنتج تغطى من حساب الدخل القومي .

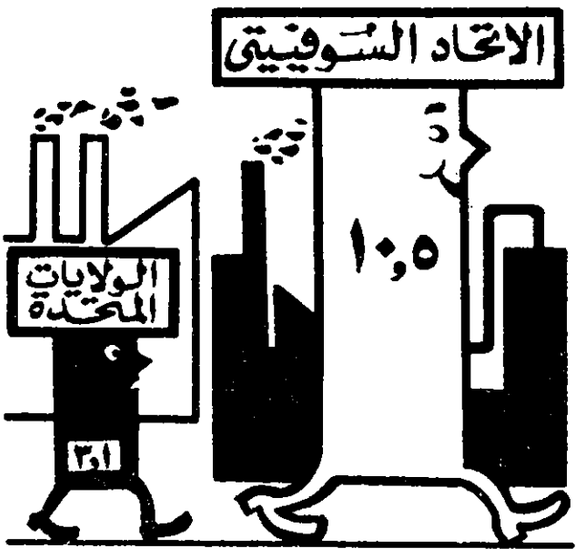
واليكم كيف يوزع الدخل القومي في الاتحاد السوفييتي .

ينقسم كل الدخل القومي الى **صندوق استهلاك وصندوق تراكم** .

فصندوق الاستهلاك يذهب الى سد الحاجات الشخصية والاجتماعية . وينقسم الى صندوق دفع اجور العاملين في مجال الانتاج المادي وصندوق الاستهلاك الاجتماعي الذي يصرف على دفع اجور العاملين في العلم والتعليم والثقافة والصحة العامة وعلى

التأمين الاجتماعي وتمويل جهاز الدولة والجيش . ويشكل صندوق الاستهلاك ثلاثة ارباع الدخل القومي .

أما صندوق التراكم فينقسم الى ثلاثة اجزاء : الجزء الاول يذهب الى توسيع الانتاج ، والثاني الى البناء الاساسي للمنشآت الثقافية المعيشية (المدارس ، المستشفيات ، رياض الاطفال ، دور الحضانة ، المساكن ، الخ .) ، والجزء الثالث يشكل صندوق الاحتياط أو التأمين . ويشكل صندوق التراكم ربع الدخل القومي ، وهو هام جدا فبدونه لا يمكن تجديد الانتاج الموسع .



الوتائر السنوية الوسطية لازدياد الانتاج الصناعي في الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الاميركية (١٩٥٤-١٩٦٣)

ان جميع الصناديق ، ما عدا ذلك الجزء من الموارد الذي يذهب الى تصرف المؤسسات الاشتراكية المباشر ، ممركزة ومجموعة في مركز واحد . ويتم ذلك بواسطة **ميزانية الدولة** .

ان خطة ايرادات ومصروفات الميزانية هي الخطة المالية الاساسية للدولة الاشتراكية . فهي تبين من اين تأتي الموارد والى اية اهداف تذهب . وتوضع الميزانية لسنة واحدة ، وعند عرضها من قبل الحكومة تبحثها وتصدق عليها دورة السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتي .

تأتي الموارد الى ميزانية الدولة من المؤسسات الاشتراكية بشكل جزء من ايراد المؤسسة الصافي ، ومن الكولخوزات بشكل ضريبة على الدخل . أما الضرائب المفروضة على السكان فلا تشغل

في ايرادات الميزانية الا حيزا صغيرا (في سنة ١٩٦٤ مثلا ٧,٨ بالمئة) .

ولنر الآن الى اين تذهب موارد الميزانية .

في كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٦٣ اقرت دورة السوفييت الاعلى ميزانية اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية لسنة ١٩٦٤ : ٩١ ٩٢٥ ٥٣٦ الف روبل ايرادات ، و٩١ ٣٨٥ ٢٨٢ الف روبل نفقات ، اي بزيادة الايرادات على النفقات بمبلغ ٥٤٠ ٢٥٤ الف روبل . وقد وجه ٣٨ ٧٤٦ ٢٥٩ الف روبل لتمويل بناء المصانع والفبارك والمناجم والمحطات الكهربائية والطرق الحديدية والمؤسسات البلدية وغير ذلك ، اي الى تطوير الاقتصاد الوطني ؛ ووجه ٣٢ ٨٠٠ ٣٧٠ الف روبل لتطوير العلم والتعليم والصحة العامة والتربية البدنية ولمعاشات التقاعد والاعانات والمنح الدراسية ، اي للحاجات الاجتماعية والثقافية . وينفق جزء من موارد الميزانية على تدعيم الدفاع عن البلاد — ١٣ ٢٨٩ ٠٠٠ الف روبل او ١٤,٦ بالمئة من نفقات الميزانية ، وكذلك على تمويل جهاز الدولة — ١ ١٠٩ ٩٤٩ الف روبل .

لنقارن هذا بنفقات ميزانية الدولة في الولايات المتحدة . اذا جمعنا كل المصروفات العسكرية المباشرة وغير المباشرة ذات الطابع الواضح تبين ان الولايات المتحدة خصصت في السنة المالية ١٩٦٣\١٩٦٤ للحاجات العسكرية ٧٧,٩ مليار دولار او ٨٠ بالمئة من نفقات الميزانية الاتحادية . ومما له دلالته ان ميزانية الولايات المتحدة تخصص للصحة العامة والضمان الاجتماعي ٥,٦ بالمئة فقط وللتعليم ١,٦ بالمئة فقط من نفقات الميزانية .

ان ميزانية الدولة السوفييتية هي ميزانية سلام . ومع ان الاتحاد السوفييتي مضطر الى انفاق الموارد الضرورية لتدعيم الدفاع عن البلاد ، بسبب بقاء خطر العدوان الامبريالي ، الا ان القسم الاكبر من موارد الدولة يصرف على تطوير الاقتصاد الوطني والثقافة وعلى زيادة رخاء الشعب .

علاقات العمل

الالتحاق بالعمل ومدة العمل . ان طريق العمل الخلاق مفتوح امام كل انسان سوفييتي . فما هي الاصول والقواعد التي تنظم علاقات العمل في المجتمع الاشتراكي السوفييتي ؟ لقد اقر نظام واحد للجميع للالتحاق بالعمل في المصنع أو الدائرة أو المنظمة . فالملتحق بالعمل والادارة يعقدان فيما بينهما اتفاقية ثنائية أو **عقد عمل** .

وتثبت في العقد التزامات الطرفين . فالكادح يلتزم بتنفيذ عمل حسب اختصاصه (البرادة او التركيب الكهربائي مثلا) وحسب درجة المهارة (الدرجة الرابعة مثلا) أو حسب الوظيفة (مهندس اقتصادي مثلا) ، ويلتزم بالخضوع لنظام العمل الداخلي المعمول به في المؤسسة . وتلتزم الادارة بتأمين ظروف عمل طبيعية وصحية وبدفع اتعاب مناسبة للعمل . ويعين القانون مقدار الاجرة وطول يوم العمل ومدة الاجازة ، ولهذا فلا يمكن تحديد هذه الامور باتفاق الطرفين . واذا اقتضى الامر ، يمكن الاتفاق على شروط اضافية (مثلا : العمل في النوبة النهارية فقط بسبب الدراسة في المدرسة المسائية ، أو مدة التجريب التمهيدي) .

واذا تعينت مدة للتجريب فالعقد يكتب نهائيا بعد تحديد صلاح الملتحق بالعمل . ولا يمكن لمدة التجريب أن تتجاوز ستة ايام بالنسبة للعامل والاسبوعين بالنسبة للمستخدم والشهر بالنسبة للمستخدم الذي يقبل في وظيفة قيادية . ويقبل للعمل بدون تجريب خريجو مدارس التعليم المهني التكنيكي والمدارس الثانوية التخصصية والمدارس العالية ، وذلك ضمن الخطة وفي نوع الاختصاص او المهارة أو الوظيفة المشار اليه في كتاب التوجيه فقط .

وتسلم ادارة المؤسسة العمال والمستخدمين **دفتر العمل** . كما للكولخوزيين ايضا دفاتر عمل . وتصادق دفاتر عمل الكولخوزيين على صحة الاشتراك في نشاط التعاونية الانتاجي وتمنح الحق في الحصول على حصة مناسبة من الايرادات .

ان دفتر العمل يعكس كل خطوة تتم في النشاط العملي : اعطاء درجة جديدة ، الانتقال من عمل الى آخر ، كل تشجيع ومكافأة حصل عليها العامل . أما العقوبات الناتجة عن الاخلال بنظام العمل فلا تسجل في دفتر العمل حتى لا تؤثر في حقوق الكادح . وهكذا فان دفتر العمل هو بمثابة تاريخ لسيرة عمل الانسان . ومن هنا اهمية متابعة دفتر العمل بشكل صحيح بالنسبة لكل عامل . وهذا هام في الدرجة الاولى لتعيين **مدة العمل** .

هناك نوعان اساسيان لمدة العمل : عام ومتواصل . **فمدة العمل العامة** تشمل كل نشاط العامل أو المستخدم في العمل بصرف النظر عن طبيعة العمل ومدة الانقطاعات عنه . وفيها تحسب ايضا ايام الدراسة في المدرسة التكنيكية أو المعهد العالي أو صفوف اعداد الكادرات ، اذا كان العمل قد سبق التعليم . أما **مدة العمل المتواصلة** فتحسب العمل المتواصل في مؤسسة معينة أو في شبكة معينة . كما ينص تشريع العمل الساري المفعول في

عدد من الحالات على حفظ المدة المتواصلة ايضا عند الانتقال من مؤسسة الى اخرى ، مثلا عند التسريح بسبب تخفيض الذاتية أو نتيجة لتوقف العمل أو غير ذلك . وتحفظ المدة المتواصلة عند انتخاب الشخص الى منصب انتخابي .

وتحسب مدة العمل العامة عند الاحالة للمعاش بسبب الشيخوخة او العجز الناتج عن امراض عامة . أما مدة العمل المتواصلة فتحسب عند تعيين الاعانات بسبب الفقدان الموقت للمقدرة على العمل .

ويحمي التشريع السوفييتي العمال والمستخدمين ، بشكل مضمون ، من التسريح غير القانوني . فالادارة لا تستطيع تسريح عامل او مستخدم الا في حالات قليلة جدا ينص عليها القانون بشكل خاص وبعد موافقة النقابة حتما . وعندما يترك العامل او المستخدم العمل بناء على رغبته هو ، يلزم باخطار الادارة بذلك قبل اسبوعين .

العقد الجماعي . وتنظم بدقة ايضا علاقات جماعة الكادحين مع ادارة المؤسسة . وباسم العمال والموظفين الهندسيين والتكنيكيين والمستخدمين تنطق اللجنة النقابية المحلية . وفي كل سنة تعقد لجنة نقابات القاعدة والادارة اتفاقية ثنائية أو **عقدا جماعيا** .

وتعدد في العقد الجماعي التدابير التي تدفع العمال والمستخدمين الى تنفيذ وتجاوز مهمات الخطة . وفي الوقت نفسه ينص العقد على ان توفر الادارة في الانتاج ظروف عمل تسمح لكل عامل ان ينفذ معدلات الانتاج ، وكذلك على الالتزامات المأخوذة بموجب المباراة الاشتراكية وان يتمكن جميع الكادحين من رفع درجة اعدادهم التعليمي العام والتكنيكي . وتلحق بالعقد اتفاقية بوقاية العمل وبتطبيق خبرة المجددين من المؤسسات المتشابهة .

ويعين العقد مقادير الاعتمادات المالية لبنـــاء المساكن والمنشآت الثقافية والمعيشية ، ولدفع الاعانات بسبب الفقدان الموقت للمقدرة على العمل ، وللحصول على بطاقات الاقامة في المصحات ودور الاستجمام والغذاء العلاجي والعمل بين الاطفال لحفظ صحتهم وخارج مدرستهم .

وتشترك في صياغة العقد الجماعي كل الجماعة ، وبوسع كل فرد ان يقول رأيه ويتقدم بالاقتراح العملي . ويتابع العمال والمستخدمون انفسهم الى اي مدى تنفذ الالتزامات المسجلة في العقد وهل تنفذ في وقتها وما هي نجاحات المؤسسة في الانتاج وكيف حال الخدمات الثقافية والمعيشية للجماهير . ويؤدي بحث مسائل الانتاج والعمل الى تطوير مبادرة الكادحين واشراكهم في تسيير شؤون الانتاج .

وقاية العمل . ان ظروف العمل السليمة والخالية من الخطر في المؤسسات تتحقق باتقان تكنولوجية الانتاج وبمكننة الاعمال الثقيلة والمضنية وبازالة اسباب طوارئ العمل الممكنة والامراض المهنية . ولتفادي واضعاف ضرر المواد الكيميائية ودرجة الحرارة غير الطبيعية للجو والرطوبة على جسم الانسان ، تعطى للعمال بالمجان ، من حساب المؤسسة ، البسة واقية خاصة وتجهيزات وقائية (نظارات ، متنفسات ، اقنعة ، الخ .) . وينال العمال بالمجان في بعض فروع الانتاج ، الكيميائية مثلا ، مغذيات وقائية حسب معدلات معينة علميا . ويعمل العمال المشتغلون في فروع الانتاج الضارة ساعات عمل اقل وينالون اجازات اضافية .

والادارة ملزمة بتعليم العمـــال قواعد السلوك العامة في المؤسسة واساليب العمل على الاجهزة التي يستعملونها في اثناء عملهم . وعلى كل عامل ان يعرف قواعد السلامة التكنيكيـة ، وبعضهم ملزم بتقديم امتحانات خاصة .

وتشرف على حفظ سلامة العمل هيئات الدولة (الوزارات والمصالح والنيابة العامة) والنقابات على حد سواء . وتنشأ في المؤسسات لجان لوقاية العمل وينتخب مراقبون اجتماعيون يتابعون تحقيق تدابير وقاية العمل وتدابير الصحة في الانتاج . فاذا حدث اخلال بتدابير وقاية العمل ، امكن توقيف العمل في اي قطاع من قطاعات الانتاج . واما الاشخاص المسؤولون عن الاخلال بقوانين حفظ سلامة العمل فتطبق عليهم العقوبات الشديدة .

ثم ان القواعد الاساسية لتدابير وقاية العمل والصحة في الانتاج الزامية للكولخوزات ايضا . ففي الكولخوزات تتمركز كمية كبيرة من مختلف انواع العتاد والماكنات وتستعمل الكهرباء والكيمياء على نطاق واسع . ويجب مراعاة قواعد السلامة والصحة عند العناية بالحيوانات .

وعدا الاصول العامة التي تشمل جميع الكادحين يقرر تشريع العمل قواعد واصولا اضافية لوقاية عمل **النساء والشباب** .

ان عمل النساء ممنوع في الاشغال الصعبة والضارة بالصحة ، كصهـــر وصب المعدن السائل ، وفي عدد من فروع الصناعـــة الكيميائية والطباعية والجلدية . وكقاعدة عامة لا تؤخذ النساء للاعمال الصعبة . وتحمى بشكل خاص الامومة والطفولة الباكرة . وتمنح النساء اجازة للحمل والوضع مدتها ١١٢ يوما ، أو ما يعادل ثلث السنة تقريبا . ولا يسمح بتسريح النساء الحوامل واللواتي لا معيل لهن اذا كان عندهن طفل لم يتجـــاوز السنة الواحدة من عمره .

ويقبل الشبان والفتيات للعمل بعد بلوغ السن السادسة عشرة ، وبشكل استثنائي خاص في السن الخامسة عشرة . ولا

بد من فحوص طبية مسبقة . ويوم العمل المقرر للشباب من السن السادسة عشرة الى السن الثامنة عشرة هو ست ساعات مع دفع اجر معادل لاجر يوم العمل الكامل الذي يتقاضاه العامل والمستخدم الراشد ، أما في السن الخامسة عشرة والسادسة عشرة فيوم العمل اربع ساعات . وفي بعض الاشغال يمنع اصلا عمل وتدريب الشبان والفتيات الذين لم يبلغوا السن الثامنة عشرة . ولا يشغل الشبان في الاشغال الليلية والساعات الاضافية . ويمنح العمال والمستخدمون الذين لم يتجاوزوا السن الثامنة عشرة اجازة مدتها شهر فلكي وفي فصل الصيف عادة .

ولكي يستطيع الشباب ايجاد عمل بسهولة وسرعة اكبر ، يوجد في كل مؤسسة احتياطي لقبول خريجي المدارس الثانوية ذات التدريب المهني . ويمنح العمال والمستخدمون الشباب الذين يجمعون بين العمل والدراسة في مدرسة عادية أو ثانوية مهنية أو عالية ، تسهيلات : يوم عمل مخفض أو اسبوع عمل مخفض ، اجازات للدراسة ، دفع اجور السفر الى مكان المدرسة لحضور دورات الامتحان .

الانضباط في العمل . ان الانتاج الاشتراكي ومقاييسه وايقاع مسيره يتطلب **انضباطا في العمل** بالغ الصرامة .

متى يعتبر العامل منضبطا ؟

يعتبر العامل منضبطا عندما يعمل باستقامة وشرف : عندما يأتي الى العمل في الوقت اللازم ولا يتركه قبل الاوان ، وعندما يستعمل كل وقت عمله للانتاج وحسب وينفذ التزامات المصلحة ويحرص على الادوات والآلات والماكنات ويحافظ على النظافة في المصنع وارض المصنع ويسلّم مكان عمله للعامل الذي يحل محله في النوبة التالية وهو في حالة سليمة . ويسعى العامل الشريف الى الحؤول دون وقوع سقط في الانتاج والى صنع منتجات عالية الجودة وحسب .

وترسي الاشتراكية دعائم انضبـــاط العمل بحسن تنظيم الانتاج وباسلوب الاقناع وبنظام مدروس لتشجيع العمال افرادا وجماعات . وقد اقرت اصول التنظيم الداخلي للعمل اساليب للتشجيع كالشكر ، والمكافأة بشهادة شرف ، وتسجيل الاسم في كتاب الشرف ولوحة الشرف ، واعطـاء لقب احسن عامل في المهنة ، والجوائز النقدية ، والمكافأة بالهدايا القيمة . ويكافأ اكثر المبرزين في العمل باوسمة ومداليات الاتحاد السوفييتي ، ويمنحون اللقب السامي ، لقب بطل العمل الاشتراكي ، وجائزة لينين .

وتعاقب مخالفات انضباط العمل . فللتغيب عن العمل بدون سبب وجيه ، وللتأخر ، وترك العمل قبل الاوان ، ولافســـاد المواد والتجهيزات ، يوجه للعامل او المستخدم لوم أو توبيخ ، ويمكن نقله الى عمل اقل اجـــرة أو تنزيله الى وظيفـــة ادنى لمدة لا تتجاوز الثلاثة اشهر . ويعاقب القانون كل من يتسبب في توقيف الآلات أو تغيب عن العمل بلا عذر أو وقوع سقط في العمل . واذارأت الادارة ان التدابير التربوية لا تأتي بالنتيجة المتوخاة وان استمرار وجود هذا العامل او الموظف في المؤسسة يتعارض مع مصالح الانتاج والجماعة ، عندئذ يصار الى اتخاذ التدبير الاقصى وهو التسريح ولكن بشرط ان توافق النقابة حتما . والمخالفون الذين يسببون ضررا للانتاج يعاقبون قضائيا .

ويتطلب انضباط عمل شديد من الكولخوزيين ايضـــا . فالنظام الداخلي النموذجي للتعاونية الزراعية يلزم الكولخوزيين بان يعملوا باستقامـــة وشرف وان يتقيدوا بقواعد التنظيـم الداخلي وان ينفذوا ما تعهد به اليهم ادارة الكولخوز ورؤساء الفرق من مهمات انتاجية واجتماعية .

منازعات العمل . قد تنشأ خلافات بين الادارة وبعض العمال

والمستخدمين افرادا او جماعات . واول مرجع الزامي للنظر في المنازعات بين العامل والادارة هو **لجنة منازعات العمل** . وهي تتألف من عدد متساو من ممثلي الادارة والنقابة الدائمين . وتنظر اللجنة عمليا في جميع منازعات العمل . ولا تدخل في صلاحياتها المنازعات التي يستطيع العامل ان يرفعها مباشرة الى المحكمة ، والمنازعات الناتجة عن تسريح قادة المؤسسة ونوابهم ورؤساء الاقسام والوكلاء أو عن نقلهم الى عمل آخر . واللجنة ملزمة بالنظر في منازعات العمل في ظرف خمسة ايام منذ استلام الشكوى . ويعتبر نزاع العمل محلولا عندما يتفق العامل والادارة فيما بينهما .

واذا لم يوافق العامل على قرار لجنة منازعات العمل استطاع ان يلجأ الى **اللجنة المحلية للنقابة** . وهي المرجع الثاني في منازعات العمل . وتنظر لجان الفبارك والمصانع واللجان المحلية في الشكاوى الواردة اليها حول منازعات العمل في ظرف سبعة ايام . واذا لم يوافق العامل على قرار اللجنة المحلية للنقابة كان بوسعه ان يلجأ الى **المحكمة الشعبية** العائدة لمنطقة وجود المؤسسة .

وهناك فئة اخرى من المنازعات ، نادرة جدا في الاتحاد السوفييتي ، وهي منازعات الجماعة مع الادارة ، عند اقرار معدلات المردود مثلا أو المصادقة على تدابير اخرى للعقد الجماعي . ولهذه المنازعات طابع آخر ، لانها تنشأ على اساس اقرار أو تغيير ظروف العمل وتحل بالاتفاق بين الادارة والنقابة . واذا لم يمكن الوصول الى اتفاق احيل النزاع الى هيئات نقابية واقتصادية اعلى .

دفع بدل العمل . المبدأ المعمول به في الاشتراكية هو مبدأ التوزيع حسب كمية وكيفية العمل . فكيف يتحقق هذا عمليا ؟

ان كمية ما يبذله العامل من عمل تحدد بواسطة **وضع**

معدلات العمل .وهناك معدل للوقت ومعدل للمردود . **فمعدل الوقت** يتيح معرفة كم ساعة ودقيقة وحتى ثانية يبذل العامل في صنع شيء أو قطعة من شيء . وأما **معدل المردود** فيتيح معرفة كم شيئا او قطعة يصنع العامل خلال النوبة أو الساعة أو الدقيقة أو الثانية . واذن فان المعدلات تكون اشبه بمهمات تطلب من العامل وتوجهه لا نحو النتائج المتوسطة بل نحو أحسن نماذج العمل وتملّك ناصية اساليب العمل الطليعية .

ولحساب اجرة العمل لا يكفي ان نعرف كمية العمل المبذول . فمن المهم ايضا تقييم كيفيته . وهذا يتيحه **نظام للتعرفات** يفرق بين اجور العمال تبعا لكفاءة العامل ومهارته ومعرفته وتبعا لطابع العمل وصعوبته وخطورته (ظروف العمل) ، وكذلك تبعا لاهمية الفرع الاقتصادية . ويؤخذ بعين الاعتبار الفرق بين العمل الكفوء وغير الكفوء ، وبين العمل الصعب والسهل وصعوبة واهمية الاشغال المنفذة .

ويعطى كل عامل ، وفقا لاختصاصه وكفاءته ، **درجة للتعرفات** . فالدرجة الاولى تعطى للعمال المشتغلين في ابسط الاعمال . والدرجات التالية تعكس نمو مهارة العامل . وتعطى درجة التعرفات ايضا للمتخرجين من المدرسة الثانوية ذات التدريب الانتاجي . فالشبان والشابات الذين ينجحون في كل امتحانات التخرج ويمرون بالتجربة الاختصاصية ، ينالون مع شهادة الدراسة الثانوية شهادة بالحصول على التخصص مع الاشارة الى الدرجة الممنوحة لهم . ويسمح لمتخرجي المدارس الثانوية الريفية الذين يمرون بالتجربة الاختصاصية ، بالحصول على شهادة في حق سوق الجرارات .

والنسبة في دفع بدل العمل بين مختلف العمال تحددها **شبكات التعرفة** . فكلما كانت الدرجة الممنوحة للعامل اعلى كانت

اجرته اكبر . فالعامل من الدرجة الخامسة او السادسة يتقاضى تقريبا ضعف ما يتقاضاه العامل من الدرجة الاولى . فالعمل الكفوء يأتي للمجتمع بنفع اكبر لانه يصنع في الوحدة الزمنية منتجات اكثر وذات نوعية احسن . ومقدار دفع بدل عمل العمال في ساعة أو يوم تحدده **رواتب التعرفة** ، التي تشكل ٧٠ ـ ٨٠ بالمئة من اجرة العامل أما الجزء الباقي من الاجرة فيتألف من حساب تجاوز معدلات المردود . وتطبق في الصناعة شبكات تعرفة وقيم تعرفة واحدة بالنسبة لكل فرع .

ان المواصفات المفصلة للاشغال بالنسبة لكل مهنة ، تذكر في **كتب الاستعلامات للتعرفات ومراتب التخصص** ، هذه الكتب التي توضع حسب فروع الاقتصاد . وتتضمن كتب الاستعلامات هذه علائم مدروسة علميا لتعيين درجة التعرفة ، على اساسها يجب دفع بدل العمل المبذول . وتشير كتب الاستعلامات الى ما يجب ان يعرفه ويحسنه العامل في كل درجة . ولهذا اذا اراد عامل من الدرجة الثالثة ان ينال الدرجة التالية ، الرابعة ، فانه يجد في كتاب الاستعلامات العائد لهذه الناحية ، جوابا على سؤال : ماذا يجب ان يعرفه ويحسن عمله من اجل ذلك ؟ وتأخذ كتب الاستعلامات للتعرفات ومراتب التخصص بالحسبان خصائص كل فرع من فروع الانتاج ، والتغيرات التي تحدث في التكنيك والعملية التكنولوجية وتنظيم العمل ، وظهور انواع جديدة من الاشغال ، ونمو كفاءة العمال . وبذلك تنشأ الحوافز التي تدفع العمال الى رفع كفاءاتهم باستمرار .

ان **شكل دفع الاجور على القطعة** يسمح باتم ما يكون وبصورة مباشرة بربط اجرة العامل بنتائج عمله . ويطبق هذا الشكل حيث يمكن وضع معدلات للعمل وحيث يمكن حساب ما يبذله

كل عامل منه . ويشمل نظام دفع الاجور على القطعة معظم عمال الصناعة والبناء وتقريبا جميع العمال الزراعيين . أما بموجب **دفع الاجور حسب الوقت** فيتقاضى العامل اجرا لقاء وقت معين اشتغل فيه فعلا . ويطبق نظام دفع الاجور حسب الوقت في القطاعات التي لا يمكن فيها حساب المبذول من العمل وتعيين معدل المردود ، كما في الانتاج المؤتمت الجاري بالنقال مثلا . ويتقاضى الاجور حسب الوقت ايضا جميع الموظفين والمستخدمين القياديين والهندسيين التكنيكيين . ولزيادة مصلحة الكادحين المادية في نتائج عملهم تطبق ايضا طريقة **الجوائز** .

أما دفع بدل العمل في الكولخوزات فيجري بطريقة تختلف بعض الشيء عما في الصناعة . فلقياس مبذول عمل الكولخوزي تستعمل وحدة **يوم العمل** الذي لا يجوز الخلط بينه وبين يوم العمل العام . فيوم العمل الكولخوزي هو وحدة اصطلاحية لمبذول العمل في الكولخوزات ، مبنية على الانتاج بالقطعة وتحدد مقدار مـــا يحق للكولخوزي ان يناله من ذلك الجزء من ايـرادات الكولخوز ، الذي يوزع حسب العمل . ويجري في ايام العمل الكولخوزية تقييم كل نوع من الاشغال التي نفذت تبعا لتعقده وصعوبته واهميته للاقتصاد الاجتماعي .

ويستطيع الكولخوزي ، في اثناء نهاره ، ان يعمل عدة ايام عمل كولخوزية أو يوم عمل واحدا أو اقل . وينـــال الكولخوزي اجرة عمله عينا ونقدا . وتعين مدفوعات اضافية لقاء النتائج العالية وتجاوز مهمات الخطة من حيث مردود الحاصلات الزراعية والحيوانية ، ولقاء تخفيض النفقات ونوعية الانتاج . ويحدد الكولخوزيون انفسهم مقادير هذه المدفوعات الاضافية . وينال الكولخوزي في اثناء السنة سلفا تحسم فيما بعد من الحساب النهائي .

وفي كثير من الكولخوزات يطبق نظام دفع بدل العمل المضمون نقدا وكل شهر بدون حساب ايام العمل .

وهكذا ففي الصناعة والزراعة على السواء يجري دفع بدل العمل بشكل يشعر معه كل عامل وكل كولخوزي بالارتباط المباشر بين عمله الشريف في الانتاج الاجتماعي ونمو الرخاء الشخصي . وتدفع اجور اعلى لعمل المشتغلين في قطاعات الانتاج الرئيسية والصعبة ، الامر الذي يساعد في اجتذاب العمال الاكفاء الى هذه القطاعات وبالتالي الى النهوض بالانتاج الاشتراكي بمجمله . وباتقان اشكال دفع بدل العمل تهتم الدولة السوفييتية بان تنمو انتاجية العمل باسرع من نمو الاجور والا لما امكن توسيع الانتاج وزيادة رخاء الشعب .

وطبيعي انه بمقدار ما يتطور الاقتصاد الوطني يجري بلا انقطاع اتقان تنظيم العمل وادخال التعديلات على هذه او تلك من قواعد علاقات العمل . ويجرى عمل علمي متواصل لاتقان انظمة دفع بدل العمل ، وتعيين معدلات المردود ، وغير ذلك .

النظام الاجتماعي السياسي للاشتراكية

تغير نظام الحياة الاجتماعية في العهد السوفييتي تغيرا جذريا . فنصف قرن خلا كانت في روسيا سلطة الملاكين العقاريين الكبار والرأسماليين ، اما الآن فقد اقيمت الاشتراكية . فماذا يعني هذا ؟

في الميدان الاجتماعي قضي على الطبقات المستغلة وعلى استغلال الانسان للانسان

يصح ما ورد أعلاه على الطبقات المستغِلّة السابقة التي أطاحت بها الثورة الاشتراكية. لكن هذا لا يمنع نشوء عناصر وطبقات رأسمالية جديدة من داخل المجتمع الاشتراكي غير الناجز، الانتقالي، مثل لصوص القطاع العام والمرتشين وسراق المال العام والموضفين الفاسدين، الذين يتولدون في المجتمع الاشتراكي الانتقالي بصورة مستمرة من رحم البيروقراطية والانتهازية ... - ملاحظة الصوت الشيوعي

وفي الميدان الثقافي نمت ثقافة الشعب نموا هائلا وتغير وجه الكادح نفسه ومذهبه ومثله العليا الاخلاقية .

مجتمع الكادحين

كادحو المجتمع الاشتراكي . في بداية سنة ١٩٦٤ كان عدد سكان الاتحاد السوفييتي يزيد على ٢٢٦ مليون نسمة ، ثلاثة ارباعهم تقريبا (بتعبير ادق – ٧٤,٣ بالمئة) من العمال

والمستخدمين (مع افراد عائلاتهم) ، واكثر من الربع بقليل (بتعبير ادق – ٢٥,٦ بالمئة) – من الفلاحين الكولخوزيين والحرفيين المجتمعين في تعاونيات . أما الفلاحون الفرديون والحرفيون الفرديون العاملون في استثماراتهم الشخصية بدون استخدام قوة عمل مأجورة ، فكانوا يشكلون (مع افراد عائلاتهم) اقل من واحد بالالف .

واذن **فالطبقة العاملة** تشتغل بشكل رئيسي في الصناعة الاشتراكية ، اي في الفرع الرئيسي من الاقتصاد الوطني . وبعملها تصنع وسائل الانتاج وادوات الاستهلاك الصناعية . ويشتغل العمال ايضا في السوفخوزات .

وتزوّد الطبقة العاملة الفلاحين بالادوات الزراعية الاساسية والاسمدة المعدنية . وفي مؤسسات الصناعة التابعة للدولة يصنّع العمال الحاصلات الزراعية . وتدل حسابات الاقتصادي السوفييتي ، الاكاديمي ستروميلين ، ان في كل طن من الحبوب المنتجة يتجسد عمل العمال بنسبة خمسين بالمئة تقريبا .

والمكانة الرئيسية في الانتاج ، والخبرة السياسية الغنية ، والروح النظامية العالية ، ونكران الذات ، – كل هذا يضمن للطبقة العاملة الدور القيادي في المجتمع . وحزب الشيوعيين الذي انشأته الطبقة العاملة ينظم ويوجه التطور الاجتماعي .

وقد ادى تحول الاتحاد السوفييتي الى دولة صناعية طليعية في العالم ، وانشاء الفروع العصرية للصناعة ، الى الازدياد السريع لعدد الطبقة العاملة وتغير تركيبها . فقبل الثورة كان عمال الصناعتين الخفيفة والغذائية هم الذين يشغلون المرتبة الاولى من حيث العدد . أما الآن فالغلبة للعمال المشتغلين في صناعة الماكنات ومعالجة المعادن وفي التعدين الحديدي وصناعتي الفحم والبترول .

وادى التقدم التكنيكي الى ارتفاع كفاءات العمال المهنية كما نشأت مهن جديدة كثيرة . وارتفع مستوى الطبقة العاملة الثقافي والتعليمي العام . فقبل الثورة كان اكثر من ثلث عمال المصانع والفبارك اميين تمامـــا . أما الآن فحوالى ٤٤ بالمئة من العمـــال عندهم تحصيل ثانوي وعـــال ، وفي بعض الفروع كالتعدين والكيمياء والطباعة – تبلغ هذه النسبة اكثر من ٥٠ بالمئة . ومعظم العمال يدرسون في المدارس المسائية والمدارس التكنيكية والمعاهد العليا بدون انقطاع عن العمل .

كتب لاليتين ، الخراط في مصنع كيروف ، في كتاب «العمل يعني الاقـــدام» : «ان العامل المجدد هـــو انســـان ذو نظرة واسعة . انه يجمع في نفسه ما يتحلى به ابن الصنعة من صفات رائعة وما يعرفه المهندس الجيد من معلومات متينة . ان ميله الطبيعي هو اتقان تكنولوجية الانتاج باستمرار والنضال في سبيل الجديد والطليعي» .

وغيرت الاشتراكية معالم طبقة المجتمع السوفييتي الاساسية الاخرى – **الفلاحين** .

لقد ارسلت الطبقة العاملة ، في سني التحويل التعاوني للزراعة ، عشرات الالوف من خيرة ابنائها وبناتها الى صفوف الفلاحين ، ساعدوهم في انشاء اولى التعاونيات وفي تدبير امور الانتاج الكولخوزي وتغيير وجه القرية الثقافي والمعيشي . ويحدثنا شولوخوف عن بطولات ذلك العهد في روايته الشهيرة «الارض المستصلحة» ، حيث يصف وصفا ساطعا نشاط الشيوعي سيميون دافيدوف العامل في مصنع بوتيلوفسكي ، والمكلف بالتحويـل التعاوني . وفيما بعد ايضا ، كان رسل الطبقة العاملة يهبون

لمساعدة الفلاحين في كل فترة حاسمة من فترات النضال في سبيل النهوض بالانتاج الزراعي . ففي ربيع سنة ١٩٥٥ انتقل زهاء ٢٥ الف عامل ، تلبيـة لنداء الحزب ، الى العمل القيـادي في الكولخوزات .

وبالتدريج تقترب طبقة الفلاحين الكولخوزيين من الطبقة العاملة من حيث ظروف العمل والثقافة . فالكولخوزيون يعملون في استثمارات اشتراكية ضخمة مبنية على العمل الجماعي والتكنيك الآلي الطليعي ومنجزات العلم الحديث . وظهرت في القرية مهن جديدة كل الجدة ـ كسواقي الحصادات ـ الدارسات وعمال الماكنات والمهندسين الكهربائيين وعمال التركيب الكهربائي وعمال اللاسلكي وغيرهم . وهناك اكثر من ربع الكولخوزيين حاصلون على التعليم من سبع سنوات والثانوي والعالي . ويتغير وعي الكولخوزيين . ففي القرية تستأصل بحزم متزايد بقايا نفسية التملك الفردي .

ثم ان تطور الصناعة ونمو المدن وتحول العمل الزراعي بالتدريج الى عمل ممكنن ، يؤديان دائما الى انقاص وزن الفلاحين النوعي بين سكان البلاد .

ومع الطبقة العاملة والفلاحين الكولخوزيين تغير **المثقفون** الذين يشكلون فئة اجتماعية وليس طبقة خاصة ، لانهم لا يشغلون وضعا مستقلا في الانتاج الاجتماعي . وانما هم ، بمجموعهـم ، الاختصاصيون ذوو الكفاءات العالية المشتغلون في الانتاج المادي والعلم والتكنيك والثقافة والصحة العامة وادارة الدولة والمجتمع .

ان المثقفين فئة من المجتمع السوفييتي تنمو بسرعة . فبعد ان كان عدد الكادحين بادمغتهم سنة ١٩٢٦ يبلغ ٢,٧ مليون شخص ، وفي سنـة ١٩٣٧ ـ حوالى ١٠ ملايين ، زاد عددهم في سنة ١٩٦٤ على ٢٤ مليونا . وسيستمر نمو فئة

المثقفين ، لان هذا يستجيب لمطالب تطور الاقتصاد الوطني والثقافة ومصالح تعليم الشعب بأسره . ويزداد بسرعة خاصة في الاتحاد السوفييتي الوزن النوعي للمثقفين العاملين في تكنيك الانتاج والعلم .

وهناك فئات اخرى من المثقفين يتناقص عددها . فنتيجة لاتقان الاشكال التنظيمية للادارة انخفض الجهـــاز الاداري في السنين الاخيرة انخفاضا كبيرا : فقد بلغ مجموع عددهم في سنة ١٩٦٢ بالنسبة لمجموع العمال والمستخدمين ٩,٢ بالمئـــة مقابل ١٣,٨ بالمئة سنة ١٩٥٣ .

والمثقفون السوفييتيون مثقفـون شعبيون انبثقوا مـــن صفوف العمال والفلاحين .

وانجبت الاشتراكية جيشا لجبا من العلماء الذين صنعوا للعلم السوفييتي مجدا عالميا .

علاقات اجتماعية جديدة . ما هي لوحة العلاقات الاجتماعية في المجتمع السوفييتي ؟

لنأخذ **الانتاج** الذي هو الميدان الحاسم من ميادين النشاط البشري . فكما سبق القول ازالت الملكية الاجتماعية سيطرة بعض الطبقات على الطبقات الاخرى . وللعمال والفلاحين والمثقفين فرص متكافئة في العمل لمصلحة المجتمع الاشتراكي ولمصلحتهم هم انفسهم ، ولهم مصلحة واحدة في ازدهار الاقتصاد الوطني والثقافة الوطنية . ولا يتوقف هناء الناس ووضعهم المادي على انتمائهم الطبقي بل على العمل الشخصي والمؤهلات الشخصية والمعرفة .

وليست ثمة اية امتيازات في **ميدان الثقافة** بسبب الانتماء للطبقة العاملة او الفلاحين أو المثقفين . فلقد جعلت الاشتراكية التعليم في متناول جميع المواطنين واوجدت ظروفا ملائمة لتطور المواهب الشعبية في جميع فروع العلم والتكنيك والثقافة والفن .

ادى انتصار الاشتراكية الى تغيرات هامة اخرى في العلاقات الاجتماعية . فقد قضت الاشتراكية القضاء المبرم على وليد التشكيلات الاستغلالية القبيح الا وهو التضاد بين العمل العقلي والعمل الجسدي ، وبين المدينة والقرية . وازيلت الظروف

الاجتماعية التي كان فيها الاشتغال بالعمل العقلي يعطي افضليات خاصة للطبقات المالكة وكان بوسع المدينة فيها ان تستغل القرية .

وفي الوقت نفسه ليس من الصحيح الاعتقاد بان لا وجود لاية تناقضات في ميدان العلاقات الاجتماعية في ظل الاشتراكية . ان التناقضات موجودة ولكنها تذلل في اثناء بناء المجتمع الشيوعي اللاطبقي .

اتحاد الشعوب المتكافئة في الحقوق . شاءت الاقدار ان يكون اول بلد اشتراكي في العالم اكثر بلدان العالم قوميات . فعلى اراضي الاتحاد السوفييتي يقيم اكثر من ١٢٠ امة وقومية .

تكونت الامم من القوميات التي كانت تقيم على ارض واحدة وتتكلم لغة واحدة ولها مقومات ثقافة واحدة . وعلى اساس تطور الانتاج وقيام الصلات الاقتصادية بين ممثلي قومية واحدة أو عدة قوميات متقاربة ، تتكون وحدة الحياة الاقتصادية وتنشأ لامة .

وهكذا فان الامة هي مجموعة اناس ثابتة لها لغة واحدة وارض واحدة وحياة اقتصادية واحدة وثقافة واحدة .

وعندما استلمت الطبقة العاملة وحزب الشيوعيين كل السلطة منحا الاكثرية الكادحة في كل امة الحق في تقرير مستقبلها بنفسها . وكان سكان روسيا قبل الثورة يعانون الامرين لا من الاضطهاد الطبقي وحسب بل من الاضطهاد القومي ايضا . ولهذا لم يكن من الممكن اقامة الثقة بين الشعوب الا بمنح الامم الحق في تقرير مصيرها بنفسها .

وحقق الحزب الشيوعي الخطة التي وضعها لينين لتوحيد الجمهوريات السوفييتية على اسس من التكافؤ التام في الحقوق

والاختيار الحر في اتحاد واحد للجمهوريات الاشتراكية السوفييتية . وفي الثلاثين من كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٢٢ اقر المؤتمر الاول للسوفييتات بالاجماع بيان ومعاهدة انشاء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية .

ولكن المساواة الفعلية بين الامم لم يكن من الممكن بلوغها دفعة واحدة ، لان شعوب البلد كانت في درجات متفاوتة جدا من التطور الاجتماعي . فالى جانب الامم المتطورة كانت هناك قوميات متأخرة ومجموعات من الاجناس البشرية صغيرة . ففي معظم مناطق آسيا الوسطى مثلا كانت تسيطر العلاقات الاقطاعية . وفي الشمال الاقصى وفي عدد من مناطق سيبيريا والشرق الاقصى كان لا يزال النظام القبلي والعشائري موجودا . فلرفع الشعوب المتأخرة الى مستوى الشعوب المتقدمة كان يجب تأمين تطوير اقتصادها وثقافتها بسرعة . وهذا ما فعله الحزب الشيوعي . فـــاذا كان النمو العام للانتـــاج الاجمالي للصناعة الكبيرة على نطاق الاتحاد السوفييتي كله قد بلغ في سنة ١٩٦٣ بالقياس الى سنة ١٩١٣ ، ٥٢ مرة ، فقد كان النمو في جمهورية كازاخستان السوفييتية ٧٨ مرة وفي جمهورية قرغيزيـــا السوفييتية ٨٢ مرة . ونشأت في المناطق القوميـــة كادرات الاختصاصيين ذوي الكفاءات الرفيعة في جميع ميادين الانتاج .

ان الاشتراكية تضمن الانبعاث للشعوب التي كانت من قبل متأخرة . فقد انشأت خمسون شعبا تقريبا في العهد الاشتراكي ابجدية خاصة بها للكتابة وطورت آدابها . ويجري التعليم في المدارس في ٦٥ لغة من لغات امم البلد وقومياته ، وللجمهوريات المتحدة اكاديمياتها للعلوم ، ومعاهد عديدة للبحث العلمي ومسارح وستوديوهات قومية .

واستنادا الى المساعدة الاخوية المتبادلة من جميع الشعوب

وقبل كل شيء من الشعب الروسي العظيم ، حققت شعوب كثيرة كانت متأخرة ، في ظرف ثلاثين او اربعين سنة ، الانتقال من حياة القرون الوسطى الى الاشتراكية بدون مرور بمرحلة التطور الرأسمالي . وقد لاحظ احـــد الصحفيين الفرنسيين ان «عشرة قرون قد اجتيزت في اقل من اربعين سنة» .

وتتطلع الى التجربة السوفييتية باهتمام متزايد ، القوى التقدمية في الدول المستقلة الناشئة في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية . ويعلن الكثيرون من رجالات هذه البلدان ان على البشرية ان تنحني اجلالا امام عدالة وانسانية الاشتراكية ولو لسبب واحد هو انها قضت على الاضطهاد القومي وقادت الشعوب التي كانت متأخرة الى الازدهار . وقد تحدث الكاتب الهندي باندیت سوندرلال عن انطباعاته عن اوزبكستان السوفييتية فقال : «اذا اصبحت اوزبكستان بلدا راقيا في ظروف النظام السوفييتي – وانه لكذلك ! – فالنظام السوفييتي هو النظام الافضل في العالم» .

هكذا جعلت ثورة اكتوبر والاشتراكية من الممكن انطلاق البلدان المتخلفة في طريق التطور الاشتراكي . ان الاشتراكية تتغلب سواء على الاستئثار القومي أو على الانعزال القومي ، اي انها، بكلمات اخرى ، تقيم علاقات اخوية طيبة بين القوميات والشعوب .

الاتحاد الفيديرالي السوفييتي . ان الاتحاد السوفييتي دولة فيديرالية . ولكن الاكتفاء بهذا التحديد عند الحديث عن الدولة السوفييتية يعني السهو عن اهم شيء ، وهو ان امم البلد وشعوبه تجمعها وحدة المصير والهدف وهي متلاحمة في اسرة اشتراكية عاملة واحدة . ان **الاتحاد الفيديرالي السوفييتي** يتيح الجمع بشكل منسجم بين حقوق كل دولة قومية وبين مصالح الاتحاد كله ومصالح الشعب بأسره .

ان الهيئات السوفييتية الاتحادية لسلطة الدولة تسيّر تطور الاقتصاد والثقافة على كل اراضي البلد . وفي الاتحاد السوفييتي مواطنية واحدة وميزانية واحدة ونظام نقدي واحد وقوات مسلحة واحدة .

وفي الوقت نفسه تملك كل **جمهورية متحدة** دستورها وتستطيع الدخول في علاقات مباشرة مع الدول الاخرى وتتبادل التمثيل الديبلوماسي معها . وتضع الجمهورية المتحدة خطة خاصة بها للتنمية الاقتصادية وميزانية خاصة بها وتدير المؤسسات الصناعية العائدة لها وشؤون الاسكان والبلديات وتشرف على الصحة العامة والضمان الاجتماعي والتعليم الابتدائي والثانوي والعالي ، الخ ..

وتقيم في اراضي عدد من الجمهوريات المتحدة قوميات كثيرة . فاذا كانت الامة والشعب يعيشان في مجموعة موحدة نوعا ما كان لنظام دولتها شكل **الجمهورية ذات الحكم الذاتي أو المقاطعة ذات الحكم الذاتي أو الدائرة القومية** . وتدير الجمهورية ذات الحكم الذاتي ايضا ، في حدود اراضيها ، شؤون الاقتصاد الوطني والشؤون الثقافية ولها هيئاتها للسلطة ودستورها .

وتناضل الاشتراكية نضالا لا هوادة فيه ضد مظاهر رواسب الايديولوجية البرجوازية في العلاقات بين القوميات – من تعصب قومي وشوفينية . واحرز الوعى الاممي انتصارا في الاتحـــاد السوفييتي ، وثبتت ايديولوحيا وممارسة الاممية الاشتراكية .

والاتحاد الفيديرالي السوفييتي يجسد الالفة الاخوية بين الامم والشعوب الاشتراكية . وعلى اساس الاتحاد في اتحـــاد الجمهوريات الاشتراكية نشأت قوة محركة رائعة للمجتمع السوفييتي هي **الصداقة بين شعوب الاتحاد السوفييتي** . ان الصداقة بين الشعوب هي اهم مصدر لقوة الاشتراكية ومنعتها .

ويحافظ السوفييتيون على الصداقة بين الشعوب حفاظهم على اغلى ما يملكون لان فيها ضمانة النجاحات الجديدة .

الدولة الاشتراكية السوفييتية

ان كل انسان سوفييتي يعتز بانه مواطن اول **دولة اشتراكية للشغيلة** في العالم ويتمتع بكامل حقوقه .

وظائف الدولة السوفييتية . ما هي الاتجاهات الاساسية لنشاط الدولة السوفييتية وما هي وظائفها ؟ لقد قامت امام الدولة الجديدة ، الاشتراكية ، منذ نشوئها ، مهمة تثبيت انتقال السلطة الى أيدي الطبقة العاملة وقمع مقاومة المستغلين .

ان الوظائف الرئيسية للدولة السوفييتية ، كما لاية دولة اشتراكية اخرى ، تحددها المهمات الانشائية الجليلة لبناء الاشتراكية والشيوعية . وفي طليعة هذه الوظائف الوظيفة التنظيمية الاقتصادية . فالدولة السوفييتية هي مالك جماعي لوسائل الانتاج الاساسية ، تنظم التطور الدائب لجميع فروع الاقتصاد الوطني ، وتنظم عمل الناس ، وتعنى برفع مستوى معيشتهم . وما دام مبدأ التوزيع حسب العمل هو المعمول به في المجتمع ، تقوم الدولة بمراقبة معيار العمل ومعيار الاستهلاك وتجري حسابا دقيقا لكل املاك المجتمع وتحمي الملكية الاجتماعية من اللصوص والمبذرين .

وتتصل بالوظيفة التنظيمية الاقتصادية وظيفة التربية الثقافية . فالدولة السوفييتية تدير شؤون التعليم العام ، وتنظم نشاط المؤسسات العلمية ، وترعى المسارح والمتاحف والاستوديوهات السينمائية ودور النشر وغير ذلك . وفي الوقت الذي تنظم فيه الدولة أمر تلبية حاجات الشعب الروحية ، تقوم بعمل

كبير لتربية الكادحين بروح الشيوعية . وللدولة الاشتراكية وظيفة هامة هي حفظ النظام العام وحماية حقوق المواطنين وحرياتهم .

ولما كانت الدولة السوفييتية انسانية بطبيعتها فهي تناضل بلا كلل لتدعيم السلام في العالم . ومن وظائفها الهامة تدعيم التعاون الاخوي مع بلدان المعسكر الاشتراكي وتأييد نضال الشعوب التحرري الوطني وتطوير العلاقات الاقتصادية والثقافية مع جميع البلدان مهما كان نظامها الاجتماعي والسياسي . وما دام هناك خطر هجوم حربي من جانب الامبريالية فللدولة السوفييتية وظيفة هامة هي الدفاع عن البلاد وضمان امنها .

هذا التعداد لوظائف الدولة الاشتراكية يدل بحد ذاته على انها منظمة سياسية تعمل باسم الشعب ولمصلحة الشعب وباشتراكه المباشر .

ان الاشتراكية تعيد لمفهوم «الديموقراطية» معناه الحقيقي وتجعل من الدولة اداة لسلطة الشعب الحقة . وبديهي ان هذا لا يعني ان الديموقراطية الاشتراكية تولد في شكل جاهز ناجز كما ولدت «اثينا من رأس زفس » . بل ان نظام سلطة الشعب يتطور ويتكامل مع تطور المجتمع . فالنظرية والممارسة تقدمان باستمرار اشكالا ديموقراطية جديدة ومؤسسات سياسية جديدة تسمح باشراك الجماهير على نطاق اوسع فاوسع في تصريف امور الدولة واتقان بنية جهاز الدولة وتنظيف ممارسته من رواسب البيروقراطية والشكلية .

والسوفييتات (المجالس) هي اساس الدولة السوفييتية واهم قاعدة للديموقراطية الاشتراكية .

سوفييتات نواب الكادحين . ان كل السلطة في الاتحاد السوفييتي هي للكادحين ممثلة في هيئاتهم التمثيلية – **سوفييتات** نواب الكادحين . وتعمل هذه السوفييتات في كل مكان – في كل

مدينة وبلدة عمالية وقرية وبندر ودسكرة وفي كل منطقة واقليم وجمهورية . وتشكل السوفييتات اساس الدولة السياسي : فجميع هيئات الدولة منبثقة عن السوفييتات ومنها تستمد صلاحياتها والى مراقبتها تخضع .

ولكون السوفييتات هيئات لسلطة الشعب الحقة ، فانها تمتاز عن المؤسسات التمثيلية للدولة البرجوازية ، بعدد من الخصائص المبدئية .

فاولا ان السوفييتات هي **اشمل** هيئات تستند عمليا الى جميع السكان الراشدين (١٤٠ مليون ناخب) ، وتجتذب جماهير شعبية واسعة الى الاشتراك في الادارة (في السوفييتات زهاء مليوني نائب ، وفي مختلف لجان السوفييتات يشترك اكثر من ٣ ملايين شخص ، ويناهز مجموع العاملين مع السوفييتات ٢٠ مليون مواطن) .

وثانيا ان السوفييتات ليست فقط هيئات **حاكمة** بل هي ايضا هيئات **عاملة** : فالنواب في الدورات وفي اللجان يتخذون المقررات ثم يطبقون بانفسهم هذه المقررات بواسطة اللجـــان التنفيذية للسوفييتات .

واخيرا فان السوفييتات هي هيئات **كاملة السلطة** : فهي تقرر جميع المسائل السياسية الجذرية ، وتدير شؤون الثروة الاجتماعية كلها ، وتسيّر الاقتصاد الوطني ، وتشرف على تطور الثقافة ، وهي هيئات للتسيير الذاتي الشعبي المحلي تجمع في نفسها بين صفات منظمات الدولة وصفات المنظمات الاجتماعية .

تم فيما بعد - خلال عهد ستالين، بعد أعلانه البدء في تنفيذ الخطة الخمسية الثانية - تقويض السوفياتات. حيث بوشر، اولاً، بتهميشها من خلال تجريدها من صلاحياتها. بعد ذلك باشرت السلطة السوفياتية الحل المنظم لها. وأخيراً تم استبدالها بسوفياتات مزيفة قائمة على مبدء الإنتخاب العام، في حين إن السوفياتات الحقيقية تقوم على مبدء الإنتخاب للعمال والفلاحين المباشرين فقط وحسب وحدات العمل - كلٌ في مصنعه وكلٌ في مزرعته. وفوق ذلك كانت هذه السوفياتات المزيفة فاقدة للصلاحيات وشكلية. وبذلك أطاح ستالين بسلطة العمال والفلاحين وشوه الشيوعية بفكرة النزع القسري للسلطة عن الجماهير الثورية بعد استخدامها في الوصول الى السلطة، وكان ذلك من أكبر مثالبه ... وبقت كذلك حتى انهيار الإتحاد السوفياتي السابق. - ملاحظة الصوت الشيوعي

والسن الذي يخول الشخص حق ترشيح نفسه للنيابة هو : ١٨ سنة للسوفييتات المحلية لنواب الكادحين ، و٢١ سنة للسوفييتات العليا للجمهوريات المتحدة وذات الحكم الذاتي ، و٢٣ سنة للسوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتي . وفي وسع السوفييتيين منذ سن الشباب الاشتراك في نشاط الدولة الفعال .

وليس بوسع احد ان يؤثر في ارادة الناخب لان التصويت في الاتحاد السوفييتي **سري** .

ويدخل الحزب الشيوعي السوفييتي الانتخابات في جبهة واحدة وثيقة مع اللاحزبيين المنضمين للنقابات والمنظمات التعاونية ومنظمة الشباب الشيوعية (الكومسومول) والجمعيات الثقافية وغيرها من جمعيات الكادحين الجماهيرية الاخرى .

ويراقب الرأي العام الواسع سير الحملة الانتخابية التي يشترك في تنظيمها اكثر من ٢٠ مليون شخص من الناس المكلفين واعضاء اللجان الانتخابية والدعاة .

وليس نواب السوفييتات سياسيين محترفين بل ان اكثريتهم الساحقة تعمل مباشرة في المصانع والكولخوزات والمعاهد والمختبرات العلمية ، اي انهم متصلون اتصالا وثيقا

بالشعب . وهم يقدمون الحساب بصورة منتظمة امام السوفييت وامام الناخبين مباشرة . ويخضع النواب لمراقبة الناخبين الساهرة ويمكن تجريدهم من النيابة اذا ما اساءوا العمل أو اساءوا التصرف .

ويجدد تركيب السوفييتات لدى كل انتخابات جديدة بمقدار الثلث على الاقل . وهذا لا يساعد على تحسين عمل السوفييتات نفسها وحسب ، بل يضمن ايضا تدفق قوى جديدة ويؤمن لمئات الالوف والملايين الجديدة من الكادحين المرور بمدرسة ادارة الدولة .

السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتي . ان اعلى هيئة لسلطة الدولة في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية هي **السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتي** ، الذي ينتخب لمدة اربع سنين

والسوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتي مخول بكل السلطة التي يملكها الشعب ، وهو ينظر ويقرر اعم واهم مسائل السياسة الداخلية والخارجية للاتحاد السوفييتي . ويقر السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتي الخطة الاقتصادية والميزانية ، ويصدر القوانين العامة لكل الاتحاد والملزمة لجميع المواطنين والمؤسسات ، ويتخذ دستور الاتحاد السوفييتي ، ويدخل عليه التعديلات عند الضرورة ، ويراقب التقيد باحكامه ، ويشكل حكومة الاتحاد السوفييتي ويغير تركيبها ، وينتخب المحكمة العليا للاتحاد السوفييتي ويعين النيابة العامة للاتحاد السوفييتي ، ويمثل الاتحاد السوفييتي في العلاقات الدولية ويحقق الصلات بين البرلمانات ، ويقر اهم المعاهدات المعقودة مع الدول الاجنبية ، وينظم القوات المسلحة للبلاد ، ويقوم بالمراقبة العليا على نشاط هيئات الدولة والاشخاص المسؤولين .

ان نواب السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتي هم رسل الطبقة العاملة والفلاحين الكولخوزيين والمثقفين الكادحين . فمن اصل ١٤٤٣ برلمانيا ٦٤٦ عاملا وكولخوزيا مشتغلا في الانتاج مباشرة . وفي الهيئة العليا لسلطة الدولة تمثل ٥٦ قومية وشعبا . و٣٩٠ عضوا من اعضائها اي ثلث مجموع الاعضاء هم من النساء . والسوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتي هو اكثر من اي برلمان برجوازي احتواء على عنصر الشباب . فان ٢٠٩ من اعضائه عمرهم اقل من الثلاثين ، و٤٠٥ اعضاء من سن الثلاثين الى الاربعين . وفي انتخابات سنة ١٩٦٢ جدد زهاء سبعين بالمئة من تركيب السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتي .

ويتألف السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتي من مجلسين : **مجلس الاتحاد** الذي يمثل المصالح العامة لجميع الكادحين بصرف النظر عن قوميتهم ، **ومجلس القوميات** الذي يعبر عن المطالب والمصالح الخاصة بكل امة وشعب . ولكل من المجلسين حقوق متساوية . وتعود اليهما ، على التساوي ، المبادرة في التشريع . ويعتبر القانون مبرما اذا اقره كلا المجلسين . ويشكل كل مجلس اللجان الدائمة والموقتة التي تحضر المسائل لمناقشتها في السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتي .

ويجتمع السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتي بانتظام في دورات تقرر فيها مسائل الدولة الهامة . اما للعمل الجاري المستمر في الادارة العليا للدولة فان مجلسي السوفييت الاعلى ينتخبان في جلسة مشتركة وفي اول دورة لهما ، **هيئة رئاسة السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتي** .

وتتألف هيئة رئاسة السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتي من رئيس ونواب للرئيس على عدد الجمهوريات المتحدة وامين سر واعضاء . وبما انها جزء من السوفييت الاعلى وتقوم ببعض وظائفه بين الدورات ، فهي ايضا هيئة عليا للدولة السوفييتية . وتخضع اهم مراسيم هيئة الرئاسة للمصادقة في دورات السوفييت الاعلى العادية .

مجلس وزراء الاتحاد السوفييتي . ان **مجلس وزراء الاتحاد السوفييتي** – اي الحكومة – يشكل في جلسة مشتركة لمجلس الاتحاد ومجلس القوميات للسوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتي . ومجلس الوزراء مسؤول امام السوفييت الاعلى الذي يحاسبه على اعماله ، أما بين الدورات فمسؤول امام هيئة رئاسة السوفييت الاعلى التي تحاسبه على اعماله .

ويدير مجلس وزراء الاتحاد السوفييتي تطوير الاقتصاد والثقافة ، وينظم تنفيذ ميزانية الدولة ، ويطبق القوانين الصادرة عن السوفييت الاعلى ، ويحفظ النظام العام ، ويحمى مصالح الدولة وحقوق المواطنين . وفي يده الادارة العامة للعلاقات مع الدول الاجنبية . وينشئ القوات المسلحة للبلاد ويقودها . ويصدر مجلس الوزراء قرارات واوامر . وفي المسائل ذات الاهمية الخاصة تصدر قرارات مشتركة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي ومجلس وزراء الاتحاد السوفييتي تكون ملزمة لجميع هيئات الدولة والحزب .

ويوحّد مجلس وزراء الاتحاد السوفييتي ويوجه عمل الوزارات والدوائر ويدخل في تركيب مجلس وزراء الاتحاد السوفييتي رؤساء مجالس وزراء الجمهوريات المتحدة بحكم وظيفتهم . وهذا ما يضمن للجمهوريات القومية الاشتراك في تقرير جميع المسائل التي هي من صلاحية الاتحاد كله .

ان الوزارات ولجان الدولة هي هيئات تدير بعض فروع معينة من الاقتصاد الوطني والثقافة . فلجان الدولة لفروع الصناعة تدير منظمات البحث العلمي ومنظمات التخطيط والتصميم ، وتنهج سياسة تكنيكية واحدة ، وتطبق التكنيك الجديد والتكنولوجيا الجديدة .

وتنقسم الوزارات الى وزارات اتحادية ووزارات اتحادية جمهورية .

تدير الوزارات الاتحادية تلك الفروع من الاقتصاد الوطني التي لها اهمية تشمل الاتحاد كله وتتطلب ادارة من مركز واحد . وهي فروع الصناعة التي تنتج الماكنات والطاقة الكهربائية لكل الاقتصاد الوطني ، وطرق المواصلات ، والنقل البحري ، والتجارة الخارجية .

واما الوزارات الاتحادية الجمهورية فتدير فروعا من الاقتصاد الوطني والثقافة كالزراعة والتجارة والصحة العامة والثقافة والتعليم العالي والثانوي التخصصي .

ان مجلس وزراء الاتحاد السوفييتي هو الهيئة التنفيذية والاجرائية العليا لسلطة الدولة في الاتحاد السوفييتي .

هيئات السلطة والادارة في الجمهوريات والمناطق المحلية .

ان الهيئة العليا للسلطة في الجمهورية المتحدة هي السوفييت الاعلى . فهو يصدر القوانين السارية المفعول ضمن حدود الجمهورية ويقر ميزانية الجمهورية وما الى ذلك . ويختلف السوفييت الاعلى للجمهورية المتحدة من حيث بنيته عن السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتي بانه يتألف من مجلس واحد . وينتخب السوفييت الاعلى للجمهورية المتحدة هيئة رئاسته التي يعين دستور الجمهورية حدود صلاحيتها .

والهيئة التنفيذية والاجرائية العليا في الجمهوريات المتحدة هي مجلس وزراء الجمهورية المتحدة .

والهيئة العليا لسلطة الدولة في الجمهورية ذات الحكم الذاتي هي السوفييت الاعلى لهذه الجمهورية الذي ينتخب هيئة رئاسته ويشكل مجلس الوزراء وينتخب المحكمة العليا للجمهورية .

وللسوفييتات المحلية مكانة هامة في مجموعة هيئات سلطة الدولة . وتنتخب سوفييتات نواب الكادحين الاقاليم والمقاطعات والمقاطعات ذات الحكم الذاتي والدوائر والمناطق والمدن والقرى والبلدات لمدة سنتين . وتدير سوفييتات نواب الكادحين البناء الثقافي والسياسي والاقتصادي – المؤسسات والدوائر والمنظمات الداخلة في صلاحياتها ، وتضع الميزانية المحلية وتدير نشاط هيئات الادارة الخاضعة لها وتضمن حفظ النظام العام ومراعاة القوانين وحماية حقوق المواطنين . ومن اهم مهمات المجالس المحلية هي العناية بتحسين الخدمات العامة .

وتنتخب السوفييتات المحلية هيئات تنفيذية واجرائية هي اللجان التنفيذية . ولادارة الاقتصاد والثقافة يوميا تشكل السوفييتات عادة لجنة للتخطيط واقساما لمختلف فروع البناء الاقتصادي والثقافي . وبواسطة سوفييتات نواب الكادحين يتحقق اشتراك جماهير الشعب الواسعة في شؤون الدولة اشتراكا دائما وحاسما .

المحكمة والنيابة العامة . ان مراقبة تنفيذ القوانين السوفييتية تنفيذا دقيقا وحفظ النظام العام وحقوق المواطنين ومصالحهم هي من مهمات جميع هيئات الدولة . ولكن هناك هيئات تشتغل في هذه المسائل حصرا . وهي **المحكمة والنيابة العامة** .

والمحكمة السوفييتية مبنية على اسس ديموقراطية .

والحلقة الاساسية في النظام القضائي هي **المحكمة الشعبية للمنطقة (للمدينة)** . وتوجد هذه المحكمة في كل منطقة ومدينة . وينتخب القضاة لمدة خمس سنين على اساس حق الانتخاب العام المتساوي المباشر وبالاقتراع السري . ويخضع القضاة لمحاسبة الناخبين ويمكن لهؤلاء تجريدهم من صفتهم القضائية . ومع القضاة المحترفين يشترك في عمل المحكمة محلفون شعبيون على اسس اجتماعية ينتخبون في اجتماعات عامة للكادحين بالتصويت العلني لمدة سنتين . وتحل جميع القضايا المدنية والجزائية من قبل المحكمة بصورة جماعية .

وتنتخب السوفييتات المعنية ، لمدة خمس سنين ، محاكم الدوائر ومحاكم المقاطعات ذات الحكم الذاتي والاقاليم والمقاطعات والجمهوريات ذات الحكم الذاتي والجمهوريات المتحدة . والهيئة القضائية العليا للبلاد هي المحكمة العليا للاتحاد السوفييتي وينتخبها السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتي لمدة خمس سنين .

والقضاة مستقلون ولا يخضعون الا للقانون . وتجري المحاكمات بلغة الجمهوريات المتحدة وذات الحكم الذاتي والمقاطعات ذات الحكم الذاتي . ويمكن لكل مشترك في القضية ان يتكلم بلغة قومه . وتجري المحاكمات بصورة علنية (باستثناء حالات قليلة جدا ينص عليها القانون نصا خاصا) وهذا ما يضمن اطلاع الجمهور عليها وموضوعيتها . وللمتهم الحق في الدفاع .

ولكن لا يزال هناك اشخاص يرتكبون الجرائم ويخالفون القوانين . وتجري مكافحة الاجرام عن طريق انزال العقوبات الشديدة بالمجرمين الخطرين واستخدام التدابير الاجتماعية

بحق من يجرم للمرة الاولى في حياته ويمكن اصلاحه بتأثير رفاقه في المجتمع . وفي مكافحة المخالفات القانونية يزداد الآن كثيرا دور الرأي العام (المحاكم الرفاقية وفرق المتطوعين الشعبيين لحماية النظام العام ، وغير ذلك) .

أما النيابة العامة – الهيئة الخاصة للاشراف على تطبيق القوانين الدقيق – فتقوم بالمهمات نفسها التي تقوم بها المحكمة ولكن باساليب اخرى .

فالنيابة العامة تقيم الدعاوى الجزائية وتحقق فيها وتجمع الادلة التي تدين المجرمين واعوانهم وترافب شرعية اعمال هيئات التحقيق الاخرى . وتنظر المحكمة في القضية التي ترفعها اليها النيابة العامة ، ويمثل النائب العام في المحكمة الادعاء العام .

وتعمل النيابة العامة لكي يصير فهم القوانين في جميع انحاء البلاد فهما وحيد الشكل فعلا مهما كانت الفروقات المحلية وبالرغم من كل تأثير محلي .

وتختلف مراقبة النيابة العامة عن مراقبة الدولة العادية . فهيئات الدولة ، عند قيامها بالمراقبة والاشراف الاداري ، يحق لها ان تتدخل في النشاط المباشر والاقتصادي للمنظمات الخاضعة للرقابة كما يحق لها ، في عدد من الحالات ، اتخاذ التدابير التأديبية والادارية . اما النيابة العامة فمن حقها وواجبها ، عند مخالفة القانون ، ان تعترض حسب الاصول على عمل الهيئات التنفيذية والاجرائية للسوفييتات المحلية أو الدوائر وان تقيم دعوى ملاحقة جزائية أو تأديبية أو ادارية بحق المسؤولين والمواطنين تبعا للظروف الملموسة .

وتسهر النيابة العامة على حرمة شخصية المواطن السوفييتي . فلا يمكن اعتقال احد في الاتحاد السوفييتي الا بقرار من المحكمة أو بموافقة النائب العام .

وتشكل هيئات النيابة العامة السوفييتية نظاما واحدا ، مركزيا تماما ، مستقلا عن الهيئات المحلية للسلطة والادارة . ويرأس النيابة العامة مدعي عام الاتحاد السوفييتي الذي يعينه ، لمدة سبع سنين ، السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتي . ويعين مدعي عام الاتحاد السوفييتي النواب العامين للجمهوريات والاقاليم والمقاطعات . وأما النواب العامون للدوائر والمناطق والمدن فيعينهم النواب العامون للجمهوريات المتحدة ويقر تعيينهم مدعي عام الاتحاد السوفييتي . والنيابات العامة في القاعدة تخضع للنيابات العامة الاعلى ، وهذا ما يضمن تنفيذ المهمات الملقاة عليها بسرعة ودقة .

النظام الحقوقي السوفييتي

الشرعية الاشتراكية . تقيم الدولة السوفييتية الضمانات لتنفيذ القوانين السوفييتية تنفيذا دقيقا ، اي **الشرعية الاشتراكية** . وقد اوصى لينين بالتقيد الشديد والشريف بقوانين السلطة السوفييتية وبمراقبة تنفيذها بعين ساهرة . وهذه الوصية اللينينية ينفذها الحزب الشيوعي والشعب السوفييتي بكل حرص . فالقوانين السوفييتية تحمي حقوق المواطنين السوفييتيين وحرياتهم بامانة .

وتنظم
العلاقات الاقتصادية وغيرها من العلاقات الاجتماعية وتحمي النظام الاشتراكي وتعين حقوق وواجبات المواطنين والمسؤولين وتحمي ملكية الكادحين الاجتماعية والشخصية .

وتشكل مجموعة القوانين كلها **الحق الاشتراكي** الذي له عدة فروع .

والحق السوفييتي تتخلله الانسانية الثابتة ، وهدفه الرئيسي اقامة نظام اجتماعي ثابت وعادل وتربية الناس وايجاد جو اجتماعي يجعل الناس اقل صبرا على الاعمال المعادية للمجتمع .

ولا تثبّت الشرعية الاشتراكية والحق الاشتراكي العلاقات التي تكونت وحسب بل تساعد ايضا على مولد علاقات جديدة . فالقانون يربي المواطنين على روح التفهم لمطالب النظام الاشتراكي واحترام مصالح الدولة والمجتمع ويتطلب التقيد الواعي بقواعد الحق اي انه يربي **الوعي الحقوقي** . وليس القانون موجها الى كل الشعب وانما هو موجه الى كل انسان . وفي النضال في سبيل نمط الحيـــاة الشيوعي وطريقة الحياة الجديدة تستعمل قوة القانون وقوة الرأي العام ونفوذ الجماعة .

والهدف من كل النظام الحقوقي الاشتراكي تأمين الظروف لتطور الشخصية تطورا طليقا . واكثر ما يتجلى هذا في حقوق وواجبات المواطن السوفييتي .

وحدة الحقوق والواجبـــات . ولدت اكثرية سكان البلد وترعرعت في العهد السوفييتي . وقد اعتـاد السوفييتيون على التمتع بالحقوق الاجتماعية الواسعة التي تنعكس فيهـــا عناية المجتمع بالانسان طول مدة حياته .

فعندما يبلغ المواطن السوفييتي السن السابعة تنفتح امامه ابواب المدرسة على مصاريعها ، وعندما يخرج منها فتى يافعـــا يواصل هو والملايين من اترابـــه الدراسة في المعاهد الثانوية التخصصية والمعاهد العليا . **فالحق في التعلم** مضمون للمواطنين السوفييتيين .

يتعلم في البلد جميع الاطفال ، في حين ان اربعة اخماس الاطفال تقريبا كانوا قبل الثورة محرومين امكانيـة التردد الى المدرسة . ويشغل الاتحاد السوفييتي المرتبة الاولى في العالم من حيث عدد الطلاب . واخذت الدولة على عاتقها جميع مصاريف الدراسة ، بل ان قسما كبيرا من الطلاب يتقاضون منحا دراسية وتسهيلات اخرى . وفي المدارس الداخلية لا يتعلم الاطفال وحسب بل يأكلون ويلبسون ايضا على حساب الدولة .

وبعد ان يحصّل كل مواطن سوفييتي تعليمه ويختار مهنته ، يكون في امكانه بذل قواه ومؤهلاته في العمل . **فالحق في العمل** – وهو اهم حقوق الفرد الاجتماعية – مضمون بنظام الاشتراكية الاقتصادي الذى ينفي الازمات والبطالة . وتكفـل للسوفييتيين الحرية التامة في اختيار اية شغلة أو تخصص ، وحرية الفردية المبدعة اذا لم يتعارض هذا مع مصالح المجتمع والشعب .

ويتمتع الكادحون في الاتحاد السوفييتي باجازات مدفوعة الاجر ، وتوضع تحت تصرفهم المصحات الفخمة ودور الاستجمام ومراكز السياحة والاستادات والملاعب الرياضية والمنتزهـات والاندية العديدة . واذا مرض الشخص العامل حصل على معونة مادية (حتى ٩٠ بالمئة من الاجر) من صندوق الضمان الاجتماعي ، وتقدم له الخدمة الطبية بالمجان . ففي الاتحاد السوفييتي يكفل **الحق في الاستراحة وفي الخدمة الطبية** . ولكل اسرة وكل مواطن الحق في الحصول على مسكن صالح على حساب الصندوق الاجتماعي أو من البناء التعاوني أو الفردي .

وكل من عمل جيدا في حياته وبلغ سن الشيخوخة ينال معاشا تقاعديا . والآن تكفل على حساب الدولة وجزئيا على حساب الكولخوزات معاشات التقاعد بسبب الشيخوخة أو العجز ل ٢٦ مليون شخص من معطوبي الحرب أو شيوخ العمل . وقد زادت

الدولة في السنين الاخيرة زيادة كبيرة حجم معاشات التقاعد . ففي الاتحاد السوفييتي يكفل **الحق في التأمين المادي** عند الشيخوخة وفي المرض .

ان حقوق المواطن السوفييتي الاجتماعية تحميها الدولة والمنظمات الاجتماعية . وكل محاولة لتقييدها بسبب قومي او عرقي تعتبر جريمة من جرائم الحق العام ويعاقب عليها القانون . فالقانون يكفل حرمة الشخصية .

والى جانب الحقوق الاجتماعية يتمتع السوفييتيون **بالحقوق او الحريات السياسية** الواسعة : **حرية الكلام والصحافة والجمعيات والاجتماعات والحشود العامة والمظاهرات** . وتكفل الحريات السياسية لا بالقانون وحسب بل بالوسائل المادية ايضا : فتحت تصرف الكادحين ومنظماتهم المطابع واحتياطيات الورق ودور النشر ومكاتب تحرير الجرائد والإذاعة والسينما والتلفيزيون . وقصارى القول ان الحريات يكفلها كل نظام الاشتراكية الاجتماعي .

هل هناك قيود ما في الحريات السياسية ؟ نعم ولا بد منها . فالصحافة السوفييتية مثلا لا تقدّم صفحاتها ابدا للدعاية للحرب والعنف والتهتك الاخلاقي . والدعاية للعداء القومي والكراهية للجنس البشري ممنوعة في الاتحاد السوفييتي . وهذا طبيعي ، اذ يحظر كل ما يسيء للشعب وللاشتراكية .

والمتساوون في الحقوق متساوون في الواجبات ايضا . فما هي الواجبات التي يلقيها المجتمع والدولة على مواطنيهما ؟

انها قبل كل شيء **واجب الكدح** ، والكدح باستقامة وشرف ، لان العمل يقوي المجتمع الاشتراكي ويساعده في التقدم .

وبديهي ان من يكدح جيدا يسعى لان يحمي ثمار عمله بشكل افضل ايضا . ويلقي المجتمع على كل مواطن سوفييتي **واجب صون وتدعيم الملكية الاشتراكية** التي هي اساس الرخاء .

ومن **واجبـــات** المواطنين السوفييتيين **ان يتقيدوا بشدة بقوانين الدولة** وان يكون مسلكهم متفقا مع قواعد الحيـــاة الاشتراكية .

وواجب السوفييتيين المقدس الدفاع عن الوطن . وعلى كل شاب بلغ السن التاسعة عشرة ان يخدم في الجيش السوفييتي (أما بالنسبة لمتخرجي المدرسة الثانوية فسن خدمة العلم ١٨) .

ان حقوق المواطنين متصلة اتصالا وثيقا بواجباتهم .

ففيم تتجلى هذه الصلة ؟ انها تتجلى قبل كل شيء في انه ليس المواطنون السوفييتيون مسؤولين امام المجتمع وحسب ، بل ان المجتمع الاشتراكي مسؤول ايضـــا امـــام المواطنين السوفييتيين . وهذه المسؤولية المتبادلة هي الصفة المميزة لتطور المجتمع الاشتراكي .

وليس مفاد الوحدة العضوية بين الحقوق والواجبات انه لا حقوق بدون واجبات ، وحسب ، بل ايضا ان الحق نفسه هو واجب والواجب حق . فالعمل هو حق وواجب . والتعليم ايضا : فالتعليم العام الاعدادي (لثماني سنين) هو **الزامي** في الاتحاد السوفييتي .

ان السوفييتيين لا يعارضون الحقوق بالواجبـــات ، ولا يقومون بواجباتهم عن اكراه ، بل عن يقين داخلي عميق .

منظمات الكادحين الاجتماعية

ان اتحادات الكادحين وجمعياتهم تزيد من نشاط السوفييتيين وتساعد في تكوين واظهار عاداتهم الجماعية ومؤهلاتهم التنظيمية . وتعمل المنظمات الاجتماعية كاتحادات طوعية للكادحين لها نظمها الداخلية . واوسع المنظمات الجماهيرية واكثرها عدد افراد هي النقابات ، واتحاد الشباب الشيوعي ، والتعاونيات ، والاتحادا

العلمية والتكنيكية والرياضية والثقافية . وهي تشمل عمليا جميع سكان البلد الراشدين .

النقابات . ان كل حياة الكدح التي يحياها العمال والمستخدمون متصلة بالنقابات . وفي كل مؤسسة صناعية وموقع بناء وفي كل سوفخوز ودائرة ومعهد دراسي منظمة نقابية . وتضم النقابات ٦٦ مليون شخص .

لقد رأى لينين في النقابات منظمة لتربية الكادحين وتعليمهم واشراكهم في ادارة الانتاج ، ومدرسة للتسيير الاقتصادي ، مدرسة للشيوعية .

فكيف تحقق النقابات هذه المهمات ؟

تعقد لجنة الفبركة والمصنع النقابية واللجنة المحلية للنقابة مع الادارة عقدا جماعيا . وتمنح الحق في الاشتراك في وضع خطة الانتاج (مناقشتها في اجتماع اعضاء النقابة والمطالبة بتغييرها) ، والاستماع الى بيان قائد المؤسسة عن النشاط الاقتصادى ، وعند الضرورة طرح مسألة استبدال المدير المهمل أو محاسبته نظاميا على المنظمة الاقتصادية الاعلى .

وتشرك النقابات العمال والمستخدمين في المباراة الاشتراكية سواء في داخل المؤسسة أو بين المؤسسات . وتنظم حركة الصداميين وفرق العمل الشيوعي . وتجري النقابات مع الهيئات الاقتصادية مشاهدات جماهيرية للاختراعات . وفي نشاطها مكان هام لنشر طرائق العمل الطليعية وتنظيم التعاون الخلاق بين العاملين . وتهتم اللجان النقابية برفع مرتبة تخصص العمال والمهندسين والمستخدمين . ومن وسائل اشراك الكادحين في ادارة الانتاج **الاجتماعات الانتاجية** التي تنظمها النقابات بالتعاون مع الادارة .

وعلى النقابات العناية بتحسين ظروف معيشة العمال والمستخدمين . فلجان الفبارك والمصانع ، مع ادارة المؤسسات ،

توزع المساكن على المستحقين وتتصرف بكل شبكة المصحات ودور الاستجمام ومراكز السياحة وغير ذلك . ومن صلاحياتها تدبير اماكن للاطفال في دور الحضانة ورياض الاطفال ، وتنظيم راحة التلاميذ الصيفية . وللنقابات الحق في مراقبة التجارة التابعة للدولة والتعاونيات ، ومراقبة اماكن التغذية العامة والخدمات العامة .

ولاعضاء النقابة عدد من الامتيازات بالنسبة لمن خارجها ، فمثلا ، تدفع اليهم ، بمقدار اكبر ،معونات الفقدان الموقت للمقدرة على العمل . وتدفع هذه المعونات من موارد صندوق التأمين الاجتماعي التابع للدولة ، الموضوع تحت تصرف النقابات . وتتألف هذه الموارد من مصدر واحد تقريبا هو الحسومات المقتطعة من المؤسسات والدوائر بدون اي اشتراك مالي من العمال والمستخدمين انفسهم . ويعطى اعضاء النقابة قبل غيرهم بطاقات الاقامة في دور الاستجمام والمصحات وبطاقات اقامة الاطفال في دور الحضانة ورياض الاطفـــال ومخيمات الرواد الاحداث . وفي الحالات الضرورية تقدم النقابة ، من مالها ، مساعدة مادية لاعضائها .

والنقابات قوة ثقافية كبيرة تدير قصور الثقافة والاندية والمكتبات العامة .

اتحاد الشباب . ان اتحاد الشباب الشيوعي (اختصارا : «الكومسومول») هو منظمة جماهيرية . وقد ربى الكومسومول في مدة وجوده ٧٧ مليون شخص ، وهذا يعني ان نصف عدد السكان الراشدين في البلاد قد مر بمدرسة الكومسومول .

لقد سجل الكومسومول في سجل تاريخ الاشتراكية صفحات ساطعة لا تنسى .

ففي سني الحرب الاهلية اعلن المؤتمر الاول للكومسومول في تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩١٨ على رؤوس الاشهاد : «ان الثورة المعاكسة العالمية التي تختمر في الجنوب ستلقى بيننا الرد اللائق . اننا سنبذل كل اتقادنا الثوري وكل قوانا الفتية للنضال ضدها ... فلا خطوة الى وراء !.. وعاشت السلطة السوفييتية !» وذهبت المنظمات الكومسومولية بكامل عددها الى الجبهة .

وفي سني البناء السلمي اعلن المؤتمر السادس للكومسومول في بيان سنة ١٩٢٤ : «اننا لم نتخذ هذا القرار لمجرد الكلام الجميل ولا للرغبة في حمل اجمل اسم* من بين جميع الاسماء وليس فقط لتكريم الراحل العظيم . كلا ، وانما اتخذناه لكي يتشرب جميع الشباب الكادحين في كل الشعوب التي تقطن الاتحاد السوفييتي ، مع فصيلتهم الطليعية – اتحاد الشباب الشيوعي ، بالارادة الموحدة والعزم الراسخ على ان يتعلموا العيش كما عاش لينين وان يعملوا ويناضلوا كما فعل ذلك لينين وان يحققوا الوصايا التي تركها لنا لينين» . وكان الكومسومولیون والشباب في الخطوط الامامية من المعارك الجديدة – معارك العمل والانشاء . وتلبية لنداء الحزب شادوا مباني المصانع والمحطات الكهربائية ، وشقوا الطرق الحديدية في قلب غابات التايغا والرمال الرمضاء ، وبنوا المدن الجديدة . وناضلوا بنكران ذات في سبيل الحياة الكولخوزية للقرية وامتلكوا ذرى العلم والثقافة .

وفي سني الحرب الوطنية ذهب مئات الالوف من الشبان والشابات متطوعين الى الجبهة . وكان المحاربون الشباب يكتبون

---

* يعنون به لينين ، لان اتحاد الشباب الشيوعي اطلق عليه اسم لينين (اتحاد الشباب الشيوعي اللينيني) . **المترجم** .

في طلباتهم : «اريد ان اذهب الى القتال كومسومولیا» . ومن بين ١١ الف محارب استحقوا لقب بطل الاتحاد السوفييتي ٧ آلاف شخص من الكومسومولیين أو الذين رباهم الكومسومول . وكوفيء ٣,٥ ملايين كومسومولي باوسمة ومداليات الاتحاد السوفييتي . وكانت فصائل الانصار تتألف بنسبة ٦٠ بالمئة من الكومسومولیين والشباب . وطافت في العالم كله اسماء ابناء وبنات الكومسومول البواسل الذين لا يهابون الموت . وكما تعيش الاساطير كذلك يتناقل الشعب مآثر فكتور تالاليخين ويوري سميرنوف والكسندر ماتروسوف وغفور ماميدوف وليزا تشايكينا وماريا ميلنيكايتي وابطال «الحرس الفتي» و«شرارة الانصار» .

وكان مئات الالوف من الاحداث يذهبون من مقاعد المدارس مباشرة الى اقسام المصانع ويتعلمون الانتاج بسرعة . وكان شعار الكومسومولیين : «اعمل عن نفسك وعن رفيقك الذي ذهب الى الجبهة» .

ولقد قدر الشعب جرأة الشباب وشهامته حق قدرهما . ومنح الكومسومول ثلاثة من اوسمة لينين ووسام الراية الحمراء الكفاحية ووسام راية العمل الحمراء .

ان من الصفات الخاصة بالشباب الطموح الى الانشاء والعمل الخلاق . وبايدى الشباب المجدّة يشاد الجديد من الافران العالية وافران مارتان واكبر المحطات الكهربائية في العالم وتبنى الفبارك والمصانع . وقد اخذ الكومسومول على عاتقه بناء كثير من المشروعات الهامة للخطة السبعية . واعلنت ٩٤ مؤسسة للكيمياء انشاءات كومسومولية صدامية ، منها ٣٨ مؤسسة لانتاج الاسمدة المعدنية . والكومسومول مساعد نشيط للحزب في النضال

في سبيل النهوض بالزراعة نهوضا سريعا . وفي كل مكان يبدي الكومسومول المبادرات .

يضم الكومسومول الآن اكثر من ٢١ مليون شاب وفتاة . ويشمل بتأثيره كل الشباب السوفييتي . ويقود مباشرة منظمة الاطفال الشيوعية التي تحمل اسم لينين ، منظمات الرواد الاحداث . فقد عهد الحزب للكومسومول بتربية الجيل الناشئ .

ويحاول الشباب السوفييتي والكومسوموليون ، في تفكيرهم ومطامحهم في الحياة ، السير على خطى الشيوعيين ، فيتعلمون منهم التمسك بالمبادئ والجرأة ونكران الذات في النضال من اجل الشيوعية .

المنظمات التعاونية . ليست الكولخوزات منظمات **اقتصادية** وحسب بل هي في الوقت نفسه منظمات **اجتماعية** ايضا للفلاحين السوفييتيين .

ان **الكولخوز** هو تعاونية ، اي اتحاد رفاقي طوعي للفلاحين على اساس الانتاج الجماعي والتسيير الذاتي الاجتماعي . فالكولخوزيون هم الذين يقررون ، في اجتماعاتهم العامة ، مسائل ذات اهمية حيوية كانتخاب الادارة والرئيس ولجنة التفتيش ، وقبول وطرد اعضاء التعاونية ، ونظام استخدام الموارد ومعدلات المردود وتقديرات وحدة الدفع والحد الادنى الالزامي ليوم العمل الكولخوزي وهم الذين يحددون مقادير قطع الارض الملحقة بالبيوت ، الخ .. وفي الكولخوزات الكبيرة يقرر الكولخوزيون عددا من المسائل في اجتماعات لاشخاص يعتمدونهم ويمنحونهم ثقتهم وفي اجتماعات الفرق الانتاجية . وهناك لجان دائمة للاجتماع العام . وهذا ما يسمح لجميع الكولخوزيين بالاشتراك في بحث مسائل الحياة الكولخوزية .

وقد اطلقت يد الكولخوزات الى حد واسع في تخطيط وتنظيم الانتاج في الزراعة وتربية الماشية . وهي تقرر ، بصورة مستقلة ، مهمات تنظيم وبناء القرى والدساكر وانشاء دور الحضانة ورياض الاطفال والمدارس والمستشفيات والاندية والمكتبات العامة .

وفي البلاد السوفييتية **تعاونية استهلاكية** تحسّن التجارة في القرية وتنظم تصريف فائض الانتاج الزراعي وتخدم السكان . وتضم اكثر من ٤٣ مليون مشترك . وهناك تعاونية لبناء المساكن تساعد السكان في تحسين ظروفهم السكنية .

منظمات اجتماعية مختلفة . وفي الاتحاد السوفييتي كثير من المنظمات الاجتماعية الاخرى التي تضم اناسا اما حسب المهنة أو حسب مصلحة خاصة ما (كجمعيات الصيادين والسماكين وغيرهم مثلا) . وبعض هذه المنظمات ينظم نشاط الجماهير العلمي والثقافي وهي : جمعية نشر المعارف السياسية والعلمية ، وجمعيات المعلمين والاطباء وغيرهم من العاملين في ميدان العلم ، والجمعيات العلمية التكنيكية الكثيرة العدد ، وجمعيات المبدعين والمخترعين ، واتحادات الكتاب والصحفيين والملحنين والرسامين والسينمائيين والمعماريين وغيرهم من فصائل المثقفين المبدعين .

وهناك منظمات اخرى تنظم الحركة الرياضية وتنشر المعارف الطبية وتشترك في حماية الطبيعة والاغراس .

وثمة عدد من الجمعيات الطوعية تنظم السوفييتيين للنضال في سبيل السلام واقامة الصداقة مع شعوب البلدان الاخرى . وهي : الجمعيات السوفييتية للصداقة والعلاقات الثقافية مع البلدان الاجنبية ، واللجنة السوفييتية للدفاع عن السلام ، ولجنة النساء السوفييتيات ، ولجنة منظمات الشباب في الاتحاد السوفييتي .

وكل هذه وغيرها من الاتحادات الطوعية الكثيرة تعمل على اسس النشاط الذاتي الاجتماعي ، وتشمل بنفوذها جماهير الملايين .

وترمي المنظمات الاجتماعية ، على اختلافها ، الى هدف واحد هو فى آخر المطاف تطوير مبادرة الكادحين وفعاليتهم ومساعدة الحزب الشيوعي والدولة السوفييتية في تنفيذ مهمات البنـــاء الشيوعي .

الحزب الشيوعي

ان حزب الشيوعيين الذي انشأه لينين العظيم قاد شعوب البلاد السوفييتية الى انتصار الاشتراكية ، وهو الآن يدير بناء الشيوعية بناء واسع النطاق . وبمثله العليا ونشاطه يؤثر تأثيرا عظيما في كل سير التاريخ ويبرز كاهم قوة سياسيـــة في هـذا العصر .

وبفضل الحـــزب الشيوعي الذي يقود الشعب السوفييتي بجرأة في الطرق التاريخية غير المطروقة لانشاء الحياة الجديدة ارتفعت البلاد السوفييتية الى قمة التقدم الاجتماعي . وان قوة سياسة الحزب هي في انه ينطلق من مصالح الشعب الجذرية ويعبر عن اماني ومطامح الملايين ويستند الى النظرية الماركسية ـ اللينينية .

عقل العصر وشرفه وضميره

فصيلة الشعب الطليعية . وبعد انتصار الاشتراكية انتصارا تاما ونهائيا ومع توطد وحدة المجتمع السوفييتي الاجتماعية والسياسية والفكرية ، تغير الحزب نفسـه ايضـا . فالمهمـة التاريخية للطبقة العاملة ـ وهي بناء الشيوعية ـ اصبحت مهمة جميع الناس السوفييتيين .

ان الحزب الشيوعي السوفييتي هو طليعة طبقة البروليتاريا **الكفاحية المجربة** الذي يضم ، **على اساس التطوع ، القسم الطليعي والاكثر وعيا من الطبقة العاملة والفلاحين الكولخوزيين والمثقفين في الاتحاد السوفييتي .**

لقد نشا الحزب الشيوعي السوفييتي كحزب للبروليتاريا في روسيا وكفصيلة امامية ومنظمة لها على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين . وانجب الحزب اللينيني للبلاد السوفييتية اناسا صافين صفاء البلور وثوريين متوقدين ومنظمين موهوبين ، من امثـــال كالينين ، وكيروف ، ودزيرجينسكـي ، وسفيردلـــوف ، واوردجونيكيـدزه ، وفرونـــزه ، وكوبيشيف ، وبوبنـــوف ، وبتروفسكي ، وشاوومیان ، وتشوبار ، وبلوخير ، ومياسنيكوف ، وبوستيشيف ، وكروبسكايا ، واوليانوفا ، وزمليانشكا ، وكثيرين كثيرين غيرهم . ولسوف تدخل اسماء ابناء الحزب وبناتـــه الابطال ، الى الابد ، في تاريخ النضال من اجل قضية الطبقة العاملة ومن اجل الاشتراكية والشيوعية .

الحزب يضم اكثر من ١٢ مليون عضو ومرشـــح ، اكثر من نصفهم (٥٢ بالمئة) من العمال والكولخوزيين . والقسم الاكبر من المستخدمين الداخلين في الحزب هم من المهندسين والتكنيكيين واختصاصيي الزراعة والمعلمين والاطباء وغيرهم من الكادحين بادمغتهم . ثم ان اكثر من ٧٠ بالمئة من الشيوعيين مشغولون في فروع الانتاج المادي ويعملون مباشرة في الفبارك والمصانع ومواقع البناء والنقل والكولخوزات والسوفخوزات . وفي صفوف الحزب ممثلون لاكثر من ١٠٠ قومية وشعب من قوميات وشعوب الاتحاد السوفييتي .

ويجر الحزب الشيوعي السوفييتى الجماهير وراءه ويعيش بمصالح الكادحين ويتعلم منهم ويتشاور مع الشعب في اهم المسائل . وفي هذه الوحدة المتينة مع الشعب وفي هذه الثقة الشعبية العميقة مصدر قوة الحزب الشيوعي السوفييتي التى لا تنضب .

هيبة قادة الحزب الشيوعي السوفييتي . لا تحرز طبقة في التاريخ نجاحا اذا لم يكن لها قادتها السياسيون القادرون على تنظيم الحركة وقيادتها . والطبقة العاملة التي تناضل ، كما قال لينين ، نضالا شاقا ودائبا في العالم كله في سبيل التحرر الكامل ، بحاجة الى قادة ذوي هيبة .

ان للحزب الشيوعي قادة مجربين محنكين يحققون بمهارة قيادة بناء الشيوعية الاقتصادي والسياسي والثقافي .

واكبر هيبة في الحزب هي هيبة قائده الجماعي – اللجنة المركزية . فاللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي هي بمثابة قلب ودماغ الحزب الشيوعي . وتشتغل بوضع سياسة الحزب والدولة وتحدد تطور الاقتصاد والثقافة وتهتم بازدهار الديموقراطية الاشتراكية وتربية الكادحين بروح الشيوعية وتدعيم مقدرة البلاد الدفاعية وتنظيم الصلات الودية مع البلدان الاخرى . **ان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي هي قائد جماعي للحزب والشعب السوفييتي وهيئة اركان كفاحية لقيادة بناء الشيوعية قيادة فكرية وسياسية وتنظيمية .**

وينتخب الحزب الى اللجنة المركزية خيرة الشيوعيين واكثرهم حنكة ممن يفهمون جيدا امور البناء الحزبي والاقتصادي وامور الصناعة والزراعة والثقافة والعلم والشؤون العسكرية .

ومقررات اللجنة المركزية الزامية لجميع المنظمات الحزبية ولكل شيوعي .

برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي
ونظامه الداخلي

السلاح الفكري والتنظيمي . كان الحزب الشيوعي السوفييتي ، في كل مرحلة من مراحل طريقه التاريخي ، يضع برنامجا لنفسه تحدد فيه ، على اساس علمي ، اهداف الحزب الرئيسية ووسائل بلوغها ، ويكون البرنامج اساسا لنشاط الحزب العملي .

في البرنامج الاول الذي اتخذ في المؤتمر الثاني لحزب العمال الاشتراكي-الديموقراطي الروسى سنة ١٩٠٣ دعا الحزب الطبقة العاملة وجميع كادحي روسيا الى النضال لقلب الحكم المطلق القيصري ثم اسقاط النظام البرجوازي واقامة ديكتاتورية البروليتاريا . وقد نفذ هذا البرنامج نتيجة لانتصار ثورة شباط (فبراير) ثم ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى وانشاء الدولة السوفييتية .

واقر المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي (البلشفي) في روسيا سنة ١٩١٩ البرنامج الثاني للحزب ، الذي وضع ، كالبرنامج الاول ، بالاشتراك المباشر من لينين وبقيادته . وكان هذا البرنامج يرمي الى بناء المجتمع الاشتراكي ، ولقد نفذ بنجاح ايضا .

وعلى اساس البرنامج يوضع **النظام الداخلي للحزب ـ سلاحه التنظيمي** في النضال في سبيل الشيوعية . فهو يعرّف العضوية في الحزب ، وحقوق الشيوعيين وواجباتهم ، والبناء التنظيمي للحزب ، ومبادئ الديموقراطية في داخل الحزب .

لقب سام . ان الناس لا يولدون شيوعيين ، وانما يصبحونهم بالتربية . والذي يقود الانسان الى الحزب هو الدوافع الفكرية وتفهم عدالة القضية التي يناضل من اجلها الشيوعيون .

ان الشيوعيين هم اناس ذوو عقل نير وارادة قوية وقلب رؤوم . وهم يكونون دائما حيث تكون الصعوبات على اشدها . فلقد سار الشيوعيون في طليعة العمال والجماهير الكادحة التي هبت لاسقاط سلطة الرأسماليين والاقطاعيين ، واستنهضوا الشعب لحماية منجزات ثورة اكتوبر . وكان الشيوعيون ، في اصعب ظروف السنين الاولى من بناء الحياة الجديدة ، في الاماكن التي كانت فيها تشاد الافران العالية وتؤسس المدن وتنظم الكولخوزات

ويتقرر مصير الاشتراكية . وهم الذين كانوا ، في سني الحرب الوطنية ، اول من يرمي نفسه مع القنابل اليدوية تحت الدبابات الفاشستية واول من يهوي بطيارته المحترقة على طوابير العدو ، وهم الذين عبأوا الشعب ، بعد النصر على العدو ، لترميم الاقتصاد الوطني والنهوض به .

انضم كيريل اورلوفسكي للحزب في الثالثة والعشرين من عمره . وكانت حياته كلها نموذجا في خدمة الحزب والشعب . ففي سنة ١٩١٨ هزم اورلوفسكي مع من كان تحت امرته من الانصار ، المحتلين الالمان قرب مدينة بوبرويسك . وفي العشرينيات حارب البولنديين البيض . وفي سنة ١٩٣٦ حارب في اسبانيا . وفي سنة ١٩٤١ عاد اورلوفسكي من جديد الى غابات بيلوروسيا . وكانت تلك سني نضال ضد القوات الفاشستية وعشرات من الهجمات الجريئة . وقد انتهت احدى المعارك نهاية فاجعة اذ اصيب بجرح بالغ وبترت له يد واجريت على اليد الاخرى عملية معقدة وفقد السمع فقدانا شبه تام .

وكتب العقيد اورلوفسكي الى منظمته الحزبية : «ان عيوبي الجسدية لا تسمح لي بعد الآن ان اكون عسكريا . ولكني نشأت على يد الحزب الشيوعي وليست عندى في الدنيا مسرة اكبر من العمل لخير الوطن الحبيب وهدف آخر غير هذا الهدف . والآن يقوم امامي السؤال : هل قدمت كل شيء للوطن وللحزب ؟» وفي سنة ١٩٤٥ اتى من موسكو الى قرية ميشكوفيتشي البيلوروسية التي خربها الفاشست وترأس كولخوز «الفجر» . ومن جديد عاد الى العمل الصعب والدراسة والليالي الساهرة . واصبح كولخوز «الفجر» الآن من خيرة كولخوزات

البلاد . وفي هذا فضل الشيوعي اورلوفسكي بطل الاتحاد السوفييتي وبطل العمل الاشتراكي .

واليكم مثالا آخر . منذ السن السادسة عشرة عملت الحائكة يوليا فيتشيروفا في مصنع حياكة «سافنو» في منطقة ايفانوفو . وكانت حياتها كلها مرتبطة بالمصنع الذي اصبح حبيبا اليها .

ظل المصنع مدة طويلة يعاني صعوبة خاصة في بعض العمليات . والى هنا طلبت الحائكة الشابة ارسالها للعمل . وكان عليها ان تدرس الآلات الجديدة عليها وان تشتغل في ضبطها وان تتعلم طرقا للعمل اخرى . ومر شهر وتجاوزت ، المعدل في عملها . ولحق بها الآخرون . وسرعان ما كف هذا القطاع عن ان يكون قطاعا متأخرا .

وكانت الشيوعية فيتشيروفا قد بدأت تفكر بشيء آخر : كيف تحقق في قسمها على خير وجه مكننة مجموع العمليات وازالة فترات التوقف للآلات ؟ وبدأت تبحث طويلا وتفكر وتدرس كل حركة عند الآلة . ومن جديد نجحت النجاح الذي تستحقه . وفي صيف ١٩٥٩ بلغت يوليا فيتشيروفا في انتاجية العمل على آلات النسيج المستوى المقرر لسنة ١٩٦٥ . وعكف الآخرون على ما بدأته الحائكة . وقبيل المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي كان اكثر من ٢٠ الف حائكة في منطقة ايفانوفو وحدها قد تعلمن خبرة يوليا فيتشيروفا .

ان قبول الاعضاء في الحزب يجري على الاساس الفردي فقط . جاء في النظام الداخلي : «يمكن ان يكون عضوا في الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي كل مواطن من مواطني الاتحاد

السوفييتي يعترف ببرنامج الحزب وبنظامه الداخلي ، ويشترك بنشاط في بناء الشيوعية ، ويعمل في احدى المنظمات الحزبية ، وينفذ قرارات الحزب ، ويدفع اشتراكات العضوية» . ويقبل الاعضاء الجدد من بين المرشحين الذين قضوا مدة الترشيح المقررة ومدتها سنة واحدة . ويمكن ان ينتسب للحزب من بلغ السن الثامنة عشرة من عمره . ويقبل الشباب حتى السن الثالثة العشرين في الحزب الشيوعي السوفييتي بواسطة الكومسومول فقط .

لقد بلغ عدد الذين اعدهم الكومسومول ، في مدةوجوده ، واوصى بقبولهم في الحزب الشيوعي ، زهاء سبعة ملايين شخص . وكل كومسومولي يحلم بان يصبح شيوعيا . جاء في النظام الداخلي للكومسومول : «ان الكومسومولي يرى من الشرف العظيم له ان يصبح عضوا في الحزب الشيوعي» . ويعد الكومسوموليون انفسهم ، بكل نشاطهم ودراستهم ، للانتساب لصفوفه .

ان المطلب الاساسي الذي يطلبه الحزب الشيوعي الآن من اعضائه هو **الاشتراك النشيط في بناء الشيوعية** . وعلى الشيوعي ان يكون قدوة في الموقف الواعي من العمل وفي الروح المبدئية السامية والنظافة الاخلاقية وعدم المهاودة تجاه النواقص وان يكون ذا حس مرهف واذن صاغية مع الناس .

لا يجوز الاعتقاد ، طبعا ، بان بطاقة الحزب تخلص الانسان من عيوبه . فالشيوعيون ليسوا معصومين . بل ان بينهم ، فضلا عن ذلك ، اناسا غير جديرين بلقب الشيوعي . والحزب يتخلص من هؤلاء بحزم . وفي الوقت نفسه يقوم بعمل تربوي بين اعضائه .

ان في **وحدة الحزب الفكرية والتنظيمية** ، وفي تنفيذ الشيوعيين لواجبهم بوعي وطواعية ، مصدر قوة ومنعة الحزب الشيوعي السوفييتي .

وتكفل للشيوعي حقوقه امكانية الاشتراك النشيط في حياة الحزب . فلعضو الحزب الحق في ان ينتخب وينتخب الى الهيئات الحزبية . ويشترك في مناقشة مسائل سياسة الحزب ونشاطه العملي مناقشة حرة وجدية في الاجتماعات الحزبية والصحافة الحزبية . ولعضو الحزب الشيوعي السوفييتي الحق في انتقاد اي شيوعي ، مهما كان مركزه ، والمطالبة في الاشتراك شخصيا في الاجتماع أو الجلسة التي تبحث فيها مسألة نشاطه أو مسلكه . ويمكن للشيوعي ان يقدم سؤالا أو بيانا الى اي مرجع حزبي ، حتى الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي .

منظمات الحزب في القاعدة . يتحد الشيوعيون حسب مكان عملهم في **منظمات القاعدة للحزب** ، ويمكن انشاؤها اذا توفر لا اقل من ثلاثة اعضاء في الحزب . وعندما انعقد المؤتمر الثاني والعشرون كان مجموع ما في الحزب من منظمات القاعدة يناهز ٣٠٠ الف . وهذه المنظمات ، هي التي تشكل اساس الحزب .

واعلى هيئة لمنظمة القاعدة هي **الاجتماع الحزبي** الذي يعقد في الشهر مرة واحدة على الاقل . ويدعى اللاحزبيون ايضا الى حضور الاجتماعات الحزبية العلنية . ولتسيير الامور اليومية الجارية ينتخب الشيوعيون كل سنة ، في اجتماع للمحاسبة والانتخاب ، **مكتبا** أو **لجنة** يرأسهما **امين سر** . وتحل جميع القضايا الهامة الجارية من قبل امين السر لا بالانفراد بل بالاشتراك مع الاعضاء الآخرين لمكتب الحزب ، أي **بصورة جماعية** .

يقصد الناس اعضاء المكتب وامناء سر اللجان الحزبية والشيوعيين العاديين ، للاستفادة من نصائحهم ولطلب العون منهم في مختلف الشؤون . ويهتم الشيوعيون بكل شيء : باعادة تنظيم قسم مصنع والوضع في روضة اطفال تابعة للمصنع ، باقتراح لتحسين الانتاج وسوء الحال في اسرة من الاسر ، بعقد حشد عام والنظر في مظلمة مرفوعة ضد احد ، بمسألة السكن وتنظيم اوقات الراحة . ولا يهتمون بهذه الامور مجرد اهتمام فقط ، بل انه بناء على اقتراح من مكتب الحزب أو كل منظمة القاعدة يجري اشراك الادارة او اللجنة النقابية أو لجنة الكومسومول في النظر في هذه او تلك من المسائل الهامة . وتتخذ المقررات المناسبة التي يراقب مكتب الحزب تنفيذها .

والشيء الرئيسي في نشاط منظمة القاعدة هو العمل مع الناس وتربيتهم السياسية والاخلاقية وتقديم المعونة الشاملة في تنظيم العمل والمعيشة اليومية . وتلعب الدور الرئيسي في هذا ، **القدوة الشخصية** للشيوعي والتنفيذ النموذجي **للمهمات الحزبية** .

والحزب الشيوعي هو منظمة مركزية متناسقة . وقد انشئت المنظمات الحزبية حسب مبدأ المناطق واماكن العمل . وهذا يعني ان جميع الشيوعيين ينتسبون الى منظمات الحزب في القاعدة حسب مبدأ مكان العمل ، اي حيث يكونون في المصانع والفبارك والكولخوزات والسوفخوزات ووحدات الجيش السوفييتي والدوائر والمعاهد الدراسية وغير ذلك . ثم ان منظمات الحزب في القاعدة الموجودة في منطقة معينة تنتسب بدورها الى منظمات الحزب في المناطق والمدن والدوائر ، التي تتحد ،

حسب مبدأ المناطق ، في منظمات المقاطعات والاقاليم والجمهوريات . وقد نشأ هذا البناء للحزب تاريخيا وهو يلعب دورا هاما في النضال في سبيل بناء المجتمع الشيوعي .

المركزية الديموقراطية . ان المبدأ الاساسي لبناء الحزب هو **المركزية الديموقراطية** التي تعني :

آ – ان هيئات الحزب القيادية كلها ، من اسفل الى اعلى ، تنتخب انتخابا ؛

ب – ان هيئات الحزب تقدم الحساب بصورة دورية امام منظماتها الحزبية وامام الهيئات التي اعلى منها ؛

ج – ان الاقلية تخضع للاكثرية وتدين لها بالطاعة الحزبية الصارمة ؛

د – ان مقررات الهيئات الاعلى الزامية حتما بالنسبة للهيئات الادنى .

وينص برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي ونظامه الداخلي على تدعيم الاصول اللينينية لحياة الحزب . واهم هذه الاصول تطوير **الديموقراطية في داخل الحزب** وتعزيز **القيادة الجماعية** .

وتساعد جماعية القيادة في جمع معارف كثير من الناس وخبرتهم ومواهبهم في كل واحد . وليس عبثا ان سمى لينين الحزب بالقائد الجماعي للجماهير . وتدعيما لجماعية القيادة وتطويرا للديموقراطية في داخل الحزب ، جعل الحزب من دأبه تجديد جميع هيئاته المنتخبة تجديدا منتظما ومستمرا . ومع هذا يحافظ ، طبعا ، على الاستمرار المترابط للقيادة .

ان الظروف الملائمة مضمونة في الحزب الشيوعي لبحث مسائل سياسة الحزب ونشاطه العملي بحثا حرا وجديا . ولهذا الغرض رفع من شأن اجتماعات الحزب ومجالسه العامة ومؤتمراته .

ويتطور بجميع الوسائل الانتقاد والانتقاد الذاتي بوصفهما الطريق المؤدي الى الكشف عن الاخطاء والنواقص ، والوسيلة المفضية الى تربية الكادرات تربية صحيحة . ويجري باستمرار تخفيض عدد الموظفين الحزبيين فيما يشرك الوف الشيوعيين في العمل في الحزب على اساس انهم خارج الكادر .

وتجتمع الديموقراطية في داخل الحزب وجماعية القيادة مع حسن تنظيم الحزب ووحدته ، مع الطاعة الحزبية الصارمة .

وكل هذا يجعل من الحزب **اعلى شكل للتنظيم الاجتماعي والسياسي** . واذ يتقن الحزب الشيوعي السوفييتي بناءه ويطور طرائق تسييره الذاتي ، يضرب المثل للمنظمات الاجتماعية الاخرى .

وتعقد مؤتمرات الحزب الشيوعي السوفييتي كل اربع سنين مرة على اقل تقدير ، ويحق لها ان تعيد النظر في برنامج الحزب ونظامه الداخلي وان تغيرهما وتقرهما وان تسمع وتصادق على تقارير اللجنة المركزية ولجنة التفتيش المركزية وغيرهما من المنظمات المركزية ، وتحدد خط الحزب في مسائل السياسة الداخلية والخارجية وتنتخب هيئات الحزب المركزية .

وفي الفترات بين المؤتمرات تقود اللجنة المركزية كل نشاط الحزب . وتجتمع في دورات عامة كل ستة اشهر مرة على الاقل . وتنتخب اللجنة المركزية : مكتبا سياسيا لقيادة عمل الحزب بين الدورات ، وامانة سر لقيادة العمل الجاري . وتنتخب اللجنة المركزية امينا عاما لها .

والهيئات العليا للحزب الشيوعي السوفييتي هي هيئات قيادة سياسية وتنظيمية للحزب والبلاد وكل قضية البناء الشيوعي .

نمو دور الحزب الشيوعي السوفييتي
في بناء الشيوعية

ان الحزب الشيوعي هو فصيلة الشعب السوفييتي الامامية والواعية . في اعقد الظروف لا يفقد الافق العام ويرى بوضوح الطريق المؤدي الى الشيوعيـــة ويقود جماهير الملايين في هذا الطريق . وامكانية قيام الحزب بقيادة المجتمع العلمية تأتيه من **النظرية الماركسية ـ اللينينية** . وتكون النظريـة الثوريـة في نشاط الحزب الشيوعي متحدة في وحدة لا تنفصم مع الممارسة .

الاتجاهات الرئيسية للقيادة .

قبل كل شيء تزداد المطاليب بقيادة الاقتصاد الاشتراكي **وبالعمل التنظيمي الاقتصادي** . وستطبـق في الاقتصـاد الوطني الخطوط الاوتوماتيكية الجديدة وآلات الحسـاب الايليكترونيـة والطاقة الذرية وغيرها من منجزات العلم والتكنيك . ويتطلـب التطور العاصف للقوى المنتجة تنظيما عاليا لها وتوزيعا مدروسا وتجديدا وتطويرا مستمرين .

وليس من الصعب ادراك مدى ازدياد دور القيادة الحزبية في هذا الصدد .

ولقد حقق الحزب الشيوعي في السنين الاخيرة انعطافا شديدا نحو مسائل قيادة الاقتصاد الوطني الملموسة والعلمية .

وبشكل منتظم تبحث في دورات اللجنة المركزية مهمات البناء الشيوعي العاجلة .

وتعلم اللجنة المركزية ، على اساس النماذج المثلى ، المنظمات الحزبية وجميع الشيوعيين ، تسيير الاقتصاد الاشتراكي بشكل صحيح . ويقدّر نشاط الشيوعيين وهيئات الحزب على اساس النتائج الملموسة التي تحرزها المصانع والانشاءات والكولخوزات والسوفخوزات والمؤسسات العلمية والمقاطعات والجمهوريات . ولقد كان لينين يقول ان العمل الاقتصادي هو امتع سياسة للشيوعيين .

ان بناء الشيوعية يتطلب تقوية **العمل الايديولوجي** في الجماهير . والشيء الرئيسي في الوقت الحاضرهو تسليح كل كادح سوفييتي بمعرفة برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي وحسن تنفيذ الخطة العظيمة . فالعمل الايديولوجي هو عامل متزايد القوة للبناء الشيوعي . ونشاط الحزب الايديولوجي متصل اتصالا وثيقا بنشاطه التنظيمي الاقتصادي : فنتائج العمل الايديولوجي تنعكس انعكاسا مباشرا في نجاحات الصناعة السوفييتية وفي البناء والزراعة وفي تحسين معيشة الشعب . وبالعكس فان النجاحات الاقتصادية تزيد من فعالية العمل الايديولوجي للحزب والمنظمات الاجتماعية .

طرائق القيادة الحزبية . كلما ازداد وعي الجماهير الكادحة ازداد تنفيذها لخطط الحزب نجاحا وازداد موعد الشيوعية اقترابا

ولهذا فان اهم طريقة للقيادة الحزبية هي **تطوير فعالية الكادحين الخلاقة ونشاطهم الذاتي** بكل الوسائل .

ولهذا يضع الحزب مهمات واضحة للشعب وقريبة اليه ، **ويقنع** الجماهير بصحة سياسته ، ويساعدها في **استيعاب خبرة** احسن الكادحين . ويدعم الحزب الشيوعي دعما قويا الحركة العاملة في سبيل العمل الشيوعي ، ونشاط الكادحين في الابداع والاختراع ، ويشركهم في ادارة الدولة وفي وضع الخطط .

عندما نوقش مشروع برنامج الحزب عقد في البلاد اكثر من ٥٠٠ الف اجتماع . وحضرها زهاء ٧٣ مليون شخص وزاد عدد المتكلمين على ٤ ملايين و ٦٠٠ الف . وورد الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي والى الهيئات الحزبية المحلية والى مكاتب تحرير الجرائد والمجلات والاذاعة والتلفيزيون ، اكثر من ٣٠٠ الف رسالة ومقالة .

ويتوقف نجاح العمل التنظيمي الى حد كبير على نوعية الادارة . ولهذا يوجه الحزب عناية كبيرة **لاختيار وتربية الكادرات** . وعندما توصي الهيئات الحزبية بتشغيل شخص في عمل مسؤول ، تنطلق في ذلك من صفاته العملية والسياسية وتأخذ بعين الاعتبار صفاته الاخلاقية . ويهتم الحزب بتأمين الجمع الصحيح بين العاملين المسنين المجربين الذين صلب عودهم في النضال في سبيل خط الحزب وبين المنظمين الشباب النشيطين الذين يعرفون عملهم جيدا .

ان قادة الجماهير الحقيقيين لا ينفصلون عن الحياة ويفطنون دائما الى حاجات الشعب . ويمتازون باستقلال الذات وبتطبيق خط الحزب بشكل خلاق وبحسن ضبط الامور وتنظيم الناس .

ويناضل الحزب ضد التحجر والبيروقراطية في القيادة ويلوم من ينتظر الاوامر العليا لدى كل مناسبة .

والتحقق من التنفيذ هو طريقة هامة في قيادة البناء الشيوعي . ويجري تنفيذه بواسطة هيئات المراقبة الشعبية ويقوم نظام المراقبة على اساس الفكرة اللينينية القائلة بالمراقبة ومشاركة جماهير الكادحين الواسعة فيها .

ولا تقتصر
على التحقق والمعاقبة بل تسعى ايضا الى درء امكانية وقوع سوء التصرف وتربي الناس .

ان جيش العاملين في المراقبة الحشعبية لا يعد ولا يحصى . ففيه الكادحون العاديون والمراسلون العماليون والريفيون والمشتركون الشباب في مراكز «الاضواء الكشافة الكومسومولية» ، – وبكلمة ، كل من لا يهاود في النواقص والبيروقراطية وكل من يرى من واجبه الحصول على نتائج كبيرة في العمل وعلى اشغال منسقة لجميع حلقات جهاز الدولة السوفييتي .

ويقود الحزب الشيوعي السوفييتي البناء الشيوعي بواسطة **منظمات الدولة والمجتمع** . ولا يأمر الحزب هذه المنظمات ولا يحل محلها . بل انه يحدد المهمات الاساسية لكل منظمة ومكانها في الجبهة المشتركة للنضال في سبيل الشيوعية .

وبقيادة الحزب الشيوعي السوفييتي المباشرة يعمل ايضا الكومسومول اللينيني المساعد النشيط للحزب واحتياطيه .

ولقد ترعرع وتربى جيل كامل في القضايا التي عهد بها الحزب الى الكومسومول بعد المؤتمر العشرين . ففي حساب

الكومسومول ملايين الهكتارات من الاراضي البكر والبور المستصلحة ، وعشرات الافران العالية وافران مارتان وماكنات التصفيح ومؤسسات الصناعة الكيميائية . وساعد الكومسموليون في تشغيل الوف الكيلومترات من انابيب الغاز والخطوط الحديدية وخطوط الطاقة الكهربائية قبل الموعد .

ان الحزب يتقن دائما طرائق قيادته للمجتمع الذي يبني الشيوعية .

فلنتعرف الآن بتفصيل اكبر على برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي وعلى مشاريع الحزب ولنر كيف يبني الشعب السوفييتي الشيوعية بقيادة الحزب .

الهدف العظيم

تحول الاشتراكية الى الشيوعية

خصائص الانتقال الى المرحلة العليا للشيوعية . ان الاشتراكية هي المرحلة الاولى للشيوعية ، وبين مرحلتي اسلوب انتاج واحد لا يوجد طبعا سور حجري . ولكن الانتقال الى المرحلة العليا لا يمكن ان يحدث دفعة واحدة ، عن طريق انقلاب واحد : من السذاجة ان نتصور اننا في ذات يوم من ايام المستقبل ننام ونحن في ظل النظام الاشتراكي ثم نستيقظ فاذا بنا اصبحنا في النظام الشيوعي . كلا ، ان هذا الانتقال هو عملية طويلة . فالشيوعية تنشأ بالتدريج من الاشتراكية . ولهذا لا حاجة ، من اجل انشائها ، الى تحطيم كل شيء وبناؤه من جديد : وانما يتطلب الامر تطوير الاساس الانتاجي والعلاقات الاجتماعية للاشتراكية واتقانها واذا وجب الامر فتغيير شكلها .

ان الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية لا يحتاج الى تحطيم جذري لكل نظام الحياة الاجتماعية . وانما الاشتراكية هي التربة الصالحة للشيوعية . وابتداء من انتصار الثورة الاشتراكية تظهر في المجتمع براعم الشيوعية التي تكبر باستمرار .

كان ماركس ولينين يسميان الاشتراكية بـ «الشيوعية غير الناضجة» . أما النضج فطريقه واحد : هو النمو والتطور .

واذ تنشأ الشيوعية مباشرة من الاشتراكية ، تبذهـا في الوقت نفسه من جميع النواحي . وتحدث التغيرات **الكيفية** في الاقتصاد وفي العلاقات الاجتماعية وفي الوعي وفي نفسية الناس . ولكن هذا الانقلاب الكيفي يتم بالتدريج ، عن طريق تطوير واتقان الاقتصـاد الاشتراكي والعلاقات الاجتماعية ونمو وعي الجماهير الشيوعي .

ولا يعني التدرج ، في اي حال من الاحوال ، البطء . بل بالعكس كلما دخل الاتحاد السوفييتي في الشيوعية اكثر كان تقدمه الى امام اسرع ، وستزداد وتائر البناء الشيوعي طول الوقت .

ان تحول الاشتراكية الى الشيوعية هو **عملية موضوعية وطبيعية** ولهذا فلا بد ، في بناء المجتمع الشيوعي ، من التقيد الشديد للغاية بالتتابع : فلا يجوز استسباق الامور ولا التخلف في تحقيق هذه أو تلك من التحويلات الضرورية . وقد كان لينين يعلمنا ان نكون واقعيين في السياسة . ومع ان الحزب الشيوعي يحسن استشفاف المستقبل فانه لا ينفصل عن الارض ولا بتجاهل ابدا ظروف الحياة الواقعية .

ثم ان تدرج وتواصل تحول الاشتراكية الى الشيوعية لا يعنيان انه يحدث من تلقاء ذاته . كلا ، وانما يتطلب بناء الشيوعية حلا فعالا وخلاقا للمسائل القائمة امام المجتمع . ان الشيوعية تشاد بنشاط الكادحين الواعي والهادف في الاتحاد السوفييتي بقيادة الحزب الشيوعي .

فما هي المهمات الرئيسية التي ينفذها الشعب لبلوغ الهدف المرسوم ؟

المهمة الثالوثية . ان انتـاج الخيرات المادية هو اساس المجتمع . وبالتالى فان اول مهمة لبناء الشيوعية هي **انشاء القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية** . وهذه مهمة اولى ولكنها

ليست وحيدة . فمن الواضح ان من الضروري لانتصار الشيوعية **تكوين علاقات اجتماعية شيوعية** . وهذه هي المهمة الثانية لبناء المجتمع الشيوعي . وبما ان الهدف النهائي لكل التحول الشيوعي هو تطوير الشخصية من جميع النواحي فان المهمة الثالثة تكون **تربية الانسان الجديد** .

ان اول نظرة تكفي لان يرى المرء الترابط الوثيق بين المهمات الاساسية لبناء الشيوعية . فببناء المصانع والفبارك الجديدة وزيادة الثروة الاجتماعية يهيء الشعب السوفييتي الظروف اللازمة للانتقال الى المبدأ الشيوعي للعمل والتوزيع ، أي انه يستكمل العلاقات الاجتماعية . ويجر تطور العلاقات الاجتماعية وراءه تحول وعي الناس وتربية الصفات الاخلاقية الجديدة . ثم ان تكوين العلاقات الاجتماعية الشيوعية وتربية الانسان الجديد يؤثران بدورهما اقوى التأثير في تطور القوى المنتجة .

ان احد الاتجاهات الاساسية في تكون العلاقات الاجتماعية الشيوعية اتقان ادارة الاقتصاد الوطني . فمن الواضح دون كلام باي مدى من النجاح ستشاد القاعدة المادية التكنيكية ما دام المجتمع قد استطاع في الوقت المناسب وبدقة ان يحسب حساب متطلبات الانتاج النامي وان يجد الاشكال الفعالة لادارة الاقتصاد الوطني .

ان القوى المنتجة الجبارة الخاصة بالشيوعية لا توهب بـ « لمسة لخاتم سليمان » ، وانما هي تنشأ بنتيجة عمل دائب من ملايين السوفييتيين الذين يقودهم حزب الشيوعيين .

ان ترابط ووحدة المهمات الاساسية الثلاث لبناء الشيوعية هما من القوة بحيث تسمى **بالمهمة الثالوثية** .

تناقضات النمو وصعوباته . منذا الذي لا يرى ان بنـاء المجتمع الجديد هو قضية بالغة التعقيد : فان نشوء الجديد يرتبط دائما بتذليل التناقضات وتحطيم اشكال الحياة القديمة المعتـادة المتكالبة التي كانت في زمن من الازمـان تلعب دورا ايجابيا ثم اصبحت تعيق التطور .

ان تناقضات الاشتراكية تختلف عن تناقضات الرأسمالية . انها تناقضات نمو متصلة بالنهوض السريع للاقتصاد الاشتراكي وبنمو حاجات الشعب المادية والثقافية ، تناقضات بين الجديد والقديم ، بين الطليعي والمتخلف .

في المجتمع الرأسمالي يتحول التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج ، حتما ، الى نزاع لا يمكن ان يحل ضمن اطار الرأسمالية ويؤدي الى هلاكها . أما في الاشتراكية فسيطرة الملكية الاجتماعية تنفي وقوع نزاع بين القوى المنتجة وعلاقـات الانتاج . ان الملكية الاجتماعية تخلق امكانيات ملائمة لنمو القوى المنتجة . ففيم اذن جوهر تناقضات اسلوب الانتاج الاشتراكي ؟ انه في كون بعض حلقات علاقات الانتاج تتأخر مع تطور القوى المنتجة . واستبدال حلقـات باخرى لا يغير شيئا من جوهر العلاقات الاشتراكية ، بل يطورها فقط ويغنيها . اما التناقضات نفسها فتحل بنجاح من قبل المجتمع وترفعه الى درجة جديدة من التطور .

ان محطات الماكنات والجرارات لعبت في زمن من الازمان دورا ايجابيا وساعدت الفلاحين على الانتقال الى طريق الانتاج التعاوني وكانت نقاط ارتكاز للدولة في القرية . ولكنها مع الزمن استنفدت نفسها ولم تعد تساعد في نهوض الانتاج الزراعي ، لانها اصبحت تعيق الكولخوزات القوية عن التصرف بالمعدات التكنيكية حسب

مشيئتها : فكأنما كان للارض صاحبان لا ينسقان اعمالهما دائما . وقد كشف الحزب في الوقت المناسب عن هذا التناقض وحله بنجاح : فصدر قانون بتصفية محطات الماكنات والجرارات وبيع المعدات التكنيكية الزراعية للكولخوزات .

ان التناقضات لا تذلل ابدا بصورة اوتوماتيكية بل في النضال ضد روح المحافظة والتحجر والتخلف .

وفي المجتمع السوفييتي نوع آخر من الصعوبات ايضا . يجب مثلا انفاق موارد كبيرة على تدعيم الدفاع عن البلاد . وهذا يلقي عبئا معينا على ميزانية الاقتصاد الوطني . ولكن الاتحاد السوفييتي مضطر الى انفاق موارد على تسليح الجيش بالاسلحة الحديثة . وما دام هناك خطر هجوم حربي من جانب الدول الامبريالية يجب ابقاء البارود جافا .

وهناك صعوبات ذات طابع موقت : نقص في السلع التموينية مثلا . لقد احرزت زراعة الاتحاد السوفييتي في السنين الاخيرة نجاحات هامة . ولكن سكان البلاد يزدادون بسرعة . ومع نمو ايرادات الكادحين يزداد الطلب على اللحم والزبدة وغيرهما من المواد التموينية . وانه لتتخذ تدابير حازمة للقضاء في اقصر مدة ممكنة على تخلف الانتاج الزراعي عن طلب السكان وحاجات الصناعة . ولا شك في ان هذه المهمة ستنفذ بنجاح في اقرب وقت بجهود الفلاحين الكولخوزيين وعمال السوفخوزات وجهود الشعب السوفييتي بأسره .

وبالتغلب على الصعوبات يحرز الشعب والحزب نجاحات جديدة محسوسة في بناء الشيوعية .

القاعدة الاقتصادية للشيوعية

ان بناء الشيوعية هو قبل كل شيء انشاء قاعدتها المادية التكنيكية . وان كلمة «قاعدة» (اساس) تدل بحد ذاتها على انه بدونها لا يمكن حتى مجرد التفكير ببناء الشيوعية . وهل يمكن تشييد بناء بدون اساس ؟

ويفهم من **القاعدة المادية التكنيكية** للمجتمع مستوى من تطور الانتاج يقوم عليه النظام الاجتماعي المعني ويتطور من جميع النواحي

وبديهي ان القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية ، المطلوب منها ان تؤمن الوفرة من الخيرات المادية والروحية ، يجب ان تفوق على كل ما سبقها حتى الآن . انها تفترض كهربة البلاد كهربة تامة ومكننة الانتاج واتمتته بجميع حلقاته واستعمال الكيمياء على نطاق واسع في الاقتصاد الوطني والجمع بين العلم والانتاج جمعا عضويا واستخدام جميع الموارد المتوفرة استخداما سديدا ومستوى للكادحين ثقافيا وتكنيكيا عاليا ونموا لا سابق له في انتاجية العمل .

ان انشاء القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية هو المهمة الاقتصادية الرئيسية للحزب الشيوعي والشعب السوفييتي ، وتنفيذها يمكّن الاتحاد السوفييتي :

من ان يشغل المرتبة الاولى في العالم من حيث الانتاج بالنسبة للفرد الواحد من السكان ،

ومن ان يضمن اعلى انتاجية عمل في العالم وان يحول العمل الى مصدر للبهجة والالهام والابداع ،

ومن ان يضمن اعلى مستوى معيشة لجميع السكان وان يخلق الظروف اللازمة للانتقال فيما بعد الى التوزيع حسب الحاجة ،

ومن ان يحول علاقات الانتاج الاشتراكية الى شيوعية وان ينشئ مجتمعا لاطبقيا وان يقضي على الفروق الجوهرية بين المدينة والقرية وفيما بعد بين العمل العقلي والعمل الجسدي ،

ومن ان يبقى الدفاع الوطني في مستوى يسمح بقصم ظهر كل معتد يجرؤ على التحرش بالاتحاد السوفييتي والعالم الاشتراكي .

اهم ما يجب لانتصار النظام الاجتماعي الجديد

خمسة بلدان صناعية جديدة . ما هو مستوى الانتاج الصناعي والزراعي الضروري لانشاء القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية ؟

على هذا السؤال تجيب الخطة المدروسة بعمق وشمول للتنمية الصناعية والزراعية ، التي اعطيت اتجاهاتها الاساسية في برنامج الحزب الشيوعى السوفييتي .

باية طريقة اذن سيتم بلوغ هذا النمو للانتاج في جميع فروع الصناعة والزراعة ؟ قد يبدو ان ابسط هذه الطرق هو توسيع الانتاج : فاذا اردت كثيرا من مختلف انواع المنتجات

فابن المزيد من المصانع والفبارك والمناجم على اختلافها وزد مساحة الاراضي المزروعة وعدد رؤوس الماشية وغير ذلك .

ولكن اذا سرنا في هذا الطريق ، اي اذا رحنا نطور الانتاج بالعرض فقط ، كان هذا معناه ان بناء الشيوعية سيتطلب منا وقتا طويلا جدا . فمضاعفة المؤسسات الصناعية ، حتى بالوتائر العالية الحالية للبناء ، ستتطلب وحدها عشرات السنين . هذا مع العلم ان مضاعفة الانتاج لا تعني الوفرة .

ثم ان القضية ليست في المدة فقط . فهناك مسألة اخرى ليست اقل تعقيدا : من اين تؤخذ عشرات الملايين الجديدة من الايدي العاملة لخدمة هذا العدد من المؤسسات ؟ واذن فان زيادة كمية المصانع والفبارك زيادة بسيطة غير كافية لانشاء القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية .

فهل هناك طريق آخر الى الوفرة ؟ نعم .

لنتذكر ما الذي اتاح للرأسمالية ان تثبت قدمها كتشكيلة اجتماعية اكثر تقدمية من الاقطاعية . ان التاريخ والاقتصاد السياسي يجيبان على النحو التالي : الذي اتاح للرأسمالية ذلك انها ، قبل كل شيء ، توصلت الى انتاجية اعلى للعمل الاجتماعي .

والاشتراكية ، ومن باب اولى – الشيوعية ، اذ تسمح باستخدام جميع الموارد المادية والبشرية التي يملكها المجتمع استخداما سديدا ، تتيح امكانيات لنمو انتاجية العمل لا ترى في المجتمع الرأسمالي .

نمو انتاجية العمل . حتى سنة ١٩٨٠ سيزداد عدد العاملين في الاقتصاد الوطني ٤٠ بالمئة تقريبا . اما المنتوج الاجمالي (المنتوج الاجتماعي) للاقتصاد الوطني فسيزداد خلال الفترة نفسها خمسة اضعاف تقريبا . وبنفس المقدار سيزداد

الدخل القومي للاتحاد السوفييتي . وهكذا فان تسعة اعشار الزيادة في الدخل القومي ستؤمن من زيادة انتاجية العمل ، والعشر الباقي فقط من نمو عدد العاملين في الانتاج .

لو ان انتاجية العمل بقيت في مستواها اليوم لتطلب بلوغ الحجم المرسوم للانتاج الصناعي زيادة عدد عمال الصناعة وحدهم الى ١٥٠ مليون شخص (مع ان عددهم في نهاية سنة ١٩٦٠ بلغ ١٨,٦ مليونا) .

ولكن في الوقت الذي يكون فيه لنمو عدد العاملين في الاقتصاد الوطني حد يقف عنده (وهذا الحد يتوقف مباشرة على عدد السكان القادرين على العمل) ، فان انتاجية العمل ، في ظروف الاشتراكية ، ومن باب اولى — في ظروف الشيوعية ، يمكن ان تزداد الى ما لا حد له . **ان نمو انتاجية العمل هو المصدر الاساسي لتطور الانتاج الاجتماعي .**

ان السوفييتيين يأخذون دائما واينما كانوا بنصيحة لينين القائلة : «ان انتاجية العمل هي ، في آخر الحساب ، الشيء الاهم والرئيسي لانتصار النظام الاجتماعي الجديد» . ان نمو انتاجية العمل هو علامة النجاح الرئيسية في انشاء القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية .

وفرة الطاقة

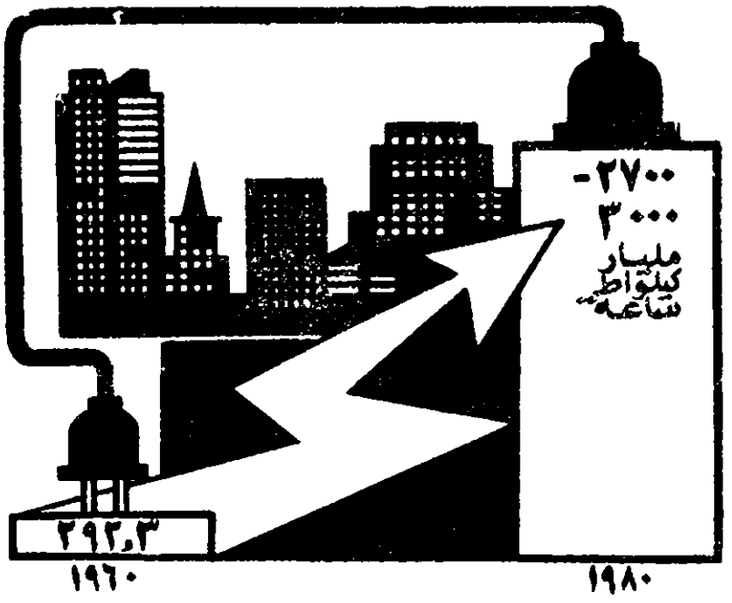
الكهربة التامة للبلاد . ان الطاقة التي يحصل الانسان عليها بطرق مختلفة والتي يروضها لخدمته تنطلق الى جميع الجهات في خطوط الكهرباء البعيدة المدى وتقوم باعمال لا يحصى لها عد وتشترك في جميع الامور : في الامور التي تتطلب القوة الخشنة وفي الامور التي تتطلب ادق الوظائف وانعم اللمسات .

ولسوف يستخدم في تكنيك الشيوعية استخداما تاما م تمتاز به الطاقة الكهربائية من افضليات هائلة تتلخص في انها (اي الطاقة الكهربائية) تتحول بسهولة الى انواع الطاقة الاخرى (الميكانيكية والحرارية والكيميائية) ، وتخضع الى التقسيم الذي لا نهاية له (الامر الذي يمكّن من استخدامها في مختلف الماكنات وادق الاجهزة) ، ويمكن نقلها الى مسافات بعيدة (الامر الذي يساعد في توزيع الانتاج توزيعا افضل) . وكل هذا يجعل الطاقة الكهربائية اســاس التقدم التكنيكــي الحديث .

ان الطلب المتزايد على الطاقة الكهربائية ، الذى سينتج عن التطور العاصف للاقتصاد وعن نمو انتاجية العمل ، لا يمكن تلبيته الا بنتيجة كهربة البلاد كهربة تامة .

ان انتاج الطاقة الكهربائية يتزايد كل يوم ، ولن تأتي سنة ١٩٨٠ حتى يصل الى رقم خيالي تماما ، الى ٣ تريليونات كيلوواط ــ ساعة . ها هي ذي القوة التي ستأتي لخدمة الانسان السوفييتي !

ان كيلوواط ــ ساعة واحدا من الطاقة الكهربائية يستطيع رفع طن من الاحمال الى ارتفاع ٣٦٧ مترا ، أو تصفيح ٥٠ كيلوغراما من المعدن ، أو حياكة ١٠ امتار من القماش ، أو تحضير وتوضيب ٤٢ كيلوغراما من السكر ، أو صنع زوجين من الاحذية ، أو خبز ٨٦ كيلوغراما من الخبز ، أو حلب ٥٠ بقرة . والحفارة السيارة الواحدة التي تنزع «قبعة» التربة من فوق فلزات الحديد الحمراء في ضواحي كورسك أو تغرف الفحم الخارج الى سطح الارض مباشرة في مقالع آلتاي ، تتطلب من الطاقة مقدار ما تتطلبه مدينة كبيرة .



نمو انتاج الطاقة الكهربائية

ان زيادة انتاج الطاقة الكهربائيـــة لا تعني فقط زيـــادة عدد مساعدينـــا الميكانيكيين . انما الكهرباء اداة انتاجية بالغة المرونة ، تتغلغل في الاقتصاد الوطني بطرق كثيرة . فالانتاجات الكيميائيـــة الجديـــدة ، وخصوصـا انتاج المعـــادن الخفيفـــة – الالومينيـــوم والمغنيزيوم والتيتانيوم والنيكيل الصافي ، وانتاج الخيوط الصناعية والاسمدة – ان كل هذه فروع من التكنيك تستهلك كثيرا من الطاقة . وليس عبثا انها ستتطور بشكل عاصف خاص في المناطق الشرقية المتاخمة للانهار السيبيرية الجبارة التي هي اهم مصدر في المستقبل لارخص طاقة مائية .

ولا تتسع وتتكامل دائرة استخدام الطاقة الكهربائية في مختلف فروع الاقتصاد الوطني وحسب ، بل انها ستستعمل على نطاق متزايد لتلبية حاجة الانسان الى الكهرباء في اعماله اليومية العادية .

ولزيادة تجهيز العمل والحياة اليومية بالكهرباء كما يجب ، يحقق الاتحاد السوفييتي برنامجا ضخما لبناء المحطات الكهربائية الجديدة . ففي مدة عشرين سنة سيبنى زهاء ٢٠٠ محطة كهربائية حرارية منطقية (محطة قاعدية للشبكة الكهربائية) ، و٢٦٠ محطة كهربائية حرارية كبيرة (تضمن تدفئة مناطق بكاملها عدا التزويد بالطاقة الكهربائية) و١٨٠ محطة كهرمائية جبارة . وحتى نهاية السنين العشر الاولى سيكون من الضروري تشغيل

٢٠–٢٥ مليون كيلوواط من القدرات الجديدة كل سنة ، وفي نهاية السنين العشر الثانية ٤٥–٥٠ مليون كيلوواط .

المنظومة الواحدة للطاقة . للتامين المتبادل في حالة الطوارى المفاجئة ، وكذلك لازالة التفاوت في التشغيل في مختلف فصول السنة وعلى مدى الاربع والعشرين ساعة ، يجري توحيد المحطات الكهربائية الكبيرة في ما يشبه «الحلقات» . وتعمل المحطات الموحدة للشبكة الكهربائية العامة التي منها يتغذى الكثير من مستهلكي الطاقة الكهربائية . وهكذا تتكون منظومة الطاقة ، التي ليست مجرد عدة محطات كهربائية ، بل مجموعة واحدة لانتاج الطاقة الكهربائية ولنقلها ، اي لارسالها وتوزيعها .

ولتوحيد المحطات الكهربائية المتفرقة في منظومات ، اهمية كبيرة لزيادة مضمونية وفعالية عملها وكذلك لاستخدام موارد الوقود والماء استخداما صحيحا . زد على ذلك انه كلما كانت منظومة الطاقة اقوى كان يمكن وصل وحدات اضخم ومحطات كاملة اكبر في هذه المنظومة بدون مخاطرة ، وان هذا التكبير لقاعدة الطاقة يقدم للاقتصاد الوطني فائدة اضافية هائلة . فاذا كانت المحطات الكهربائية الحرارية الآن تجهز بوحدات قدرة كل واحدة منها ١٠٠–٣٠٠ الف كيلوواط ، ففى المستقبل القريب ستصل وحدات الطاقة (المراجل والتوربينات) الى قدرة ٥٠٠ و٨٠٠ الف كيلوواط . وفي المحطات المائية الجديدة التي قدرتها ٤ ملايين و٦ ملايين واكثر من الكيلوواط ستوضع ايضا وحدات مائية ضخمة تصل قدرتها الى مليون كيلوواط .

والآن لم تعد كهربة الاتحاد السوفييتى التامة تتطلب توحيد محطات متفرقة بل توحيد منظومات كاملة للعمل المتوازي . وسيتم دمج منظومات الطاقة بانشاء **منظومة الطاقة الواحدة للاتحاد السوفييتي** . وتحت هذه التسمية ستقوم منشاة معقدة

فريدة من نوعها ذات مقاييس خيالية تماما . وستجعل منظومة الطاقة الواحدة الصناعة الكهربائية في الاتحاد السوفييتي اقتصادية الى ابعد حد وستمنحها اكبر قدرة على المناورة .

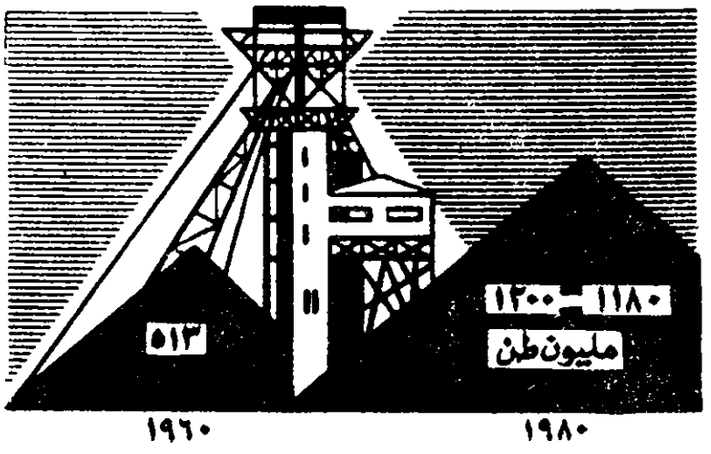
ولتحقيق هذه المهمة يجب مد عدة مئات الالوف من الكيلومترات من الخطوط الكبرى لنقل التيار المتناوب وكذلك لنقل التيار المستمر ذي الجهد العالي . وسيكون اكبر الخطوط لنقل الكهرباء هما خط سيبيريا المركزية – اورال وخط كازاخستان – اورال . وسوف يترتب ايضا مد عدة خطوط تصل منظومات الطاقة السوفييتية بمنظومات الطاقة في البلدان الاشتراكية المجاورة .

وبالاضافة الى الخطوط الكبرى يجب في عشرين سنة مد عدة ملايين من الكيلومترات مما يسمى بشبكات التوزيع التي يصل جهدها الى ٣٥ كيلوفولت . وسيكون نصف مجموع عددها تقريبا مخصصا للمناطق الريفية . ان ايصال الطاقة الكهربائية الى جميع اماكن استهلاكها في الاقتصاد الريفي هو اشق المهمات . فمثلا لكهربة كولخوز متوسط حديث واحد في المنطقة الوسطى من الاتحاد السوفييتي يجب مد شبكات توزيع يناهز طولها ٣٠ كيلومترا .

ميزان الوقود . ان التطور العاصف للكهربة لا يعني ان الحاجة الى الوقود وغيره من مصادر الطاقة ستسقط أو تتضاءل ، بل بالعكس تزداد : فالكثير من المحطات الكهربائية ستعمل على الفحم والبترول والغاز . وقد كانت ولا تزال الفروع الكثيرة من الصناعة الثقيلة والخفيفة والنقل والزراعة من كبريات مستهلكات الوقود الجامد والسائل . وقصارى القول ان الوقود

ضروري لكل شيء وفي كل مكان .

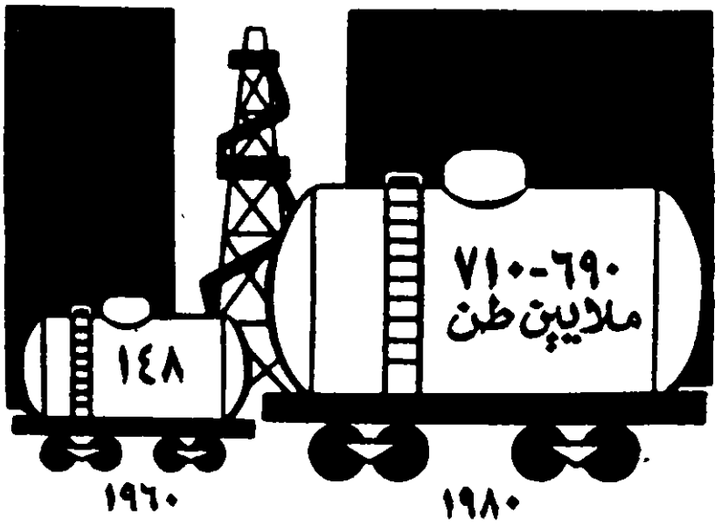
وبمقدار نمو مقادير الانتاج ستزداد الحاجة الى مختلف انواع الوقـــود . ولكـــن تغيرات جذريـــة ستحدث في استعمالهـــا .



نمو استخراج الفحم

يجب ان يزداد استخراج البترول في الفترة من ١٩٦٠ الى ١٩٨٠ من ١٤٨ الى ٦٩٠–٧١٠ ملايين طن ، والغاز من ٤٧ الى ٦٨٠–٧٢٠ مليار متر مكعب ، والفحم من ٥١٣ الى ١١٨٠–١٢٠٠ مليون طن في السنة .

لقد اتجه الحزب الشيوعي نحو اعادة بناء ميزان الوقود : ففيه يرتفع بشدة الوزن النوعي لانواع اقتصادية من الوقود كالغاز والبترول .

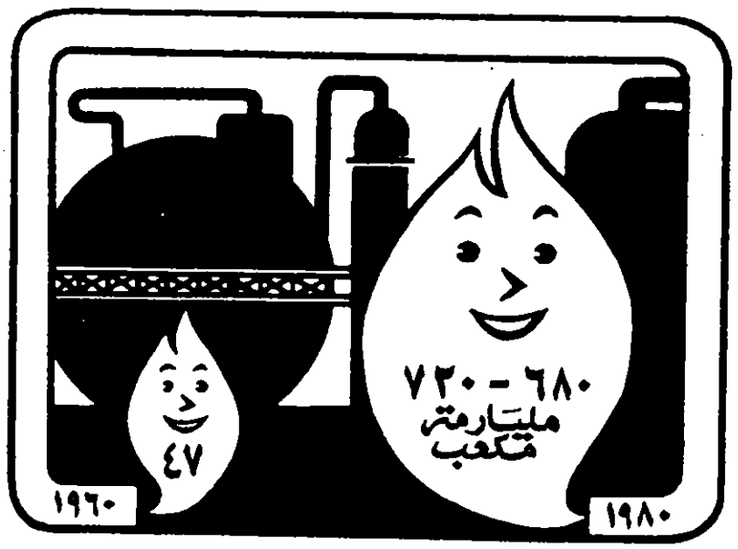


نمو استخراج البترول

وسيؤدي تغير بنـــاء ميزان الوقود الى تحولات ثورية حقـا في الصناعـــة والنقل . ففـــي التعديـــن الحديدي ، مثلا ، يمكـــن بفضـل استخدام الغـــاز الطبيعي تأجيد عملية الصهر في الافران العالية وانقاص استهلاك الكوك اكثر من ١٠ بالمئة . ويساعد الغاز الطبيعي في انقاص الوقت اللازم لاعداد الخامات في انتاج الاسمنت . وفي النقل تخلي القاطرات البخارية والسفن البخارية القليلة الفعالية ، محلها لقاطرات الديزل وسفن الديزل

العاملة على الوقود السائل . وتتغذى بمنتجات البترول ماكنات السوفخوزات والكولخوزات . ولاعادة بناء ميزان الوقود ، وهو ما ينص عليه برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي ، اهمية اجتماعية كبيرة : اذ ستنشأ مناطق صناعية جديدة ذات مؤسسات تعمل على الوقود الغازى والسائل ، وسيسهل عمل العمال ، ويتطهر الهواء في المدن والبلدات العمالية .

ان البترول والغاز الطبيعي ليسا وقودا من الدرجة الاولى وحسب ، بل هما مصدر اساسي للخامات الضرورية لصنع مختلف المواد التركيبية : كالخيوط الاصطناعية ، واللدائن (البلاستيك) ، والكاوتشوك الاصطناعي ، والجلد الاصطنـــاعي ، والصابون ، والكحول ، والاصبغة ، والعطور ، والادوية ، الخ .. فمن البترول تستخرج في الوقت الحاضر بضعة الوف من مختلف المواد التي يزداد عددها باستمرار .



نمو استخراج الغاز

هل احتياطيات انواع الوقود الاكثر اقتصادا كافية ؟

نعم انها كافية تماما : فالاتحاد السوفييتي يشغل من حيث احتياطيات الغاز الطبيعي والبترول احد الاماكن الاولى في العالم . ان اكتشاف مكامن جديدة يغير التوزع الجغرافي لمؤسسات

صناعة الوقود . ومن المنتظر انشاء صناعة ضخمة جديدة لاستخراج البترول والغاز في شرقي البلاد ، وقبل كل شيء في المكامن التي اكتشفت في سيبيريا الغربية والاورال ، مكامن شاييمسكي واوست – باليكسكي وميغيونسكي البترولية ، وكذلك في مجموعة بيريوزوفسكايا لمكامن الغاز الطبيعي . ولاكتشاف البترول في مقاطعة اركوتسك اهمية كبيرة . وقد اكتشفت مكامن كبيرة للبترول والغاز في جمهورية كازاخستان السوفييتية في شبه جزيرة مانغيشلاك . ووجد بترول ممتاز من حيث النوعية في طبقات العصر الوسطي في القفقاس الشمالي . وينتظر للصناعة البترولية لمدينة غروزني ان «تولد ولادة ثانية» . وبنجاح متزايد يجري استخراج «البترول البحري» . ويظهر ان بحر قزوين سيصبح مصدرا للبترول لا ينضب .

لقد سبق الاتحاد السوفييتي جميع البلدان الاوروبية واحتل المكان الثاني في العالم (بعد الولايات المتحدة) من حيث حجم استخراج ونقل الغاز . ويستخرج القسم الاساسي من الغاز الطبيعي الآن في اوكرانيا والقفقاس الشمالي اللذين ستظل مكامنهما مدة طويلة المصدر الرئيسي لتزويد المناطق الوسطى من البلاد بالغاز . ولكن مكامن جديدة تنضاف اليها : ففي سنة ١٩٦٣ بوشر باستثمار اقوى انبوب للغاز في العالم ، انبوب بخارى – اورال . ووضعت في خدمة بناء الشيوعية هبة الارض الاوزبكية – الغاز الطبيعي الذي سيسمح باحداث ثورة حقيقية في صناعة اورال وبتوفير مئات الملايين من الروبلات من موارد الدولة .

ولكن تطور استخراج البترول والغاز لن يؤدي الى تقلص استخراج الفحم . ففي العشرين سنة ستتطور صناعة الفحم في المناطق الشرقية بوجه خاص . وسيزداد كثيرا الوزن النوعي

للفحم المستخرج بما يسمى بالطريقة المكشوفة ، اي المستخرج بعتـــاد فوق الارض من طبقـــات خارجـة الى سطح الارض . وسيستخرج حوالى ٢٠ بالمئة من كمية الفحم المنجمي بواسطة المـــاء .

مصادر جديدة للطاقة . ان العلم والتكنيك يجعلان من الممكن استعمال مصادر كثيرة جديدة للطاقة .

فسيتسع كثيرا استخدام الطاقة الذرية . ومنذ سنة ١٩٥٤ تعمل في الاتحاد السوفييتي اول محطة كهربائية في العالم بالوقود الذري . وفي سنة ١٩٥٨ بوشر باستثمار محطة كهربائية ذرية في سيبيريا . وفي بداية سنة ١٩٦٤ بدأت محطة بيلوياركسك الكهربائية الذرية تعطي التيـــار لمنظومة طاقة سفيردلوفسك . وتبنى محطة نوفوفورونيجسكايا الكهربائية الذرية القوية ، وغيرها .

وينتظر امتلاك طاقة الشمس الفائقة الغنى . وتنفتح امكانيات كبيرة ، خصوصا ، امام المحطات الكهربائية الشمسية ذات انصاف النواقل السيليسيومية . فكل متر مربع من سطح البطارية من انصاف النواقل يعطي ١٠٠ واط من القدرة طول مدة سطوع الشمس عمليا . وتعمل امثال هذه البطاريات في الاقمار الصناعية السوفييتية وفي السفن الفضائية . وتوضع التصاميم الآن لانشاء محطات كهربائية شمسية قوية على الارض .

وسيستخدم على اساس جديد معاون قديم للانسان وهو طاقة الريح . ولكن هذا يتطلب التغلب على تقلب الهواء وعدم ٣ستقراره . ويمكن تجميع طاقة الريح بواسطة تفكيك الماء بالتحليل الكهربائى الى اوكسيجين وهيدروجين . ويمكن للمحركات الهوائية ان تجمع كمية كبيرة من هذا الوقود غير العادي الذي يمكن استخدامه في المحركات الديزلية ولحاجات اخرى . وتعار

اهمية خاصة لبناء منظومات للمحطات الهوائية تسمح بالحصول بشكل مضمون على الطاقة لمدة طويلة .

ان علم الطاقة السوفييتي يقف على عتبة استخدام واسع لحرارة اعماق الارض . فالحرارة الطبيعية للارض المتمثلة في شكل بخار او ماء حار تستخدم في كامتشاتكا وجزر كوريل وفي القفقاس وفي آسيا الوسطى . وينتظر العلماء ان يستطيعوا في المستقبل ثقب الارض لاعماق كبيرة ، وعندئذ يمكن في اية منطقة تقريبا الحصول على البخار والماء الحار . وستدفأ المدن والقرى والمؤسسات الصناعية والدفيئات الزراعية بحرارة باطن الارض . ومنذ الآن يجري بناء ما يسمى بالمحطات الكهربائية الجيوترمية . وتشاد محطات ستحول حركة المد في البحار (وهي عبارة عن موجة هائلة تسببها جاذبية القمر والشمس) الى طاقة كهربائية . وهذه الموجة تطوف حول الكرة الارضية مرتين كل ٢٤ ساعة وتصل في بعض الاماكن الى ١٠ ـ ١٥ وحتى ٢٠ مترا من الارتفاع . فان سدودا خاصة مزودة بتوربينات هيدروليكية ستكبح هذه الموجة . وستشاد اول محطة مدية في الاتحاد السوفييتى في شبه جزيرة كولا في خليج بحر بارينتس حيث تكون المدود قوية بشكل خاص .

المواد

عصر الاختيار غير المحدود . اذا كانت الطاقة اول شرط للصناعة الحديثة فالشرط الثاني لها هو المواد التي تصنع منها الماكنات والمباني والعديد من سلع الاستهلاك .

ان المواد الطبيعية الجاهزة لا تستطيع دائما تلبية حاجات التكنيك الحديث . ومنذ مدة غير بعيدة كان على المصممين الذين يصنعون الماكنات الجديدة ، والمعماريين الذين يضعون مصورات

دور السكن والمباني الصناعية ، ان يتكيفوا حسب مجموعة المواد الاساسية التي تستعمل في التكنيك منذ عشرات السنين الاخيرة . أما الآن وقد تعلمت الفيزياء والكيمياء تفسير واستشفاف صفات الجزيئات المعقدة ، فقد اصبح في امكانهما «تصميم» مواد جديدة ذات صفات مطلوبة منها مسبقا . وهذا يعني ان المصمم ينعتق بالتدريج من القيود التي فرضها عليه الاختصاصي في المواد من قبل . فهو الآن حر يختار ما يشاء من المواد التي تستجيب على اتم وجه لفكرته التكنيكية والتي – وهذا لا يقل اهمية عن سابقه – تجعل من الايسر معالجة المصنوعات . فاذا كانت المواد اللازمة غير موجودة في الطبيعة امكن للمصمم ان يعين الصفات الضرورية للمادة فتظهر . وهكذا دخلت الى التكنيك انواع الفولاذ الصامدة للحرارة ، وانصاف النواقل ، والزجاج غير القابل للكسر ، والنسيج غير القابل للاحتراق ، والاواني التي لا يؤثر فيها اي حمض ، والمسننات التي لا ترسل شررا ، والصواميل التي لا تتطلب العزل عن التيار الكهربائي ، والصموع التي يمكن بها لصق الجسور .

ان اي انجاز جديد للتكنيك الحديث ، سواء أكان طيران السفينة الفضائية ، أم المكننة التامة للانتاج المعقد ، أو انشاء ماكنات احتساب «الذكية» ، ما كان يمكن ان يتحقق لولا المواد الجديدة التي تملك صفات معينة ومطلوبة مسبقا وبالغة التنوع في الوقت نفسه . فبعض الآلات تتطلب صلادة بالغة تبقى موجودة في درجات الحرارة



نمو صهر الفولاذ

العالية ، وغيرها يتطلب مقدرة على متابعة التغيرات السريعة للحقل الكهرطيسي ، وثالثة تتطلب الثبات في وجه اكثر الاوساط الكيميائية تأثيرا .

ان التغير الجذري في العلاقات بين المواد وامكانيات التكنيك سيسمح بالانطلاق في سرعة اكبر في طريق التقدم التكنيكي ، وباعطاء المصممين لا المواد التي يمكن الحصول عليها بل المواد التي يطلبونها هم . ويأتي عصر يمكن ان نسميه بـ «عصر الاختيار غير المحدود» .

معادن المستقبل . ان الاحتياطيات العظيمة من خامات الفلزات الحديدية ، التي تسمح بتطوير انتاج المعدن الرخيص ، وامكانية رفع صفاته التصميمية ، ستحفظان مدة طويلة للمعدن مكانة هامة في صناعة الماكنات وانتاج الاجهزة والآلات وغيرها من المصنوعات اللازمة لجميع فروع الاقتصاد الوطني . ولن تأتي سنة ١٩٨٠ حتى يصل التعدين الحديدي في الاتحاد السوفييتي الى مستوى يسمح بانتاج ٢٥٠ مليون طن تقريبا من الفولاذ في السنة . وليس عبثا ان برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي يسمي المعدن مع الوقود بـ «اساس الصناعة الحديثة» .

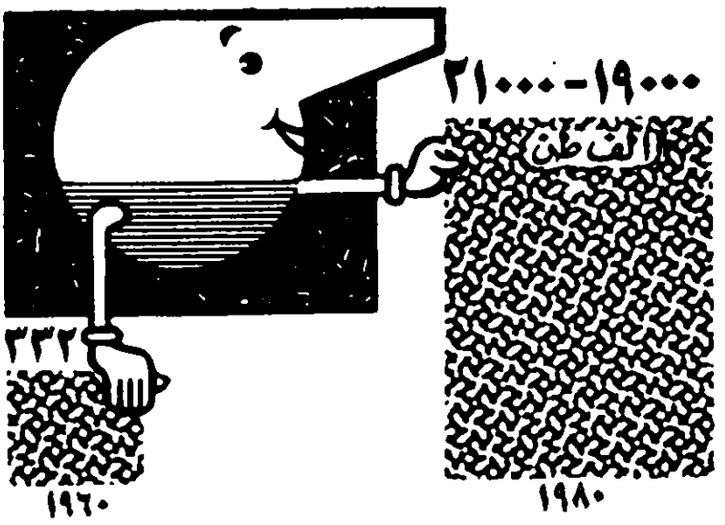
وفي الوقت نفسه يستعاض عن المعدن ، الى درجة متزايدة ، بمواد اخرى اكثر اقتصادا ، وفي طليعتها الخرسانة المسلحة والبلاستيك .

ويدنو الزمن الذي لن يستعمل فيه الحديد ، بشكله الصافي تكنيكيا (بشكله غير المخلوط أو كما يقول التكنيكيون بشكله غير المشوّب) الا في حالات خاصة نادرة . ولسوف يشوّب كل ما يسمى بالمعدن العادي ، تشويبا قليلا او كثيرا ، بحيث تزداد متانته الى حد كبير . وتكون النتيجة انه حيث تستدعي الحاجة

طنا واحدا من القضبان المصفحة العادية يكون من الممكن الاكتفاء بنصف طن فقط من الفولاذ المشوّب .

لقد احرز تكنيك القرن العشرين نجاحات هائلة بفضل الكشف عن صفات عدد من المعادن النادرة . ويمكن انتظار نجاحات اكبر من تلك المعادن التي بوشر حديثا باستعمالها في الصناعة .

من الامثلة على ذلك ان البرونز النحاسي البيريليومي (وهو خليط من النحاس مع ٣ ـ ٤ بالمئة من البيريليوم) صلد ولدن ولا مثيل له من اجل القطع التي تتعرض للاثقال المتغيرة الكثيرة . وعما قريب لن يستطيع اي فرع من التكنيك ان يستغني عن العناصر الضوئية ، تماما كما هو الآن شأن الاجهزة الكهربائية التي بدونها لا تعمل الصناعة بصورة طبيعية . وعلى هذا فان العناصر النادرة ـ الجرمانيوم والسيزيوم والتاليوم وغيرها ـ ستصبح عادية الاستعمال وسيكون عليها ان تعمل في الاجهزة العديدة للادارة الاوتوماتيكية .

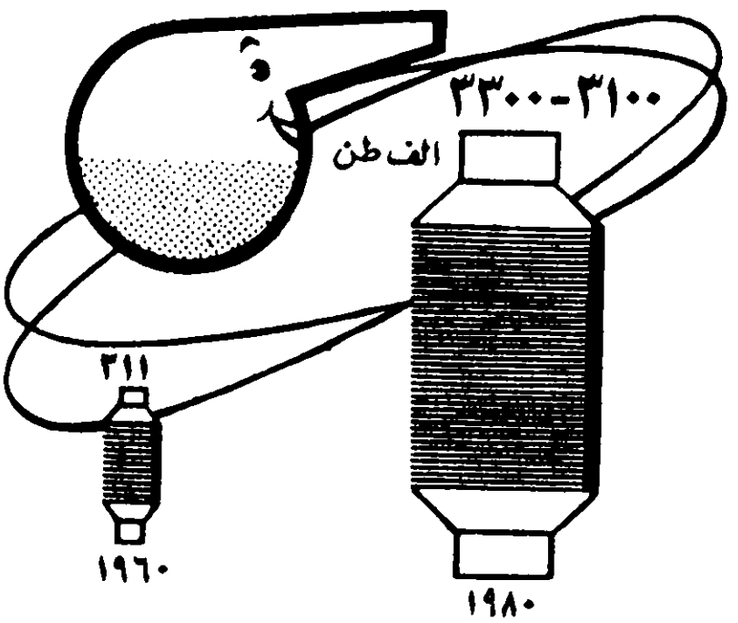


نمو انتاج الاصباغ التركيبية والمواد اللدائنية

ان استخدام العناصر النادرة في التكنيك يبشر بمستقبل باهر ، ولكن الحصول عليها ليس من السهولة بمكان . وثمة كثير من العناصر النادرة مبعثرة كثيرا في القشرة الارضية ولم تدرس حتى الآن دراسة كافية . واستخلاصها من فلزاتها متصل بصعوبات كبيرة . فانتاج طن من النحاس مثلا يتطلب ٥٠ ـ ١٠٠ طن من الفلزات ، والحصول على طن من الغاليوم يتطلب ٥٠ الف طن .

ومع ذلك فان هذه العقبات يمكن تذليلها . ولنا في تاريخ التكنيك ما يذكرنا بان الحصول على الالومينيوم أو المغنيزيوم لم يكن اقل صعوبة من هذا منذ وقت غير بعيد . وما ان اصبح واضحا ان الطيران لا يمكن ان يتطور بدون هذين المعدنين حتى اصبحا ينتجان بكميات متزايدة . وهذا ما حدث ايضا مع التيتانيوم . فصفاته الفيزيائية والميكانيكية الثمينة ومتانته العظيمة ضد التآكل ، بالاضافة الى الموارد الطبيعية الهائلة لخامات التيتانيوم ، اثارت اهتماما شديدا بهذا المعدن الجديد (ويمكن تخفيف وزن كل طائرة كبيرة بمقدار عدة اطنان بفضل خليط التيتانيوم ، واذا ما صنعت قاطرة ديزل من التيتانيوم كان وزنها نصف وزن مثيلتها من الفولاذ) .

تدور الآن معركة حامية الوطيس بين البلدان الرأسمالية على مصادر خامات المعادن النادرة . واذا كان التاريخ يعرف حروب «الكاوتشوك» و«النيوبيوم» مما يجري في عشرات السنين الاخيرة من انقلابات تدبرها الدول الامبريالية في بلدان اميركا اللاتينية ، ان نتحدث عن حروب «القصدير» و«النحاس» و«الفاناديوم» . و«البترول» ، فالآن يمكن ان في باطن ارض الاتحاد السوفييتي كل



نمو انتاج الالياف التركيبية والاصطناعية

المعادن النادرة باحتياطيات كبيرة . والتوسع المستمر باستخدامها مرسوم في خطط تطبيق التكنيك الجديد في فترة بناء الشيوعية على نطاق واسع .

المواد التقدمية . ان الانواع الجديدة من المواد المصنوعة على اساس ما يسمى بالمركبات الكبيرة الجزيئات تحتل مكانا متزايدا في التكنيك الحديث جدا وفي الاستعمال اليومي . فالجزيئات الضخمة للبوليميرات وغيرها من المواد الكبيرة الجزيئات ، بحكم خصائص تركيبها ، تملك صفات خاصة تماما . انها ، بمختلف اجتماعاتها مع المتممات والهياكل (مع الزجاج مثلا) ، ولوحدها ، يمكن استعمالها كمواد انشائية عالية المتانة ، كالخيوط والكاوتشوك .

ان اللدائن (البلاستيك) المصنوعة على اساس البوليميرات تملك «صفة تكنولوجية» عالية ، اي انها تتحول بسهولة الى مصنوعات جاهزة . وهنا تظهر خاصتها الهامة التي تدل عليها تسميتها نفسها – «اللدونة العالية» . والشرط اللازم للحصول على هذه اللدونة هو التسخين غير العالي نسبيا وعندما تكون في حالة من اللدونة المرتفعة تكتسب بسهولة اي شكل كان ، ثم تتصلب جيدا عندما تبرد . والى جانب طريقة الكبس يمكن تحويل اللدائن الى مصنوعات بطرائق تقدمية كالقولبة في الفراغ ، والسكب تحت الضغط ، وقولبة المصنوعات الكبيرة باستعمال القوة الطاردة عن المركز ، والقولبة المتواصلة للانابيب ، وقولبة المصنوعات بطريقة الجر .

ان اللدائن ، بما تمتاز به من صفات استثمارية ، تحل كامل الحلول في عدد من الحالات ، محل المعدن ، وكثيرا ما

تفوق المعدن ايضا . وبهذا المعنى استحقت عن جدارة تسميتها بـ«البدائل التي لا بديل لها» .

ويمكن من اللدائن صنع الموبيليا ، ومواد البناء ، واجسام الآلات ، والمسننات ، وصناديق السيارات . وفي المستقبل سيكون من الممكن الاستعاضة عن جميع الاجزاء المعدنية للآلات والماكنات والطائرات ، بالمركبات الكبيرة الجريئات الخفيفة والمتينة .

وقد بدأت البوليميرات تقترب من المعادن لا من حيث طريقة المعالجة وحسب . فقد بات معروفا الآن ان البوليميرات يمكن سقيها وحرقها . والمرجح ان يستطيع العلماء فيما بعد تحقيق ما يسمى في التعدين بـ«التشويب» . وهكذا فان اسرة البوليميرات تتكاثر . وبما ان اشكال «البناء الداخلي» للبوليميرات كثيرة كثرة لا نهاية لها ، فان تكاثر هذه الاسرة لا حد له ايضا .

مصنع ثروات الشعب . أن الكيمياء هي التي تمكّن من صنع المواد الضرورية الجديدة . فالكيمياء ، في المرحلة الحالية من تطور العلم والتكنيك ، هي ذلك الفرع الذي يحدث الثورة في انتاجية العمل في كل ميادين الانتاج المادي .

فاولا ، ان المنتجات التي تصنعها الكيمياء تتطلب نفقات اقل مما يتطلبها انتاج المصنوعات التي تحل هي محلها .

انظروا مثلا الى فعالية المواد الاصطناعية والتركيبية : ان نفقات صنع طن واحد من الخيوط القطنية تشكل ٢٣٨ شخص – يوم . أما الطن الواحد من الخيوط الاصطناعية فلا يتطلب الا ٥٦ شخص – يوم ، اي اقل من الربع . ونفقات الطن الواحد من الصوف الطبيعي المنظّف (مع حساب العمل

في تربية الاغنام) تشكل ٦٢٤ شخص – يوم ، أما الطن الواحد من الخيوط التركيبية التي تحل محل الصوف تماما ، فلا يتطلب الا ٢٦٠ شخص – يوم ، اي اقل من النصف .

اضف الى ذلك ان نوعية المصنوعات من المواد التركيبية والكيميائية اعلى بكثير ، وهذا ايضا ما يعطي توفيرا كبيرا في العمل الضروري اجتماعيا .

فقد حسب مثلا ان اكثر من ٧٠ بالمئة ، اي اكثر من الثلثين ، من اصابات العطل التي تطرأ على المحركات الكهربائية ، تعود اسبابها الى هذا العطب او ذلك في العوازل الكهربائية . وبدون محرك كهربائي لن تتحرك القاطرة الكهربائية من مكانها ولن تعمل الآلة ولا المكنسة الكهربائية . ومع ذلك فان المحركات ذات العزل العضوي السيليسيومي (وهو ما تسمى به المركبات العضوية الرائعة التي يتألف «هيكلها العظمي» من سلسلة صلبة من السيليسيوم والاوكسيجين ، بينما تشكل المركبات الفحمية تفرعاتها الجانبية) تصمد لاصعب التجارب التي قد يعمل فيها المحرك احيانا في ظروف من زيادة الحمل القاسية . ومعروفة ايضا المقدرة الرائعة لكثير من المركبات العضوية السيليسيومية على رد الماء ، الامر الذي يسمح باستعمالها لمعالجة الجدران الخارجية للمباني التي تصبح بذلك غير هيابة لتقلبات الطقس السيئة .

وثانيا ، ان المواد الكيميائية الجديدة تسمح بزيادة انتاج انواع مختلفة من سلع الاستهلاك الواسع .

وثالثا ، ان هناك اهمية عظيمة لاستعمال موارد الخامات بشكل اتم واكثر اقتصادا واشد فعالية .

من الامثلة على ذلك انه عند استعمال الخشب بشكله الطبيعي على اساس معالجته ميكانيكيا فقط ، تفقد الشجرة في طريقها من الغابة ، بسبب الفضلات وحدها (الغصون ، والشظايا ، والنشارة وغيرها) ، زهاء ثلثي كتلتها . أما الكيمياء فتسمح بالاستفادة استفادة كاملة تقريبا من جميع الفضلات لانتاج الكحول والسيللولوز والورق والخيوط الاصطناعية واللدائن وقطع البناء وغيرها من انواع المنتجات .

وبفضل الكيمياء تكتسب « مصادر الخامات » نفسها ما يشبه المحتوى الجديد . ففن الكيميائي يحول الى خامات كل ما كان في السابق لا يعتبر خامات . بل لقد تحدث الجيوكيميائي السوفييتي المعروف فيرسمان حتى عن « انشاء ثروات باطنية » . وهذا يبدو غريبا بعض الشيء ، اذ كيف يمكن « انشاء » ثروات باطنية ؟ ولكننا سنفهم ما اراد فيرسمان قوله عندما نطلع على الحقائق التالية . ان فلزات البيريت الاورالية الفقيرة بالنحاس كانت تعتبر على مدى عشرات السنين غير ذات فائدة . ولكن نجاحات الكيمياء جعلتها « ثروات باطنية » عندما عرفت الكيمياء كيف تستخلص من الفلزات ، بشكل مربح ، حتى اضأل كميات النحاس الموجودة فيها . مثال آخر : ظل معدن النيفيلين يعتبر مدة طويلة فضلة مملة وليس منها غير التعب عند معالجة الفلزات الفوسفوريتية الثمينة ـ آباتيت شبه جزيرة كولا . ولكن العلماء السوفييتيين وضعوا طريقة لمعالجة النيفيلين معالجة شاملة بحيث يستخلص منه الآن ، في وقت واحد ، الالومينيوم والبوتاس والصودا ، ويحوّل الباقي الى اسمنت عالي النوعية . وهكذا تحول النيفيلين الى مادة اولية صناعية ثمينة .

ان موارد هائلة تتحرر عند الاستعاضة عن الخامات

الغذائية (الكحول ، الكازيئين ، الزيوت النباتية ، الخ .) بمواد كيميائية (الكحول الاصطناعية ، مختلف الصموغ الاصطناعية ، الحموض الدهنية ، الخ .) .

هذا ما ينتج عن التطور الشامل للصناعة الكيميائية — « مصنع ثروات الشعب » .

كنوز باطن الارض . ان تطور الكيمياء يتطلب زيادة استخراج مختلف انواع الخامات الطبيعية . وبعد اكتشاف « اقليم الالماس » في جمهورية ياقوتيا ذات الحكم الذاتي ، لم يعد في الاتحاد السوفييتي نوع من الخامات يعيق نقصه تطور الصناعة في هذا او ذاك من فروع الاقتصاد الوطني . واكتسب الاتحاد السوفييتي نهائيا الصفة النادرة ، صفة البلد الوحيد في العالم ، الذى تتأمن حاجاته الى الخامات المعدنية كليا من موارده الخاصة . وليس المقصود هنا فقط **تنوع** مصادر الخامات : بل ان الاتحاد السوفييتي هو ايضا اغنى بلد في العالم **من حيث كمية** الاحتياطيات المكتشفة من جميع اهم انواع الخامات المعدنية .

وكما في كل مكان آخر ، فان مفتاح حل المهمات الجليلة هو في يد العلم الطليعي . وبالتعاون الوثيق مع الفيزيائيين والكيميائيين وممثلي مختلف فروع التكنيك سينفذ الجيولوجيون المهمة الجريئة ، مهمة « تقويم اعوجاج الطبيعة » .

فللحصول على توزع للصناعة اكثر تساويا واكثر نفعا اقتصاديا ، ولازالة النقل البعيد الذي يكلف غاليا ، يترتب على الجيولوجيين ان « ينمّوا » احتياطيات الثروات الباطنية لا « بشكل عام » ولا « بشكل اجمالي » في البلاد ، بل قبل كل شيء حيث تكون الحاجة اليها امسّ . وهذا يصح في الدرجة

الاولى على ما يسمى «الفلزات الزراعية» (الفوسفوريت ، الكلس ، الغضار ، الخ .) .

هل هذا ممكن ؟ بديهي ان من غير المجدي البحث والتنقيب عما لا وجود له . ولا يمكن ان يكون التنقيب موفقا الا اذا توفرت الاسس الجيولوجية الضرورية لذلك . ولكن باطن الارض ، في اي مكان من البلاد السوفييتية ، يبدو انه اغنى بكثير مما كنا نظن عندما كنا نعتمد على طرائق التنقيب الجيولوجي العتيقة .

يجب فتح ابواب كنوز باطن الارض على مصاريعها ونزح كل ما نحتاج اليه منها وباية كميات كانت — هذه هي احدى مهمات بناء القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية .

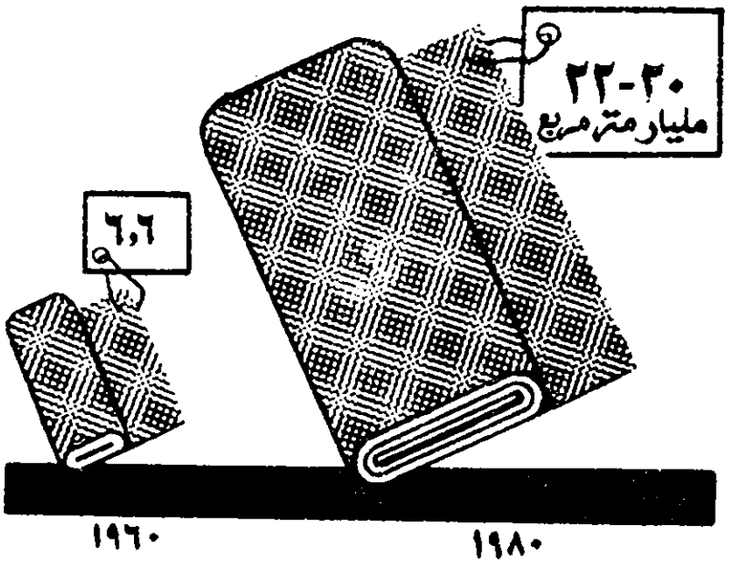
الاتجاه الرئيسي للتقدم التكنيكي

الصناعة الثقيلة والخفيفة . في جميع مراحل البناء الاشتراكي كان الدور الرئيسي في تجديد الانتاج الموسع للصناعة الثقيلة . والصناعة الثقيلة ايضا هي اساس انشاء القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية في الاتحاد السوفييتي .

ان قانون اولوية تنمية انتاج وسائل الانتاج يحافظ على قوته لانه ، كما رأينا من مثال الطاقة والكيمياء ، تكون الاولوية دائما ، عند التخطيط الصحيح ، لتنمية الفروع التي تعجل التقدم التكنيكي وتضمن نمو انتاجية العمل الاجتماعي في جميع فروع الانتاج الاخرى .

ولكن انتاج وسائل الانتاج ليس هدفا لذاته . وانما وسائل الانتاج ضرورية في آخر كل حساب لزيادة انتاج سلع الاستهلاك وتحسين معيشة الشعب . ولهذا فمع تطوير الصناعة

الثقيلة يستطيع الاتحاد السوفييتي ان يزيد وتائر نمو انتاج وسائل الاستهلاك ولسوف يفعل ذلك . وتبقى اولوية تطوير الصناعة الثقيلة ، الامر الذي بدونه لا يمكن تنفيذ مهمات **المكننة والاتمتة المجموعيتين** لكل الانتاج الاجتماعي .



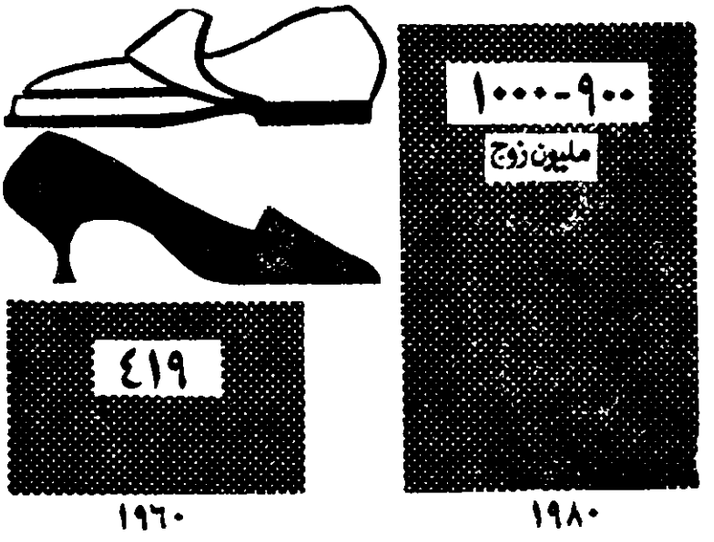
نمو انتاج الاقمشة

من المكننة المجموعية الى الاوتوماتيك . في السنين العشر القادمة ستنفذ مهمة المكننة المجموعية في الصناعة والزراعة والبناء والنقل والمرافق العامة .

وفي مدى عشرين سنة ستتحقق ، على نطاق واسع ، اتمتة الانتاج مع الانتقال المتزايد الى اقسام المصانع الاوتوماتيكية والمصانع الاوتوماتيكية التي تضمن فعالية تكنيكية واقتصادية عالية .

ومن المهم ، لزيادة مردود الماكنات ، ليس انقاص تسريع عملية معالجة المواد نفسها ، كقطع المعدن مثلا ، بل ايضا انقاص الوقت المبذول في تنفيذ العمليات المساعدة – وعلى الاخص تلك العمليات التي يقوم بها الانسان يدويا . فتسريع العمليات المساعدة ، اذا كانت تجري باليد ، يبلغ مداه الجسدي الاقصى بسرعة . ولهذا تؤتمت .

ويمكن رفع درجة اتمتة الماكنة عن طريق ادخال اجهزة جديدة لادارة الاعضاء العاملة في اثناء العمل ادارة اوتوماتيكية ، وللمراقبة الاوتوماتيكية على نوعية وكمية المصنوعات ، ولوضع القطع المعالجة في الآلة – الآداة ، وتنظيف الفضلات ، الخ ..



نمو انتاج الاحذية

واذا انقطعت الدورة العاملة الاوتوماتيكيـــة في مكان مـــا وتطلبت تدخل العامل ، كان لدينا ماكنة عاملة نصف اوتوماتيكية . واكثر ما يخلو الامر من جهـــاز «التغذية» – فيبقى ربط القطع الاوليـة ونزع القطعة الجاهزة في الماكنة نصف الاوتوماتيكيـــة من واجبـات العامل .

ولا تتيح الماكنة الاوتوماتيكية تعجيل سير العمليات المتفرقة المجزأة ، وحسب ، بل تتيح ايضا **جمعها** بعضهـــا الى بعض . ففيم يخرط قلم القطع في الماكنة الاوتوماتيكية القطعة يقوم قلم آخر بمعالجة الواجهة ويكون ثالث قد بدأ بخرط السطح المخروطي – وكل هذه العمليات تجري في آن واحد .

اذا حاولنا ان نتصور ماكنة غير اوتوماتيكية تجتمع فيها مختلف العمليات معا كما في الماكنة الاوتوماتيكية ، كان على الانسان ، لكي يدير هذه الماكنة الخيالية غير الاوتوماتيكية ، ان تكون له مئة يد ومئة عين تعمل بشكل منسّق كل التنسيق . أما في الماكنة الاوتوماتيكية فالعمل تديره «ايد» ميكانيكية و«اعين» ايليكترونية .

وعندما تجتمع العمليات العادمة مع العمليات الاساسية تظهر للوجود ماكنة ذات عمل متواصل .

والمثال النموذجي على الماكنة ذات العمل المتواصل هو المطبعة الدوارة التي يتحرك فيها الشيء المشغول – الورق –

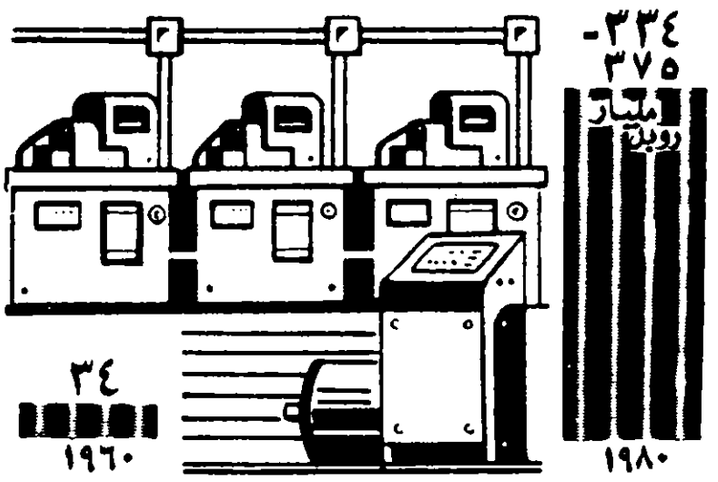
حركة متواصلة وتجري عملية الطباعة ايضا بصورة متواصلة . وهذه الماكنات تزيح الآن بسرعة المطابع ذات العمل المتقطع – المطابع السطحية ، لانها تملك انتاجية ومردودا اعلى بما لا يقاس .

تستطيع الماكنات ذات العمل المتواصل ان تعمل في جميع فروع الصناعة على الاطلاق . ففي تشغيل المعادن ايضا تستخدم الماكنات الاوتوماتيكية التي تكون فيها اعضاؤها العاملة عند المحيط . ويجري شغل المصنوعات بتدوير الماكنة نفسها تدويرا متواصلا . وكل قسم من الماكنة الدائرة ، عندما يصل الى نفس آلية التحميل ، يأخذ مادة خام ثم يلقيها في المكان نفسه بعد ان يكون قد اشتغلها – في دورة واحدة . وحسب هذا المبدأ يعمل ما يسمى بالخطوط الاوتوماتيكية الدوارة .

وبواسطة استقطاب عدد من العمليات المنفذة اوتوماتيكيا ، يمكن صنع ماكنة اوتوماتيكية متعددة الوظائف – كمباين أو خط اوتوماتيكي ، يتحرك فيها المعدن المشغول حركة متواصلة في عملية التشغيل .

وان اعلى درجة للاتمتة هي انشاء مصنع اوتوماتيكي تعمل فيه ، بصورة منسقة ، منظومة من الماكنات اوتوماتيكية .

ولكن ادارة العمليات التي تجري بصورة متواصلة وبسرعات كبيرة ، غير ممكنة بدون وسائل الاتمتة



نمو انتاج صناعة بناء الماكنات وتكييف المعادن

الحديثة والتكنيك الحسابي ، وبدون انشاء منظومات ادارة برنامجية وضبط ذاتي تختار انسب انظمة العمل . وهذه هي التي تفتح آفاقا جديدة .

ولا يمكن اجبار الماكنة على التقيد بالنظام المطلوب ، وحسب ، بل يمكن ايضا اجبارها على تعيين النظام الانفع . وهي التي تتقيد بانفاق للوقود يضمن العمل الاكثر اقتصادا للمرجل البخاري ويحدد احسن الظروف لاجراء العملية الكيميائية ويقرر النظام الفعال لحفر آبار البترول وغير ذلك .

وانسب الظروف اللازمة لاستخدام **الاتمتة في الكيمياء** استخداما واسع النطاق ، تتوفر من تواصل اكثرية العمليات التكنولوجية لانتاج المنتجات الكيميائية . وقد تم بلوغ نجاحات هامة في اتمتة انتاج الكحول الاصطناعي والكاوتشوك والاسمدة الآزوتية والصودا الكاوبة والحمض الكبريتي .

ودخلت اعمال **الاتمتة في الطاقة** مرحلة حاسمة . فقد انتهت في الاتحاد السوفييتي اتمتة ادارة الوحدات في جميع المحطات الكهرمائية الكبيرة والمتوسطة العاملة . وتدخل جميع المحطات الكهرمائية الجديدة حيز العمل ولها ادارة اوتوماتيكية ، وفي بعض الاحوال ايضا — اذا تطلبت ذلك ظروف العمل — ادارة من بعيد . والنوبة العاملة في المحطات الكهرمائية الكبيرة تتألف الآن من ٤—٦ اشخاص ، وفي المحطات المتوسطة من ٢—٣ اشخاص . وهناك كثير من المحطات الكهرمائية التي لا تتجاوز قدرتها ٢٠ الف كيلوواط تعمل بدون عمال مناوبين دائمين .

ثم ان **النقل** يتحول ، على نطاق الاتحاد السوفييتي كله ، الى سلسلة نقل واحدة .

وان عمل جميع انواع النقليات المنسق والفعال لا يحدده

فقط اتقان وسائله الاساسية وتحويل الخطوط الحديدية الى الجر الكهربائي وزيادة سرعة وحمولة السيارات والسفن ، بل يحدده ايضا تحسين عمل الحلقات المساعدة . ومما له اهمية خاصة في هذا الصدد ، المكننة التامة لجميع انواع اعمال التحميل والتفريغ .

ويتحول **البناء** ايضا ، اكثر فاكثر ، الى عملية ممكننة لتجميع وتركيب المباني والمنشآت من بلوكات واجزاء مصنوعة في المصانع . وتصبح مواقع البناء شبيهة باقسام التجميع في المصانع . فمباني المصانع ودور السكن تجمع من اجزاء كمسا تجمع الماكنات .

الاتمتة في الاشتراكية والشيوعية . ان التكنيك الاوتوماتيكي في ايامنا هذه لا يقتصد بالعمل الحي وحسب . واذا كانت هذه حسنته الرئيسية ، الا انها ليست الوحيدة . فهو يسمح باستعمال منظومات لادارة العملية الانتاجية تضبط نفسها بنفسها ، وهذا ما يمكّن من الاستفادة على خير وجه من جميع العناصر الباقية من العملية الانتاجية : الخامات والمواد والمعدات . ومما يزيد من اهمية هذا ان المصروفات المادية هي الغالبة في تكاليف الانتاج العامة في كثير من فروع الصناعة .

وهذه الناحية الاخيرة تستهوي اكثر ما تستهوي رب العمل الرأسمالي . ولكن الميزات الاقتصادية للاتمتة لا تظهر في درجة واحدة في المجتمع الاشتراكي والمجتمع الرأسمالي ، وأما **عواقبها الاجتماعية فمتضادة تماما** .

ان اهم مشكلة يصطدم بها تطور الاتمتة في المجتمع الرأسمالي هي **مشكلة الاستخدام** . فالاتمتة في الاقتصاد الرأسمالي تؤدي حتما الى تكبير جيش العاطلين عن العمل .

والمشكلة الثانية التي تنشأ في البلدان البرجوازية عند استعمال الاتمتة هي **مشكلة السوق** . فالكثير من الشركات تخاف اتمتة المصانع وزيادة الانتاج زيادة سريعة بسبب عدم امكان تصريف المنتجات . فالمصنع المؤتمت لانتاج اجهزة الراديو في بريطانيا ظل ١٢ سنة ، بسبب صعوبات التصريف ، عاجزا عن بلوغ القدرة المشار اليها في التصميم .

بديهي ان مشكلة البطالة ، وكذلك مشكلة السوق ، ليستا بجديدتين على الرأسمالية . فهذه وتلك لم تنشآ كنتيجة للاتمتة وحسب . ولكن الاتمتة تجعلهما تتفاقمان وتتعقدان للغاية . وكلتا المشكلتين متصلة اتصالا وثيقا بانخفاض مستوى معيشة الجماهير الكادحة .

كثيرا ما تسمى الاتمتة في الغرب بـ «القوة الشيطانية» . بل لقد حسب الفيزيائي البريطاني جورج تومسون في كتابه «المستقبل كما يتراءى الآن» ، ان الماكنات الاوتوماتيكية المدارة عن بعد ستنتزع ، بعد جيل واحد من السكان ، العمل من ايدي الملايين من الناس الى الابد .

ولكن هل الاتمتة هي السبب حقا في كل المصائب والنكبات التي انصبت على الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية ؟ طبعا لا . وانما السبب الرئيسي الذي يجعل الاتمتة تبدو في بلدان الرأسمالية وكأنها شر من الشرور ، هو **فوضى الانتاج وعدم تخطيطه** .

ولأن الاتمتة تجسد المستوى الاعلى لقوى المجتمع المنتجة في مرحلة تطوره الحالية ، تتطلب بالحاح اقامة علاقات انتاج جديدة تفتح المجال واسعا امام تطور القوى المنتجة اليوم وغدا .

اما في ظروف الاشتراكية والشيوعية فان الاتمتة تمنح المجتمع امكانيات هائلة لا سابق لها ، لنمو القوى المنتجة وزيادة رخاء الشعب .

وطبيعي ان ادخال المعدات الاوتوماتيكية العالية المردود في المؤسسات السوفييتية يؤدي ايضا الى الاقتصاد بالعمل الحي . وفي بعض قطاعات الانتاج وبعض اقسام المصانع وحتى في مصانع بكاملها تتحرر احيانا بسبب ادخال الخطوط الاوتوماتيكية الجديدة والاتمتة الشاملة ، اعداد كبيرة جدا من العاملين .

ولكن التوسيع المنصوص عليه في الخطة لمقاييس الانتاج الاجتماعي سيتطلب زيادة عدد العمال والمستخدمين في الاقتصاد الوطني زيادة كبيرة . وهكذا فان العمال الذين يتحررون بنتيجة حلول المعدات الجديدة محل القديمة ، لا يواجهون خطر البطالة ، كما ان المنتجات الاضافية التي سيتم الحصول عليها بسبب التوسيع المتواصل للانتاج الاجتماعي لا تواجه خطر «الكساد» .

لا شك ان تدبير عمل للعمال الذين يتحررون بنتيجة حلول المعدات الجديدة الاوتوماتيكية محل القديمة ، ليس بالامر السهل . ويمكن هنا ايجاد حلول مختلفة . ففي بعض الحالات ، عندما يؤتمت المصنع ويوسع في الوقت نفسه ، يستخدم العمال المتحررون في المصنع ذاته . وفي حالات اخرى ينقل العمال والمستحدمون الى مصانع اخرى في المدينة أو المقاطعة أو من احدى المناطق الاقتصادية الى غيرها . وفي كلتا الحالتين لا يتعرض الكادحون لاية خسارة مادية .

كيف سينظم الاقتصاد الشيوعي

مع اتساع مقاييس الانتاج وتعقد الصلات الاقتصادية وكذلك مع التقدم السريع للعلم والتكنيك في مرحلة بناء الشيوعية ، لا بد لكل عمل التخطيط والقيادة الاقتصادية ان يرتفع الى مستوى جديد اعلى .

تجمع الانتاج . من الصعب الآن طبعا رسم لوحة كاملة للاقتصاد الوطني كما سيكون في المستقبل . ومع ذلك فان خطوط تطوره الرئيسية ترتسم منذ الآن بوضوح .

ومن هذه الخطوط الرئيسية استمرار تكبير الانتاج ، **تجميع الانتاج** . فعلى اساس المؤسسات الصغيرة لا يمكن الحصول على انتاجية عمل عالية ولا يمكن تنظيم انتاج المصنوعات أو الحاصلات الزراعية انتاجا واسعا . أما الانتاج الكبير فيقدم الامكانيات الواسعة لهذا . فمن الاربح هنا استخدام الماكنات المعقدة وخصوصا المكننة والاتمتة المجموعيتين . ويمكن في المؤسسات الكبيرة الاستفادة على اتم وجه من جميع افضليات التكنيك الحديث .

ولسوف يقوم الاقتصاد الشيوعي ، بوصفه ذا اعلى درجة من النظام والتكنيك ، على اساس الانتاج الكبير في معظمه . ولهذا يتجه الحزب الشيوعي والدولة السوفييتية اتجاها مستمرا نحو بناء مؤسسات ذات قدرة كبيرة . وعلى هذا الاساس وضعت الخطة السبعية . فاذا كان الاتحاد السوفييتي من قبل يبني محطات كهربائية حرارية قدرتها ٢٠٠–٦٠٠ الف كيلوواط ، فهو الآن يبني محطات تتراوح قدرتها بين مليون و ٢,٤ مليون كيلوواط . وقيمة الطاقة الكهربائية في المحطات الكبيرة ارخص مما في المحطات الصغيرة بـ ١٢ – ١٥ مرة .

ان عدد المؤسسات الكبيرة هو في الاتحاد السوفييتي اكبر مما في اي بلد آخر . ولكن امكانيات تجمع الانتاج لم تستنفد بعد . ولا تزال هناك مشروعات صغيرة غير قليلة . والآن يجري توحيد وتكبير المؤسسات المتشابهة الصغيرة وتكوين الشركات .

ومع التقدم نحو الشيوعية تزول المؤسسات والاستثمارات الصغيرة ، المتأخرة تكنيكيا ، بالتدريج ، ويحل محلها مشروع كبير متقدم تكنيكيا .

التخصص . لتنظيم الانتاج الحديث مبدأ هام آخر هو **التخصص** . ويتلخص كنهه في تقسيم العمل تقسيما محددا بين المؤسسات وفي ان المؤسسات أو بعض اقسامها التي تنتج منتجات متنوعة توجه لانتاج مصنوعات متماثلة . وهذا ما يسمح بالاستفادة على وجه افضل من الماكنات والخامات وباستعمال المعدات العالية الانتاجية وخصوصا الماكنات الاوتوماتيكية ، وبتحسين تكنولوجيا الانتاج ورفع جودته وتخفيض كلفته كثيرا .

ومن الامثلة على المؤسسات المتخصصة مصانع السيارات والجرارات التي تصنع انتاجا جاهزا متماثلا . وتنشأ ايضا مؤسسات تنتج قطعا معينة للماكنات – كمحركات السيارات والطائرات ، والرولمانات ، والاطارات ، الخ .. ويتحقق التخصص ايضا حسب مبدأ افراد عمليات انتاجية معينة – كمصانع السكب ، ومصانع الحدادة والكبس ، الخ ..

ان القسم الاكبر (الثلثين تقريبا) من قطع الربط القياسية – كالصواميل والبراغي وغيرها – تنتج في مؤسسات متخصصة في ظروف من مكننة الانتاج واتمتته الواسعة ، الامر الذي يجعل هذا الانتاج ريعيا . أما في اقسام المصانع الصغيرة وغير المتخصصة فلانتاج ثلث كمية القطع الجاهزة المعدنية الضرورية ، انفقت المصانع سنة ١٩٦٣ موارد تزيد بكثير عن كلفة انتاج ضعف كمية قطع الربط في المؤسسات المتخصصة . وهذا يعني ، اذا اخذناه على نطاق صناعة الماكنات كلها ، مصروفات اضافية سنوية تقدر بعشرات ملايين الروبلات ، «تسيل» في «جداول» عديدة لا تلحظ للوهلة الاولى .

وتتخصص الزراعة ايضا . فمناطق الشمال الغربي من البلاد مثلا ، وجمهوريات البلطيق ، والكثير من مناطق بيلوروسيا ،

وبوليسيه الاوكرانية تتخصص بصورة رئيسية بانتاج الحليب والشحم والمزروعات الصناعية .

ولجمهوريات ما وراء القفقاس وآسيا الوسطى افضل الظروف لزراعة الفواكه والعنب والحمضيات (الموالح) والشاي والقطن . وستتطور هذه المزروعات هنا تطورا اوسع .

وفي مناطق مقاطعات التربة السوداء الوسطى واوكرانيا والقفقاس الشمالي ، تتطور بوتائر اسرع زراعة الحبوب وتربية المواشي ، وتتسع هنا كثيرا زراعة الذرة والشمندر (البنجر) السكري .

وتنشأ حول موسكو ولينينغراد وكييف وغوركي وسفردلوفسك وغيرها من المراكز الصناعية الكبيرة ، مزارع لزراعة الخضار وكذلك لانتاج الالبان .

التعاون والجمع . ومع نمو التخصص ، ولا سيما في الصناعة ، ينمو الترابط بين فروع الاقتصاد والمؤسسات . فعمل مصنع ماكنات تشغيل المعدن يتوقف في كثير من النواحي على ما تقدمه مصانع السكب التي تنتج القطع نصف الجاهزة ، وعلى مصانع المحركات ومصانع الاعتدة . ولا يستغني مصنع الجرارات عن المعدات الكهربائية التي ينتجها مصنع متخصص . فلتأمين العمل الطبيعي للانتاج ، تنظم بين المؤسسات وفروع الاقتصاد صلات انتاجية وثيقة . ويسمى قيام هذه الصلات **بتعاون الانتاج** .

كما سيكون **لجمع الانتاج** دور هام في تنظيم اقتصاد المجتمع الشيوعي . ففوائد الجمع عظيمة . وهي تتكون من اجزاء كثيرة . فهنا ازالة المراحل المتوسطة غير المنتجة في العملية التكنولوجية ، والاستفادة الشاملة من الخامات ، واستعمال المعدات استعمالا اكثر سدادا ، وانقاص تكاليف النقل .

ان استخدام التكنولوجيا المجموعة يؤدي في عدد من الحالات الى اعادة تنظيم فروع كاملة من الصناعة بصورة كلية : فكثير من الفروع المتخصصة تتلاشى بالتدريج ويوكل امر انتاجها الى فرع آخر ينتج هذا النوع من المنتجات بفائدة اكبر بكثير . ففي المستقبل يرتأى مثلا تجميع حوالي ثلثي الانتاج الاجمالي للصودا وحوالي نصف انتاج الحمض الكبريتي ، في صناعة التعدين غير الحديدي ، أي الحصول عليها في سياق استخلاص المعادن الثمينة . ولامثال هذه المنتجات الحاصلة بالطرائق التكنولوجية المجموعية حسنة اخرى غير قليلة الاهمية وهي ان انتاجها في معظم الحالات لا يلوث الجو ولا يسمم احواض المياه . فما يسمى بالفضلات الصناعية لفرع ما ، يشكل مادة اولية ثمينة جدا لفرع آخر . ووجود فضلات كبيرة هو علامة اكيدة على عدم الكمال العلمي للعملية التكنولوجية .

ان المكننة الواسعة بالاضافة الى استخدام الانواع الجديدة من المواد اصبحت المقدمة الموضوعية للجمع في صناعة البناء ، اذ يظهر المزيد والمزيد من مصانع بناء البيوت التي انتاجها الاخير هو بيت جاهز للاستثمار . وان الفعالية الاقتصادية للجمع في اجراء اعمال البناء عالية : فمدد بناء الجزء الذي هو فوق الارض من البناية تنقص من ٧ ــ ٨ اشهر الى ٤ ــ ٥ اشهر . وتنخفض نفقات التنظيم لكل ١٠٠٠ متر مربع الى النصف .

وانها لملائمة للغاية الشروط اللازمة لانشاء المؤسسات المجموعة في صناعة المواد الغذائية وفي الزراعة . وهذا بديهي لان الخامات الزراعية مجموعية من حيث تركيبها . انها تأتي في مواسم مختلفة ويمكن لمعالجتها في المصنع ، في كل موسم من هذه المواسم ، استعمال معدات من النوع ذاته . وعلى هذا الاساس

يجري تدعيم الصلـــة الانتاجية للكولخوزات والسوفخـــوزات والمؤسسات الصناعية المحلية . وكما جاء في برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي ، تنشأ بالتدريج اتحادات زراعية صناعية .

تخصص المناطق . ان توزع الانتاج في الاتحاد السوفييتي يخضع للاتجاهات الاساسية لخطة الدولة العامة المدروسة علميا . وتضمن افضل تخصص للمناطق من وجهة نظر الاقتصاد الوطني باكمله . وكلما توزعت الصناعة والزراعة والنقل بصورة افضل واكثر سدادا ، وكلما استصلحت اراضي البلد بشكل اتم واكمل واستعملت الموارد الطبيعية والبشرية لمختلف المناطق بفعالية اكثر ، كانت امكانيات المجتمع لتلبية حاجاته المتزايدة اكبر . والفكرة الاساسية لتوزيع القوى المنتجة الصحيح ، النابعة من تقسيم العمل تقسيما متساويا وفقا للخصائص الطبيعية والاقتصادية والتاريخية لكل منطقة ، تتجلى بايجاز في **الاقتصـــاد بالعمل الاجتماعي** الى اقصى حدود الاقتصاد .

ويتجه الاهتمام في الدرجة الاولى الى سيبيريا .

فسيبيريا هي فعلا « بلد في بلد » سواء من حيث وفرة مواردها الطبيعية أو من حيث اتساع مساحاتها . كمـــا ان اوكرانيا والقفقاس الشمالي وما وراء القفقاس وآسيا الوسطى والقسم الاوسط والشمال الغربي ومنطقة الفولغا والاورال هي ايضا متنوعة في ثرواتهـــا الطبيعية . ولم تذكر هنـــا الا اكبر المناطق الاقتصادية في البلد ، التي تتركز في كل واحدة منها اكبر الموارد الطبيعية . وجميع هذه المناطق ستتطور وتنمو . ولكن سيبيريا تبذها جميعا في هذه الناحية . ان الامكانيات الهائلة لهذا الاقليم المدهش لم تتكشف بعد على اتمها . وان اكتشافها واستخدامها لبناء الشيوعية مهمة تقع على عاتق جيلنا الحالي وخصوصا الشباب . ويذهب الى هناك ، استجابة لنداء الحزب

الشيوعي ، الملايين من السوفييتيين الذين يعكفون على عمل عظيم وممتع ، مليء بالصعوبات والرومانطيقية ، ويتطلب سموا فكريا وعزما كبيرا ومعارف واسعة .

وسيتغير توزع الانتـــاج في كثير من النواحي في الجزء الاوروبي من الاتحاد السوفييتي ايضا . فهنا ايضا تنشأ المناطق الصناعية الاقتصادية الجديدة التي ستكون حلقـــات هامة في الاقتصاد الشيوعي .

ان القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية لن تكون مجرد مجموع الوف والوف مـــن المصانع والفبارك العالية المكننـــة والمؤتمتة . وانما ستكون اقتصادا واحدا منظما تنظيما جيدا يضم عددا كاملا من المناطق الصناعية والزراعية المتصلة فيما بينها اتصالا وثيقا .

التنظيم العلمي للزراعة

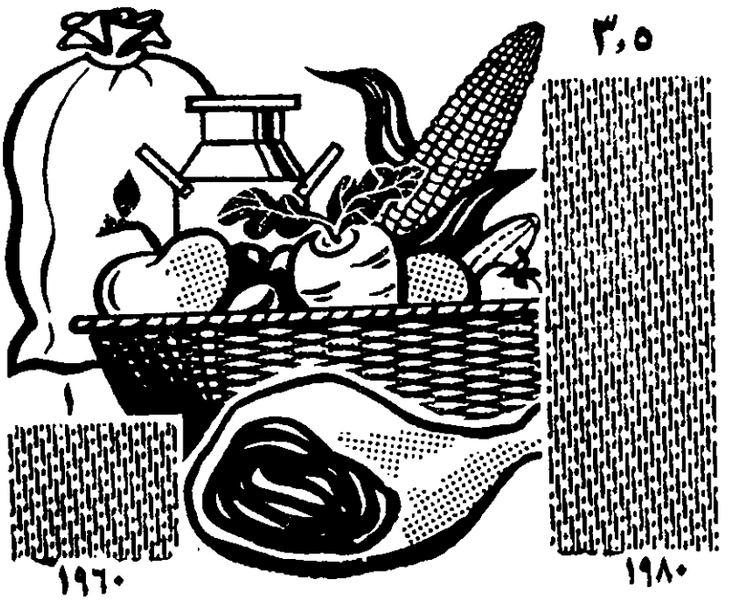
خطوة حاسمة جديدة . ان انشاء القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية يفترض التطور العاصف للصناعة والزراعة على السواء . وخطط تنمية الفروع الاساسية للانتاج المادي – الصناعي والزراعي – مترابطة فيما بينها وتستند الى منجزات هذه وتلك .

ويمكن زيادة الانتاج الزراعي بطريقين : بتوسيع المساحات المزروعة مع بقاء المستوى التكنيكي الزراعي على حاله (طريق التنمية التوسعي) وبالحصول من وحدة المساحة المزروعة على كمية متزايدة من المنتجات الزراعية (التنمية التأجيدية) . جاء في برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي : «ان الطريق الرئيسي لنهضة الزراعة ولتلبية حاجات البلاد المتنامية الى المنتجـــات الزراعية انمـــا هو طريق المكننة الشاملة **ورفع الانتاجية** المتواصل ...»

وفي ظروف الاقتصاد الاشتراكي يجري استثمار الاراضي الجديدة على اساس التطور المتواصل للتكنيك . وهذا ما اتاح

للاتحاد السوفييتي ان يستصلح في السنين الاخيرة ٤١,٨ مليون هكتار من الاراضي البكر والبور . والمهمة القائمة الآن هي تحويل الاراضي البكر الى مناطق لتربية المواشي مع رفع مستوى تأجيد العمل الزراعي فيها .

ان الارض هي وسيلة الانتاج الرئيسية في الزراعة . ولهذا فان تأجيد العمل الزراعي يتوقف قبل كل شيء على كيفية الاستفادة من هذا العامل الطبيعي الاساسي . ان الماكنة تهتري ، اما الارض فلا . فاذا احسن تشغيلها وسمدت وروعي التعاقب المعقول بين ما تزرع به من مزروعات ، أو كما يقول المهندسون الزراعيون ، اذا كانت الدورة الزراعية صحيحة ، فان خصب الارض سيزداد باستمرار .



نمو الانتاج الزراعي

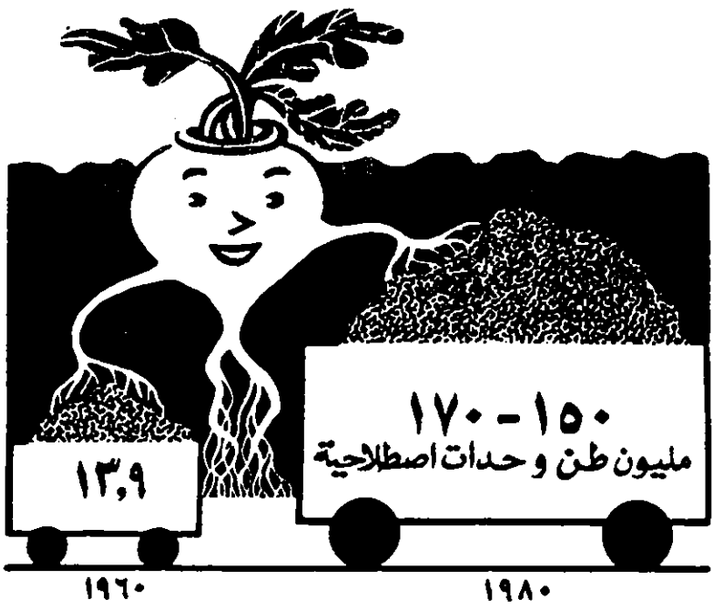
ماذا يجب لتأجيد الزراعة . ان تأجيد الزراعة يعني ، اولا ، الحصول على مزيد من الحاصلات من كل هكتار من الارض ، ويعني ، ثانيا ، رفع انتاجية العمل وتخفيض كلفة الانتاج على اساس **المكننة والكميأة** .

ومما يجعل مهمة تأجيد الزراعة السوفييتية ممكنة التحقيق عمليا ان القاعدة المادية التكنيكية للكولخوزات والسوفخوزات قد تغيرت تغيرا جذريا .

وتحصل الكولخوزات والسوفخوزات اكثر فاكثر على طرازات جديدة من الماكنات ذات علائم تكنيكية اقتصادية عالية تتفق

مع ظروف كل منطقة . كما تستعمل على نطاق واسع وسائل الاوتوماتيك . وستزيد التجهيزات التكنيكية للعمل الزراعي اجمالا الى ٣ ـ ٤ امثال . وطبيعي ان تأجيد الزراعة لا يفترض فقط زيادة عدد الماكنات الزراعية المستعملة في وحدة المساحة ، بل يفترض ايضا العمل المرتفع الانتاجية للتكنيك الزراعي والمحافظة عليه بعناية .

وان اهم الممهدات لتأجيد العمل الزراعي تأجيدا متتابعا ، **كهربته** من جميع النواحي وتحقيق هذه الكهربة لا على اساس زيادة عدد المحطات الكهربائية الصغيرة التي هي ، بسبب صغرها ، غير اقتصادية ، بل على اساس وصل الكولخوزات والسوفخوزات بمنظومات الطاقة الصناعية الاساسية .



نمو انتاج الاسمدة المعدنية

ثم ان خبرة العديد من السنين في استخدام الاسمدة والمواد الكيميائية لحماية النباتات والحيوانات ، وحساب فعاليتها الاقتصادية ، يدلان على ان **الكيمياة** هي من اقوى روافع تأجيد الزراعة . كتب العالم الكيميائي الزراعي السوفييتي البارز ، الاكاديمي بريانيشنيكوف ، ان الكيمياء تصنع «قارات جديدة» ، اي انها تقدم كميات من الحاصلات الزراعية والحيوانية الاضافية تعادل ما تنتجه بلدان كبيرة بكاملها .

احرز الكيميائيون والفيزيولوجيون والبيوكيميائيون في السنين الاخيرة نجاحات هامة في صنع واستخدام مواد كيميائية

جديدة لضبط نمو وخصب النباتات . ويمكن ان نذكر منها المستحضرات الكيميائية التي تزيد النمو اذا اعطيت بمقادير قليلة وتوقف التطور وتقتل النبات اذا اعطيت بمقادير كبيرة . ويزداد في الزراعة استخدام قاتلات الاعشاب وهي مواد تقتل الاعشاب المضرة في الحقول المزروعة ، ومقويات نمو الثمار والخضار ، والمواد التي تعجل استعراق الاشجار والجنبات وتشفي الجروح على الجذوع والاغصان والمواد اللازمة لمكافحة تساقط الثمار ، والمستحضرات التي تعيق تفتح البراعم وازدهار الاشجار في الربيع البارد ، وتعيق انتاش البطاطس في المستودعات عند حفظها ، وتزيل الفراخ التنبتية الجديدة على الاشجار المثمرة والقطن وغيرها من المزروعات (القص الكيميائي) . وتسهّل جني القطن بالماكنات ، الديفوليانت وهي مستحضرات لتعرية النبات من ورقه ، والديسيكانت وهي مستحضرات تساعد على تجفيف السيقان والاوراق وكلأ البطاطس والطماطم والصويا وغيرها من المزروعات . ويسمح استعمال الديفوليانت بجني القطن بالماكنات . وهذا ما يحرر عددا ضخما من الناس في جمهوريات آسيا الوسطى وغيرها من المناطق الجنوبية من زيادة التحميل الموسمية بالعمل الجسدي الشاق .

وتتغلغل الكيمياء في تربية المواشي ايضا . ويجري هذا التغلغل في تلاثة طرق اساسية : بشكل مستحضرات علفية ووسائل محافظة ومواد تضبط وتنظم العمليات الحيوية .

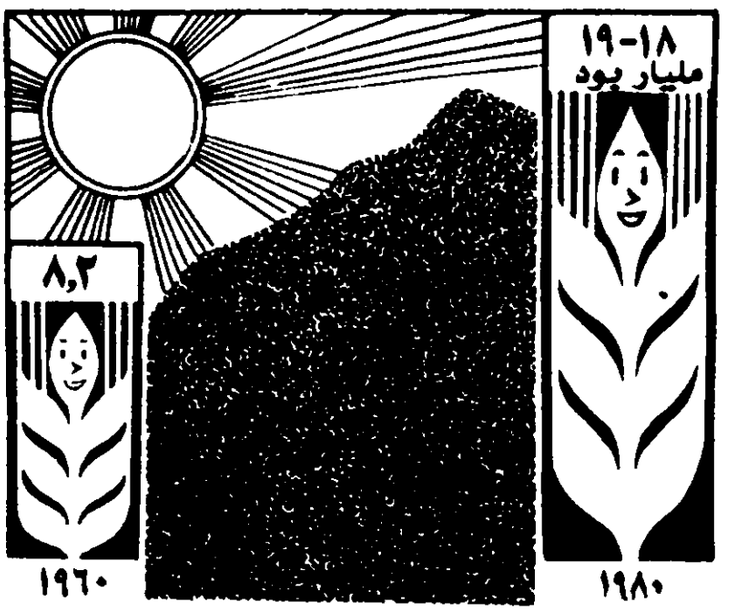
ان الفعالية الاقتصادية للمقويات الكيميائية عظيمة . فاطعام الحيوانات المجترة بالكارباميد يزيد من ادرار الحليب ووزن لماشية ، أما الاغنام فيزيد صوفها ايضا الى جانب زيادة وزنها .

وهناك امراض كثيرة عند الحيوانات تنتج من لسع الحشرات الماصّة للدماء (كالنعر والنبر والبعوض والذباب وغيره) وتنتقل بواسطة المياه الموبوءة والعلف الموبوء . وهناك بعض امراض تنتج من نباتات سامة . ولدرء هذه الامراض ومعالجتها تشغل المواد الكيميائية المكانة الرئيسية .

المحاصيل المضمونة والزيادة المضمونة للمنتجات الحيوانية .

ان الزراعة تتوقف كثيرا حتى الآن على احوال الطقس . فما العمل لعتق الزراعة من تقلبات الطقس الذي لم يتعلم الناس التحكم به بعد ؟

ان الطريق المأمون لجني محاصيل ثابتة في المناطق الجافة هو السقي وجر المياه (الري) . وهذا ما سيسمح بالاستفادة من اراضي الجنوب الغنية حيث تتوفر الشمس ولا يتوفر الماء . وبفضل الري ستستصلح ملايين الهكتارات من الاراضي في آسيا الوسطى وجنوبي روسيا الاتحادية واوكرانيا وفي جمهوريات ما وراء القفقاس . وهذا ما سيمكّن من الحصول دائما على الكمية اللازمة من الحاصلات الزراعية الثمينة كالقطن والرز والذرة وزيادة انتاج اللحم والحليب والزبدة والصوف . وستنتج الاراضي المسقية كمية اضافية قدرها مليار او مليار ونصف مليار بود من الحبوب ، أي زهاء ثلث الكمية المطلوبة لتلبيـــة حاجات البلاد .

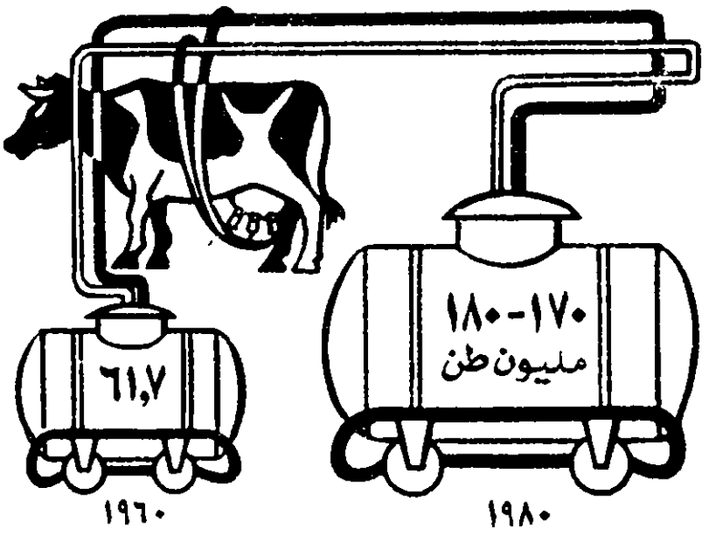


نمو انتاج الحبوب

ويرتـأى في عشريـن سنة ان تصل مساحـــة الاراضي المسقية اصطناعيا الى ٢٨ مليون هكتار . ويمكن

في الاراضي المسقية جني محاصيل عالية ثابتة – مضمونة – مهما كانت الاحوال . ولسقي المناطق الجافة في ظرف عشرين سنة ستستعمل مياه بعض الانهار الشمالية .

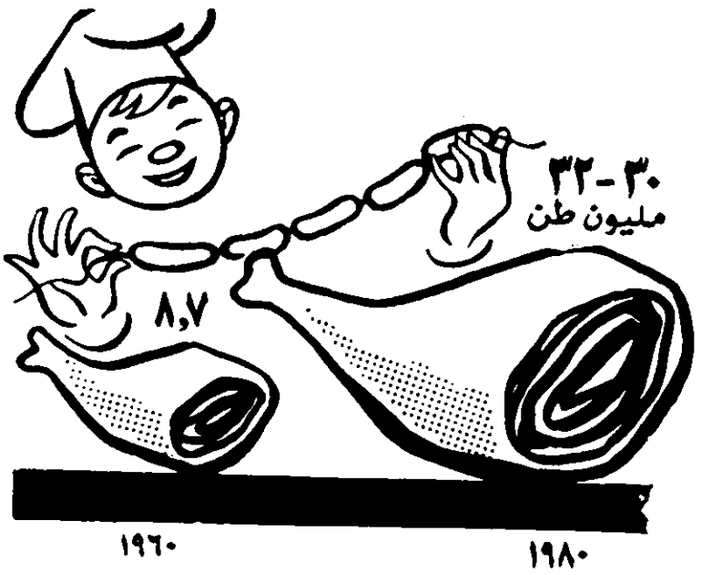
ومن المرتأى ان يصار بالتدريج الى استصلاح الاراضي المستنقعية في منطقة التربة غير السوداء في الجزء الاوروبي من الاتحاد السوفييتي ، التي تشغل مساحة ٢٠ مليون هكتار تقريبا .



نمو انتاج الحليب

وتقوم البلاد بمهمات كبيرة في تربية المواشي ايضا للحصول على ادرار مضمون للحليب وعلى زيادة مضمونة في اللحوم . ولبلوغ هذا الهدف تستعمل طرائق العمل التقدمية والماكنات الجديدة الاكثر اتقانا .

وبهذا يتم تحقيق التنمية لجميع فروع الزراعة وايجاد الوفرة من المحاصيل الزراعية والحيوانية باسرع ما يمكن . وان تربية المواشي متصلة اتصالا مباشرا بالحبوب : فكلما ازدادت المزروعات العلفية ارتفعت انتاجية تربية الماشية ، اي ازداد القطيع وازدادت كميات اللحم والحليب .



نمو انتاج اللحم

والمطلوب الآن جعل منجزات العلم وخبرة المشروعات الزراعية الطليعية في متناول جميع الكولخوزات والسوفخوزات .

واتخذت التدابير لتوطيد القاعدة المادية التكنيكية للانتاج الكولخوزي والسوفخوزي . كما اتخذ نظام جديد فى شراء الدولة للمحاصيل الزراعية على اساس برنامج ثابت ورفعت اسعار شراء هذه المحاصيل . هذه وغيرها من الحوافز المبنية على اساس علمي تساعد على استمرار تطور الزراعة وتزيد من مصلحة الفلاحين المادية فى نتائج عملهم .

العلم قوة منتجة عظيمة

العلم والانتاج . تغلغل العلم باديٌ ذي بدء في الانتاج مع التكنيك الآلي المعقد : فقد كانت قوانين الميكانيك تساعد في تصميم الماكنات وكانت الفيزياء والكيمياء تسمحان باتقان التكنولوجيا التي تكونت عن طريق الخبرة .

اما الآن فقد تغير الوضع تغيرا جذريا . فمن تفسير ظواهر الطبيعة انتقل العلم الى تقليد ما يجري في الطبيعة من عمليات وتفاعلات كيميائية بل لقد سبق الطبيعة في كثير من النواحي . فالطرائق التي اكتشفها العلم لتجمّع الطاقة الضوئية في حزم دقيقة مثلا غير معروفة في الطبيعة . وهناك كثير من المواد التي صنعت بطريقة التركيب والتي تملك الصفات اللازمة للصناعة غير موجودة في الطبيعة ايضا .

ويجهز العلم نفسه بقاعدة انتاجية قوية خاصة به . فهناك «اجهزة» علمية حديثة للغاية ، كالمسرّعات الهائلة للجسيمات الاولية ، التي يبلغ قطر مغنطيسها بضعة مئات الامتار والتي يخدمها حوالي الف شخص ، والانابيب الضخمة لاختبار الانسيابية ،

والمكروسكوبات الاليليكترونية ، والتجهيزات الاليليكترونية الحاسبة . وكل هذه انشاءات هندسية معقدة .

كما ان الانتاج المبني على نتائج احدث الابحاث العلمية هو بدوره ، في غالب الحالات ، عبارة عن عملية مكبرة الى حد هائل من الابحاث المخبرية . وجميع كبريات التحويلات التكنيكية تبدأ الآن من مرحلة البحث العلمي . والاختراع في الانتاج في الظروف الحالية يشتمل حتما على عناصر من البحث العلمي .

وبكلمات اخرى يتحول العلم بالتدريج الى قوة منتجة مباشرة . ولكن هذا غير ممكن الا في مجتمع يسير نحو الشيوعية . فلماذا ؟

ذلك لأن توسيع دائرة الاستعمالات التكنولوجية للعلم منطلق هام ولكن غير حاسم لتحول العلم الى قوة منتجة مباشرة . ولا يستطيع العلم تماما ان يصبح قوة منتجة الا عندما يتطور الانتاج الاجتماعي تطورا متناسقا ، عندما لا تخدم الاستعمالات التكنولوجية تقدم وسائل الانتاج وحسب بل تساعد في الوقت نفسه ايضا على تطوير الانسان نفسه الذي هو القوة المنتجة الاساسية في المجتمع . فدرجة استيعاب احدث المنجزات العلمية في الممارسة تتوقف توقفا مباشرا على مدى استعداد الانتاج نفسه والظروف الاجتماعية التي بتحقق فيها لهذا الاستيعاب .

ولكن هذا الاندماج بين العلم والقوة المنتجة الاساسية في المجتمع – اي الانسان ، صانع العلم وحامله ودليله – غير ممكن الا في مجتمع يجري فيه تطور الانتاج بشكل غير عفوي . ولاول مرة في التاريخ تملك الشيوعية بصورة تامة جميع المنطلقات الضرورية لهذا الاندماج . وكلما اقترب المجتمع من الشيوعية في الاتحاد السوفييتي ظهرت سيطرة الانسان ، المسلح بالمعرفة العلمية ، على وسائل الانتاج بصورة اوضح .

نحو قمم التقدم العلمي . ان العلم السوفييتي والعلمـــاء السوفييتيين يناضلون في سبيل شق الطرق باسرع ما يمكن الى «القمـم المشرقة» للمعرفة ، التي كتب عنهـا كارل ماركس باسلوب شعري .

ان الاتحاد السوفييتي يشغل منذ الآن مكان الصدارة في عدد من اهم ميادين العلم . وقد ثبت هذا ، بقوة خاصة ، بالتطور الواسع لاستعمال الطاقة الذرية السلمي وبالنجاحات الباهرة التي احرزتها الملاحة الفضائية السوفييتية .

ان دراسة الفضاء ستسمح في المستقبل بالحصول على صورة اوضح عن مختلف الظواهر الجوية ، وبفتح الطريق نحو التحكم بالطقس ، واقامة الاتصالات اللاسلكية والتلفزيونية المضمونة ، وحل كثير من المسائل العملية الهامة الاخرى .

وتنتظر البلاد من العلماء الفيزيائيين السوفييتيين الذين ضمنوا للاتحاد السوفييتي التفوق والاولية في الطاقة الذرية ، ان يمتلكوا ناصية نوع جديد من الطاقة ــ الطاقة النووية الحرارية .

لقد اقترب العلم اقترابا تاما من المواقع العملية في وضع طرائق جديدة مبدئيا وغير آلية لتحويل الحرارة الى طاقة كهربائية (المولدات المغنطيسية المائية الديناميكية والمولدات الحرارية على اساس انصاف النواقل) .

وسيسمح الكشف عن الجوهر الفيزيائي الكيميائي والاليات للعمليات البالغة حدا فائقا من الاقتصاد والفعالية ، التي تجري في الاجسام الحية (كتركيب الزلال ، و«ربط» الآزوت الجوي ، وعمل العضلات ، الخ .) ، بوضع الكثير من اسرار الطبيعة المدهشة في خدمة الانتاج المادي ، وفي الوقت نفسه ، بامتلاك وسائل

جبارة لتجديد العضوية البشرية والانتصار نهائيا على ابشع الامراض .

وبسبب الاتساع الكبير لجبهة الابحاث العلمية نشأت في الفروع المتاخمة من علوم الطبيعة (عند «مواضع تماسّ» الكيمياء والفيزياء ، والكيمياء والبيولوجيا ، الخ .) مشاكل جديدة كل الجدة لتنظيم وتنسيق جميع الابحاث العلمية الجارية في البلاد ، تنظيما وتنسيقا على نطاق الدولة بأسرها .

ان الظروف الخاصة لاستعمال العلم في الانتاج في المجتمع الاشتراكي والشيوعي تتجلى لا في مجرد تغير طابع ومدى استعمال كل مجموعة العلوم الطبيعية لتطوير القوى المنتجة . وانما تفتح علاقات الانتاج الاشتراكية باب عصر جديد ، عصر تطبيق كل العلوم ، بما فيها العلوم الاجتماعية ، تطبيقا واعيا على تطوير القوى المنتجة في المجتمع .

ويثير بناء الشيوعية كثيرا من المسائل التي ليست لها اجوبة جاهزة . ولا يمكن ان يعطي هذه الاجوبة غير درس ممارسة البناء الشيوعي وتعميمها النظري ، ودراسة القوانين الاساسية لتطور الاشتراكية الاقتصادي والسياسي والثقافي ولتحولها الى شيوعية ، وتحليل مسائل التربية الشيوعية .

* * *

وهكذا تتبعنا الطرق الرئيسية لتطور الاساس المادي الذي ستنشأ عليه العلاقات الجديدة الشيوعية بين الناس . ولسوف تتجاوز القاعدة المادية التكنيكية للمجتمع الشيوعي المقبل بمسافة بعيدة حدود ذلك المستوى للقوى المنتجة الذي اوجدته الرأسمالية ، وتمتص اعلى منجزات التقدم العلمي والتكنيكي ، وتسلح الاتحاد السوفييتي باكمل واقوى تكنيك .

تشكل العلاقات الاجتماعية الشيوعية

كان من نتيجة بناء الاشتراكية ان قضي الى الابد على الشر الرئيسي للمجتمع الطبقي ، وهو اضطهاد الانسان للانسان . فجميع السوفييتيين الآن يعملون في الاقتصاد الاجتماعي ويتقاضون اجورهم حسب عملهم ويشتركون على التساوي في شؤون الدولة .

ولكن الفروق الطبقية وما يتصل بها من فروق اجتماعية اخرى (بين المدينة والقرية ، وبين الكادحين بايديهم والكادحين بادمغتهم) لم يقض عليها نهائيا . وما دامت موجودة لا يمكن قيام مساواة تامة في ظروف عمل ومعيشة الناس . ولهذا فان تذليل هذه الفروق وانشاء المجتمع اللاطبقي هو اهم مهمة للبناء الشيوعي .

نحو مجتمع بلا طبقات

الملكية الشيوعية هي اساس المجتمع اللاطبقي . ان السبب الاساسي للفروق الطبقية الباقية هو ان عمل العمال متصل بملكية الشعب كله فيما ان عمل الفلاحين متصل بالملكية الكولخوزية (التعاونية) . ولن تزول هذه الفروق الا عندما تقوم مكان شكلي الملكية الاشتراكية **ملكية شيوعية واحد على وسائل الانتاج** .

فكيف سيحدث هذا ؟

في اثناء بناء القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية **تتطور ملكية الشعب كله** . فينمو حجمها : اذ تدخل دولاب العمل كل سنة الوف من جديد المصانع والفبارك ، والمدارس ودور السكن ، ودور السينما والاندية ، والعيادات العامة والاستادات ، وتتجدد معدات المؤسسات الصناعية ، وتزداد قدراتها الانتاجية . وفي الوقت نفسه يجري تجمّع الانتاج وتخصص وتعاون المؤسسات ، ويتحسن توزّع القوى المنتجة ، وتتقن ادارة الاقتصاد الوطني .

أما ملكية الشعب كله الاشتراكية فتتحول بطريقة مباشرة الى ملكية شيوعية . وأما الملكية الكولخوزية فامرها اكثر تعقدا : اذ ان عليها ان تقترب من ملكية الشعب كله وان تندمج معها في كل واحد . فكيف يتم حل هذه المسألة ؟

ان البلد والشعب يحتاجان الى خبز ولحم وحليب وغير ذلك من المواد التموينية بكميات متزايدة ، وضروري لاجل هذا استعمال التكنيك الجديد واستخدام منجزات العلم في الزراعة وتربية المواشي استخداما واسع النطاق وتحسين تنظيم العمل – اي الحصول على **نهوض عارم للقوى المنتجة في الزراعة** . وفي هذا مفتاح حل المشكلة ، لان النهوض بالانتاج الكولخوزى يؤدي الى تطوير الملكية الكولخوزية الى ان تندمج مع ملكية الشعب كله .

هل تستطيع الملكية الكولخوزية ان تضمن هذا التطور وهذا الانطلاق للقوى المنتجة ؟ لا شك انها تستطيع . ففي البلد عدد كبير من الكولخوزات التي تعطي نتائج ليست اردأ ، وفي بعض الحالات احسن ، من نتائج السوفخوزات . وهذا يعني ان الشكل الكولخوزي للانتاج لم يستنفد امكانياته ولا

يزال ينطوى على الاحتياطيات الهائلة التي من الضروري الاستفادة منها حتى النهاية . ولهذا يتطور في الزراعة في الاتحاد السوفييتي ، شكلا الانتاج السوفخوزي والكولخوزي على السواء .

تقارب شكلي الملكية الاشتراكية . لنر الآن كيف يؤدي نهوض الانتاج الكولخوزي وتحول الكولخوزات الى فبارك حقيقية للحاصلات الزراعية والحيوانية ، الى ارتفاع مستوى الطابع الاجتماعي للملكية التعاونية ويقرّبها من ملكية الشعب كله .

مع نمو الانتاج الكولخوزي **تزداد** باستمرار **حصة الصناديق غير المجزأة*** في الاملاك الاجتماعية للكولخوزات بالقياس الى اقساط الاشتراك (فهذه الاخيرة تشكل في موارد الكولخوزات اقل من ٣ بالمئة وهي في انخفاض) . وكلما ازدادت حصة الصناديق غير المجزأة ازداد اقتراب الملكية الكولخوزية ، في محتواها الاقتصادي ، من ملكية الشعب كله .

ففي الجرارات والحصادات وفي كل معدات الانتاج الزراعي الحديث المتنوعة والمتقنة ، يتجسد عمل كل الشعب السوفييتي : عمل الفلاحين الكولخوزيين انفسهم وعمل الطبقة العاملة وعمل المثقفين .

---

* ان الصندوق غير المجزأ هو من اهم الصناديق التي تنشأ في الكولخوزات لتوسيع الاقتصاد الاجتماعي وتحسين خدمة الكولخوزيين الثقافية والمعيشية . ولا تخضع موارد هذا الصندوق للتوزيع على اعضاء الكولخوز . ويتألف الصندوق غير المجزأ من الجرارات ، والحصادات الدارسات ، وغيرها من الماكنات الزراعية ، والقوى المحركة ، ووسائل النقل ، وماشية الجر والانتاج ، والمباني والانشاءات ، والاغراس المعمرة ، والموارد النقدية الموجهة لتطوير الاقتصاد الاجتماعي .

وبمقدار ما يتطور الاقتصاد الاجتماعي للكولخوزات **تتكامل علاقات الانتاج داخل الكولخوزات** . فالكولخوزات تلبي ، تلبية اكمل فاكمل ، حاجات اعضائها الى الخبز والحاصلات الزراعية والحيوانية الاخرى ، وعلى هذا الاساس يصبح الاقتصاد الشخصي المساعد ، بالتدريج ، غير ضروري . ويطبّق نظام الاجازات المدفوعة الاجر والتأمين التقاعدي والمدفوعات الاخرى ، كما في مشروعات الدولة .

وفي السنين الاخيرة تتطور بنجـاح **الصلات الانتاجية بين الكولخوزات** ، واشكال التعاون المختلفة فيما بينهـا . فكثيرا ما يعجز الكولخوز بمفرده عن بناء محطة كهربائية أو مصنع لمعالجة الخامات الزراعية معالجة اولية أو دار استجمام للكولخوزيين أو غير ذلك . ولهذا توحد عدة كولخوزات متجاورة مواردها وتبني بقواها المشتركة . وكثيرا ما تقوم الكولخوزات بمثل هذا البناء بالتعاون مع مشروعات الدولة . وبديهي ان هذه المشروعات وغيرها من الانشاءات التي من هذا النوع لا يمكن نسبها للملكية التعاونية فقط : فهي لا تختلف كثيرا عن مشروعات ملكية الشعب كله . وبذلك يجري **توحيد** مباشر **لوسائل الانتاج الكولخوزية مع وسائل الانتاج التابعة للدولة** .

ومن الافضليات الرئيسية للملكية الاشتراكية ، كما هو معروف ، انها تمكّن من تخطيط الانتاج . والآن يصار في هذه الناحية ايضا الى ازالة الفرق بين شكلي الملكية الاشتراكية : ففي الكولخوزات (باعتبار خصائصها كمؤسسات تعاونية) تستخدم بنجاح اكمل **طرائق واساليب التخطيط** المستعملة في الصناعة .

ويجري اتقان **تنظيم العمل في القرية وادارة الانتاج الزراعي .**

ان نمو الصناديق غير المجزأة ، وتطور الصلة بين الكولخوزات نفسها وبين الكولخوزات والدولة ، وكذلك اتقان الجوانب الاخرى من علاقات الانتاج ، تدل على ان الملكية الكولخوزية تقترب من ملكية الشعب كله . ولكن هل يعني هذا ان كلا شكلي الملكية الاشتراكية يتطور بذاته : احدهما يسير الى امام والآخر يلحقه ؟ طبعا لا . ان اكبر دور في نمو الانتاج الكولخوزي (وبالتالي في رفع مستوى الطابع الاجتماعي للملكية الكولخوزية) هو دور كهربة العمل الزراعي وكميأته ومكننته المجموعية واتمتته . وتقوم بهذه المهمة الصناعة التي تزوّد القرية بالمعدات القوية والاسمدة وتحوّل الحاصلات الزراعية والحيوانية .

وتطور احد شكلي الملكية متصل بتطور الشكل الآخر اوثق الاتصال ، مع العلم ان الدور الرئيسي في هذا التطور هو لملكية الشعب كله وان هذا التطور يؤدي الى اندماج شكلي الملكية . وعندما تتم هذه العملية يزول الفرق الاساسي بين الطبقات . ففيم سيتجلى هذا ؟

ان جميع اعضاء المجتمع سيعملون في المشروعات الصناعية والزراعية الخاصة بالشعب كله .

وستكون للجميع ظروف عمل واحدة تقريبا* .

---

* لم نقل هنا كلمة «تقريبا» عن عبث . ذلك لان الفرق في ظروف العمل بسبب خصائص الانتاج الزراعي سيبقى مدة معينة اخرى . ولكن هذا الفرق لا يعود له طابع اجتماعي .

وسينال الجميع جزاء عملهم من موارد الشعب كله وسيتمتعون بالتساوي بالخيرات التي توزع بواسطة الصناديق الاجتماعية .

المدينة والقرية

طرق تطور القرية . ان عملية **ازالة الفروق الاجتماعية بين المدينة والقرية** ، هذه العملية التي لها اهمية كبيرة في انشاء المجتمع اللاطبقي ، متصلة بتكوّن الملكية الشيوعية .

ولكن من المهم ألا يغيب عن البال ان الفروق الاجتماعية بين المدينة والقرية لا يمكن اعتبارها بكليتها هي والفروق الطبقية شيئا واحدا : فليس هذا صحيحا لان في القرية يعيش ويعمل لا الكولخوزيون فقط بل عمال السوفخوزات ايضا وفصيلة كبيرة من المثقفين الريفيين . ومن جهة اخرى فان سبب الفروق التي لا تزال باقية لا يكمن فقط في تناحر الطبقات السابق بل ايضا في الظروف التاريخية لتطور المجتمع . فلأن المدن مركز الصناعة اصبحت منذ زمان بعيد حاملة ثقافة اعلى في العمل ونمط الحياة ، وبذلت الطبقات المستغلة جهدها لتخليد هذا التأخر وحوّلته الى تضاد اجتماعي .

لقد سبق القول ان انتصار العلاقات الاشتراكية في جميع فروع الانتاج الاجتماعي قد ادى الى زوال هذا التضاد . فلم تعد القرية مجرد ملحق للمدينة يورد لها المواد الاولية ، بل تحولت الى احدى الحلقات المتساوية في نظام الاشتراكية الاجتماعي .

ولم تكف المدينة عن التحكم بالقرية وحسب بل انها تقدم لها مختلف انواع المساعدة . ففي احرج اللحظات التاريخية

من حياة القرية كانت الطبقة العاملة ترسل عشرات الالوف من خيرة ابنائها لمساعدة الفلاحين الكادحين على تنظيم الكولخوزات والقضاء على العوز والتأخر . وقدمت المدينة للقرية معدات من احدث طراز ضامنة لها بذلك زيادة سريعة في انتاجية العمل الزراعي . وارصدت الدولة عشرات مليارات الروبلات لتوظيفها في الزراعة وقروضا لبناء المؤسسات الاجتماعية ودور السكن ومؤسسات الخدمة الثقافية والمعيشية وغيرها في القرية .

والى جانب التطور الاقتصادي غيرت الثورة الثقافية وجه القرية . ففي القرية الان يعمل مئات الالوف من الاختصاصيين ذوي المراتب العالية من ذوي التحصيل العالي والثانوي – بين مهندسين زراعيين وخبراء في الحيوانات واطباء ومهندسين ومعلمين . وتعلم الملايين من سكان القرى مختلف المهن الميكانيكية . ومن الصعب تصور قرية عصرية بدون مدرسة ومستشفى ودار ثقافة ومكتبة عامة ومكان لعرض الافلام السينمائية واجهزة راديو وفرق للفنانين الهواة ومنظمات رياضية .

ولكن لا تزال بين المدينة والقرية فروق جوهرية . فالقرية اجمالا لا تزال متأخرة تأخرا جديا عن المدينة من حيث ظروف السكن ووسائل الراحة . وهي متأخرة عن المدينة من حيث مستوى الثقافة ايضا . وهنا ، في الحقيقة ، تظهر بقايا التفاوت الاجتماعي السابق التي ستزول نهائيا في اثناء بناء الشيوعية .

يرسم برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي مجموعة كاملة من التدابير التي من شأنها القضاء على تأخر القرية . فالدساكر والقرى ستحصل على جميع وسائل الراحة التي تستجيب لمطالب

الخدمات العامة العصرية . وفي الوقت نفسه سيتطور نظام التعليم العام وشبكة المؤسسات الثقافيـــة . وسيكون بوســع سكان القرى الاستفادة من جميع الخيرات المادية والروحية على قدم المساواة مع ابناء المدن .

وتحت تصرف الانسان المقيم في الريف الآن مختلف انواع وسائل الراحة والخدمات المتزايدة سنة بعد سنة . فهل يشعر هذا الانسان بغبن من ناحية ما بالنسبة لساكن المدينة ؟ ابدا . وانما الامر بالعكس . فالحياة الريفية ، الى جانب مختلف الظروف المتساوية الاخرى ، تملك عددا من المميزات بالنسبة للمدينة ، وهي : الهواء النظيف ، والهدوء ، والمتعة الفنية المتأتية من اتصال الانسان الدائم بالطبيعة الحية .

هناك مشكلة عكسية : هي تنقية جو المدينة . وهذه المشكلة ستنحل في النظام الشيوعي . ومنذ الآن يجري عمل كبير لتخضير المدن ، وتشاد حول موسكو وغيرها من المراكز الصناعية الكبيرة اولى المدن الضواحي التي تجمع في نفسها خيرة صفات حياة المدينة وحياة القرية على السواء . وبتعبير آخر ، فكما ستنهض القرية لتصل الى مستوى المدينة في ظروف المعيشة والثقافة ، كذلك سترتفع المدينة الى مستوى القرى من حيث ظروف الصحة والقرب من الطبيعة .

وكل هذا سيؤدي الى زوال مفهوم القرية نفسه بمعناه المعتاد اليوم . فالمدن المخططة تخطيطا سديدا ، والمخلّصة من الازدحام ، والمنظفة من السخام والدخان ، ستندمج مع صف لا نهاية له من البلدات التي تتوفر فيها وسائل الراحة .

اضف الى ذلك وسائل الاتصـــال الممتـــازة التي بفضلها لن يبقى مكان للاحســـاس بالبعـــد . فطائرات

«تو ـ ١٠٤» تنقل اللينينغراديين الآن الى موسكو في ٥٠ دقيقة ـ اي مقدار ما يلزم لابناء موسكو المقيمين في اطرافها للوصول الى مركز المدينة . وستحل محلها طائرات للركاب تفوق سرعتها سرعة الصوت ثم يأتي دور الطائرات ـ الصواريخ . وقصارى القول ان زيارة هذه او تلك من الاماكن لحاجة من حاجات الوظيفة أو لحاجة شخصية ستصبح اقل تعقيدا من زيارة الاقارب الآن في قرية مجاورة .

ان اجهزة الراديو والتلفيزيون الاقوى بكثير مما هي عليه الآن ، والجرائد الجديدة ، والمخابرات التلفونية بدون طلب مسبّق ولا انتظار ممل ـ كل هذا سيسمح للناس ، اينما كانوا ، بتلقف الانباء دون تآخر وبالاطلاع على جميع الحوادث .

تحول العمل الزراعي الى نوع من العمل الصناعي . واخيرا ، ـ وهذا اهم شيء ، ـ **سيتحول العمل الزراعي الى نوع من العمل الصناعي** بفضل مكننة (ثم اتمتة) الانتاج الزراعي وتطبيق العلم في الزراعة وتربية الماشية .

منذ الآن يدخل التكنيك الحديث في العمل الزراعي . فجهاز الحلب الكهربائي الدوار وغيره من الآلات التكنيكية الاخرى تتطلب من العاملين ثقافة خاصة وعامة عالية . واستخدام الطرائق العلمية لزيادة مردود الحيوانات امر غير معقول بدون معرفة بعض اقسام البيولوجيا والطب البيطري وغير ذلك . وتنفتح امكانيات لا تنفد للبحث عن اكثر الطرق الزراعية سدادا والتجريب والابداع .

وتتحول الكولخوزات والسوفخوزات الى فبارك حقيقية لانتاج الحبوب واللحم والحليب وغيرها من المواد التموينية .

وما العمل في الفبركة الا عمل صناعي يتطلب ، عدا الثقافة الاعلى ، مستوى اعلى من وعي العاملين الجماعي .

ان العمل الزراعي اصعب على الاتمتة بطبيعته ، لان عمليات الانتاج في الزراعة وتربية الماشية متقطعة ولا يشترك فيها الانسان والتكنيك وحدهما بل تشترك فيها ايضا الطبيعة التي حددت مواعيد نضج النبات ونمو الحيوان وغير ذلك . ولكن هذا لا يعيق اطلاقا اتمتة عدد من العمليات منذ الآن (كالجرار الاوتوماتيكي ، مثلا ، الذي اخترعه شغيل الماكنات الزراعي لوغينوف) ، وفي مستقبل ابعد ستصبح من الممكن الاتمتة الشاملة لمعظم الاعمال الزراعية .

ان تحول العمل الزراعي الى نوع من العمل الصناعي يخلق الظروف اللازمة لكي يجمع المشتغل في الزراعة ، كالمشتغل في الصناعة ، بين العمل العقلي والعمل الجسدي في نشاطه .

العمل العقلي والعمل الجسدي

من التضاد الى الوحدة . منذ ايام الاشتراكيين الطوباويين كان هؤلاء يحلمون بمجيء وقت يمكن فيه القضاء على احدى اعظم مظالم المجتمع الطبقي – تقسيم الناس الى كادحين بادمغتهم وكادحين بايديهم .

لقد قضت الاشتراكية على التضاد الماضي في هذا الميدان . فالعمل العقلي في النظام الاشتراكي لم يعد امتيازا يتوارث ، وانفتح باب المعرفة امام الجميع . ان المثقفين السوفييتيين هم

من طينة العمال والفلاحين الكولخوزيين ، مصالحهم واحدة ومصائرهم واحدة . ومن جهة اخرى اشركت الثورة الثقافية الجماهير الشعبية الواسعة في العلم والتكنيك والفن . فهناك مليونان ونيف من المخترعين والمبدعين ، ومئات الالوف من الفنانين الهواة ، والملايين من العمال والفلاحين الذين يملأون اوقات فراغهم بالدراسة والخلق ، — وهؤلاء اناس مثقفون باسمى ما لهذه الكلمة من معنى .

طبيعي ان هذا كله لا يغير الواقع . والواقع الذي نقصده هنا هو ان المجتمع لا يزال منقسما الى اناس يعملون بادمغتهم وآخرين يعملون بايديهم . فهل يمكن القضاء نهائيا على هذا الانقسام وكيف يمكن القضاء عليه ؟ ان من الحلول التي اقترحها الاشتراكيون الطوباويون في زمانهم المناوبة بين العمل العقلي والعمل الجسدي .

وهذه المناوبة موجودة الآن في نشاط الكثيرين من الناس . فالعامل الذي ينجز مهام عمله ، مثلا ، يجلس للدراسة أو لعمل اتقان تكنيكي . والرياضي الذي يعكف طول يومه على المسائل النظرية يرتب شؤون الحديقة في وقت فراغه . وفي هذه الحالات يجري استبدال المشاغل في خارج اوقات العمل ، أما المهنة الاساسية للانسان فتبقى هي هي ، ويغلب فيها ، كالسابق ، اما العمل العقلي أو العمل الجسدي .

وستتطور المناوبة في العمل تطورا اكبر بمقدار ما ينخفض يوم العمل . وهي مفيدة للانسان وللمجتمع على السواء . ولكن الانتاج الحديث والعلم الحديث يتطلبان من الناس التخصص . وايا كان العمل — عمل الاجستور أم المهندس الزراعي ام المعلم ، فلا بد له من معارف وتجربة ومرتبة تخصص . وللحصول على المهارة يجب على الانسان ان يقف نفسه ، في الاساس ، على

مهنة معينة ، والا فمن الصعب ان ننتظر منه انجازات هامة ما في الانتاج والعلم والفن . ان كل شيء يدل على ان التخصص العميق ضروري وان على الناس ان يمتلكوا ناصية مهنهم لحد الكمال .

فاين اذن حل المشكلة ؟

الظاهـر ان الحل هو في تغيير محتـوى العمل الجسدي تغييرا يقربه من العمل العقلي . وبكلمات اخرى ، يجب ان يتطلب العمل نفسه في الانتاج من العاملين ثقافة عقلية عالية وان يتيح امكانيات للابداع .

والى هذا بالذات يؤدي بناء القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية . فقبل كل شيء يزول العمل اليدوي المرهق اذ تأتي الماكنات لمساعدة الانسان فى كل مكان . ففي العقدين أو الثلاثة من السنين الاخيرة وحدها تلاشت الى الابد بضع مئات من المهن التي كانت تتطلب جهدا بشريا فائق الحد وتلحق ضررا كبيرا بصحة الناس وتنقص عمر الانسان .

وكلما اصبحت الماكنات اكثر تعقدا اصبحت تتطلب من العامل الذي يديرها معرفة اكبر لاسس مختلف العلوم وتفهما اعمق لتكنولوجيا الانتاج . فالعامل لا يعود يستطيع الاكتفاء بان يكرر ميكانيكيا ما تعلمه من حركات بل يجب عليه باستمرار ان يستعين بمعلوماته وان يضعها في عمله مباشرة . وبذلك تنشأ الظروف اللازمة **للجمع العضوي بين العمل العقلي والعمل الجسدي في نشاط الناس الانتاجي .**

وتكتمل هذه الظروف الموضوعية بتنظيم للتعليم العام يساعد على تطوير كل عضو من اعضاء المجتمع تطويرا شاملا . فكل شخص سيدرس الاختصاص الذي يختاره دراسة عميقة وسيطّلع على اسس العلم الحديث ويكتسب عادات الاشتراك المباشر في

العمل الانتاجي . وفي ظرف السنين العشر القادمة يجب ان يطبق في الاتحاد السوفييتي التعليم الثانوي العام والبوليتكنيكي الالزامي . ويقوم كل نظام التعليم المدرسي على مبدأ الجمع بين الدراسة والعمل الانتاجى .

الاوتوماتيك والعمل . اذا كان القضاء على العمل اليدوي المرهق قضية مستقبل قريب ، فان الجمع العضوي بين العمل العقلي والعمل الجسدي مهمة اكثر تعقيدا بكثير ، ولن تحل كليا الا في ظروف الانتاج الشيوعي المؤتمت .

في فجر الاتمتة ولدت اسطورة «الفردوس الزري» . وحسب بعضهم ان «وقت النعيم» سيأتي للعاملين عندما يصبح في امكانهم «بضغط بسيط على الزر» ان يشغّلوا الماكنات الجبارة ويجبروا الانسانات الميكانيكية المطيعة على تنفيذ كل امر .

لنبدأ بالقول ان «الضغط البسيط» واجب ليس بالبساطة التي قد تتبادر الى الذهن للوهلة الاولى . ان «الادارة بالزر» خففت عمل العامل . يستعملها عمال ماكنات التصفيح المؤتمتة وعمال الآلات الرافعة والمهندسون الذين يتحكمون بعمل المحطات الكهربائية . ولكن الحقيقة انه لا يصبح بسيطا هنا غير نقل الاوامر . أما الشيء الرئيسي ، اي ايجاد الحل الذي يسبق اصدار الامر ، فيتطلب معلومات واسعة وخبرة كبيرة ومقدرة على سرعةَ الفعل ورد الفعل ـ وبكلمة واحدة ، يتطلب توتر كل القوى .

ولكن حتى هذا التوتر لا يغيث الانسان الا لفترة من الزمن . ففي التكنيك الحديث تتسارع عمليات الانتاج كثيرا . وفي هذه الحال يرى الانسان نفسه عاجزا عن متابعة العملية . واذا اختل

السير الطبيعي للعملية لا يستطيع الانسان ان يعرف بالسرعة الكافية ماذا جرى وان يصلح الخلل أو يدرأ العطل . وهكذا فان الصانع العظيم لكل هذه الماكنات والاجهزة الممتازة ، بكل ما في حوزته من ازرار «لا تتطلب غير الضغط عليها» ، يصبح عقبة في طريق العمل الانتاجي للماكنات التي صنعها هو .

وهنا تأتي لمساعدة الانسان ماكنات الحساب الاليليكترونية القادرة على ان تقوم بالوف العمليات في ثانية واحدة من الزمن . ولهذه الماكنات ، عدا سرعة العمل ، صفة اخرى هامة ، هي انها «تتذكر» المراحل المتفرقة للعملية وتقارن نتائجها وتختار من بينها افضلها . وهكذا يمكن اجبار الماكنات على تحديد نفع نظام للعمل وعلى دعمه بـ «الاوامر» . وهذه الاوامر الكهربائية «تطيعها» اجهزة ايليكترونية منفذة تعمل بلمح البصر . وقصارى القول ان ماكنات الحساب السريعة العمل تستطيع ان «تدير» العملية الانتاجية بدون تدخل من الانسان .

لا بد هنا من سؤال طبيعي : ماذا يبقى على الانسان ان يعمله في الانتاج المؤتمت ؟

على هذا السؤال يمكن ان نجيب بثقة تامة : يبقى عليه ان يعمل اهم ما في الامر واكثره متعة .

يبقى على الانسان لا ان يصمم ويصنع الاجهزة الاوتوماتيكية ، وحسب ، مع ان هذا بحد ذاته امر ممتع للغاية ، بل يبقى عليه ايضا ان يضع المهمات للتجهيزات الاوتوماتيكية . فان «اذكى» الماكنات لا تستطيع «التفكير» الا في حدود معينة تعيينا دقيقا والا بعد «توجيهها» بواسطة برنامج ملائم يكون احيانا معقدا جدا يعطيه اياها الانسان نفسه .

وهكذا فان العمل الانتاجي في المستقبل لن يكون مرهقا جدا ولا مملا . فالانسان سينقل للماكنة عمليات منجزة اوتوماتيكيا ورتيبة بينما يعكف هو على مراقبتها وضبط آلياتها . وهذا نوع من النشاط الهندسي التكنيكي .

وبالتالي فمع بناء الشيوعية **سيزول التقسيم القديم للعمل** نهائيا ، هذا التقسيم الذي كان يحكم على الاغلبية الغالبة من الناس بالعمل المرهق وغير الملهم . وسيكون لاية مهنة كانت طابع ابداعي وستتطلب الجمع بين درجة عالية من التخصص وبين امتلاك دائرة واسعة من المعارف العلمية والتكنيكية . وان الجمع المنسجم بين عمل «الرأس واليدين» سيحول كل عمل الى مصدر للمتعة والبهجة . وطبيعي ان هذا لا يعني البتة ان العمل سيتحول الى تمضية وقت ممتعة . وانما سيتطلب العمل دائما من الانسان توتر قواه الروحية والجسدية وانفاقا كبيرا للطاقة .

الحق ان الناس في المستقبل سيكفون اصلا عن التفكير في مسألة ما الذي يغلب في نشاطهم – العمل العقلي ام العمل الجسدي ، كما لا يفكر الجراح ، مثلا ، الآن في هذه المسألة عندما يعمل بيديه وعقله في آن واحد .

ولكن من التبسيط الزائد ، في الوقت نفسه ، تصوير الامر وكأن العمل العقلي والعمل الجسدي سيتطلبان دائما في نشاط جميع الناس نسبة واحدة تماما بين الجهود العقلية والجسدية . ان المهن المختلفة ستتطلب دائمـــا نسبة مختلفة بين هاذين الجهدين . خذوا ، مثلا ، الجيولوجي ، فان ما تقوم به يداه من عمل اصعب بكثير مما يقوم به بعض الكادحين بايديهم .

وهكذا فان الناس ، مع الزمن ، لن ينقسموا الى كادحين بادمغتهم وكادحين بايديهم ، وستزول فئة المثقفين كفئة خاصة .

* * *

ان تشكل ملكية شيوعية واحدة على وسائل الانتاج ، وزوال الفروق الاجتماعية بين المدينة والقرية ، والجمع العضوي بين العمل العقلي والعمل الجسدي في نشاط الناس الانتاجي – ان كل هذا عمليات اجتماعية موضوعية تؤدي الى محو الحدود الطبقية محوا نهائيا .

نحو العمل الشيوعي والتوزيع الشيوعي

شرطان للانتقال الى مبدأ الشيوعية الاساسي . ان مبدأ الدفع حسب العمل هو من اعظم مكاسب الاشتراكية . فهو ينفي التفاوت الفظيع الموجود في الرأسمالية في توزيع الخيرات المادية والروحية .

ولكن الدفع حسب العمل لا يعني ، بعد ، التساوي التام في ظروف المعيشة . فالناس الذين يعملون عملا اعلى كفاءة يقبضون اجرا اكبر ، ويعيشون ، بطبيعة الحال ، خيرا من الناس الذين يعملون عملا ادنى كفاءة . وكذلك تركيب الاسرة غير واحد ، وهذا ما يؤدي ايضا الى حدوث فرق في مستوى المعيشة . وستزول بقايا التفاوت الاجتماعي هذه عندما يستطيع المجتمع ان يحقق كليا المبدأ الشيوعي للعمل والتوزيع – «من كل حسب كفاءاته ولكل حسب حاجته» . فما هي الظروف الضرورية لهذا ؟

ان التفكير السليم البسيط يقول : يجب قبل كل شيء تأمين **الوفرة في الخيرات المادية والروحية** وبلوغ تطور للقوى

المنتجة وانتاجية عمل اجتماعي عالية يسمحان للمجتمع بتلبية حاجات جميع اعضائه بسخاء .

زد على ذلك ان حاجات الناس تزداد باستمرار ، وعليه يجب ان تزداد ثروات المجتمع بسرعة اكبر .

ان القضية بسيطة نسبيا فيما يتعلق بامس الحاجات الحيوية ـ المأكل ، والملبس ، والاحذية ، والمسكن . وقد حسب لعلماء ما هي كمية الحريرات التي يحتاج اليها جسم الانسان للعمل الطبيعي ، وما هي الكمية التي يجب ان تتوفر في الاكل من الزلال والشحم ومائيات الفحم والفيتامينات ، وما هي كمية الاحذية والفساطين والبدلات وغير ذلك من الالبسة التي يستحسن امتلاكها للشخص ، وما هي مساحة المسكن اللازمة لحياة سليمة صحية وثقافية . وتسمى هذه المؤشرات جميعا بالمعدلات العقلانية . ولدن معرفة عدد السكان وحساب نموهم ، يمكن تعيين المدد التي يمكن فيها تلبية هذه الحاجة أو تلك تلبية كاملة .

طبيعي ان الحاجات البشرية لا تبقى بدون تغير ، بل تتطور ذواق الناس الجمالية ، وتولد الموضة نماذج جديدة من الالبسة والاحذية والموبيليا . ولكن هذه التغيرات ليست جوهرية جدا ، وبتأمين تلبية الحاجات الملحة وفقا للمعدلات العقلانية ، سيستطيع الانتاج المنظم ان يخدم مختلف المطالب وان يلبى ارفع الاذواق .

والى جانب ذلك يولد الانتاج النامي والعلم والتكنيك حاجات جديدة كل الجدة تصبح لا اقل ضرورة من الحاجة الى الملبس الجيد مثلا . فلعدة عصور خلت كان معظم الناس يستغنون عن الكتب ، اما الآن فالغذاء الروحي ضروري بما لا يقل الا قليلا عن الغذاء «الجسدي» . ولثلاثين سنة خلت لم تكن ثمة حاجة الى

التلفيزيون ، اما الآن فالشاشة الصغيرة ضرورية في البيت لكل انسان ، وتتلقى صناعة ادوات الراديو السوفييتية مهمة سد هذه الحاجة الهامة . وبدأ التلفون المرئي يدخل الى الحياة حديثا ، ولكن لا شك في ان كل انســـان ، بعد عشر سنين أو اكثر بقليل ، سيرغب في استخدام هذا الجهاز المفيد والمريح . اننا الآن لا نستطيع حتى ان نتصور اية حاجات جديدة سيولد العلم والتكنيك المتطوران تطورا عاصفا في الشيوعية .

ان وفرة الخيرات المادية والروحية هي الشرط الاول ، ولكن غير الوحيد ، للانتقال الى المبدأ الشيوعي : فالقضية ان هذا المبدأ ليس فقط مبدأ للتوزيع بل ايضا مبدأ للعمل . فمن اين تؤخذ الوفرة نفسها ومن سيستطيع تلبية حاجات الناس المتزايدة باستمرار ، اذا لم يلبها هؤلاء الناس انفسهم وعملهم المتفاني لخير المجتمع ؟ لهذا كان الشرط الآخر البالغ الاهمية لتطبيق المبدأ الشيوعي هو استعداد جميع اعضاء المجتمع للعمل بكل مقدرتهم ولاعطاء المجتمع بسخاء معارفهم ومهارتهم ونبوغهم وعزيمتهم . وفي اثناء بناء الشيوعية يتحول العمل نفسه الى **حاجة حيوية اولى** للجسم البشري ، طبيعية وضرورية كالحاجة الى التنفس .

كتب لينين يقول : «ان العمل الشيوعي ... هو عمل مجاني لمصلحة المجتمع ، عمل يتم لا بالقسر ولا لكسب الحقوق في الحصول على بعض سلع معينة ، ولا حسب معدلات محددة مسبقا ومقننة ، بل هو عمل طوعي ، عمل بلا معدلات ، عمل يبذل دون حساب للبدل وبدون شروط للبدل ، عمل حسب العادة على الكدح للمصلحة العامة ... عمل كحاجة من حاجات الجسم العضوي السليم» .

ان العمل والتوزيع حسب المبدأ الشيوعي متصلان فيما بينها اتصالا لا ينفصم : فبدون عمل حسب المقدرة لا يمكن ان تكون ثمة تلبية حسب الحاجة . واذن يجب في الوقت نفسه تنفيذ مهمتين : انشاء الوفرة من خيرات الحياة وتربية الموقف الشيوعي تجاه العمل في اعضاء المجتمع . ومفتاح تنفيذ هاتين المهمتين هو التحقيق المتتابع لمبدأ المصلحة المادية للعاملين في نتائج عملهم .

فبدون مصلحة مادية لا يمكن رفع انتاجية العمل وانماء الثروة الاجتماعية باستمرار . وبدونها لا يمكن ايصال الملايين من الناس الى الشيوعية والسعي لان يتحول العمل حسب الكفاءة الى عادة وان يصبح حاجة حيوية لجميع الناس . ولهذا يشير برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي الى ان بناء الشيوعية يجب ان يستند الى مبدأ المصلحة المادية ، وان دفع بدل العمل سيبقى المصدر الاساسي لتلبية حاجات الكادحين المادية والثقافية .

ان الحوافز المعنوية للعمل ، وقبل كل شيء وعي الناس بانهم يعملون لا للمستغلين بل لانفسهم ولكل المجتمع ، قد اكتسبت في المجتمع السوفييتي قوة عظيمة . ويربي الحزب في السوفييتيين التفهم العميق لقيمة عملهم الاجتماعية ، والوقوف من العمل موقفا واعيا . ويكدح السوفييتيون لا عن جشع بل لانتصار القضية العظيمة ، قضية الشيوعية . ويعود عملهم بمئة ضعف ، ضامنا النمو المتواصل للثروة الاجتماعية وارتفاع مستوى معيشة الشخص .

التوزيع بواسطة الصناديق الاجتماعية . ان الثروة التي يصنعها المجتمع الاشتراكي توزع على اعضائه بالطريقة الشيوعية بمقياس متزايد . ونعني هنا التوزيع بواسطة الصناديق الاجتماعية .

منذ السنين الاولى من السلطة السوفييتية ، عندما ظهرت اولى المدارس الداخلية ودور الحضانة وغيرها من المؤسسات المشابهة ، سماها لينين ببراعم الشيوعية ، واوصى بالحفاظ على هذه البراعم وبتقويتها . والآن انشئت في الاتحاد السوفييتي شبكة كاملة من هذه المؤسسات . ثم ان التعليم العام والخدمة الطبية وصيانة المنتجعات الصحية ومخيمات الرواد الاحداث والتأمين التقاعدي عند الشيخوخة والعجز عن العمل – ان كل هذا تموله الدولة من الصناديق الاجتماعية .

ويتحقق التوزيع بواسطة الصناديق الاجتماعية ، من حيث الاساس ، بصرف النظر عن كمية وكيفية العمل الذي يبذله هذا او ذاك من الناس .

طبيعي ان من غير الصحيح اعتبار التوزيع بواسطة الصناديق الاجتماعية والمبدأ الشيوعي للتوزيع حسب الحاجة شيئا واحدا تماما ، والقول على هذا الاساس بان هذا المبدأ يطبق (ولو جزئيا) . فاولا لا تزال الصناديق الاجتماعية اصغر من ان تستطيع التلبية الكاملة لجميع الحاجات والتي انشئت من اجل تلبيتها . وثانيا ، تؤخذ بعين الاعتبار في بعض الحالات ، عند توزيعها ، نتائج التوزيع المعمول به حسب العمل .

فمقدار معاش التقاعد مثلا يتوقف على الاجرة ، فيما ان العدل والانصاف يتطلبان تعيين معاش واحد للجميع ، لان جميع الناس الذين اشتغلوا طويلا وبشرف في مناصبهم (سواء أكانت عالية أم غير عالية) يستحقون ، في آخر كل حساب ، اهتماما واحدا ودعما واحدا من جانب المجتمع . غير انه لم تتوفر الامكانيات بعد لهذا . الا ان ذلك ما تتجه الامور اليه . ففي السنين الاخيرة زيدت مقادير معاشات التقاعد وخصوصا بالنسبة للعاملين من

الدرجة ذات الاجر المنخفض ، وازيلت الزوائد في مقادير المعاشات التي يتقاضاها اصحاب الاجور العالية . وعند توزيع بطاقات الاقامة في دور الاستجمام ، والاماكن في المدارس الداخلية ، والمنح الدراسية في المعاهد العالية ، هذا التوزيع الذي تدفع النقابات تكاليفه ، تعطى الافضلية لاصحاب الدخل الاقل واولادهم . وهذا ما يساعد على انقاص الفرق في مستوى معيشة الناس الذين يشتغلون بالعمل الكفوء وغير الكفوء .

وفيما بعد سيقل ارتباط التوزيع عن طريق الصناديق الاجتماعية بنتائج عمل الافراد . فبمقدار ما تنمو هذه الصناديق سيكون في وسع المجتمع ان يلبي تلبية اكمل فاكمل هذه او تلك من الحاجات البشرية وسيزداد اقترابا من المبدأ الشيوعي للتوزيع .

ان التوزيع بواسطة الصناديق الاجتماعية يساعد على انتشار **الاشكال الاجتماعية لتلبية الحاجات البشرية** . وهذا ما يبشر بتوفير عظيم في العمل الاجتماعي ويعود بفائدة كبيرة على كل المجتمع وكل فرد . لنأخذ على سبيل المثال التغذية العامة . ان برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي ينص على ان الاسعار في المطاعم وغيرها من مؤسسات التغذية العامة ستنخفض باسرع من اسعار المواد التموينية في الشبكة التجارية . وفي الوقت نفسه ستتحسن كيفية تحضير الطعام . ويفترض في المستقبل تطبيق نظام الغداء المجاني في الانتاج (اي من حساب الصناديق الاجتماعية) .

وسيفضل المزيد والمزيد من الناس ان يتغذوا في المطاعم العامة : لان في هذا توفيرا غير قليل للوقت . واكثر من يستفيد النساء اللواتي يقع على عاتقهن الآن ، في الاساس ، عبء العمل

المنزلي . ومن جهة اخرى تظهر الامكانية وحتى الضرورة لمكننة واتمتة تحضير الطعام في مؤسسات التغذية العامة .

وبحكم هذا ستزداد الصناديق الاجتماعية باسرع من زيادة الاجر الفردي على العمل .

ونتيجة لتنفيذ المهمات التي رسمها الحزب الشيوعي في ميدان النهوض بالرخاء المادي للشعب ، سيقترب الاتحـــاد السوفييتي كثيرا من تحقيق المبدأ الشيوعي للتوزيع حسب الحاجة .

جواب على منتقدي الشيوعية . ما ان صيغ مبدأ الشيوعية الاساسي ، حتى اعلن خصوم النظرية الشيوعية ان تحقيق هذا المبدأ غير ممكن . ولا يزال الايديولوجيون البرجوازيون المعاصرون حتى الآن يرددون الشيء ذاته . يقولون : «ان الكسل من صلب طبيعة الانسان ، وان الانسان لا يعمل الا عندما يلاحقه الجوع أو تنتابه حمى الكسب . وما ان يبدأ المجتمع بارضاء الجميع حسب حاجتهم حتى يكف كل انسان عن العمل ...»

فباي عدم ثقة في الانسان تنضح هذه التهم الكاذبة ! كلا ، ان الانسان بطبيعته غير كسول وغير حالم متأمل بل كادح . ويمكن تحوير القول المأثور المعروف والقول ان الانسان ولد للعمل كما ولد الطير للطيران .

ان بلزاك العبقري كان طول حياته يعاني العوز الشديد ... ولكن منذا الذي يخطر بباله ان يثبت اننـــا مدينون بظهور «الكوميديا البشرية» لـ... الجشع والنهم للربح ؟ لقد كانت، تتأكل الكاتب الرغبة العارمة في الابداع ، التي هي اسمى شكل تظهر به الروح البشرية . وهذه الرغبة العارمة نفسها تقود الملايين

من الناس من مختلف المهن ، تقود البستاني الذي لا يضن بقواه لانبات زهرة رائعة ، وتقود المهندس الذي يبذل كل وقته لحساب تصميم طريف .

لقد اصبح القسم الاكبر من الناس في البلاد السوفييتية يعملون قدر ما تسعفهم طاقتهم ولا يستطيعون غير ذلك . وما الملايين من المشتركين في حركة العمل الشيوعي الا خير تكذيب لتخرصات النقاد البرجوازيين .

ولكن كيف ستكون الحال ، مع ذلك ، فيما يتعلق بالكسالي ؟ القضية بسيطة جدا : لن يكون ثمة كسالى . فالكسل ينشأ عن التبطل والتربية التي تغذيه . أما في المجتمع الجديد فالانسان منذ طفولته يمر بمدرسة التربية على العمل ، ويتعلم ان يرى في العمل الانشائي اسمى هدف ومعنى للحياة . ولكن لو فرضنا ان بعض الناس المفردين ، حتى في مثل هذه الظروف ، سيبدون تقاعسا وسيشتغلون كيفما اتفق وبغير همة ، فان المجتمع سيستطيع التأثير فيهم . ومنذ الآن ، بتأثير الرأي العام ، تعاد تربية بعض الاشخاص الذين يفضلون التنبلة على العمل الشريف . فلماذا يجب الافتراض ان كسولا واحدا في المستقبل ، عندما يصبح العمل حسب الكفاءة مطلبا حيويا لجميع الناس أو لجميعهم تقريبا ، سيتمكن من افساد ١٠ آلاف كادح مثلا ؟ لا شك ان الوف الكادحين سيستطيعون اجبار المتبطلين على العمل حسبما يقتضي الضمير .

وهناك حجة اخرى يسوقها الايديولوجيون البرجوازيون وتتلخص فيما يلي . بعضهم يقول انه ما دام المجتمع سيبدأ بارضاء الجميع حسب حاجتهم ، فستلعب حالا «غريزة» الاثراء وسيسعى كل شخص لان يأخذ لنفسه اكثر من غيره ، وتكون

النتيجة نهب الثروة الاجتماعية . ويقول آخرون بعكس ذلك ، فيزعمون ان المجتمع الشيوعي سيقنن حاجات الناس ويعطي كل شخص حصة واحدة من المواد التموينية ويلبس الجميع لباسا موحدا ، الى آخر . وبعد ان يصور المفترون هذه اللوحة القاتمة ينوحون عليها ويتباكون على حظ «الناس الشيوعيين البائسين» الذين سيترتب عليهم ان يتخلوا عن اذواقهم الشخصية ويحرموا انفسهم من جميع متع الحياة ويتحولوا الى «مانيكانات» متماثلة .

هذا مثال آخر على ما يبذله البرجوازيون من محاولات الحكم على الانسان الشيوعي من منظارهم وقياسا على مثالهم . وفي الحق فان الناس الذين تربوا ونشأوا على الاخلاق البرجوازية ، اذا وجدوا انفسهم في مجتمع شيوعي هتفوا بصوت واحد : «خذ قدر ما تستطيع !» . ولكن الانانيين لن يجدوا انفسهم في مجتمع شيوعي . وكما سبق القول لن يطبق المبدأ الشيوعي للتوزيع بصورة كاملة الا عندما تنتصر في المجتمع الاخلاق الشيوعية ويبلغ الوعي الشيوعي لجميع الناس مستوى عاليا الى حد كاف . ومن اهم صفات وعي الناس الشيوعيين هي انه لا تنشأ لديهم متطلبات زائدة عن الحد ومشوهة ، وان متطلباتهم دائما معقولة .

ان الانسان الواعي في المجتمع الشيوعي لن تخطر بباله ابدا فكرة حمقاء بان يطلب مثلا قصرا مؤلفا من مئة غرفة ، في حين ان شقة من ثلاث غرف تكفيه كل الكفاية ، أو ان يغطي جدران مسكنه بلوحات رائعة مكانها المتحف وغيره من الاماكن العامة التي يستطيع كل انسان فيها ان يمتع نظره بمرآها ، أو ان يحشو خزاناته بالملابس وقبوه بالمئونة في

حين ان كل ما يحتاج اليه فعلا يستطيع الحصول عليه من المستودع العام والاحتياطي العام .

وفي حدود مثل هذا الفهم المعقول للحاجات سيستطيع كل شخص ان يرضي اذواقه وميوله الشخصية : ان يؤثث شقة وان يختار لباسا ويوصي عليه وان ينظم حياته كما يروق له . وسيستطيع محبو الاطعمة المترفة ، اذا كانوا لا يأسفون على تضييع الوقت ، ان يرضوا مطالب معدتهم في البيت (اذ لن يجبرهم احد على تناول الطعام في المطاعم العامة) ، وستستطيع محبات الموضة ومحبوها ان يهتموا بجمال ملابسهم .

ولقد اضيفت في الآونة الاخيرة الى الذين ينتقدون الشيوعية من مواقف برجوازية ، اصوات ناقدين يقفون مواقف روح المغامرة البرجوازية الصغيرة . ويكاد يكون هدف تهجماتهم الرئيسي مبدأ المصلحة المادية . واذا ما استمع المرء الى ما يقولونه خيل اليه ان دفع الاجر الاعلى لقاء عمل اكبر كمية واحسن كيفية يحول الناس الى جشعين انانيين ، وان ارتفاع مستوى معيشة السوفييتيين وحصولهم على التلفيزيونات والثلاجات يسلبهم – تصوروا ! – ثوريتهم ويؤدي الى «تفسخ» المجتمع السوفييتي والى «عودة الرأسمالية» الى الاتحاد السوفييتي .

وقد تجلت في هذه الآراء ، باسطع ما يكون ، التصورات البرجوازيـــة الصغيرة النموذجية للاشتراكية كمملكة للاستواء العام ، وللثورية كخاصة لا يتصف بها الا من يعيشون نصف جياع . ولو كان الامر كما يزعم الـ«اولترا» ثوريون ، لكانت الشيوعية اصلا غير ممكنة ، لان كل مجتمع اشتراكي سيجد نفسه حتما ، بمقدار ما ينمو رخاء الشعب ، امام خطر التفسخ

والتحول الى الرأسمالية . نعم الى هذا الهراء تقودنا آراء الثوريين البرجوازيين الصغار .

بمثل هذه الآراء لا تبنى الشيوعية . ولن يفلح هؤلاء السادة في صرف الشيوعيين اللينينيين عن الطريق الصحيح الوحيد ، اللينيني ، الذي يسير فيه الحزب الشيوعي السوفييتي والشعب السوفييتي . فالناس يثورون ويناضلون في سبيل الاشتراكية لكي ينالوا لانفسهم واولادهم حياة رغدة حرة سعيدة . وانهم لينالون ذلك بعملهم البطولي ويضربون بذلك المثل لاشقائهم في بلدان الرأسمال . ان اسمى واجب اممي للشعب السوفييتي تجاه كادحي العالم هو اليوم بناء الشيوعية بنجاح .

تطور نظام الدولة الى تسيير ذاتي اجتماعي شيوعي

تطور نظام الدولة الاشتراكية . تحققت الخطة اللينينية لبناء الاشتراكية بفضل ديكتاتورية البروليتاريا . فقد امنت ديكتاتورية البروليتاريا الانتصار التام والنهائي للاشتراكية وانتقال المجتمع السوفييتى الى بناء الشيوعية ولكن بعد تنفيذ هذه المهمة التاريخية لم يتوقف تطور الدولة السوفييتية كمنظمة سياسية .

فما دامت هناك طبقات ، فان الطبقة العاملة ، بوصفها اكثر الطبقات طليعية ووعيا ، تبقى هي الفصيلة الضاربة للبناء الشيوعي وقوته الرئيسية .

ما لم تتوفر الامكانية للانتقال الى المبدأ الشيوعي للعمل والتوزيع ، تبقى ضرورة المراقبة على مقياس العمل ومقياس الاستهلاك . ولا يستطيع غير الدولة ان يقوم بهذه المراقبة في الظروف الراهنة .

والدولة ضرورية ايضا لتسيير الاقتصاد المتعدد الفروع حسب خطة واحدة ، ولتأمين نظام العمل . ولا يزال السوفييتيون يضطرون الى مكافحة افراد من مخالفي قواعد الحياة العامة . وتستخدم لهذه المكافحة قوة القانون وقوة التأثير الاجتماعي .

والدولة ضرورية ايضا لتنفيذ عدد من المهمات الهامة النابعة من الواجب الاممي للشعب السوفييتي امام بروليتاريا العالم بأسره : لترتيب امور النظام الاشتراكي العالمي للاقتصاد مع البلدان الاشتراكية الاخرى ، ولتقديم العون للشعوب المناضلة في سبيل الاستقلال الوطني ، ولاقامة التعايش السلمي مع البلدان الرأسمالية لمصلحة ضمان السلام الوطيد .

وفي جو التوتر الدولي يضطر المجتمع الاشتراكي الى تقوية جيشه الذي يحرس العمل السلمي للشعب ، والى تدعيم هيئات امن الدولة التي تحبط دسائس الامبرياليين ضد البلاد السوفييتية .

ان الدولة الاشتراكية ليست منظمة سياسية متيبسة ، بل هي نظام للدولة الاشتراكية يمر في طريقه نحو التسيير الذاتي الاجتماعي الشيوعي بجملة من المراحل الهامة .واهم ما يميز المرحلة الراهنة هو انتشار واتقان **الديموقراطية الاشتراكية** باقصى حد .

وهناك طريقان لاشراك الكادحين في شؤون الدولة ، وهما :

الديموقراطية التمثيلية والديموقراطية المباشرة . وينص برنامج الحزب على استخدام كلا الطريقين على نطاق واسع والجمع بينهما .

يستطيع الانسان ان يشترك في الادارة شخصيا أو بواسطة ممثلين له . فالسوفييتات (المجالس) ينتخب اليها اوجه الناس ممن استحقوا احترام الجميع بعملهم ومواهبهم التنظيمية وعنايتهم بالناس . ويقرر النواب امور الدولة كبيرها وصغيرها .

وفضلا عن ذلك يشترك الملايين من المواطنين في تصريف امور الدولة بصورة مباشرة ، مثلا في الاجتماعات العامة للعاملين في المؤسسات والكولخوزات والدوائر ، حيث يبحثون اهم مسائل الانتاج ويتخذون القرارات العامة .

وتجتمع الديموقراطية المباشرة والديموقراطية التمثيلية اجتماعا وثيقا في المنظمات الاجتماعية التى تديرها مكاتب الحزب ، واللجان النقابية ، واللجان الكومسومولية ، وغيرها من الهيئات المنتخبة انتخابا . أما اهم المسائل فتبحث في الاجتماعات العامة التي تتخذ فيها المقررات بالتصويت .

وكذلك الامر في هيئات العمل الشعبي الذاتي : لجان السكان لدى ادارات الدور ، ولجان الاولياء في المدارس ، والمحاكم الرفاقية ، ومختلف المجالس واللجان الشعبية التي تعد عندنا بمئات الالوف . وكلها يعمل في اتصال وثيق مع هيئات السلطة التمثيلية ـ السوفييتات ، تحت اشراف منظمات الحزب .

ان استمرار تطور الدولة السوفييتية جر وراءه عددا من التدابير الملموسة لدموقرطة كل آلية الدولة وطرائق نشاطها . وهكذا جرى العمل بنظام يوجب تجديد

تركيب سوفييتات النواب ، في كل انتخاب ، بمقدار الثلث على اقل تقدير . ولا يمكن تجديد انتخاب شخص لمنصب ما الا مرتين . وبفضل هذا يتأمن تبديل المسؤولين بغيرهم ، وتنتفي امكانية سوء استعمال السلطة . ومع الزمن سيطبق نظام الانتخاب والاستبدال على جميع موظفي جهاز الدولة .

وفي ممارسة الدولة سيصار اكثر فاكثر الى استعمال شكل من اشكال التعبير المباشر عن ارادة الشعب ، ألا وهو المناقشة الشعبية العامة : فجميع مشاريع القوانين الهامة ستطرح لمناقشة الشعب وتقر بالتصويت العام (الاستفتاء) .

نحو التسيير الذاتي الاجتماعي .

ومن سنة الى اخرى يزداد عدد مواطنى البلاد السوفييتية الذين يشتركون انشط فانشط في ادارة الدولة . وفي سياق حل هذه المسألة ستفقد ادارة الدولة نفسها ، بالتدريج ، طابعها السياسي ولا تبقى قضية فئة خاصة من الناس هم موظفو جهاز الدولة .

وسيتشكل التسيير الذاتي الاجتماعي الشيوعي على اساس تطور الدولة وتدعيم صلتها بالجماهير الشعبية .

لن تكون في الشيوعية تلك السلطة العامة التي تتجلى في وجود فئة خاصة من الناس لا تشتغل بغير الادارة . ولكن بصرف النظر عن شكل التنظيم الاجتماعي سيكون هناك دائما ، من جهة ، شيء من النفوذ ، ومن جهة اخرى شيء من الخضوع . فمن غير الممكن في جسم اقتصادي معقد ومتقن كالانتاج الشيوعي ، الاستغناء عن التمركز وعن القيادة .

واذن فان السلطة ستكون موجودة في الشيوعية ايضا ، ولكنها ستكون سلطة غير ذات طابع سياسي .

ثم ان اضمحلال الدولة كـ«جهاز للاكراه» واضمحلال الحق كمجموع من قواعد السلوك التي تقف من ورائها قوة الدولة ، لا يعني البتة ان اية قواعد للسلوك لن تكون في المجتمع الشيوعي . وانما ستقوم قواعد معترف بها من الجميع للحياة الاجتماعية الشيوعية يصبح التقيد بها حاجة من حاجات الناس وعادة من عاداتهم .

بديهي ان المجتمع الشيوعي لن يخلو من مخالفات مفردة كمخالفات القانون التي تحدث الآن . ليس من المستبعد ، مثلا ، ان تحدث جنح خطيرة ناشئة عن الاهمال ، وجنح في الحياة اليومية ، وغير ذلك . ولكن سيكفي تماما لازالة المخالفات المفردة رد الفعل السريع من البيئة ، وحاجة الناس الداخلية للتقيد دائما وفي كل مكان بالنظـــام العام والثقة بان اعمالهم سيؤيدها الجميع على الفور .

ولن تزول في الشيوعية وظائف ادارة الاقتصاد والثقافة ، وتربية وتعليم الجيل الناشئ ، وتنظيم العمل والاستهلاك – اي الوظائف التي تقوم بها الآن هيئات الدولة ، بل سيتغير شكلها وفقا لتطور المجتمع . فادارة الامور في الشيوعية ستتولاه آلية اجتماعية معينة ونظام للتسيير الذاتي الاجتماعي غير نظام الدولة . ومع ان هذه الآلية ستكون غير ذات طابع سياسي ،

الا انها ستكون اقوى من اية دولة بحكم نفوذها المعنوي العظيم .

شروط اضمحلال الدولة . لقد ظهرت الدولة بالضرورة في ظروف تاريخية معينة . وبمثل هذه الضرورة لا بد لها في المستقبل ان تغادر مسرح الحياة الاجتماعية .

وليس اضمحلال الدولة عملا يحدث دفعة واحدة أو انفجارا ، بل هو عملية طويلة وتدريجية . قال لينين : «لاضمحلال الدولة التام لا بد من الشيوعية التامة» .

وتنشأ الشروط والممهدات اللازمة لاضمحلال الدولة في اثناء بناء الشيوعية . واول هذه الممهدات هي الممهدان الاقتصادية ، كبلوغ مستوى رفيع من تطور القوى المنتجة يسمح بتلبية حاجات الناس المادية والروحية تلبية تامة وغير متقطعة . وبالتالي تصبح مراقبة الدولة على مقياس العمل ومقياس الاستهلاك غير ضرورية .

ثم ان الممهدات الاجتماعية ايضا ضرورية لاضمحلال الدولة . فمن المهم ازالة جميع آثار الانقسام الطبقي والفروق الطبقية والفروق بين المدينة والقرية وبين العمل العقلي والعمل الجسدي . فبعد هذا فقط تفقد علاقات الناس في داخل المجتمع الطابع السياسي .

واخيرا ، لا بد لاضمحلال الدولة من ممهدات ايديولوجية ايضا : من مستوى عال لوعي وثقافة اعضاء المجتمع ، ومن ازالة رواسب الرأسمالية في وعي الناس ومعيشتهم ، ومن انتصار الاخلاق الشيوعية انتصارا تاما .

هذه هي الممهدات الداخلية الاساسية لاضمحلال الدولة . ولكن من الضروري ايضا توفر شروط خارجية معينة لا يمكن ان تضمحل الدولة بدونها . وهي انتصار الاشتراكية انتصارا

كاملا في الميدان الدولي وانتفاء كل خطر لهجوم حربي من جانب الامبريالية

ان اضمحلال الدولة عملية اجتماعية معقدة . وواضح كل الوضوح ان نظام التسيير الذاتي الاجتماعي الشيوعي ، ولو حتى تكون ، لن يكتسب دفعة واحدة الكمال التنظيمي الضروري . ولهذا فهناك كل ما يدعو للقول بان الحزب الشيوعي سيبقى بعض الوقت حتى بعد اضمحلال الدولة . وبعد ان يؤمن الحزب العمل المستمر المنسق لجميع حلقات التسيير الذاتي الاجتماعي ، سيقوم برسالته التاريخية ويندمج بالمجتمع كله .

ازدهار وتقارب الامم السوفييتية

اتجاهان في تطور العلاقات القومية . جمعت الاشتراكية امم وقوميات البلد السوفييتي العديدة في اسرة كبيرة واحدة تتطور بنجاح كاية اسرة سليمة متفاهمة : يزدهر اقتصاد وثقافة الشعوب الشقيقة وتشتد صلات «القربى» الاممية فيما بينها .

يعمل في الاشتراكية اتجاهان في آن واحد : تطور الامم وتقاربها . وكلا الاتجاهين تقدمي والاثنان مترابطان ترابطا وثيقا .

وفعلا فبفضل الصداقة بين الشعوب وتعاونها فيما بينها استطاعت الاطراف القومية المتأخرة السابقة في الامبراطورية الروسية ان ترتفع الى مستوى تطور المناطق الوسطى ، وتم بلوغ الهدف الرئيسي للسياسة القومية اللينينية وهو : المساواة الفعلية بين الامم . فالآن تملك جميع الجمهوريات القومية الداخلة ضمن الاتحاد السوفييتي ، صناعة متطورة جدا وزراعة ممكننة واختصاصيين اكفاء في جميع فروع الاقتصاد الوطني والثقافة .

يقول برنامج الحـــزب الشيوعي السوفييتي ان الحـزب «سيواصل السير كالسابق على سياسة تضمن المساواة الفعلية بين جميع الامم والاقوام مع المراعاة التامة لمصالحها موجها انتباها خاصا لمناطق البلاد التى تحتـاج الى تطور اسرع» .

ومن جهة اخرى ، فان تطور الامم هو الذي يستدعي الحاجة الى التعاون المتزايد بين الامم . فنهوض الانتاج الصناعي والزراعي ، وتخصص الاقتصاد الوطني للجمهوريات القومية يصطحبان حتما باتساع التعاون بينها . واليوم لا تستغني منشأة كبيرة واحدة عن اشتراك المصانع والفبارك من كثير من الجمهوريات السوفييتية ، وأما التدابير الجبارة ، كاستصلاح الاراضي البكر وانشاء القواعد الصناعية الجديدة في شرقي البلد فلا يمكن تحقيقها الا بالجهود المشتركة من جميع الشعوب السوفييتية .

وبمبادرة من الحزب الشيوعي وسعت كثيرا في السنين الاخيرة حقوق الجمهوريات المتحدة وجعلت لها ادارة الاكثرية الساحقة من المؤسسات الصناعية الواقعة في اراضي كل جمهورية . وبنتيجة ذلك نشأت ضرورة تنسيق جهود الشعوب تنسيقا اوثق في البناء الاقتصادي للجمهوريات المتحدة . وانشئت باقتراح النواب لجنة اقتصادية خاصة لدى لجنة القوميات للسوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتي .

لثلاثة او اربعة عقود خلت من السنين كانت كل حياة البلد العلمية متجمعة في موسكو ولينينغراد وكييف وبعض المراكـز الكبيرة الاخرى . امـــا الآن ، وقد انشئت في جميع الجمهوريـات القومية قاعدة للبحث العلمي وترعرع علمـــاء موهوبون ، لا يعقل ان يتطور العلم بدون تعاونهم .

عندما يقرأ السوفييتيون الكتب ويشاهدون الافلام ويسمعون المؤلفات الموسيقية التي صنعهـا رجال الثقافة من اية امـــة

اشتراكية ، يغنون بذلك عالمهم الروحي ويعرفون جوانب للحياة جديدة ويكتشفون لانفسهم مصادر جديدة للمتعة الفنية . وهذا ما يدفعهم الى التعرف تعرفا اعمق على الثقافة الوطنية للشعوب الشقيقة ، ويساعدهم في فهمها وتقييمها بشكل افضل .

وهكذا فان التطور اللاحق لكل امة يأتي بفائدة عظيمة لكل المجتمع ويولّد احتراما متبادلا عميقا ويعزز الصداقة بين الشعوب . **ان ازدهار الامم عن طريق تقاربها ، وتقاربها عن طريق ازدهارها هو دياليكتيك تطور العلاقات القومية في الاتحاد السوفييتي .**

ولكن لا ينبغي هنا اغفال امر هام جدا وهو انه عندما نقول : ازدهار الامم ، فانما نعني افضل جوانب الثقافة القومية واكثرها تقدمية ، والعادات والتقاليد القومية السليمة التي تخدم حقا قضية اغناء ثقافة جميع الامم . ولكن لا تزال لدى كل امة رواسب من طراز الحياة القديم ولا يزال للتقاليد الضارة اثرها .

واكثر هذه الرواسب ضررا واستعصاء على الموت هي رواسب التعصب القومي . فليس ابشع واقرف على روح المجتمع الاشتراكي من الاستعلاء القومي واحتقار ابناء القوميات الاخرى . ويعاقب القانون السوفييتي بشدة على كل مظهر من مظاهر التمييز وهضم حقوق الناس لاسباب قومية وعرقية . ويربي الحزب الشيوعي السوفييتيين على روح الاممية والتساوي في الحقوق والصداقة بين الشعوب . وان الواجب المقدس على كل انسان سوفييتي هو ان يبقى في جميع نياته وافعاله امينا لهذه الافكار . فلا يمكن ان يكون المرء بانيا للشيوعية واعيا اذا لم يكن امميا حتى الاعماق .

الملامح العامة للمظهر الروحي . بفضل التقارب المتزايد بين الامم واغتنائها المتبادل **تتطور الملامح العامة لمظهر النـاس**

الروحي ، التي يولدها النظام الاجتماعي الجديد والتي تتجسد فيها خيرة تقاليد شعوب الاتحاد السوفييتي .

ان من قيض له ان يتجول في انحاء البلاد السوفييتية فانه اينما كان – في آسيا الوسطى او شواطيء البلطيق ، فيما وراء القفقاس أو مولدافيا ، – يرى في كل مكان العلائم الخاصة للحياة السوفييتية . ويمكن ان تواجه تنوعا غير قليل في مظهر الناس الخارجي وفي طريقة لباسهم وفي كلامهم وحتى حركاتهم ، ولكن لهم جميعا ملامح عامة خاصة بهم يمكن بها ، بدون خطأ تقريبا ، تمييز الانسان السوفييتي عن غيره . ولا يمكن ان يكون الامر خلاف ذلكَ : لان وحدة المعتقد وتماثل ظروف الحياة الاجتماعية لا يمكن الا ان يؤثرا في كل مظهر الناس الروحي .

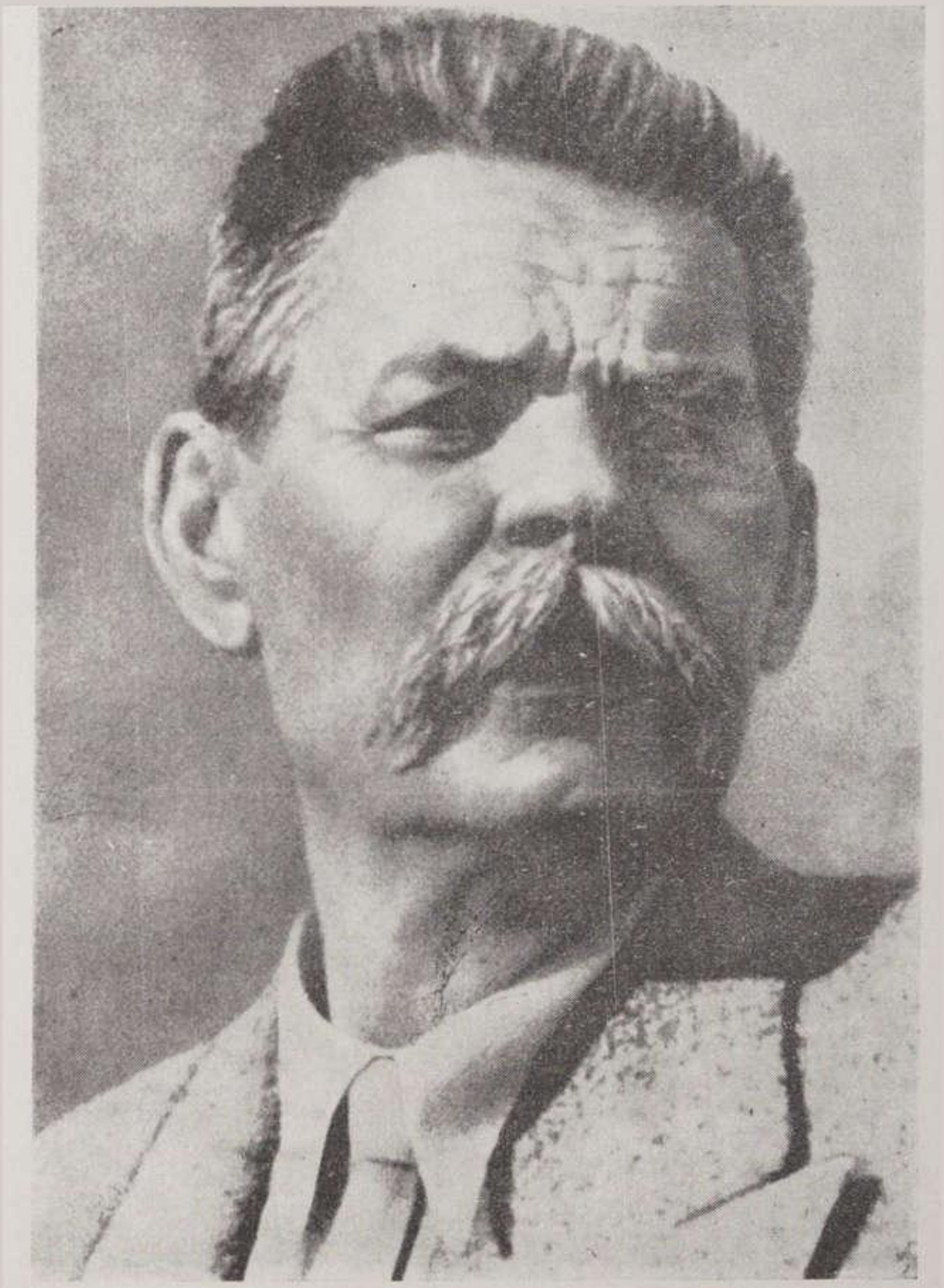
ان الطابع القومي يمتاز بثبات فائق ويتكوّن بتأثير جميع جوانب حياة الامة . وقد يبدو ان احدا لن يجادل في ان لكل امة أو مجموعة من الامم الشقيقة ملامح بارزة متصلة باختلاف الامزجة . ولكن هذا لا يعيق البتة تطوير ملامح جديدة عامة **للانسان السوفييتي** ، كالروح العملية وطول الباع ، ورحابة الصدر والكرم ، والاستقامة والروح المبدئية ، وكثير من الصفات الاخرى التي تذيع نتيجة لاستتباب الاخلاق الجديدة ، الشيوعية .

وفي اثناء بناء الشيوعية تتطور بنجاح ثقافة عامة لجميع الشعوب السوفييتية هي الصورة الاولى للثقافة الانسانية العامة التي ستكون في العهد الشيوعي . فمع التنوع الهائل في الاساليب والاشكال ، الذي يبدو في ابداع الكتاب والملحنين والرسامين السوفييتيين ، ففي جعبتهم طريقة واحدة للابداع الفني والادبي وهي طريقة الواقعية الاشتراكية .

من الامثلة على ذلك الهندسة المعمارية المعاصرة . فمعماريو كل امة ، بطبيعة الحال ، يستعملون في ابداعهم خيرة الملامح التي تكونت في الممارسة المعمارية القومية . ولكنهم في الوقت نفسه يسعون الى تشييد منشآت تستجيب لمثل عصرنا الجمالية ويبحثون عن ابسط الاشكال واقواها تعبيرا ويعنون بالناحية الاقتصادية وبتوفر وسائل الراحة في المباني . وهذه المطالب نفسها تفرضها المواد الجديدة : كالخرسانة واللدائن والزجاج . وبنتيجة ذلك يولد اسلوب معماري جديد يقتبس خيرة التقاليد القومية . وليس هذا جمعا اصطفائيا لاساليب وطرائق مختلفة (وهذا شيء عديم الذوق بحد ذاته) ، بل انه تركيب لطرائق فن المعمار البشرية العامة والقومية .

ومن مواقف امية متماسكة تحل في الاتحاد السوفييتي مسألة هامة من مسائل العلاقات القومية وهي مسألة **تطوير اللغات القومية** .

فلكل امة جميع الامكانيات لتطوير لغتها واغنائها كاداة قوية للثقافة القومية . وفي الوقت نفسه توجد في اسرة الشعوب السوفييتية الشقيقة حاجة ماسة الى وسيلة للتخاطب بين القوميات . ولقد اصبحت اللغة الروسية هي هذه الوسيلة . وطبيعي ان احدا لم يقرر هذا بمرسوم ، بل ان الشعوب اتخذت اللغة الروسية وسيلة للتخاطب بين القوميات عن طواعية . وهذا بديهي تماما ، لأن اللغة الروسية هي لغة اكبر امة تقطن الاتحاد السوفييتي (فاكثر من نصف سكان البلد هم من الروس) ، ولأن اللغة الروسية غنية جدا بالمفردات وتمتاز بامكانيات التعبير عن ادق الفروق في الفكر . وفي اللغة الروسية ادب غني للغاية وطني ومترجم على السواء . والسوفييتيون ، من اية قومية اشتراكية كانوا ،



تكمن في كل انسان قوة الباني الحكيمة ... ولا بد من
افساح امكانية التطور والازدهار لها لكي تثري الارض بعجائب
ومعجزات جديدة وجديدة (غوركي)

يحبون اللغة الروسية لانها لغة لينين وتشيرنيشيفسكي وتولستوي وتشيخوف وبوشكين وغوغول وغوركي ومایاكوفسكي وبافلوف وميتشورين وتيميريازيف وفافيلوف .

وواضح ان السوفييتيين سيتابعون دراسة اللغة الروسية بطيبة خاطر وسيستمرون على استخدامها بنطاق واسع للتخاطب بين القوميات . ولكن هذا الاتجاه التقدمي لا ينفي في اي حال استمرار تطور واغتناء اللغات القومية الاخرى . ولقد اشار برنامج الحزب الشيوعي الى ما لدراسة اللغة الروسية ، الى جانب اللغة القومية للامة صاحبة هذه اللغة ، من اهمية ايجابية ، واكد في الوقت نفسه بكل قوة على انه لا يجوز ان تكون هناك اية «امتيازات او قيود أو اكراه في استعمال هذه او تلك من اللغات» .

وعندما تنتصر الشيوعية في النطاق العالمي تنمحي الفروق القومية نهائيا وتقوم لغة مشتركة واحدة وثقافة مشتركة واحدة تقتبس كل غنى الثقافات الوطنية . ولكن هذه عملية طويلة للغاية ومن غير الممكن الآن التكهن باجلها ولو بصورة تقريبية .

تربية الانسان الجديد

انسان الشيوعية يولد اليوم

جدال حول الانسان . ان الشيوعية تجلب للناس الوفرة في الخيرات المادية والروحية وتخلق الظروف اللازمة للسعادة . ومن اجل هذا كله تتطلب منهم مطالب جدية . فخيرات الحياة يجب ان يكسبوها بعملهم . والمساواة لن تقوم ما لم ينظر الانسان الى الانسان نظرته الى صديق واخ . ولن يكون المرء سعيدا اذا كان فقير الروح جاهلا بمباهج المعرفة اصم واعمى عن جمال الفن .

وبتعبير آخر يجب على المجتمع ، وهو يبني الشيوعية ، ان يهيى لها اعضاءه ، ان يربي فيهم الصفات السامية ، ان يساعدهم في تطهير انفسهم من كل ما يلوّث الكرامة الانسانية . والقضية هنا اكثر تعقدا مما في بعض الروايات الخيالية التي يظهر فيها ، من حيث لا نعلم ، اناس شيوعيون «جاهزون» ، ويمضي الى حيث لا نعلم كل من لا يستجيب لهذه المتطلبات . لا بد من بناء الشيوعية من تلك «المادة البشرية» التي صنعها التاريخ ، وهذه المادة غير متجانسة – فيها كثير من الاشياء الحسنة ، ولكن فيها ايضا غير قليل من الاشياء الرديئة .

واصعب ما في الامر ان الناس ليسوا شخصيات في كوميديا مقنّعة اخذ كل واحد منهم ، مرة واحدة والى الابد ، صفة

واحدة لا ثاني لها : فهذا شرير وذاك طيب القلب وهذا مجمع عيوب وذاك وعاء فضائل . ان الصالح والطالح كثيرا ما يتجاوران في دنيا الانسان الروحية اغرب ما يكون الجوار . ولا يمكن تنشئة اناس جدد الا بتغيير نفسياتهم وموقفهم من العمل ومن المجتمع ومن الاسرة ، اي باجراء **ثورة في وعيهم** بكل ما في هذه الكلمة من معنى .

هل يمكن تحقيق هذه المهمة اصلا ؟

يقول علماء الاجتماع والاخلاق البرجوازيون : كلا ! فالانسان بطبيعته كائن سافل مضى عليه الفا سنة والمواعظ تقول له : لا تقتل ، لا تسرق ، لا تخن ، فلم يتغير شيء في العالم ، فالدم يراق والسرقة تزدهر والاخ يخون اخاه . طبيعي ان في الوسع ، جزئيا ، تعويد الناس على الحياة العامة الاجتماعية وتربيتهم في حدود مراعاة اللياقة الخارجية ، أما ان تقتل الوحش الذي في الانسان وان تخلص الانسان من عيوبه فهذا ما لن يكون .

يقول الشيوعيون : هذا غير صحيح ! فالانسان يمكن ان يربى تربية جديدة . وقد اثبت مؤسسا الماركسية ، بالبراهين العلمية ، ان طراز معيشة الناس الاجتماعية هو الذي يحدد وعيهم ، وهذه حقيقة يؤكدها كل تاريخ البشرية . ففي مدى الفي سنة او ثلاثة آلاف لم يتغير مظهر الناس الخارجي اي تغير تقريبا ، ولو ان رومانيا قديما ظهر بيننا اليوم في اللباس الحديث لما امتاز عن غيره من بين الجمع . ولكن العالم الروحي لمعاصرنا اغنى بما لا يقاس من العالم الروحي لا للاقدمين وحسب بل لابناء القرن الماضي ايضا .

أما العيوب فهي تتلاشى حتما على اثر زوال ظروف الحياة الاجتماعية التي ولدت هذه العيوب . واول هذه الظروف الملكية الخاصة واستغلال الانسان للانسان . فالملكية الخاصة تقسم

المجتمع الى حفنة من الاغنياء الذين يستفيدون من جميع خيرات الحياة في بذخ واسراف ، والى كادحين منهوبين ماديا وروحيا ومحرومين امكانية تطوير مؤهلاتهم الابداعية والاستفادة منها . وتهيمن في عالم المبادرة الخاصة ، بالضرورة ، الروح الفردية البرجوازية التي تعارض بعض الناس ببعضهم الآخر وتقيم قوانين اخلاق الغاب البرجوازية : «كل انسان يعمل لنفسه» ، «ان لم تكن ذئبا اكلتك الذئاب» ، «كن غنيا وقويا تملك مفاتيح الدنيا» ، «الانسان ذئب للانسان» .

نقل الصحفيون الذين رافقوا احد الوفود السوفييتية في الولايات المتحدة الاميركية حوارا مع مزارع اميركي هو نموذج في دلالته . ففي اثناء الحديث لاحظوا ان الموسم عنده في هذه السنة جيد . فاجاب المزارع بمرارة صادقة : «نعم ، ولكن موسم جيراني جيد ايضا . وهذا يعني ان الاسعار ستنزل وساخسر مئة دولار في كل هكتار» .

وغير بعيد عن المزارع ذهب طبيب يحلم بان تزداد اصابات المرض بين مواطنيه . والمهندس المعماري يفرح للحريق لان من ورائه عملا له . والمحامي يفرك يديه تأهبا عندما يعرف ان جريمة وقعت .

وليست فقط الظروف الموضوعية للحياة الاجتماعية في العالم الرأسمالي هي التي تولّد علاقات «حرب الجميع على الجميع» (كما وصف الفيلسوف البريطاني هوبس المجتمع الاستغلالي) . وانما تساعد على ذلك ايضا كل الايديولوجيا البرجوازية التي تمجّد عبادة «الفرد القوي» الذي يستطيع ان يخنق مزاحميه ويصل الى السلطة والثروة بالقسوة والخداع . ولقد تجلى هذا

باصرح واوقح ما يكون في النظريات الفاشستية التي تعكس وجهات نظر البرجوازية الامبريالية الرجعية . وقد نادى الفيلسوف الالماني نيتشه السلف الفكري للفاشستية ، بحلول عصر «الانسان الاعلى» ، «الحيوان الاشقر» الذي سيغرق العالم في الدماء ويستعبد كل البشر .

في وجه الاخلاق البرجوازية تقوم الاخلاق الانسانية للبروليتاريا ، التي تحافظ بعناية على خيرة الصفات الخلقية التي صنعتها البشرية في طريقها التاريخي ، بل انها لا تكتفي بالحفاظ عليها ولكنها تدافع عنها في النضال ضد الايديولوجية البرجوازية . وهذا وحده يكفي لفضح افتراء الايديولوجيين البرجوازيين على الطبيعة البشرية . كلا ، ليست الطبيعة هي سبب العيوب البشرية ، وانما السبب هو نظام الرأسمالية الذي يشوه طبيعة الانسان الحقيقية .

لا شك ان الثورة في الوعي هي اصعب الثورات واشدها تعقدا . ولكنها ستنتصر حتما في مجتمع تساعد فيه ظروف معيشة الناس نفسها ، موضوعيا ، على تغيير نفسيتهم وانتصار الاخلاق الجديدة ، الشيوعية .

ان الجدال حول الانسان ومصيره انتقل منذ زمان بعيد من ميدان النظرية الى ميدان الممارسة .

ففي سنة ١٩١٧ انقسم العالم الى الاشتراكية والرأسمالية . في عالم الرأسمالية يغرس في ذهن الكادح ، باصرار ، انه قزم عاجز ، ويتسابق الوعاظ الكنسيون ومذيعو الراديو ومؤلفو الابحاث الفلسفية على اقناعه بان حياته كلها على هذه الارض ليست اكثر من قشرة عفونة على قطعة جبن وانه هو ذرة غبار امام عناصر الطبيعة ومنفّذ ذليل لارادة «الكائنات العليا» .

وفي الكفة المعارضة لهذه ، في قطب الارض الفكري الآخر ، يقوم فهم لحقيقة الانسان اسمى ، شيوعي : الانسان ليس عبدا لعناصر الطبيعة بل صانع سعادته وسيد الطبيعة ، وليس ذرة رمل في دوامة العواصف الاجتماعية بل صانع التاريخ . انه قادر على الخلاص من كل ما لا يزال يذل فيه الكرامة الانسانية ، وانه ليفعل هذا بنفسه ، بيديه ، بانيا لنفسه عالما جديدا .

التربية الشيوعية . ان العملية المعقدة لتربية الانسان الجديد تقوم على اسس من العوامل الموضوعية : الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج ، الديموقراطية الاشتراكية ، وحدة الشعب الاجتماعية والسبياسية والفكرية التي توطدت في الاشتراكية .

ان كل نظام الحياة السوفييتية هو مدرسة لتربية الانسان الجديد . ولا يضن المجتمع الاشتراكي بالوسائل لكي يكفل لكل انسان امكانية تحصيل العلم وامتلاك الاختصاص وتطوير مواهبه والاستفادة منها عمليا . ويعنى المجتمع بذلك ليس فقط لان شعاره «كل شيء من اجل الانسان» ، بل لان الناس كلما ازدادوا علما واتسع افقهم استطاعوا ان يقدموا المزيد للمجتمع .

يدخل السوفييتيون منذ طفولتهم الى عالم يخضع كل شيء فيه لقوانين الروح الرفاقية ، عالم ليس فيه مستغِلون ومستغَلون ، وكل انسان قادر على العمل فيه ملزم بان يعمل . وهذه القوة العظيمة للعمل الجماعي تترك طابعها على كل نمط المعيشة والتفكير عند السوفييتيين ، وتربي فيهم خيرة الصفات الاخلاقية .

ولكن كون نظام الاشتراكية الاقتصادي والسياسي يساعد في تكوين الانسان المتطور من جميع النواحي ، لا يعني البتة ان الثورة في الوعي تقوم من تلقاء نفسها وبصورة عفوية . ان المجتمع لا يستطيع الاعتماد كليا على العوامل الموضوعية وانتظار ان تفعل هذه العوامل فعلها ، بل يسعى الى تعجيل عملية تحويل

الوعي بكل وسائل التأثير الايديولوجي . فالمدرسة والادب والفن والصحافة والاذاعة والتلفيزيون وغيرها من وسائل التأثير في عقول وقلوب الناس تبث بلا كلل بطولة العمل ، وافكار الروح الجماعية والانسانية ، وتربي الملامح اللائقة بالانسان الشيوعي . والآن ، وقد عكف الشعب السوفييتي بكليته على بناء المجتمع الشيوعي ، **اصبحت تربية الكادحين الشيوعية المهمة المركزية لمنظمات الحزب وجميع المنظمات الاجتماعية .**

ان الجمع بين العوامل الموضوعية والتأثير الايديولوجي ضمانة اكيدة على ان المجتمع سيستطيع القيام بالمهمة العظيمة ، مهمة تربية الانسان الجديد . ولكن مواعيد تنفيذ هذه المهمة تتوقف كثيرا على الناس انفسهم . وهل من اليسير تعليم من لا يريد ان يتعلم القراءة والكتابة أو غرس الصفات الحميدة فيمن يرفض التخلي عن عيوبه ونواقصه ؟ قصارى القول ان شيئا لا يعجّل ولا ييسر عملية التربية كرغبة الناس الصادقة في ان يصبحوا اطهر وافضل ، اي **التربية الذاتية** .

ان النضال في سبيل الشيوعية يحفز الناس الى اغناء معارفهم وعادات عملهم بلا كلل ، ويولّد الحاجة الى الكمال الاخلاقي . وبديهي تماما ان بناة الشيوعية الذين سيكونون اول العائشين فيها ، لهم مصلحة حيوية في اعداد انفسهم ورفاقهم لهذا .

ولكن كيف نحصل على جواب السؤالين التاليين : منذا الذي سيكونه الانسان وبمن سيتشبه ؟ هل يجب البحث عن المثل الاعلى للانسان الشيوعي في روايات كتّابنا التي تعالج موضوعات مبنية على التخيل العلمي ؟

فهذه الروايات مليئة باناس ممتازين بكل معنى الكلمة ، ولكن هل ثمة حاجة حقا لتقليد ابطال الروايات فقط اذا كان

هناك ابطال احياء . ان ملامح الوعي الشيوعية تظهر في افكار واعمال الناس السوفييتيين الطليعيين ، في موقفهم من العمل ، في مقدرتهم على وقف ذواتهم كليا لقضيتنا العظيمة ، في روحهم المبدئية وسمو شرفهم وغير ذلك من الصفات الاخلاقية الرفيعة . انهم خير النماذج التي يجب ان يتشبه بها .

فما هي الملامح التي يمكن تسميتها بالملامح الشيوعية ، والتي يجب ان تكوّن جوهر الوعي الجديد الشيوعي ؟ انها قبل كل شيء **المذهب العلمي** .

المذهب العلمي

الطريق الى الحرية الروحية . لنتصور شخصا ليس عنده مذهب . فكيف يستطيع هذا الشخص ان يفقه ما يحيط به من واقع وان يحدد مكانه في الحياة ؟ لن تكون عند هذا الشخص لا مثل عليا ولا اهداف واضحة ولا معتقدات . وسيتقاذفه اوقيانوس الحياة في كل اتجاه فيما لن يستطيع هو حتى ان يفهم معنى الاحداث الجارية . ان هذا الشخص عبد للظروف .

ومن هنا يتضح مدى تفاهة وجهات نظر الفلاسفة البرجوازيين الذين يرون ان حرية الفرد الروحية تفترض التحرر من كل ايديولوجيا ومن كل مذهب .

اذا تعمقنا في عالم الانسان الروحي كان من اليسير ان نقتنع بانه ليس ثمة ، في الحق ، اناس ليس عندهم اصلا مذهب من المذاهب . فلكل انسان تصورات معينة عن العالم وعن معنى الحياة . ولكنها ليست دائما علمية . وعندئذ يجد المرء نفسه اسير التصورات الكاذبة الخاطئة .

ان المذهب العلمي هو الباب المنفتح على عالم الحرية الروحية ، لانه يمنح الانسان الحرية الحقيقية في اختيار الافعال . ففي

حياة كل امريء حالات معقدة لا بد له فيها من ان يتخذ حلولا لها من تلقاء ذاته . فاذا لم تكن لديه خبرة فكرية واذا لم يتعلم ان يقدّر بشكل صحيح ما يجري من احداث ، كان سهلا عليه ان يرتكب هفوة وان يخطو خطوة غير صحيحة ، وربما غير ممكنة الاصلاح . ولكن الوعي الشيوعي يساعد في اتخاذ الحل الصحيح . فالمذهب العلمي يجعل المرء يفهم سير وأفق التطور العالمي ، ويساعد في فقه ما يجري من احداث في داخل البلد وفي الميدان الدولي ، ويسمح ببناء الحياة عن وعي وباسلوب شيوعي . ولهذا يؤكد برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي على اولوية اهمية تكوين المذهب العلمي عند جميع افراد المجتمع السوفييتي .

وهذا ما يتطلب قبل كل شيء المعارف . فالمعارف هي مادة البنـاء التي منهـا يتكون المذهب العلمي . ولكن الوقائع والمعارف لا تسوى كثيرا اذا تبعثرت كقطع الطوب المتفرقة . فيجب تفسيرها وجمعها في منظومة متماسكة . وتساعد على هذا دراسة اسس الماركسية ـ اللينينية وبرنامج الحزب الشيوعي السوفييتي وغيرهـا من وثائق الحزب ، وعلى الاخص مقارنة المعارف المكتسبة مع الحياة واستخدامها في الممارسة العملية . وعندئذ فقط تتحول المعارف الى معتقدات شيوعية متينة .

كان المثل الذي يستشهد به كثيرا في المدرسة قبل الثورة هو المثل القائل : التكرار ابو المعرفة . أما الآن فنقول :الاستخدام ابو المعرفة .

قال لينين في خطابه في المؤتمر الثالث للكومسومول ان معرفة الشيوعية من الكتب والكراريس والمقالات لا تسوى شيئا اذا لم يرافقها العمل والنضال . ففي العمل فقط مع العمال والفلاحين يمكن ان يصبح المرء شيوعيا حقيقيا . وقد جعل لينين تثبيت

المذهب العلمي وتكوين الانسان الجديد مرتبطين ارتباطا مباشرا بعمل الناس الذين ينشئون المجتمع الجديد . وقد طور برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي هذه الفكرة بقوله ان الافكار الشيوعية يجب ان تجتمع عضويا ، في مسلك كل انسان ، الى الافعال الشيوعية .

الانسان والمجتمع . ان المذهب الشيوعي والتمسك بالقيم الفكرية هما اساس تفهم الناس لواجبهم امام المجتمع ، واساس الوعي الوطني والاممي .

فاما **الواجب الاجتماعي** فهو مسؤولية الانسان الاخلاقية امام المجتمع وامام شعبه ، واستعداده لبذل كل شيء في سبيله . قال فارس الثورة الجريُ دزيرجينسكي : «ان الواجب ليس الزاما بل ضرورة وحاجة واقتناع عميق ومعنى الحياة» .

ولا ينطبق الواجب الاجتماعي دائما على مشاريع الانسان الشخصية وما يعتزمه ، وقد ينشأ تناقض بينه وبينها احيانا . وهنا يتكشف معيار الوعي الشيوعي للانسان ومذهبه والتمسك بالقيم الفكرية . ان معرفة اخضاع ما هو مرغوب فيه لما هو واجب علامة على النضج السياسي والاخلاقي . وهكذا فعل مئات الالوف من السوفييتيين الذين رفضوا يسر الحياة في المدن ورضوا بالصعوبات والحرمانات لاعطاء البلاد قمح الاراضي البكر ووضع ثروات المناطق الشمالية القاسية في خدمة الشعب .

وترتبط بالفهم الواضح للواجب الاجتماعي ، ارتباطا وثيقا ، صفات فكرية **كالوطنية الاشتراكية والاممية الاشتراكية** .

فالوطنية هي شعور اجتماعي عميق ثبّتته مئات والوف السنين من وجود الاوطان المتفرقة . ويتجلى فيها حب البلد الذي ولدنا وترعرعنا فيه وحب تاريخه وشعبه الذي نشعر اننا جزء لا يتجزأ منه .

وترتبط الوطنية الاشتراكية بالاخلاص اللامتناهي للنظام الاجتماعي الطليعي ولقضية الشيوعية ، وبالشعور بالاعتزاز العظيم بالشعب السوفييتي الذي يشق للبشرية جمعاء طريقا الى المستقبل الوضاء .

وليست الوطنية الا من خيرة مظاهر الطبيعة البشرية ، تحفز الناس الى العمل بنشاط في سبيل شعبهم . وكم مرة وصف الشعراء والكتاب كيف يتذكر الانسان ، عندما يواجه الموت ، وطنه وداره ، وصفصافه الباكي أو بتولاه ! فالوطن هو في نظر السوفييتيين لا يتجسد في صور الطبيعة الحبيبة الحلوة فحسب ، وانما تتصل صورته بذكريات ايام الرواد الاحداث والكومسومول وجو الزمالة الرائع الذي يميز حياة كل جماعة سوفييتية . ان الوطن والنظام الاشتراكي منصهران في كل واحد في وعي الانسان السوفييتي .

وليست الوطنية الاشتراكية شعورا اعمى .

ويفخر السوفييتيون ، عن حق ، بنجاحاتهم الباهرة ولكنهم في الوقت نفسه يكشفون النواقص بجرأة ويبذلون كل جهودهم لازالتها . ولا يرون من المشين لهم ان يقتبسوا خيرة منجزات الشعوب الاخرى وان يتعلموا اشياء حتى من الرأسماليين (كما في تكنولوجيا الانتاج الزراعي مثلا) .

ان السمة المميزة للوطنية الاشتراكية هي الصلة العضوية بالاممية التي تعني احترام الشعوب الاخرى وثقافاتها وتقاليدها القومية . فالسوفييتيون لا يعرفون الاثرة القومية وهم اذ يناضلون في سبيل انتصار الشيوعية يقومون بواجبهم الاممي امام الطبقة العاملة وكادحي جميع البلدان . وتتجلى اممية الشعب السوفييتي في ذلك التأييد المادي والسياسي والمعنوي الذي يقدمه لجميع

الشعوب المناضلة في سبيل الحرية والاستقلال الوطني . ان انسان المجتمع الاشتراكي مستعد دائما لمد يد المساعدة الاخوية لممثل اية امة اخرى .

وتظهر وحدة الوطنية الاشتراكية والاممية الاشتراكية بجلاء في الظروف الراهنة حيث اصبحت الاشتراكية نظاما عالميا . فالوطنية الاشتراكية التي ولدها اكتوبر تجاوزت حدود الوطن الواحد المنعزل . ولم يعد هذا ، في ايامنا ، اخلاصا للوطن الام وحسب بل اخلاصا ايضا لكل اسرة البلدان الاشتراكية .

ولسوف تصبح جميع شعوب العالم ، في المجتمع الشيوعي القادم ، اسرة واحدة متآلفة . وعندئذ تنصهر الوطنية والاممية كليا في شعور عظيم واحد بالحب لكل البشرية ، ولمهد البشرية — كوكب الارض .

الانسان الجديد يشتد عوده في العمل

مدرسة العمل . العمل اعذب من الشعر ! العمل اسمى واروع ما في حياة الانسان ! وما اشد دفق القوى وما اعظم لذة الاحساس عندما تكون قد كدحت جيدا وصنعت شيئا نافعا ! فكأنما الشمس تسطع بقوة اشد وكأنما العالم يبتسم من حولك وكأنما في وعاء روحك فيضا من المشاعر الصالحة الطيبة .

ان العمل هو للانسان ينبوع النشاط والتوثب الروحي . يكفي ان نذكر شخصية كولا برونيون المرحة الزاخرة بالالوان ، المجدّ الخفيف الدم الذي تغنى به رومان رولان . وكان مكسيم غوركي المولع بقوة العمل الحياتية يحلم بتصوير بطل العمل الذي تحكي عنه الحكايات ، فاسكا بوسلايف الذي «كان يعمر المدن اينما ذهب» .

ويكو ن العمل في الانسـان صفات الاعتماد على النفس والمبادرة وحسن الفطنة والروح العملية وقوة الطبع .

قال المربي الروسي اوشينسكي في اهمية العمل للانسان : « لولا العمل الشخصي لما استطاع الانسان ان يتقدم ، ولما استطاع ان يبقى في مكان واحد ، ولكان عليه ان يتراجع القهقرى . فجسم الانسان وقلبه وعقله تتطلب العمل ، وهذا المطلب هو من الالحاح بحيث ان الانسان ، اذا لم يكن عنده ، لسبب من الاسباب ، عمل شخصي في الحياة ، يفقد الطريق الحقيقي وينفتح امامه طريقان كلاهما مؤد الى التهلكة : طريق النفور الشديد من الحياة والقرف الكالح والضجر الذي لا قرار له ، أو طريق الانتحار الاختياري غير الملحوظ الذى ينحط اليه الانسان الى درك نزوات الطفولة أو المتعات الحيوانية . وفي كلا الطريقين ينشب الموت براثنه في الانسان ، لان العمل – العمل الشخصي الحر – هو الحياة » .

وبالفعل فان العمل لا يمكن ان يكون حرا الا في المجتمع الحر . فالاستغلال يقتل بهجة العمل . وفي آلة المبادرة الحرة الرأسمالية غير الانسانية يتحول الانسان الى ملحق للماكنة . ويستأثر الرأسماليون بثمار عمله ، ويصبح العمل عبئا على العامل يضطر الى حمله لكسب مورد رزقه . ولكن حتى هذا العمل ليس في متناول الجميع . فالملايين من الناس الاصحاء الاقوياء محرومون من الحق البشري الاولي – الحق في العمل . ومع ذلك فحتى في النظام الرأسمالي يمتاز الناس العاملون بصفاتهم الاخلاقية السامية .

ان الاشتراكية تحرر العمل من اغلال الاستغلال . ويتحول العمل الحر بشكل ظاهر الى ابداع . ومما يساعد على هذا الى حد

كبير ، تقدم التكنيك . خذوا مثلا عمل صاهر الفولاذ في مصانع التعدين . انه ، في حالة التجهيز بالتكنيك الحديث ، يتطلب من العامل معارف واسعة . واما عمل الخراط وراء الماكنات الاوتوماتيكية ؟ اذا كان الناس في السابق يقولون عن الاسطى الماهر انه «ذو يدين من ذهب» ، فالآن لا يكفي هذا ، بل يجب القول ايضا «ذا رأس من ذهب» .

ولكن هذا لا يعني انه يجب انتظار الوقت الذي يغير فيه التكنيك تغييرا كليا طابع العمل ويحوله في كل مكان الى ابداع . اذ ان في الوسع جعل اي عمل من الاعمال ممتعا ومبدعا اذا كان الموقف منه موقفا واعيا . وهذا يعني انه يجب ان يسكب المرء في العمل كل مؤهلاته وان ينجزه على خير ما يرام . واذا ما كان الموقف هكذا فان المهنة «العادية» للغاية يمكن ان تصبح مبدعة .

ثم ان السعي الى سكب الفكر الحي في العمل يدفع بالمؤهلات والملكات التي ينطوي عليها الكادح ، وكأنما يرفع مستوى هذه المؤهلات . ان الموقف الواعي من العمل و«الاستغراق» بالعمل يسمحان للعاملين مهما كانت مهنهم عادية ان يبدوا ويطوروا موهبتهم .

ويضفي الابداع على العمل البهجة والامتاع ويشيع في الانسان الرضا العميق من نشاطه ويغني عالمه الداخلي . ويصبح مثل هذا العمل في آخر الامر حاجة حيوية اولية للانسان .

وتنشأ في العمل الجماعي علاقات جديدة بين الناس : فتقوى الصداقة والمساعدة المتبادلة والتعاون الرفاقي . ويتسع باستمرار المحتوى الاخلاقي للعمل ، وتتكون عادة تكييف الافعال حسب مطلب ورأي الجماعة . وان اقتناعك بان عملك ضروري للناس يساعدك في تذليل الصعوبات ويضاعف قواك . وان حياة الناس المشتغلين بعمل مبدع هي دائما ممتعة وزاخرة بالبحث

عن الجديد ، وفي كل يوم تتكشف امامهم آفاق واسعة . ان هؤلاء الناس سعداء حقا . انهم يحيون غدهم .

تقول زاغلادا بطلة العمل الاشتراكي ورئيسة حلقة في كولخوز «اول مايو» في مقاطعة جيتومير : «ساقول ما يلي: اذا كان العمل يجلب للانسان المسرة واذا كان الانسان لا يعرف التعب في عمله ، فهذا الانسان قريب جدا الى الشيوعية ، وسيظل طويلا قبل ان يهرم ، وستبقى روحه فتية دائما» .

ان العمل هو بالنسبة للسوفييتيين قضية شرف ، وهو المحتوى الرئيسي لحياتهم . ولهذا كان رد فعل الكولخوزيين والعمال والمثقفين ردا حارا على مقالة زاغلادا «احفظوا سمعة زارع القمح !» ،التي تقول فيها ان من غير الممكن في عصرنا هذا ان يحيا الانسان بلا عمل ، وتندد بغضب بكل من لا يتحمس لعمله أو يتقاعس عنه اصلا .

ان عالم الكسالى والطفيليين الروحي ضيق وحقير ، واهتماماتهم ورغباتهم تافهة . فالطفيلية هي من الرواسب الخاصة بالمجتمع الاستغلالي حيث ينظر الناس الى العمل نظرتهم الى فرض ثقيل باهظ . وفي احسن الحالات ينظر الطفيلي الى العمل نظرته الى وسيلة لسد الحاجات الشخصية وحدها . وطبيعي ان يكون انسان كهذا مشوها من الناحية الاخلاقية ومحروما من البهجة الرئيسية في الحياة ، ولا ينهب المجتمع وحسب بل ينهب حتى نفسه .

مأثرة الجيل . ان السوفييتيين يفخرون بما قامت به اجيال فاسيلي تشابايف وسيرغي لازو ، ونيقولاي اوستروفسكي واركادي غايدار ، واوليغ كوشيفوي وزويا كوسموديميانسكايا .

ليست المآثر شيئا جديدا ولكن الاشتراكية وّسعت مجال

البطولات كثيرا . لقد فتحت الباب على مصراعيه امام المأثرة في ميدان الحياة البشرية الرئيسي ، وهو العمل . قال مكسيم غوركي : « ليست في العالم بطولة اعظم من بطولة العمل والابداع » .

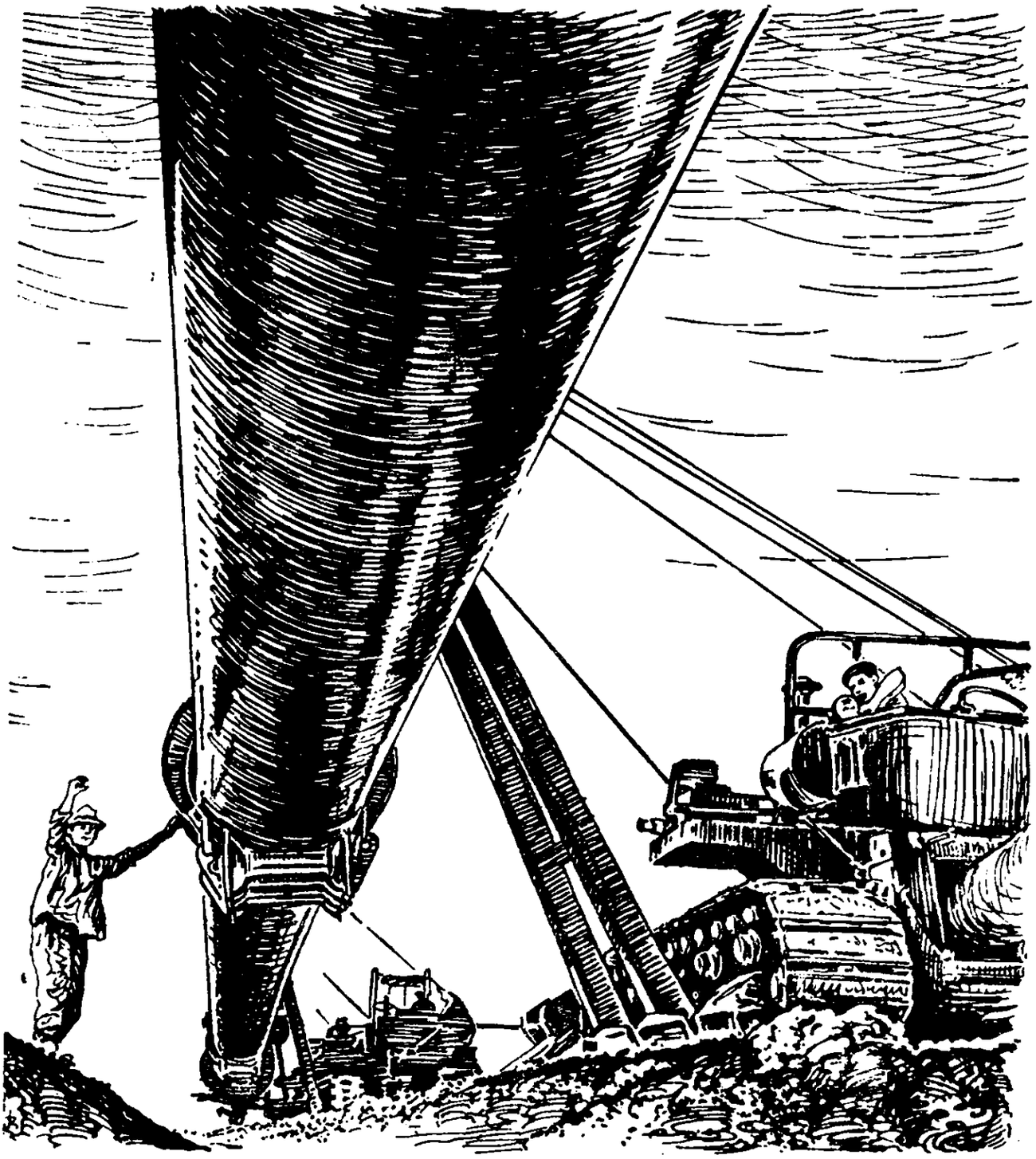
عندما يفهم الانسان معنى عمله ويحس به ويدرك اهميته الاجتماعية ويشعر بانه محـــارب مكافح ، عندئذ يظهر فيه الاستعداد الداخلي للمأثرة . وعندئذ يمكن رؤية الشيء البطولي في اية مهنة عادية . ولا يقيس السوفييتيون حياتهم بالملذات التافهة بل بالبهجة مما يجلبون للوطن من فائدة ونفع . ان الموقف الشيوعي من العمل هو الرومانطيقية الثورية الحقيقية .

ولقد ترعرع في الخط الامامي للنضال من اجل الشيوعية الوف كثيرة من الابطال ، منهم الخبيرة في زراعة الذرة يفغينيا دولينيوك ، وعامل المنجم نيقولاي مامـــاي ، والبراد فكتور يرميلوف ، وسائق التراكتور الكسندر غيتالوف ، وشغيلـــة الحصادة ــ الدارسة تورسونوى آخونوفا ، وغيرهم .

ان ملحمة بطولات ايـــام عمل السوفييتيين هي النضال لزيادة انتاج الخيرات المادية ، ولزيادة كمية وتحسين نوعية المنتجات ، وفي سبيل انتاجية العمل والابداع في العمل .

لم يمر الا اكثر من ربع قرن بقليل على اليوم الذي تأسست فيه اعلى درجة للتفوق في ميدان البناء الاقتصادي والثقافي ــ لقب بطل العمل الاشتراكي . ومع ذلك ففي الاتحاد السوفييتي الآن حوالي عشرة آلاف بطل عمل اشتراكي ، منهم المشتغلون في الصناعة والزراعة وفي النقل والمواصلات ومنهم البناؤون ورجال العلم والاطباء والمعلمون .

ولقاء المآثر الاستثنائية امام الوطن كوفي ٦٢ بطلا من ابطال العمل الاشتراكي بثاني نجمة ذهبية من مدالية «المنجل



في ورشة البناء الطليعية الكومسومولية ـ مد انابيب الغاز من غزلي نحو الاورال

والمطرقة» ، وهم كيلديش رئيس اكاديمية العلوم السوفييتية ، وبريدكو عامل المنجم ، وتوبوليف مصمم الطائرات ، والبناء اوليسوف ، والكولخوزية باستي ماصيم كيظي بهيروفا ، وغيرهم .

وكوفيٌ بثلاثـــة نجوم ذهبيـــة لبطل العمل الاشتراكي تورسونكولوف رئيس احد الكولخوزات الاوزبكية ، والاكاديمي كورتشاتوف ، والمنظم الممتاز لصناعة الدفاع فانيكوف .

ان حياة ابطال العمل الاشتراكي هي مثال ساطع للاخلاص اللامتناهي لقضية الشيوعية .

وفي العمل المتفاني تحل جميع مسائل البناء الشيوعي . والعمل المبدع يجعل الانسان نفسه اغنى واجمل . فهو ، بقيامه بالمآثر ، يكتسب في العمل صفات الانسان الجديد الاخلاقية التي لا تقدر بثمن . ولهذا فان تكوين الموقف الواعي من العمل هو **الشيء الرئيسي في التربية الشيوعية** .

الروح الجماعية والروح الانسانية

الواحد للجميع والجميع للواحد . ان عالم الاشتراكية هو عالم الروح الجماعية . فمنذ سني الطفولة يعيش السوفييتيون في الجماعة ويتلقون مساعدتها بالشكر ويمنحونها معارفهم وخبرتهم . ويشعر الانسان بثقة بالنفس اكثر بكثير عندما يكون فردا من الجماعة كامل الحقوق ومحترما . ويهتز الناس من اعماقهم لدى اقل شجار بينهم وبين الجماعة .

كثيرا ما يسمى الشخص الاجتماعي المعشر جماعيا . وهذا صحيح اذا اخذنا كلمة اجتماعية المعشر لا بمجرد معنى اللطف ودماثة الخلق مع الرفاق بل بمعنى الاهتمام الشديد بشؤون الجماعة والاحساس بالمسؤولية الشخصية عن نجاحاتها واخفاقاتها . وان تتعلّم العيش مع الجماعة يعني ان تشعر بنفسك جزءا منها وان تحافظ دائما وفي كل شيء على الامانة لاهم قاعدة من قواعد الروح الجماعية ، وهي : **الواحد للجميع والجميع للواحد** . والتقيد بهذه القاعدة يسمح بالجمع جمعا عضويا بين المصالح الشخصية والمصالح **الاجتماعية** .

تعنى المصالح الشخصية في النظام الاشتراكي حاجات الكادح المادية والثقافية الفردية التي تتكون بتأثير المجتمع الاشتراكي وتلبى تبعا لنجاحات الانتاج . وهذا يعني ان المصلحة الشخصية الرئيسية تتفق مع المصلحة الاجتماعية التي هي بناء المجتمع الجديد .

يحدث احيانا ، بطبيعة الحال ، ان تنشأ تناقضات بين المصالح الشخصية والمصالح الاجتماعية ، كأن يراود الشك مثلا من يحتاج الى انتقاد احد فيتساءل : ألن يغضب مني ؟ فهل من حاجة للقول انه يجب دائما وفي كل شيء الانطلاق قبل كل شيء من مصالح الجماعة ؟

ان نشاط الانسان الخلاق هو في رغبته في بذل كل شيء لكي تستطيع الجماعة ان تنفذ بنجاح المهمات القائمة امامها . وهذا النشاط الخلاق يزين الجماعة وافرادها ، وفيه يتجلى لا خضوع المصالح الشخصية للمصالح الاجتماعية ، بل **الانصهار العضوي** فيما بينها .

من الامثلة الساطعة على التفهم العميق للمسؤولية الشخصية عن شؤون الجماعة ، العمل الشهم النبيل الذي قامت به عاملة النسيج فالنتينا غاغانوفا . فقد انتقلت الى فرقة متأخرة وتنازلت عن الاجر العالي الثابت وتركت من كان «العمل معهم كالاغنية» . وقد استقبلتها الصديقات الجديدات ، غير الواثقات بقواهن ، في حذر ، ولكنها ساعدتهن في النهوض وفي ان يصبحن من عداد العاملات الطليعيات . وبذلك فتحت فالنتينا غاغانوفا ، دون ان تدري ، صفحة جديدة في تاريخ الروح الجماعية السوفييتية .

ان الجماعة تمنح الانسان اشياء كثيرة ، ولكنها يحق لها ان تطلب منه الكثير . فمن يخالف مبادئ الروح الجماعية ويوقع برفاقه أو حتى يشينهم ، يستحق اللـــوم الشديد . ولا يجوز ستر الاخطاء ولا التسليم بالنواقص ، بل يجب الكشف عنهـــا بصورة مبدئيـــة وصريحة – وهذه ايضـــا قاعدة هامة للنـــاس السوفييتيين بدونهـــا لا يمكن ان تكون ثمة جماعـــة سليمـــة معافاة .

ان الانتقاد ، حتى ولو كان منصفا ، ليس من السهل تقبله . ولكن ليس ابشع من الشخص الذي يسدر في غيه . والمقدرة على الاصغاء باهتمام لملاحظات الرفاق ، وخنق صوت الكرامة الكاذبة ، ومحاولة تصحيح الاخطاء ، هي صفة لا اثمن ولا الزم لمن يريد ان يحترمه الناس . فسلوك الانتقاد الذاتي لا يدل فقط على استقامة الانسان بل يدل ايضا على **بساطته وتواضعه** .

كتب العالم الفيزيولوجي الروسي الشهير بافلوف مخاطبا الشباب : «لا تظنوا ابدا انكم اصبحتم تعرفون كل شيء . ومهما كنتم موضع تقدير عظيم كونوا من الجرأة دائما بحيث تقولون لانفسكم : انا جاهل . لا تدعوا للكبرياء ان تطغى عليكم . فبسببها ستعاندون حيث يجب ان تسلموا ، وبسببها سترفضون النصيحة المفيدة والمساعدة الودية ، وبسببها ستفقدون معيار الموضوعية» .

لقد اصبح العمل في الجماعة وسيلة قوية لتربية الانسان الجديد . وليس من قبيل المصادفات ان يذهب السوفييتيون الى العمل الشيوعي ، كقاعدة عامة ، جماعات جماعات : حلقات ، وفرقا ، وقطاعات ، واقسام مصنع ، ومصانع .

ولقد نشأ في الجماعات خيرة مهرة الانتاج السوفييتيين وابرز رجالات الدولة والعلماء والفنانين والكتاب وغيرهم من الاختصاصيين الكبار . وقد دحضت الحياة ما يزعمه الايديولوجيون البرجوازيون من ان الروح الجماعية تجعل الافراد نسخة واحدة متشابهة وتؤدي الى محو شخصية الانسان . وكلما كانت صلات الناس بالجماعة اوسع كان عالمهم الروحي وملامحهم الاخلاقية اغنى واروع وانكشاف خصائصهم الفردية اتم واسطع .

الانسان صديق للانسان ورفيق واخ . ان يكون المرء جماعيا يعني ايضا ان يحب الناس ويتمنى لهم الخير . فالروح الجماعية والروح الانسانية ، كصفتين اخلاقيتين ، توأمان . قال كالينين : «ان على الانسان ان يحب الناس . واذا احب الناس اصبحت حياته افضل وابهج ، لان احدا لا يعيش اسوأ مما يعيش شانئ الناس ومبغضهم» .

ويمكن الاتيان بغير قليل من الامثلة على انسانية السوفييتيين العميقة . فهذا تخلى عن دوره في الحصول على شقة لرفيقه . وهذه فتاة كومسومولية خاطرت بحياتها وانتشلت طفلا من تحت عجلات القطار . وهذا عضو في الكتيبة الشعبية يحمي آخر من ضربة اشقياء ويتلقى عنه الضربة .

والافعال الانسانية هامة ليس فقط من ناحية النتائج الملموسة . فمن تتجه اليهم العناية والاهتمام يقوى فيهم الايمان بالناس وبعدالة النظام الجماعي . وسيحاول كل واحد منهم بدوره مساعدة غيره . وهكذا تثير الافعال الانسانية نوعا من «تفاعل متسلسل» .

وليس يمكن تحديد معيار الاهتمام والعناية بالناس بقواعد ما . وانما يجب فقط التذكر دائما بضرورة احترام كرامة الانسان . وهذا هو المطلب الاساسي للروح الانسانية .

اجاب ماركس على اسئلة طرحتها عليه بناته فقال انه يرى السعادة في النضـــال ، والبؤس في الخضوع ، وانه يعتبر التزلف ابشع عيب . وعن هذا ايضا قال لينين : «ان العبد الذي يعي عبوديته ويناضل ضدها ثوري . والعبد الذي لا يعي عبوديته ويعيش عيشة العبد الصامتة الخرساء غير الواعية هو مجرد عبد . أما العبد الذي يسيل لعابه عندما يصف راضيا جمالات حياة العبودية ويعجب بالسيد الطيب الصالح فهو عبد حقير نذل» .

يعرف التاريخ امثلة كثيرة على الشهامة السامية والمعاملة الانسانية بين الناس . ولكن الروح الانسانية كانت عمليا تنتفي من العلاقات بين الانسان والمجتمع الرسمي . وفي الاتحـــاد السوفييتي يصبح المبدأ القائل «الانسان صديق للانسان ورفيق واخ» مبدأ اخلاقيا لكل المحتمع . وتتجلى الروح الانسانيـــة الاشتراكية بسطوع في اهتمام الدولة بخير الفرد وبتطويره من جميع النواحي ، وفي اهتمام الانسان بازدهار الوطن وبرفاقه .

وتتطلب الانسانية الاشتراكية من الانسان ان يكون شهما بكل معنى هذه الكلمة : ان يكون متأدبا وخدوما ومفتوح القلب للناس .

ثم ان محبة الناس تعني ايضا ان يكون المرء متطلبـــا تجاههم وان يساعدهم في الخلاص من النواقص ومن كل مـــا يذلهم . وهل الصداقة الحقيقية ممكنة بدون صراحة ؟ كلا ، ففي العلاقات المبنية على «الصفح عن الآثام» وعلى «الكتمان» ، لا بد من الكذب والرياء .

فمحبة الناس هي التي تحمل السوفييتيين على ان يبغضوا ، بكل جوارحهم ، كل من يحكم على الكادحين بالاستغلال القاسي ويضطهد الشعـوب ويهدد البشريـــة باهوال انحرب . وينبذ

السوفييتيون نظرية «عدم مقاومة الشر» التي لا فائدة منها ، بل يكافحون الشر .

ان صحة المجتمع السوفييتي قوية ، وليست في الاتحاد السوفييتي تربة اجتماعية صالحة للروح الفردية والجشع والتعيش الطفيلي وغير ذلك من مظاهر الاخلاق البرجوازية . ولكن آثار هذه الامراض لا تزال باقية بشكل رواسب للماضي ، ملحقة ضررا ملحوظا بقضية البناء الشيوعي .

ان زهاء ثلاثة ارباع سكان الاتحاد السوفييتي ولدوا وترعرعوا في كنف السلطة السوفييتية – فمن اين اتت رواسب الماضي لابناء الجيل الاوسط والجيل الاصغر الذين لم يعيشوا في ظل الرأسمالية ؟

اننا نعرف ان وعي الناس يتأخر بعض الشيء في تطوره عن الكيان الاجتماعي . ولهذا تبقى رواسب الماضي مدة طويلة بعد ان تزول الظروف الاقتصادية التي ولدتها . فكأنما «شامات» الماضي هذه ، وقد اكتسبت قوة العادة والتقاليد ، تتشبث بالعالم الجديد وتنتقل من اناس الى آخرين وتحاول ، بكل قواها ، ان تثبت قدمها في المجتمع الجديد . وبالاضافة الى ذلك لا يجب ان ننسى ان التصورات والافكار والعادات القديمة تلقى الدعم من النفوذ البرجوازي الخارجي .

ان الشيوعية ورواسب الماضي امران لا يجتمعان . والشعب السوفييتي يناضل بكل جهوده ضد «شامات» العالم القديم .

وتنشأ الظروف الضرورية للتغلب على رواسب الماضي بنجاحات البناء الشيوعي . وفي الوقت نفسه يجري عمل تربوي دائب مع كل انسان : فالجماعة تساعد كل من يحمل في ذاته عبء رواسب الماضي على الخلاص من هذا العبء ، وذلك بالنصيحة الودية والتنبيه والإنتقاد الرفاقي الشديد . أما

المتعيشون الطفيليون والمجرمون والاشقياء وغيرهم من العناصر الشريرة الخطرة على المجتمع ، فتستخدم ضدهم تدابير العقاب الصارمة .

ويعود الدور الرئيسي في النضـــال الفكري ضد رواسب الرأسمالية ؛ الى المنظمات الاجتماعية التي تملك وسائل قوية للاحتياط من الافعال اللااخلاقية ولاصلاح الانسان ، كالرأي العام والاقناع .

ويجمع الاقناع بين شرح اصول الاخلاق الشيوعية وبين التطلب السامي من الانسان . وقوة الاقناع هي في الاستمرار والانتظام وفي كونه مستندا الى الثقة بالناس . ويكون الاقناع والثقة احيانا اقوى من الاساليب الادارية . وخير وسيلة للاقناع هي ضرب المثل الصالح في الحياة الشخصية والاجتماعية .

الاخلاق الشيوعية والحياة اليومية

الحياة اليومية ليست شأنا خاصا . ان دائرة العلاقـــات الاخلاقية واسعة جدا : فهي تشمل الحياة اليومية والاسرة والحياة الشخصية بالاضافة الى حياة العمل والحياة الاجتماعية .

والحياة اليومية هي تلك البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها الانسان عندما لا يكون مشغولا بعمله في الانتاج ولا بنشاط اجتماعي ، اي عندما يعيش لنفسه اذا امكن القول . وهنا لا بد من السؤال : اليست الحياة اليومية شأنا خاصا شخصيا لكل انسان ؟ الجواب : كلا ، بل ان الحياة اليومية متصلة بخيوط متينة بالحياة الاجتماعية ، وكأنما تشكل جزءا منها . ويتكون في الحياة اليومية كثير من سمات طبع الانسان ، وعلى رفاهية الحياة اليومية يتوقف مزاجه ومقدرته على العمل . وكل هذا يؤثر ،

الى حد غير قليل ، على مظهره الاخلاقي وعلى موقفه من العمل ومن الجماعة .

ان الحياة اليومية يحددها طابع النظام الاجتماعي . ولقد حطمت الاشتراكية اسس الحياة اليومية القديمة : فحلت الاندية والمسارح وجامعات الثقافة والمساكن الجيدة والكتب والكهرباء والتلفيزيون محل الخمارات والاكواخ الحقيرة واعواد اللقش والقمار والجهل .

ولا ترسخ دعائم الحياة اليومية الشيوعية بشكل اوتوماتيكي بل بمقدار ما تتوفر الظروف المادية الملائمة . ويتوقف انتصارها على الناس انفسهم وارتفاع مستواهم الثقافي واستيعابهم لمبادئ الاخلاق الشيوعية .

لا يكفي بناء الدور والاحياء الجميلة الجديدة ، بل يجب ان يتعلم المرء ان يحيا فيها حياة جميلة وعلى نمط جديد . ومن اجل هذا يجب تجميل وتخضير كل شارع وكل فناء بعناية واهتمام ، والعمل لكي تلبي المطاعم والمخازن والمشاغل وورشات الخدمات العامة حاجات السكان تلبية حقيقية ، وتنفيذ قواعد الحياة الاشتراكية بطواعية واختيار .

ان الحركة في سبيل الحياة اليومية الشيوعية تتسع باستمرار في الاتحاد السوفييتي . فلتدعيم النظام العام ينشئ الكادحون كتائب صيانة النظام العام التطوعية الشعبية . وتقوم جماعات المبادرة لدى ادارات الدور بتنظيم السكان للنضال في سبيل صيانة المباني السكنية وجمال الافنية والشوارع . وتقدم مكاتب الخدمات الحميدة التي تنشأ مساعدتها للعائلات في امر رعاية الاطفال والقيام بالامور المنزلية .

ويسعى السوفييتيون ، بتنظيم حياتهم اليومية ، الى الاستفادة بشكل صحيح من اوقات فراغهم المتزايدة ، اذ يذهب قسم هام

منها في المطالعة واستكمال المعارف وفي العمل الاجتماعي والفن والرياضة . ولكن الكثيرين لم يعودوا يكتفون بدور المتفرج او القارئ او المستمع . بل اصبحوا هم انفسهم يمسكون ريشة الرسم ويجربون قواهم في الادب ويمثلون على خشبة المسرح ويشتركون في المباريات الرياضية .

وكل هذا يدل على ان العنصر الجديد ، الشيوعي ، يزداد تغلغلا في الحياة اليومية السوفييتية .

الاسرة والزواج . للاسرة دور عظيم في حياة الانسان . فالاسرة هي خلية المجتمع المبنية على علاقات القربى ، وهي متصلة اتصالا وثيقا بالنظام الاقتصادي والاجتماعي . فكأنما هي صورة مصغرة للنظام القائم في خطوطه الاساسية .

وتخلص الاشتراكية الاسرة من براثن العلاقات القائمة على الملكية الخاصة . وتحل المشاعر البشرية الطبيعية محل الاعتبارات المالية . ويعتبر الزواج المبني على المصلحة في المجتمع الاشتراكي ظاهرة شوهاء غير اخلاقية . واعتقت الاشتراكية المرأة ومنحتها حقوقا مساوية لحقوق الرجال .

هناك زهاء ٥٠ مليون امرأة يعملن في جميع فروع الاقتصاد الوطني : ١٥ مليون امرأة في الصناعة والبناء والنقل ، و٢٠ مليونا في الزراعة ، و٧ ملايين في العلم . وثلاثة ارباع المعلمين والاطباء من النساء . وهناك ٧٦ امرأة نلن لقب بطلة الاتحاد السوفييتي وحوالي ٣ آلاف كولخوزية نلن لقب بطلة العمل الاشتراكي . و٢٤ امرأة نلن هذا اللقب مرتين .

وتشترك النساء بنشاط ، كتفا لكتف مع الرجال ، في البناء الشيوعي . وقد افتتح امامهن واسعا عالم المصالح الاجتماعية .

وزال بنتيجة ذلك اساس تبعية المرأة للرجل اقتصاديا وروحيا . وزادت اهمية الاسس الاخلاقيـــة والفكرية للاسرة : الحب ، والصداقة ، والاحترام المتبادل بين الزوجين ، ووحدة آرائهما ومصالحهما واهتماماتهما . ويسعى الانسان السوفييتي لان يجد في الاسرة لا النفع المادي بل تلبية الحاجة النفسية الى الحب والصداقة مع اناس قريبين اليه .

يشغل الحب مكانة هامة في حياة الانسان . فهو المسرة العظيمة والانفعالات العميقة والالتزامات الاخلاقية . وقد استنكر لينين باشد ما يكون الاستنكار شعار «حرية الحب» البرجوازي الذي يبرر الاباحية والفسق . ان الحب شعور عظيم وصاف يتطلب الانسان كله .

قد يقول قائل : في الحب يشترك اثنان فما دخل المجتمع به ؟ لا شك ان من الفظاظة وعدم اللياقة التدخل في جميع جوانب حياة العشاق الخاصة ومراقبة جميع خطواتهم . بل ان احدا لا يطلب هذا . ولكن الحب ليس فقط «قضية خاصة» . قال لينين : «في الحب يشترك اثنان فتنشأ حياة جديدة ثالثة . وهنا تكمن المصلحة الاجتماعية وينشأ الواجب تجاه الجماعة» . وما الاسرة وتربية الاطفال الا استمرارا منطقيا للحب وتطورا وتعمقا لاحقان له .

يقال احيانا ان تربية الاطفال في النظام الشيوعي تلقى بكاملها على عاتق المجتمع وتتحرر الاسرة من هذه المهمة . صحيح ان التربية الاجتماعية للاطفال تكتسب في البلاد السوفييتية اهمية متزايدة وانها ستصبح في المستقبل الشكل الرئيسي للتربية . ولكن هذا لا يعني ان الاسرة لن تعود تشترك في هذا العمل الهام . فان احدا لا يستطيع ان يلغي حب بين الوالدين والاولاد وحاجـــة هذين واولئك الى الالفة المشتركة . ومن لا

يعرف مدى اهمية عطف الام في حيـــاة الطفل . فمن السخافة رفض تأثير الوالدين الاخلاقي العظيم في تكوين وعي الطفل وصفاته الاخلاقية .

يرسم برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي مجموعة كاملة من التدابير الرامية الى تحسين معيشة السوفييتيين اليومية . وان تحقيق هذه التدابير سيقوي الاسرة السوفييتية التي ستتطهر من رواسب الاخلاق القديمة وتصبح الى درجة اكبر موئل السعادة البشرية .

يجب ان يكون كل شيء في الانسان جميلا

ان **التطور الشامل والمنسجم** للانسان يفترض الجمع بين الغنى الزوحي والطهارة الاخلاقية والكمال الجسدي .

الغنى الروحي . ان اساس الغنى الروحي لانسان المجتمع الشيوعي هو المذهب العلمي والتمسك بالقيـــم الفكرية . ولكن هذا التمسك بالقيم الفكرية ليس ايمانا اعمى ولا تعصبا يتطلب التنفيذ بدون تفكير . كلا ، بل ان الانسان الجديد الذي يستند الى الفهـــم الواضح لقوانين تطـــور الطبيعـــة والمجتمع ويستخدمها في نشاطه العملي ، يكون مقتنعا عن وعي بانتصار الشيوعية التام .

والسمة الاخرى التي تحدد ملامح الغنى الروحي هي المعارف المتنوعة . لا يمكن ، طبعا ، الظن بان كل فرد من افراد المجتمع سيكون قادرا على استيعاب كل المعارف وجميع منجزات العلم والتكنيك والفن . كلا ، وانما المقصود شيء آخر . المقصود ان التعليم البوليتكنيكي سيعطي الانسان معرفة

عميقة لاسس العلوم والانتاج وسيساعده في ان يجد بسرعة ما خلق له وان يصبح اختصاصيا متفوقا في المجال المفضل .

ولا يعقل الغنى الروحي بدون معرفة الادب والفن وبدون القدرة على ايجاد وفهم ما هو جميل وعلى ان «يخلق الجمال» . وكل هذا يشكل جوهر **التربية الجمالية** .

لماذا لا تؤثر تحف الفن الرائعة تأثيرا واحدا في مشاعر الناس جميعا ؟ فهذا ينظر الى لوحة رسام مهتزا من اعماق قلبه ولا يستطيع اخفاء انفعالاته ، فيما يمر آخر دون ان تستلفت نظره . ليست القضية فقط في ان كل انسان يفهم الجمال على طريقته . ثم ان تفهم الجمال نفسه يتطلب ايضا العمل . وقصارى القول يجب للتمتع بالفن ان يكون المرء مثقفا من الناحية الفنية وان يعرف ولو اهم مؤلفات الادب والفن وان يطور احساسه وخياله .

ولا تقتصر التربية الجمالية على اغناء العالم الروحي ، بل تسمو به ايضا . وكلما ازداد الانسان تغلغلا في عالم الجمال وازدادت قوة شعوره بتأثيره ازداد هو نفسه طهارة وفضلا واصبحت حاجته الى اخضاع آرائه وافعاله لمثل الشيوعية العليا الاخلاقية النبيلة طبيعية اكثر .

الطهر الاخلاقي . ان دخول الاتحاد السوفييتي مرحلة الانتقال الى الشيوعية اتصف بانعطافات كبيرة في وعي السوفييتيين الاخلاقي . وقد سمح هذا للحزب الشيوعي بان يرسم علميا ، لاول مرة ، ملامح المظهر الاخلاقي للانسان الجديد . وقد ادرجت في برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي **كمجموعة قوانين اخلاقية لبناة الشيوعية :**

– الاخلاص لقضية الشيوعية والحب للوطن الاشتراكي وللبلدان الاشتراكية ؛

– العمل بصفاء نية في سبيل خير المجتمع : ومن لا يعمل لا يأكل ؛

– اهتمام كل انسان بحفظ وتكثير الثروات الاجتماعية ؛

– الوعي الرفيع للواجب الاجتماعي ، وعدم التساهل مع مخالفي المصالح الاجتماعية ؛

– الروح الجماعية والمساعدة المتبادلة الرفاقية : الواحد للجميع والجميع للواحد ؛

– المواقف الانسانية والاحترام المتبادل بين الناس : الانسان صديق للانسان ورفيق واخ ؛

– الاستقامة والصدق والطهر الاخلاقي والبساطة والتواضع في الحياة الاجتماعية والخاصة ؛

– الاحترام المتبادل في الاسرة والعناية بتربية الاطفال ؛

– عدم التساهل تجاه الاجحاف والتعيش الطفيلي وعدم الاستقامة والوصولية والجشع ؛

– الصداقة والاخاء بين جميع شعوب الاتحاد السوفييتي ، وعدم التساهل تجاه العداء القومي والعرقي ؛

– عدم التساهل مع اعداء الشيوعية واعداء قضية السلام وحرية الشعوب ؛

ـ التضامن الاخوي مع كادحي جميع البلدان ومع جميع الشعوب .

في هذه المبادئ الاخلاقية لم تتجلّ فقط مطالب الاخلاق البروليتارية الثورية بل تجلت ايضا القواعد الاخلاقية البشرية العامة التي صنعتها الجماهير الشعبية على مدى الوف السنين في النضال ضد الظلم الاجتماعي والعيوب الاخلاقية .

وبديهي لماذا اصبحت مجموعة قوانين الاخلاق هذه نوعا من بوصلة اخلاقية للسوفييتيين . فهي تجيب بدقة على السؤال :

ماذا يجب ان يكون الانسان ؟ وتكمن قوتها في ان القواعد الاخلاقية المسجلة فيها ليست تمنيا طيبا للمستقبل بل هي ضرورية منذ الآن لكل من يبني الشيوعية وتحيا في الناس الطليعيين ، في ابطال زماننا . وتساعد مجموعة القوانين الاخلاقية الجماعة وكل فرد على حدة بتحديد صحة هذه الفعلة او تلك وصحة المنهج المسلكي . ولا يدرك الانسان السوفييتي الايديولوجيا الشيوعية والمبادئ الاخلاقية مجرد ادراك ولا يفهم مهمات الوطن ومطامحه مجرد فهم ، بل يكوّن هو نفسه ، وبشكل نشيط ، حياة المجتمع الروحية ، ويناضل في سبيل مثله العليا ومبادئه ، ويطور ويرسّخ الصفات الروحية السامية في ذاته وفي رفاقه .

ان نحيا بالطريقة الشيوعية يعني ان نكون مسؤولين عن كل ما يحيط بنا .

وانه لقادم الزمن الذي ، كما قال غوركي في روايته «الام» ، «يصبح فيه الناس معجبين بعضهم ببعض ويكون فيه كل انسان كالكوكب امام الآخرين ! .. عندئذ سيحيون في الحق وفي الحرية من اجل الجمال ، وسيُعتبر افضلهم من يعانق العالم بقلبه عناقا اوسع ومن يحبه حبا اعمق ، وسيكون افضلهم اكثرهم حرية لان فيهم جمالا اكثر !»

الكمال الجسدي . ان كمال الانسان عقليا واخلاقيا متصل اتصالا لا ينفصم بتطوره الجسدي المنسجم . وقد كان لينين يذكّر بضرورة الجمع بين الدراسة والبحث وبين مختلف انواع الرياضة ، واستكمال تعدد نواحي المصالح الروحية بالانجذاب الى الالعاب الجمبازية والسباحة والتجوال والتمارين الرياضية .

ان مظهر الانسان الخارجي يناسب محتوى الانسان الداخلي الغني وافعاله النبيلة . وهذا لا يعني طبعا ، ان الجميع في

النظام الشيوعي سيكونون جميلين كما في الحكايات . ولكن الجميع سيكونون اصحاء الجسوم واقوياء البنية وبواسل . اضف الى ذلك ان حياة الانسان ، مهما تكن غنية روحيا وطاهرة اخلاقيا ، تكون محرومة من كثير من المباهج اذا لم يتوفر التطور الجسدي الحقيقي .

والوسيلة الجبارة لحفظ وتقوية الصحة هي العمل الجسدي وكذلك التربية البدنية والرياضة .

اذا استهتر الانسان في شبابه ومتوسط عمره بالتربية الجسدية وبنظام حياته وتغذيته ، فان نتيجة ذلك تكون عادة انحطاط القوى قبل الاوان ، ولن يبلغ الاربعين من العمر حتى يبدو مترهلا ويشكو صعوبـــة التنفس والتعب وآلام الرأس . وبالعكس فان الناس الذين يمارسون الرياضة بانتظام ويتقيدون بنظام صحيح للحياة ، يبلغون في اغلب الاحيان سن الشيخوخة ويمتازون بالمقدرة الكبيرة على العمل وبالعزيمة والمرح والمقدرة على تركيز الفكر .

ويتعلم الشخص المتطور جسديا المهنة الضرورية له بشكل اسرع واحسن . وكيفية العمل وانتاجيته عنده أعلى مما عند من لا يمارس التربية البدنية والرياضة .

مهما تكن افعال الانسان في نظام الانتاج المؤتمت فهي دائما ، في آخر كل حساب ، تعود الى الافعال المحركة . ومهما تقدمت الاتمتة بعيدا فان العاملين الذين يديرون الماكنات

الاوتوماتيكية يجب ان يتحلوا بصفات عالية من ناحية الجسد والعمل وقبل كل شيء بحدود عالية من ادراك لمعلومات وبعدم معرفة التعب وبالمقدرة على حل المسائل المتصلة بالادارة حلا صحيحا وسريعا وببرود ودون زيادة في الحركة . وفي الوقت نفسه يجب على الانسان الذي يدير الماكنة الاوتوماتيكية ان يحسن الحفاظ على اليقظة في الفترة التي يقل فيها ورود الاشارات وتصبح فيها هذه الاشارات رتيبة . وعليه ان يكون دائما مستعدا للتدخل السريع الحاسم . وهكذا نرى ان القضية لا تقتصر على المعرفة . ففي تطور الصفات الضرورية للعاملين الذيـن يديـرون التجهيزات الاوتوماتيكية المعقدة تلعب التربية البدنية والرياضة دورا غير ثانوي .

ويؤكد علمـــاء السيبيرنيتيك ان العمل الجسدي لم يكن يتطلب من التطوير الجسدي للانسان متطلبات واسعة ومعقدة كالتي يتطلبها العمل الحديث ، الذي هو في حقيقته عمل عقلي ، في نظام الادارة المعقدة العالية الاتمتة .

ان الرياضة لا تساعد الانسان فقط على امتلاك كثير من الصفات الضرورية في الحياة ، كالجرأة ، وقوة الجلد ، والحزم ، ورباطة الجأش ، وحسن الفطنة . وانما تتكون في الممارسة الرياضية ايضا الاذواق الجمالية وحسن القامة والرشاقة والليونة والمهارة والدقة في الحركات . وفي النزهات بالسكي والمسيرات السياحية يعرف معرفة اعمق الشعور بالرفقة واهمية الجماعة . وبعد استراحة جيدة في الهواء الطلق تزداد مقدرة الانسان على العمل ويشعر بمزيد من الانتعاش . ان الرياضة ، اذا جمعت

الى الاهتمامات الاخرى جمعا معقولا ، فهي مصدر هام لتطور الانسان السوفييتي جسديا وروحيا على السواء .

* * *

ان الشيوعية كانت ، على مدى عصور ، حلما يراود المظلومين والتعساء . أما الآن فتصبح حقيقة واقعة . لقد ولد مخلوق جديد وها هو يشب ويصبح رجلا . وسيكون هو ، باني الشيوعية ، اول من يعيش في مجتمع المستقبل الرائع .

في سبيل السلام
في سبيل مستقبل
افضل للشعوب

المنظومة العالمية للاشتراكية

بلاد السوفييتات عظيمة : مساحتها سدس اليابسة وسكانها يناهزون جزءا من اربعة عشر جزءا من مجموع سكان العالم . ولكن البلد الواحد هو بلد واحد . ولقد بقيت البرجوازية العالمية حوالي ثلاثين سنة وهي تعلل النفس بالاماني في ان تبقى الاشتراكية محصورة في نطاق البلد الواحد ، في الاتحاد السوفييتي . ولكم حبّر الايديولوجيون البرجوازيون من اوراق ليثبتوا ان اللينينية ظاهرة قومية لم تنشأ الا في التربة الروسية وغير صالحة للبلدان والشعوب الاخرى .

ولكن انتصار الثورة الاشتراكية في عدد من بلدان اوروبا وآسيا بعد الحرب العالمية الثانية اثبت عقم هذه الاماني . وكانت ، بعد ثورة اكتوبر ، اعظم حدث من احداث العصر . وتخطت الاشتراكية حدود البلد الواحد واصبحت **منظومة عالمية** تقوى وتتطور بنجاح . وان خبرة هذا التطور تسوق اقوى برهان على ان النظرية اللينينية اممية وانها صالحة لجميع البلدان وانها تدل جميع الشعوب على الطريق الصحيح لبناء المجتمع الاشتراكي .

طرق الانتقال الى الاشتراكية

الاشكال متنوعة . بما ان البلدان تتطور في الرأسمالية تطورا غير متساو ، فهي تصل الى الثورة الاشتراكية لمستويات مختلفة فبعضها له اقتصاد اكثر تطورا واخرى لهـا اقتصاد متخلف . بعضها كان مستقلا واخرى كانت ترزح في قيود العبودية الامبريالية . بعضهـا يغلب الفلاحون بين كادحيهـا واخرى تغلب فيها البروليتاريا . ومواقع البرجوازية ليست واحدة هنا وهناك من حيث القوة ، وقس على ذلك . ثم ان الظروف الدولية غير واحدة .

فبديهي تماما انه اذا كانت الشروط الاولية لبناء الاشتراكية مختلفة فلا يمكن ولا يجب ان تكون اشكال البناء الاشتراكي واساليبه ووتائره واحدة . ومن هنـا تقوم امام الطبقة العاملة المنتصرة وطليعتها الشيوعية مهمة معقدة : استخدام المبـادئ العامة للماركسية ـ اللينينيـة في الظروف الملموسة لبلدها ، لإيجاد اشكال واساليب لتحويل المجتمع تحويلا اشتراكيا تسمح بالوصول بنجاح اكبر الى الاهداف الموضوعة . ان تحت تصرف الثوريين خبرة غنية ، هي خبرة البناء الاشتراكي في البلدان الشقيقة ، ولكنهم لا يستطيعون نقل هذه الخبرة بحذافيرها مجرد نقل : فما يصلح لبلد لا يأتي دائما بالنتائج المرجوة في بلد آخر . ولهذا فان من المهم ان تستعمل الخبرة المتوفرة في البلدان الاخرى بشكل خلاق ، يحسب فيه الحساب لخصائص البلد ولوضعه الدولي .

من قبل ان تتخطى الاشتراكية حدود البلد الواحد بزمان بعيد قال لينين ان التاريخ سيولّد بالضرورة كثرة من اشكال الانتقال الى الاشتراكية . وقد تأكدت نبوءة لينين هذه بوضوح

بعد الحرب العالمية الثانية ، عندما تحولت الاشتراكية الى منظومة عالمية ، عندما انتصرت الثورات الاشتراكية في بولونيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا وبلغاريا والبانيا ويوغوسلافيا وكوريا . وفي سنة ١٩٤٩ دخلت الصين طريق الاشتراكية واعلنت جمهورية المانيا الديموقراطية . وفي معمعان القتال ضد المستعمرين ولدت الفييتنام الاشتراكية وانتسبت كوبا منذ مدة قريبة جدا الى اسرة الدول الاشتراكية . وكما نرى فان بين هذه البلدان من يبلغ شأوا عاليا في الصناعة وبينها من لا يزال بلدا زراعيا ، وفيها بلدان كانت سابقا اشباه مستعمرات ومستعمرات . ومن هنا تنوع اشكال واساليب البناء الاشتراكي .

ومن اهم الخصائص التي حددت طرق الانتقال الى الاشتراكية في معظم هذه البلدان ان الثورات انتصرت فيها على اثر حركة جبارة معادية للفاشستية جمعت اوسع فئات السكان (من فلاحين وبرجوازية صغيرة في المدن ومثقفين وجزء من البرجوازية المتوسطة ذات الاتجاه الوطني) في **جبهة شعبية ديموقراطية** واحدة بقيادة البروليتاريا وطليعتها الشيوعية الكفاحية .

وهذا ما حدث ، مثلا ، في تشيكوسلوفاكيا في تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٤٨ عندما اضطرت الرجعية الى الانسحاب امام المظاهرة الشهيرة لبروليتاريا براغ وكل سكان العاصمة الكادحين ، وتشكلت حكومة برئاسة الشيوعيين .

كان لا بد طبعا ، في سياق التحولات الاشتراكية ، من النضال بشدة ضد اعداء الثورة الذين حاولوا اعاقة توطيد

السلطة الشعبية . ولكن هذا النضال لم يصل الى حد الحرب الاهلية ، لان الاتحاد السوفييتي ازال امكانية هجوم الامبرياليين على الدول الاشتراكية الناشئة ، أما البرجوازية الكبرى المحلية فلم تكن على قوة كافية لان تخاطر بكل شيء بدون تأييد سافر من الخارج .

ومن هنا تنوع اشكال التحولات الاشتراكية نفسها وتنوع آجالها . فممثلو الطبقات الاستغلالية المطاح بها لم يحد من حقوقهم السياسية الا جزئيا ، وفي بعض الاماكن كانوا غير محدودي الحقوق اطلاقا . ولم يتحقق تحطيم ماكنة الدولة البرجوازية دفعة واحدة ، بل بالتدريج ، وكان الخبراء القدامى يَستخدمون على نطاق اوسع ، الامر الذي ساعد على تفادي الخلل في نشاط الجسم الاقتصادي . وفي عدد من البلدان الاشتراكية ، تشترك في الحكومات التي يقودها الشيوعيون احزاب تمثل جزءا من الفلاحين والمثقفين وغيرهم من فئات السكان . ومع تصفية الاملاك العقارية الكبيرة ابقيت في الفترات الاولى الملكية الخاصـــة للفلاحين على الارض ، ولم تحول الى ملكية اجتماعية الا بالتدريج ، بمقدار ما كان الفلاحون ، طواعية ، يتحدون في تعاونيات . وفي بعض البلدان دفعت السلطة الشعبية للبرجوازية جزءا من قيمة وسائل الانتاج – وكان ماركس قد اشار الى هذه الامكانية عندما قال ان من الاربح للبروليتاريا ، في ظروف معينة ، «ان تدفع للبرجوازية ثمن انعتاقها» .

وكان الطريق الى الاشتراكية في البلدان المستعمرة او شبه المستعمرة السابقة له طابعه الخاص . ففي بعضها انتصرت الثورة في اثناء حرب خاضها الشعب برئاسة الحزب الشيوعي ضد الامبرياليين ومن باع نفسه لهم من اصحاب بنوك وملاكين عقاريين (وهم من يسمون بالكومبرادور) . ومما يسّر امر

انتصار الشعب الصيني ان الاتحاد السوفييتي حطم جيش كوانتونغ الياباني المحتل الذي كان يعيث فسادا في اراضي الصين . ومن الحرب الشعبية في سبيل الاستقلال ولدت الثورة الاشتراكية في كوريا والفييتنام ، وفيما بعد في كوبا .

ان الملامح الاساسية للمجتمع الاشتراكي تعبر عن الحاجات الموضوعية للتطور الاجتماعي ولا يمكن الا ان تكون واحدة لجميع البلدان والشعوب .

وبما ان النتيجة واحدة وهدف التحولات الاشتراكية واحد فلا بد ان تكون هناك ، رغم كل تنوع الاشكال والاساليب ، **قوانين عامة مشتركة للانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية .**

القوانين واحدة . ان بوسع البروليتاريا والكادحين ان يشتروا وسائل الانتاج من البرجوازية ، وبوسعهم ايضا ان يأخذوها بدون تعويض ، وبوسعهم ان ينزعوا ملكية البرجوازية دفعة واحدة وبوسعهم ان يفعلوا ذلك بالتدريج . ولكن وسائل الانتاج ، مهما تكن الظروف ، يجب ان تصبح ملكية اجتماعية والا فلا مجال للحديث عن الاشتراكية . فلن يكون ذلك مادة للاختيار بل قانونا من قوانين التطور الاجتماعي .

ويمكن لديكتاتورية البروليتاريا ان تأخذ شكل نظام الحزب الواحد أو نظام تعدد الاحزاب عندما يكون في السلطة اتحـــاد بين الاحزاب يقوده الماركسيون – اللينينيون . ولكن مهما تكن

الظروف فان النظام السياسي للاشتراكية يجب ان يؤمن اشراك اوسع الجماهير الشعبية في ادارة الدولة ، وتطور مبادرتهم الحرة والخلاقة ، وبتعبير آخر ، الديموقراطية الاشتراكية . وهذا ، مرة اخرى ، ليس مادة للاختيار بل قانون من قوانين التطور الاجتماعي يؤدي الانحراف عنه حتما الى تشويه المثل العليا نفسها للاشتراكية ويعقّد طريق بناء المجتمع الجديد .

ليس من الصعب ادراك مدى الاهمية في معرفة القوانين العامة لجميع البلدان للانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية وذلك حتى لا نضيع في المجاهل وحتى نبني سياستنا على اساس علمي متماسك . وهذه الامكانية توفرها النظرية الماركسية ـ اللينينية التى اغنتها خبرة وممارسة الاتحاد السوفييتي وسائر البلدان الاشتراكية .

لا يمكن الوصول الى الاشتراكية بدون قيادة الطبقة العاملة وحزبها الماركسي ـ اللينيني ، وبدون الثورة البروليتارية واقامة ديكتاتورية البروليتاريا بشكل من الاشكال ، وبدون تحالف الطبقة العاملة مع الجمهرة الاساسية من الفلاحين وفئات الكادحين الاخرى . ومن الضروري ، في الميدان الاقتصادي ، الى جانب اقامة الملكية الاجتماعية على وسائل الانتاج الاساسية ، تحويل الزراعة تحويلا اشتراكيا بالتدريج وتطوير كل الاقتصاد الوطني تطويرا متناسقا موجها الى بناء الاشتراكية والشيوعية والى رفع مستوى معيشة الكادحين . ومن الضروري تحقيق الثورة الاشتراكية في ميدان الايديولوجيا والثقافة ايضا ، وانشاء العديد من المثقفين المخلصين للطبقة العاملة والشعب الكادح والقضية الاشتراكية ، وتصفية الاضطهاد القومي واقامة علاقات المساواة والصداقة الاخوية بين الشعوب . واخيرا يجب حماية مكتسبات الاشتراكية من تعديات الاعداء الخارجيين والداخليين وتقوية تضامن الطبقة العاملة في

بلد مع الطبقة العاملة في البلدان الاخرى وفقا لمبدأ الاممية البروليتارية .

هذه هي القوانين الرئيسية الالزامية لكل بلد يسير في طريق الاشتراكية . وقد صيغت هذه القوانين في بيان اجتماع ممثلي الاحزاب الشيوعية والعمالية الصادر في موسكو سنة ١٩٥٧ .

وباتباع القوانين العامة للانتقال الى الاشتراكية وباستخدام مختلف الاشكال الاقتصادية والسياسية التي تتفق مع الظروف الملموسة ، حققت شعوب البلدان التي سارت في الطريق الاشتراكي للتطور بعد الحرب العالمية الثانية ، تحويلا جذريا لكل النظام الاجتماعي . ففي جميع الدول التي تشكل الآن المنظومة العالمية للاشتراكية ، تسيطر بلا منازع الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج ، وفي الاكثرية الساحقة منها تم تحويل الزراعة الى النظام التعاوني . وكما جاء في مقررات الاحزاب الشيوعية والعمالية وضع في بعض البلدان اساس او اسس الاشتراكية وبعضها الآخر ينجز بناء المجتمع الاشتراكي .

طراز جديد من العلاقات الدولية . ان خروج الاشتراكية من نطاق البلد الواحد وتحولها الى منظومة عالمية قد وضعا امام الحركة الشيوعية المشكلة التالية : كيف يجب ان تكون العلاقات بين الدول الاشتراكية ذات السيادة ؟

ان نقاط الانطلاق لحل هذه المشكلة واضحة . فمن الاهداف الرئيسية للاشتراكية والشيوعية القضاء الى الابد على العداء وعدم الثقة بين الامم واقامة السلام الابدي والاخاء بين الشعوب الحرة على الارض . وبديهي تماما ان اولى خطوات الاشتراكية كانت متفقة مع هذه المثل العليا ، وان العلاقات بين الدول الاشتراكية اصبحت النسخة الاولى للعلاقات الاخوية التي ستكون بين الشعوب في النظام الشيوعي .

وليست القضية فقط في ان هذا يتفق مع المثل العليا الشيوعية ومع التصورات عن العدالة والخير . فالتحالف الاخوي بين الشعوب السائرة في طريق الاشتراكية هو ضرورة موضوعية لها وقانون من قوانين التطور الاجتماعي . وهذا ما كشفت عنه لا النظرية وحدها بل الممارسة نفسها ايضا والواقع السياسي : فشعوب البلدان الاشتراكية التي واجهت منذ نشوئها خطر العدوان الامبريالي ، لا تستطيع ان تدافع عن قضية الثورة وان تؤمن امكانية بناء الاشتراكية الا بتوحيد قواها . وعلى هذا المنوال تماما لا يمكن مواجهة الحصار الاقتصادي ، والتخلص من ظروف النهب المسيطرة في السوق الرأسمالية في ميدان التجارة ، والحصول على سند مضمون ومساعدة لتطوير الاقتصاد الوطني بسرعة ، الا بتطوير العلاقات الاقتصادية مع البلدان الاشتراكية الشقيقة بكل الوسائل .

ان النظام الاجتماعي الاقتصادي الواحد ، والايديولوجية الماركسية – اللينينية الواحدة ، والمصالح السياسية المباشرة – ان كل ذلك يفرض ضرورة وحدة البلدان الاشتراكية . وليس الحديث هنا عن مجرد تحالف بين الدول بل عن صيرورة وتطور طراز جديد مبدئيا للعلاقات الدولية .

اذا اردنا ان نتفهم بشكل اعمق ما تأتي به الاشتراكية من جديد في العلاقات بين الدول القومية ذات السيادة ، يكفينا ان نلقي نظرة ، في ذهننا ، على تاريخ العلاقات الدولية . فما ان ظهرت للوجود اولى الدول حتى بدأت فيما بينها الصراعات الشديدة لان الطبقات الاستغلالية المسيطرة كانت تسعى الى توسيع الاراضي المشمولة بسلطانها واستعباد الشعوب الاخرى مهما كلف الامر . وكانت الحروب المتعاقبة تجلب ما لا يحصى

من المصائب والنكبات وكانت فترات الاستراحة القصيرة تستعمل لاعداد مغامرات حربية جديدة . وكان الخداع والغدر والعنف وجميع الوسائل الاخرى تعتبر جائزة اذا امكن بواسطتها التغلب على الجيران واخضاع الدول الاخرى وتشكيل امبراطورية .

وبلغت القرصنة في الميدان الدولي ذروتها في فترة الامبريالية . فقد اصبحت القوة الاقتصادية والحربية هي الحجة القاطعة في علاقات الدول الامبريالية فيما بينها ومن باب اولى في علاقاتها مع البلدان الضعيفة . واليكم مثلا كيف كان رجالات السياسة الاميركيون ، في مختلف المراحل ، يصفون رسميا سياسة الولايات المتحدة الخارجية : سياسة «الهراوة الكبيرة» ، «ديبلوماسية الدولار» ، سياسة «الشنتـــاج النووي» ، سياسة «من موقف القوة» .

وبعد الحرب العالمية الثانية انشأت الدول الامبريالية كتلا حربية سياسية عدوانية موجهة ضد بلدان الاشتراكية والحركات الثورية . ولكن حتى علاقات التحالف لا تزيل التناقضات الحادة بينها ولا تخفف الصراع على اسواق التصريف ومناطق توظيف الرساميل .

وباعتراف الجميع يعود الفضل الاكبر في صيرورة وتطور الطراز الجديد من العلاقات الدولية الى الاتحاد السوفييتي . وحتى انتصار الثورة الاشتراكية نفسه في عدد من البلدان بعد الحرب العالمية الثانية قد سهل كثيرا لان الاتحاد السوفييتي قيد قوى الرجعية الامبريالية ومنعها من التدخل واحبط مشاريع خنق الدول الاشتراكية الناشئة بالحصار وساعدها في انشاء صناعتها .

وفي السنين الاولى التي اعقبت الحرب عقدت بين الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكيـة الاخرى اتفاقيـــات اقتصادية ومعاهدات تحالف وتبادل مساعدة في حالة وقوع عدوان .

وعندما عقدت الدول الامبريالية اتفاقيات باريس التي ارتأت بعث الروح العسكرية الالمانية واشراك جمهورية المانيا الاتحادية في الحلف الاطلنطي ، انشأت الدول الاشتراكية في اوروبا حلفا دفاعيا لها (في ايار – مايو – ١٩٥٥) ، وهو منظمة **معاهدة فرصوفيا** التي لها قوات مسلحة موحدة تحت قيادة واحدة . وهذه التدابير الدفاعية المشتركة للدول الاشتراكية ، وقبل كل شيء قوة الاتحاد السوفييتي الصاروخية النووية ، تشكل درعا امينا للاشتراكية وتجعل الاوساط الامبريالية الداعية للحرب تعد للعشرة قبل ان تقدم على اية خطوة .

وتتجلى مزايا الطراز الجديد للعلاقات الدولية التي تقيمها الاشتراكية ، باوضح ما يكون ، في ميدان التعاون الاقتصادي بين البلدان الاشتراكية .

المنظومة الاشتراكية العالمية للاقتصاد

التعاضد الاقتصادي . ان لشعب كل بلد اشتراكي مصلحة في ان تنمو الصناعة والزراعة وان يرتفع مستوى معيشة السكان في جميع البلدان الاشتراكيـــة الاخرى . فكل نجـــاح للبلدان الاشتراكية هو نجاح مشترك ومساهمة في قضية الشيوعية .

ولكن نجاحات البلدان الاشتراكية تتوقف الى حد عظيم على تعاونها الاقتصادي الذي يتجلى في اشكال كثيرة : كالتجارة المتبادلة النفع ، والقروض ، والمساعدة في بناء المؤسســـات الصناعية ، وتبادل المعارف العلمية والتكنيكية .

وطبيعي ان هذه المساعدة تقدمها ، في الدرجة الاولى ، اكثر البلدان تطورا من الناحية الاقتصادية . والدور الاكبر هنا هو للاتحاد السوفييتي بصناعته القوية وعلمه وتكنيكه الطليعيين .

فبمساعدة الاتحاد السوفييتي بنيت الكثير من المؤسسات الصناعية في البلدان الاشتراكية الشقيقة . ومنحها الاتحاد السوفييتي قروضا هامة ويساعدها في اعداد الاختصاصيين ، وقدم لها بضعة الوف من التصاميم والرسوم وغير ذلك من الوثائق التكنيكية التي تسمح بتنظيم الانتاج بسرعة .

ولا تبحث بلدان الاسرة الاشتراكية الاكثر تطورا عن اية منافع خاصة من مساعدتها للبلدان الشقيقة . ولكنها في الوقت نفسه لا تقوم بدور المحسن الخير . فليس بين البلدان الاشتراكية تقسيم الى «محسنين» و«عالة» . ولبناء المجتمع الجديد يعبئ شعب كل بلد اول ما يعبئ موارده الداخلية . ولكنه الى جانب ذلك يتعاون مع جميع بلدان الاشتراكية الاخرى ، وعندما يحرز نجاحا لا يخفيه بل يسعى الى اشراك الشعوب الاشتراكية الاخرى في خبرته ومنجزاته . وهكذا تتكون في الاسرة الاشتراكية علاقات التعاون الرفاقي المتعددة النواحي .

فتشيكوسلوفاكيا تساعد البلدان الشقيقة في تطوير صناعة ماكنات قطع المعادن ، وجمهورية المانيا الديموقراطية تقدم خبرتها الغنية في صنع اجهزة البصريات الممتازة ، وبولونيا تعرض منجزاتها في صنع ماكنات استخراج المعادن ، الخ .. وتتبادل البلدان الاشتراكية منتجاتها

ان تطور المنظومة الاشتراكية العالمية للاقتصاد لا يعني بحال من الاحوال ان الدول الاشتراكية تنعزل عن البلدان الاخرى وتنغلق على نفسها ، بل بالعكس فانها تسعى الى التعاون الاقتصادي المتبادل النفع والى اقامة العلاقات التجارية مع جميع الدول .

وبفضل التعاون الاقتصادي الوثيق والمساعدة المتبادلة الاخوية يتمكن كل بلد يسير في طريق الاشتراكية من القضاء بسرعة على تخلفه ومن اللحاق باصدقائه . وبتعبير آخر ، يجري تعادل تدريجي في تطور البلدان الاشتراكية التي ستدخل المرحلة العليا للشيوعية في وقت واحد تقريبا . وسيتمكن كل بلد يسير في طريق الاشتراكية ، حتى ولو كان متأخرا اقتصاديا ، من ان يحقق في اقصر مدة تاريخية قفزة الى امام ، من التأخر الى التقدم .

اسرة الدول الاشتراكية

مبادئ العلاقات بين بلدان الاشتراكية . لا تقدم البلدان الاشتراكية بعضها لبعض مختلف المساعدات الاقتصادية وحسب ، بل ان في وسعها ايضا ان تنسق سياستها الخارجية وان تعمل

في الميدان الدولي في جبهة موحدة ، وبديهي ان هذا يقوي تأثير المنظومة العالمية للاشتراكية في سير الحوادث .

وهكذا فان المصالح الاقتصادية والسياسية للشعوب السائرة في طريق الاشتراكية تتطلب بالحاح تدعيم وحدتها والعمل لكي تكون المنظومة العالميـــة للاشتراكية لا كمجموعة من الدول المتماثلة في طبيعتهـــا الاجتماعية وحســـب بل كاسرة سياسية واقتصادية متلاحمة .

من السذاجة الظن بـــان وحدة وتلاحم بلدان المنظومـــة الاشتراكية العالمية يتكونان من تلقاء نفسيهما ، اوتوماتيكيا ان امكن القول . فالعلاقات الجديدة بين الشعوب تبنيها الاشتراكية على صعيد وسّخه العداء القومي القديم وعدم الثقة والاوهام القومية . ويمكن ان تنتقل ، بالوراثة من الرأسمالية ، بعض المسائل المتنازع عليها في العلاقات بين الدول ، كالخلافات الاقليمية مثلا . وفي بعض الاحوال يمكن ان يحدث ، موضوعيا ، عدم توافق بين المصالح الوطنية الملموسة لبلدان مختلفة . ومع ان كل هذه الصعوبات موقتة ولا يمكن باية حال مقارنتهـــا بالمزايا العظيمة للتعاون الاخوي بين البلدان الاشتراكية ، الا انها يمكن ان تضر ضررا غير قليل بالعلاقات في داخل المنظومة الاشتراكية العالمية .

لهذا كانت ثمة اهمية كبيرة في الظروف الراهنة للسياسة الماركسية ـ اللينينية الصحيحة التي تنهجها الاحزاب الشيوعية والعمالية ، ولمقدرتها على الجمع بين المصالح الوطنية لبلدانها والمصالح العامة المشتركة لكل الاسرة الاشتراكية ، والعمل معا لتذليل الصعوبات التي تنشأ .

ان الناس تفكر لا حسب قوالب جامدة ، وحتى لو كانوا ذوي معتقدات واحدة فان نظرتهم الى مختلف مسائل البناء

الاشتراكي والعلاقات بين الدول قد تكون ذات فروق مختلفة وقد لا تتفق تماما على الدوام . ولكن وحدة المعتقدات ووحدة الهدف تمكّنان من وضع مقررات مشتركة على اساس المناقشة الحرة . ومن اجل هذا تجري الاحزاب الشيوعية والعمالية مشاورات ومباحثات ، وتتبـــادل الوفود ، وتبحث جميع المسائل التي تهمها . ومن وقت الى آخر تعقد اجتماعات عالمية تتخذ فيها وثائق برنامجية مشتركة . ومن هذه الوثائق البرنامجية للحركة الشيوعية العالمية بيان وتصريح اجتماعي موسكو لسنتي ١٩٥٧ و١٩٦٠ . وفيهما ، الى جانب المسائل الاخرى ، صيغت مبادئ العلاقات بين البلدان الاشتراكية . وهي قبل كل شيء المساواة في الحقوق واحترام الاستقلال وعدم التدخل في الشؤون الداخلية . والتقيد بهذه المبادئ يخلق الاساس اللازم لقيام علاقات ودية طبيعية بين الدول الاشتراكية ذات السيادة .

ولكن العلاقات بين بلدان الاشتراكية لا تقتصر على هذه المبادئ

وانما اساس العلاقات بين الدول الاشتراكية هو مبدأ **الاممية الاشتراكية** . ان مفهوم الاممية هو الذي يشمل كل ذلك التعاون العظيم والمتعدد الجوانب الذي تحدثنا عنه اعلاه ، وان الوفاء للاممية هو الضمانة لتطوير وتعزيز قوة المنظومة الاشتراكية العالمية بنجاح .

وتفترض الاممية النضال الحازم ضد كل مظهر من مظاهر ايديولوجية التعصب القومي الغريبة عن البروليتاريا .

ان التربة التي تغذي التعصب القومي هي البيئة البرجوازية الصغيرة .

ففي السير نحو الاشتراكية تشترك ، الى جانب البروليتاريين ، جماهير الفلاحين والبرجوازية الصغيرة في المدن . وظروف معيشة

هذه الفئات في النظام الرأسمالي تولّد ازدواجية وتناقضا في وعيها ، فانانية الملاك الصغير اذا انتقلت لنطاق الامة بأسرها تتخذ شكل الانانية القومية – الرغبة ، من جهة ، في الانغلاق على الذات والانفراد والانعزال عن العالم الخارجي في حدود بلد صاحب هذه الرغبة ، ومن جهة اخرى ، في وضع امته فوق الامم الاخرى وفرض نمط تفكيره وعمله عليها وترسيخ اولويته .

ومن اهم مهمات البروليتاريا العمل لكي تستوعب جماهير البرجوازية الصغيرة الايديولوجيا البروليتارية ، الماركسية – اللينينية ، وغرس الوعي الاممي والقيادة في طريق الشيوعية العلمية . ولشد ما اشار لينين الى اهمية هذه المهمة ،

وتكون خطورة آراء التعصب القومي والبرجوازية الصغيرة كبيرة بنوع خاص عندما تظهر في صفوف الحزب الذي حقق ثورة اشتراكية واستلم السلطة . وفي هذه الحال تظهر آثارها السلبية لا في تشويه مثل ومطالب الاشتراكية العلمية في داخل البلد وحسب ، بل ايضا في انتهاك مبدأ الاممية الاشتراكية في الميدان الدولي وفي سياسة الدولة الاشتراكية . وتناضل الاحزاب الماركسية – اللينينية في العالم في سبيل تدعيم وحدة جميع البلدان الاشتراكية وجميع الاحزاب الشيوعية على اساس مبدئي ماركسي – لينيني . وما من شك في ان الاسرة الاشتراكية ، بتغلبها على جميع الصعوبات وعلى «اعوجاجات التاريخ» ، ستقوى وتتطور باستمرار .

القوة الحاسمة للتطور العالمي . منذ اول يوم ظهرت فيه الاشتراكية على المسرح العالمي بدأت تؤثر تأثيرا هائلا في كل سير الحوادث . وهذا اول مرسوم لينيني – مرسوم السلام – بشّر

الانسانية بانه قد ظهرت على الارض دولة تنوي استخدام كل قواها لترسيخ مبادئ المساواة في الحقوق وعدم التدخل في الشؤون الداخلية في العلاقات بين الدول . ومزقت الحكومة السوفييتية بحزم المعاهدات غير المتكافئة التي فرضتها روسيا القيصرية على جاراتها (ايران وتركيا وافغانستان والصين وغيرها) . وكان ممثلو روسيا السوفييتية في الاجتماعات والمؤتمرات الدولية ، وفيما بعد في عصبة الامم ، يعملون بدأب واستمرار لازالة كل تمييز في التجارة الدولية ويفضحون السياسة الاستعمارية للامبريالية ، وينبهون الشعوب بملء حناجرهم الى استعداد العسكريين للحرب العالمية . وكسبت الحركة الثورية للبروليتاريا ونضال الشعوب المضطهدة الوطني التحرري سندا امينا لها في الاتحاد السوفييتي ، ورأت كل البشرية التقدمية في البلاد السوفييتية منارة للتقدم .

ومع ذلك فمن البديهي تماما ان الاتحاد السوفييتي ، الذي كان في بادئ امره بلدا متأخرا نسبيا من الناحية الاقتصادية ، لم يكن يستطيع ان يؤثر التأثير الحاسم في الوضع الدولي : وظلت الامبريالية تسيطر في الميدان الدولي ولو سيطرة غير تامة ، كما في الماضي .

أما الآن فقد تغير الوضع تغيرا جذريا . فالاتحاد السوفييتي اصبح الدولة الصناعية الثانية في العالم له قوة اقتصادية وعسكرية جبارة . وتحولت الاشتراكية الى منظومة عالمية تشمل اقل بقليل من ثلث سكان الارض . واذ تعالج البلدان الاشتراكية المسائل الاساسية للسياسة الدولية في مصلحة قضية السلام والديموقراطية والاستقلال الوطني للشعوب والاشتراكية ، فانها تؤثر تأثيرا متعاظما في كل التطور الاجتماعي . ولقد انقضت
تلك الازمنة التي كانت فيها مصائر البشرية تتوقف كليا على الامبريالية ، ويجري تقريرها في مكاتب الاحتكارات واركان الحرب

العامة للدول الامبريالية . فنسبة القوى اليوم في الميدان الدولي تتغير باستمرار لصالح الاشتراكية التي تقاس قوتها لا ببأس البلدان الاشتراكية الاقتصادي والعسكري وحسب بل بنفوذهـــا السياسي ايضا وبانتشار الافكار الاشتراكية انتشارا مظفرا .

تصوروا التاريخ طريقا تسير فيه البشرية . فتمر به على صوة كتب عليها «القرن العشرون» . وعندما تصل الى علامة «١٩١٧» ترى وكأنما الطريق تفرع الى جهتين : في احدى الجهتين سار الطريق في اتجاه الشيوعية ، وفي الجهة الاخرى سار الطريق السابق ، الرأسمالي . وتمر السنون ، سنو العمل والنضال ، ونرى مليار انسان – ثلث مجموع البشرية – يتقدمون بثقة نحو الشيوعية ، موسّعين الطريق ، ومزيدين السرعة . أما على الدرب الرأسمالي الذي يزداد ضيقا فتقوم العقبات ويزداد المسير صعوبة وتكثر العلائم التي تدل على ان الطريق تؤدي الى مأزق .

هذه اللوحة الخيالية تساعدنا في تكوين صورة عن زماننا المدهش ، الذي يتحقق فيه الانتقال من نظام اجتماعي قديم الى آخر جديد .

وفي وسع الملايين من الكادحين في بلدان الرأسمال ، وفي وسع الشعوب التي تتخلص من العبودية الامبريالية ، ان تجيب ، لا استنادا الى الكتب وحسب ، بل بشكل ملموس محسوس ، على السؤال الذي يهمها كثيرا : ما هو النظام الافضل ؟ وتستعمل هنا ابسط طريقة واضمنها عند

الاختيار – وهي المقارنة . وهكذا فان الناس في جميع انحاء العالم يحسبون ويقارنون ويوازنون . ويؤخذ كل شيء بالحسبان : انتاج الفولاذ وقوة المحطات الكهرمائية ، سرعة السيارات ووزن الاقمار الصناعية ، مقدار الضرائب ومبلغ ايجارات السكن ، عدد الاميين وعدد المهندسين ، دمية الارقام القياسية الرياضية ومهارة راقصات الباليه .

الاشتراكية تنتصر

الاشتراكية تغذ السير . مع نشوء الدولة الاشتراكية الاولى قامت امام البشرية المسألة الشاغلة للبال : في اية ظروف سيجري تعايش النظامين وباية وسائل ستجري المباراة بينهما ؟

قال فلاديمير ايليتش لينين وحزب الشيوعيين للبشرية :

– لقد تحقق ما نص عليه التاريخ . وفي الارض الآن ، سواء اكان هذا يعجب الرأسمالية ام لا ، نظامان اجتماعيان متضادان . وبما ان كوكبنا واحد فيجب ان يكون التعايش سلميا . ولجميع الشعوب مصلحة حيوية في هذا .

– ان التعايش السلمي لا يعني ان الطبقة العاملة السوفييتية ، بوصولها الى السلطة ، ستتصالح مع نظام الاضطهاد الرأسمالي الذي لا يرحم وستنظر بعدم اكتراث الى مصائب اخوانها في بلدان الرأسمالية والى آلام الشعوب المستعمرة ، بل انها ، وهي الوفية لواجبها الاممي ، ستقدم لهم العون المعنوي وستسهم في نجاح نضالهم ضد نير الرأسمال

وتبرهن شعوب الاتحاد السوفييتي وغيره من البلدان الاشتراكية ، بعملها ، ان الاشتراكية ليست فقط اعدل من الرأسمالية بل انها تبذها بشوط بعيد من حيث مقدرتها على دفع الانتاج والعلم والتكنيك الى امام وتأمين الازدهار للمجتمع .

والآن ، وقد نمت الاشتراكية واصبحت منظومة عالمية جبارة ، لا تتخلى الاوساط الرجعية في البلدان الامبريالية عن

وتدليلا على ما نقول نأتي بابعد الشهود عن التحيز – نأتي بالارقام والوقائع .

في سنة ١٩١٩	في سنة ١٩٦٤
كان العالم الاشتراكي يشغل ٢١,٧ مليون كيلومتر مربع أو ١٦ بالمئة من مساحة اليابسة ، وكان يضم ١٣٨ مليون نسمة او ٧,٨ بالمئة من مجموع سكان الارض .	كان العالم الاشتراكي يشغل ٣٥,٢ مليون كيلومتر مربع أو ٢٦ بالمئة من مساحة اليابسة ، وكان يضم ١١٣٤ مليون نسمة او ٧,٨ بالمئة من مجموع سكان الارض .

ولتطور الاقتصاد ، وخصوصا الصناعة ، اهمية حاسمة في المباراة بين النظامين الاجتماعيين .

ولقد كانت حصة بلدان المنظومة الاشتراكية في الانتاج الصناعي العالمي تشكل :

في سنة ١٩٥٥ـ٢٧ بالمئة وفي سنة ١٩٦٣ ـ حوالي ٣٨ بالمئة .

لا يزال الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية الاخرى متأخرة عن اكثر البلدان الرأسمالية تطورا اقتصاديا في انتاج الانواع الاساسية من المنتجات بالنسبة للفرد الواحد من السكان . ولكن هذا التأخر سيزول في السنين القادمة القريبة . فعلى اي اساس يقوم هذا التأكيد ؟ على سرعة الوتائر .

ففي السنين العشر بين ١٩٥٤ و ١٩٦٣ ، زاد الانتاج الصناعي بالنسبة للفرد الواحد من السكان في الاتحاد السوفييتي مقدار ١٢٨ بالمئة ، وفي الولايات المتحدة مقدار ١٥ بالمئة .

وليس من حاجة الى معرفة الرياضيات العالية لادراك ان المسافر الذي يسير بسرعة ٤٠ كيلومترا في الساعة سيلحق ويسبق حتما المسافر الذي يتقدم بسرعة ١٠ كيلومترات في الساعة . ولكن متى سيحدث هذا ؟

طبيعي ان هذا او ذاك من البلدان الرأسمالية قد يزيد من سرعة تطور اقتصاده في فترات متقطعة من الزمن . ولكن ما ان تنتهي الظروف الملائمة حتى يبدأ التدهور حتما . وعندما حسب الاقتصاديون السوفييتيون متى ستلحق الاشتراكية وتسبق البلدان الرأسمالية المتطورة ، استندوا الى معطيات تحقق التاريخ من صحتها : فلقد اثبتت ٥٠ سنة تقريبا ، لا سنة ولا سنتان ، ان الاقتصاد الاشتراكي يتطور اسرع من الاقتصاد الرأسمالي بمرات كثيرة . زد على ذلك ان الاقتصاديين اغفلوا في حسابهم العواقب المحتملة للازمات التي تعود بالرأسمالية الى وراء .

الاشتراكية تؤمن حياة افضل . لقد انشئت بعمل الشعب السوفييتي البطولي صناعة جبارة وزراعة متطورة تتيحان تلبية حاجات الكادحين بمقادير متزايدة .

ان الناس الذين يعيشون في ظروف الاشتراكية يعرفون انهم كلما عملوا احسن اصبحت حياتهم اغنى واجمل . والامر بخلاف ذلك في الرأسمالية ، حيث القسم الاكبر من القيم المنتجة تستملكه حفنة من الملاكين وحيث الخيرات المادية توزع لا حسب العمل بل حسب الرأسمال .

لا يزال الدخل الوسطي للفرد الواحد من السكان في اغنى البلدان الرأسمالية اعلى مما في البلدان الاشتراكية . ولكن وراء الدخل الوسطى تفاوتا صارخا : اذ ان حفنة من الاحتكاريين ينالون حصة الاسد فيما لا ينال ملايين الكادحين الا حصة العصفور .

ان فئة الكادحين التي تتقاضى اجورا عالية نسبيا تعيش فعلا في ظروف مادية غير سيئة . ولكن لا يمكن الحكم على الكل حسب الجزء اذا كان هذا الكل غير متجانس . فالى جانب المشتغلين في البلدان الرأسمالية يوجد ملايين العاطلين عن العمل كليا او جزئيا . والى جانب العمال الاكفاء يوجد عمال لا اختصاص لهم وعمال في المزارع لا يكادون يسدون رمقهم . والى جانب البيض في الولايات المتحدة يوجد الملايين من الكادحين الزنوج والمكسيكيين والبورتوريكيين الذين يتقاضون لقاء العمل نفسه اجرا ادنى بمرات كثيرة . ان السلطات الاميركية تري السياح الاجانب بطيبة خاطر البيوت المريحة التي يقيم فيها عمال مصانع فورد للسيارات ولكنها تفضل ألا تريهم هارلم ، حي الزنوج في نيويورك ، حيث الناس يعيشون في فقر رهيب وحيث «الجرذان في الاكواخ تأكل الناس» حسب تعبير احد الصحفيين الاميركيين .

واخيرا ، كما لا يجوز الحكم على وضع جميع الكادحين حسب وضع جزء من الطبقة العاملة ، كذلك لا يجوز الحكم على

مستوى معيشة السكان في كل العالم الرأسمالي حسب مستوى معيشة السكان في احد البلدان الرأسمالية (او حتى مجموعة من البلدان) . ف«على مرمى حجر» من الولايات المتحدة تقع القارة الاميركية اللاتينية التي يعيش سكانها الكادحون في الفقر والاملاق . وفي بلدان آسيا وافريقيا المعذبة التي تنهبها الامبريالية نجد ان الدخل الوسطي للفرد الواحد من السكان اقل مما في الولايات المتحدة وفي دول اوروبا الغربية بعشرات المرات . وفي البلدان المتخلفة لا يزيد متوسط عمر الانسان على الثلاثين سنة ، وفي بعض الاماكن (في المستعمرات الافريقية مثلا) لا يزيد حتى على ٢٣ سنة .

واذا اخذنا النظام الرأسمالي بمجموعه نرى ان النظام الاشتراكي اوجد ظروفا افضل للكادحين بان امّن لهم خيرات من نوع الحق في العمل وفي الاستراحة وفي التعليم المجاني والتطبيب المجاني .

ويفتح النظام الاشتراكي امكانيات لا تحد لزيادة رخاء الشعب .

حركة الشعوب التحررية

انهيار الاستعمار . ان الاستعمار عار على الانسانية وهذا العار يقع بكليته على عاتق النظام الرأسمالي الذي استعبدت فيه حفنة من الدول الامبريالية الاكثرية العظمى من سكان الارض .

ثم جاءت ثورة اكتوبر فايقظت شعوب الشرق والهمتها القوة للنضال ضد الظالمين . واكتسب هذا النضال طابعا حاسما بشكل خاص بعد هزيمة المانيا الفاشستية واليابان في الحرب العالمية الثانية . واصيب النظام الاستعماري بضربة بالغة بانتصار الشعب الصيني الكبير وشعبي كوريا والفييتنام ، التي طردت المستعبدين وراحت تبني الاشتراكية . ونالت الهند واندونيسيا وبورما وعدد من البلدان الاخرى الاستقلال . واحرزت بلدان الشرق المستعمر ، الواحد بعد الآخر ، استقلالها السياسي . وكانت سنة ١٩٦٠ «اخصب» السنين في هذه الناحية وقد دخلت في التاريخ باسم «سنة افريقيا» ، لان ١٧ مستعمرة سابقة من هذه «القارة السوداء» يقطنها اكثر من ٨٠ مليون نسمة اصبحت لها دول مستقلة .

لنر كيف تغيرت خارطـــة العالم بعد ثورة اكتوبر التي فتحت لجميع الشعوب الطريق الى الحرية .

المستعمرات واشباه المستعمرات والدومينيونات

في سنة ١٩١٩ كانت تشغل :
١٠٤,٥ مليون كيلومتر مربع ،
او ٧٧,٢ بالمئة من مساحة الارض ،
وكان يقطن فيها :
١٢٣٠ مليون نسمة ،
او ٦٩,٢ بالمئة من سكان الارض .

في سنة ١٩٦٤ كانت تشغل :
٧,٧ مليون كيلومتر مربع ،
او ٥,٧ بالمئة من مساحة الارض ،
وكان يقطن فيها :
٤٥,٨ مليون نسمة ،
او ١,٤ بالمئة من سكان الارض .

فما هي القوى المحركة للثورة الوطنية التحررية ؟

ان نضال الشعوب المظلومة ضد الامبريالية اكتسب طابعا فعالا الى حد كبير بفضل نمو صفوف **البروليتاريا** في المستعمرات ، ونشوء الاحزاب الشيوعية . فبتأثيرها استيقظ وعي **الفلاحين** الذين لا ارض لهم والذين يستعبدهم الاقطاعيون . ويشرح العمال للفلاحين ان الامبريالية والاقطاعية حليفتان ولا يمكن القضاء على العبودية الاقطاعية قبل الخلاص من النير الامبريالي . وهكذا تجتمع في النضال التحرري مهمات الثورة على الامبريالية وعلى الاقطاعية : مطلبها الاول الاستقلال والمطلب الثاني الاصلاح الزراعي .

وتشترك في الحركة التحررية ، في عدد من البلدان ، **البرجوازية الوطنية** الناشئة ، لان السيطرة الاجنبية تحد كثيرا من امكانيات تطوير فعالياتها الاقتصادية وتكثير رساميلها . فتتكون الشروط اللازمة لتوحيد القوى المعادية للامبريالية في جبهة وطنية يكون تحالف طبقة العمال والفلاحين عمودها الفقري .

ومما له دور هام في نجاح نضال الشعوب في سبيل الاستقلال مساعدة وتأييد هذا النضال من جانب المنظومة الاشتراكية العالمية .

لقد ذهبت الى غير رجعة ايام كان الامبرياليون يستطيعون ضرب الشعوب المحبة للحرية بلا خوف من عقاب ، واصبحت في العالم الآن قوة جبارة قادرة على كف يد المغتصبين .

النضال مستمر . ولكن انهيار النظام الاستعماري لا يعني بحد ذاته زواله زوالا تاما ، ذلك ان الامبرياليين لا يسلمون بفقدانهم المستعمرات ، ويستعملون مختلف الطرائق لكي يبقوا على سابق عهدهم في نهب وظلم شعوب البلدان التي كانت مستعمرة .

فيم يتجلى هذا ؟ يتجلى هذا ، قبل كل شيء ، في محاولات الدول الامبريالية لوضع مقاليد السلطة في الدول الناشئة في ايدي اناس مخلصين لها مطيعين لاوامرها . وحيث يمكنها ذلك لا يغير اعلان الاستقلال شيئا جوهريا في اوضاع الشعب .

لقد بدأ الامبرياليون ، بعد الحرب العالمية الثانية ، يمارسون على نطاق واسع اشراك المستعمرات السابقة بالقوة في الكتل العدوانية* . وبهذه الطريقة يريدون الحفاظ فيها على سيطرتهم . واقامت الولايات المتحدة ، بحجة «الحماية من الشيوعية» ، قواعد حربية في هذه البلدان واغرقتها بالقوات و«المستشارين» ، وراحت تملي ارادتها عليها .

ولكن حتى ولو لم يتمكن الامبرياليون من الابقاء على سيطرتهم السياسية في المستعمرات السابقة ، لا يزالون يحتفظون فيها بمواقع اقتصادية ويمتصون الارباح الهائلة من استغلال الشعوب . فالربح السنوي لاحتكاريي الغرب من استغلال البلدان المتخلفة يشكل ٢٠ مليار دولار .

---

* الكتلة الحربية الامبريالية الرئيسية هي حلف شمالي الاطلنطي او حلف «ناتو» ، الذي يضم ١٦ دولة . والكتلة الحربية الثانية هي حلف جنوبي شرقي آسيا («سياتو») ، الذي لا يضم ، رغم اسمه «الاسيوي» ، الا ثلاثة بلدان اسيوية هي الباكستان وتايلند والفيليبين . واخيرا هناك كتلة للشرق الادني تسمى بحلف المعاهدة المركزية («سنتو») . وكان اسمه في البداية حلف بغداد لان المعاهدة التي تنص على انشائه وقعت في عاصمة العراق ، ولكن عندما خرج العراق من الكتلة وجب تغيير الاسم . وقد كان امل الامبرياليين ان يشركوا فيه جميع اقطار الشرق العربي ، ولكن هذه الآمال لم تتحقق . وكما قال احد الصحفيين ، كان حلف بغداد محاولة «لطبخ عجة بدون بيض» .

لهذا لم ينته النضال ضد الاستعمار حتى الآن . وليس بوسع الدول الناشئة ان تتخلص من العبودية الاقتصادية وان تقضي على نهب ثرواتها الوطنية الا بانشاء صناعة خاصة واعداد اختصاصيين من ابنائها وطرد الاحتكارات الرأسمالية .

وتجد شعوب البلدان التي كانت مستعمرات ، في نضالها من اجل تدعيم استقلالها ، تأييدا وديا من الاتحاد السوفييتي وغيره من الدول الاشتراكية . فقد ساعد الاتحاد السوفييتي

وتساهم الدول التي نشأت في مكان المستعمرات السابقة . مساهمة كبيرة في قضية حفظ السلام .

لا يزال شعوب هذه البلدان ان يتغلبوا على صعوبات غير قليلة وان يجدوا الحلول لمشاكل معقدة .

وما دام النضال مستمرا في سبيل الاستقلال فان مختلف

الطبقات والفئات الاجتماعية تسير معا : لان عدوها واحد هو الامبريالية . ولكن ما ان يتم بلوغ الاستقلال حتى يتكشف تضاد المصالح الطبقية . فالبرجوازية تسعى للاستفادة من الاستقلال الذي ناله الشعب لبسط سيطرتها هي ، وتبدي ميلا الى التفاهم مع الامبريالية والاقطاعيين على حساب الشعب ، وتحاول تثبيت النظام الرأسمالي المبني على استغلال العمال والفلاحين .

ماذا تنال البلدان المستقلة من طريق التطور الرأسمالي ؟ ان هذا الطريق هو طريق الآلام بالنسبة للشعب . وعلى كاهل الشعب تنهال مساوئ الرأسمالية التي لا بد منها : الازمات والبطالة وافتقار الجماهير . وبالاضافة الى ذلك يصعب على البلدان المتحررة ، اذا اتبعت هذا الطريق ، ان تقضي على تخلفها القديم وان تبعث الحياة في الامة .

فما العمل اذن ؟ الجواب على هذا السؤال جاء على لسان لينين الذي قال : «هل نستطيع ان نعتبر من الصحيح القول بان المرحلة الرأسمالية لتطور الاقتصاد الوطني لا بد منها بالنسبة للشعوب المتخلفة التي تتحرر الآن والتي تلاحظ بينها الآن ، بعد الحرب ، حركة في طريق التقدم ؟ اننا اجبنا على هذا السؤال بالنفي» .

ان تجربة البلدان الاشتراكية تدل شعوب المستعمرات واشباه المستعمرات السابقة على الطريق المباشر والعريض للبعث القومي والتقدم الاجتماعي .

الحياة نفسها ستقول للشعوب ما
هي النظرية التي تفتح طريقا اضمن واصح الى الاشتراكية

وتدفعها الى التسلح اكثر فاكثر بالنظرية العلمية الوحيدة — نظرية ماركس وانجلس ولينين الشيوعية .

ان انهيار الاستعمار حدث تاريخي عظيم للغاية يأتي من حيث اهميته بعد نشوء المنظومة الاشتراكية العالمية ، وله دور هام في عداد كثير من العوامل التي تستدعي التفاقم الشديد للازمة العامة للرأسمالية .

مرحلة جديدة من الازمة العامة للرأسمالية

الازمة العامة للرأسمالية تزداد عمقا . يحاول الكثيرون من النظريين البرجوازيين ، جادين ، اثبات ان الرأسمالية قد «تغيرت» وتخلصت من عيوبها وانها في الوقت الحاضر «تتحول الى اشتراكية» بالتدريج .

ويستشهدون بان بعض فئات الكادحين تملك اسهما (سندات) في الشركات الرأسمالية . وعلى هذا الاساس يستنتجون ان الرأسمالية قد تحولت الى «رأسمالية شعبية» .

في الواقع ان الرأسمال الذي يتجلى بشكل اسهم يعني استخدام مدخرات الكادحين الضئيلة لمصلحة ثراء الرأسماليين ثراء اكبر فالشخص العادي الذي يشتري بضعة اسهم في شركة ما، يستطيع في احسن الاحوال ان يأمل بعائدات تافهة . فهو لا يتمتع باي تأثير ، وجميع المسائل يحلها المساهمون الكبار ، وفي طليعتهم اولئك الذين يملكون «اسهم ضمان المراقبة» التي يجب ان تشكل ، نظريا ، خمسين بالمئة من مجموع الاسهم

بزيادة سهم واحد . ولكن بسبب توزع الاسهم على المساهمين الصغار واستحالة تنسيق اعمالهم اطلاقا يكفي عمليا امتلاك ٢٠ ـ ٣٠ (واحيانا ١٠) بالمئة من مجموع الاسهم للتحكم بشؤون الشركة تحكما كاملا . وهكذا فكأنما يزيد الرأسمالي رأسماله الى عشرة امثاله .

وعندما تتدهور اسعار السندات في البورصة بسبب الازمات الاقتصادية ، يشتري الرأسمالي اسهم المساهمين الصغار بابخس الاسعار ويتخلص اصلا من ضرورة دفع العائدات لهم . وكثيرا ما يحدث ان الرأسماليين انفسهم هم الذين يثيرون الذعر في البورصة ويسببون انخفاضا مصطنعا في اسعار الاسهم لسلب المساهمين الصغار .

لقد تغيرت الرأسمالية فعلا . ولكنها تغيرت في الاتجاه الاسوأ . فالعيوب الملاصقة لها منذ طفولتها اشتدت اضعافا مضاعفة . وبدأت الآن مرحلة جديدة ، **مرحلة ثالثة من الازمة العامة للرأسمالية .**

هذا الاستنتاج الهام انتهت اليه الاحزاب الشيوعية والعمالية في العالم على اساس التحليل الماركسي ـ اللينيني العميق للتطور العالمي المعاصر . فما هي أهميته ؟

سبق القول ان المرحلتين الاولى والثانية من الازمة العامة للرأسمالية قد نشأتا بسبب الحربين العالميتين .

أما خاصة المرحلة الثالثة فهي انها لم تبدأ بسبب حرب عالمية . فقد كانت الرأسمالية من قبل قوية لدرجة انها كانت تستطيع في ايام السلام ان تخنق حركة الكادحين الاشتراكية والحركة الوطنية التحررية للشعوب المستعبدة . وما كان الامبرياليون يعجزون عن الوقوف في وجه النجاحات الكبيرة

للحركات التحررية الا بعد أن تضعفهم المشاحنات فيما بينهم ويغرقوا في الحروب العالمية التي يشنونها هم انفسهم .

أما الآن فعاجزون عن هذا حتى في ايام السلام ، وهو ما يدل عليه بسطوع تفسخ النظام الاستعماري . ومما له دلالة خاصة ان شعب كوبا الصغيرة الباسل ، على مرمى حجر من اكبر دولة امبريالية ، لم ينل فقط استقلاله ، بل سار في طريق الاشتراكية ايضا .

ويؤدي نمو بأس الاتحاد السوفييتي وغيره من البلدان الاشتراكية الاخرى الى زيادة ضعف الرأسمالية : وتحوّل المنظومة الاشتراكية العالمية الى قوة حاسمة للتطور العالمي هو السبب الرئيسي للمرحلة الثالثة من الازمة العامة للرأسمالية . ولكن تفاقم الازمة العامة لا يعود فقط الى اسباب خارجية ، بل الى اسباب داخلية ايضا .

الاحتكارات عدوة الشعوب . دخلت البشرية الآن فترة ثورة علمية وتكنيكية جديدة مرتبطة قبل كل شيء بامتلاك الطاقة النووية ، وغزو الفضاء ، وتطوير الكيمياء ، واتمتة الانتاج ، والتكنيك اللاسلكي ، والسيبيرنيتيك . ولكن علاقات الانتاج الرأسمالية اضيق من ان تتسع للثورة العلمية التكنيكية ، فهي لا تفسح المجال لتطوير الاقتصاد الوطني حسب خطة واحدة تراعى فيها مطالب العلم الحديث ، ولا تمكّن من الاستفادة كليا من الاكتشافات العلمية الرائعة فكيف استخدام هذه الاكتشافات لمصلحة الشعب الكادح .

يمكن اتمتة بعض المؤسسات متفرقة وحتى فروع من الصناعة . ولكن لتحقيق اتمتة الصناعة بشكل منسق ولاستعمال العلم في جميع فروع الاقتصاد الوطني يجب في آن واحد تأمين نمو الاجور وانقاص يوم العمل ، اي اخضاع الانتاج لمصالح

الكادحين . وليس بوسع الرأسماليين ان يرضوا بهذا ، لانهم بذلك لا يبقون رأسماليين .

وحتى الاستخدام المحدود لاحدث منجزات العلم والتكنيك يجر وراءه ازمة في تصريف السلع . ومن هنا ، من جهة ، بطء وتائر تطور الانتاج ، ومن الجهة الاخرى ، اشتداد صراع الاحتكارات الرأسمالية على الاسواق وتفاقم التناقضات بين الدول الامبريالية .

ان الاوساط الحاكمة في الدول الامبريالية ، اذ تنشيء الكتل الحربية العدوانية للنضال ضد بلدان الاشتراكية والحركة الثورية ، تحاول استكمالها بالاحلاف الاقتصادية . وعند عقد هذه الاحلاف يأمل احتكاريو كل بلد بان يحلوا مشاكلهم (وقبل كل شيء مشكلة السوق) على حساب حلفائهم .

لقد انشيء في اوروبا الآن ما يسمى بـ«السوق المشتركة» التي تضم فرنسا وايطاليا والمانيا الاتحادية وبلجيكا وهولندا ولوكسمبورغ . ويجري بينها تبادل السلع بدون جمارك ، وتتخذ تدابير للتخصص وتقاسم العمل في الانتاج . وقد اثار هذا ، لاول وهلة ، بعض الانتعاش في الاقتصاد لم يقض مع ذلك على التناقضات الامبريالية . ففي حدود «السوق المشتركة» يصبح في امكان الاحتكارات الاقوى (الالمانية الغربية) ان تستولي على المواقع الاساسية في اقتصاد اوروبا الغربية .

وبحثا عن المخرج من الصعوبات الاقتصادية تسير الاحتكارات الرأسمالية في اتجاه جعل الاقتصاد الوطني **ذا طابع عسكري** . وهنا يتجلى بوضوح خاص الدور الرجعي لرأسمالية الدولة الاحتكارية . فالدولة الخاضعة لسلطة الاحتكارات ترصد المبالغ الطائلة لانتهاج سياسة «الحرب الباردة» . وتذهب هذه المبالغ

في الحال الى الاحتكارات . ان ماكنة «الحرب الباردة» وسباق التسلح تعمل بكل طاقتها معقدة وضع الاقتصاد الرأسمالي الذي هو ، حتى بدون هذا ، ممروضا .

ان سباق التسلح يجلب مصائب جديدة للكادحين . فهو يموّل من ميزانية الدولة . ولكن مم تتألف ميزانية الدولة البرجوازية ؟ انها تتألف في الاساس من الضرائب التي تجبى من السكان . ولقد اثار سباق التسلح ارتفاعا في الضرائب لم يسبق له مثيل . يكفي القول انه قد جبي من الضرائب في الولايات المتحدة ، في عهد رئاسة ترومان وحده (١٩٤٥ ـ ١٩٥١) ، اكثر مما جبي منها في عهود الرؤساء الاثنين والثلاثين السابقين جميعا .

ولا تهجم الاحتكارات الرأسمالية على المصالح الحيوية للطبقة العاملة والفلاحين وحسب ، بل تسيء ايضا لمصالح الملاكين الصغار وحتى لمصالح قسم من البرجوازية المتوسطة التي تعجز عن الصمود امام المزاحمين الجبابرة . وهكذا تقف الاحتكارات في وجه الامة كلها . وتفقد الدولة الخاضعة لها ، خطوة بعد خطوة ، انصارها حتى بين الفئات الاجتماعية التي كانت في الماضي تستند اليها .

وكلما ضاقت القاعدة الاجتماعية للدولة البرجوازية وازداد نضال الشعب توهجا ضد تحكم الاحتكارات ازداد لجوء الحكومات الامبريالية الى الاضطهادات الشديدة .

وينصب الاضطهاد اول ما ينصب على الشيوعيين : فالالوف منهم في السجون وعشرات الاحزاب الشيوعية مضطرة للعمل في السر . وسيرا على خطى هتلر منعت حكومة ادیناور سنة ١٩٥٧ الحزب الشيوعي الالماني . وفي الولايات المتحدة اتخذ عدد

من القوانين المعادية للديموقراطية التي تحد من حقوق الشيوعيين .

ان العداء للشيوعية هو من ابرز مظاهر **ازمة الايديولوجية البرجوازية** المتفاقمة .

بدون مثل عليا . ظل ايديولوجيو البرجوازية عشرات السنين وهم يتبجحون بان في بلدانهم حرية فكر* . أما الآن فالمحاولات تجري في الدول الامبريالية لحبس ... الماركسية ـ اللينينية . فلماذا ؟ لان الامبرياليين يخافون نظريتنا الثورية خوفهم من النار ، لانهم ليس عندهم افكار يقابلون بها افكار الماركسية ـ اللينينية السامية .

عندما كانت البرجوازية تسعى وراء السلطة كانت تجر وراءها الجماهير بشعارات الحرية والمساواة والاخاء . وهذه الشعارات لا تزال حتى الآن تسجل في الدساتير البرجوازية . ولكن الكادحين يعرفون الآن معناها : حرية الرأسماليين في استغلال العمال ، حرية الفاشست في احراق الناس في افران الغاز ، حرية ملوك الصحافة في تسعير اوار الهيستيريا الحربية . ثم «حرية» العمال في احناء ظهورهم ، و«حرية» الشيوعيين في القبوع وراء القضبان ، و«حرية» المناضلين في سبيل السلام في ان يضربهم البوليس بالهراوات .

واية مساواة يمكن ان تكون بين الاسياد والعبيد ، بين الشبعانين والجائعين ؟ ان المليارديرميلون يعرف كيف ينفق

---

* قال الكاتب الاميركي الكبير مارك تواين بمرارة في هذا الصدد : «في بلادنا ثلاثة اشياء لا جدال فيها : حرية القول وحرية الفكر والعزم على عدم استخدامهما ابدا» .

مليون دولار في حفلة راقصة ليلية واحدة ، والمجانين الاغنياء ينفقون على طقم كامل من الخدم لخدمة الكلاب . هذا في حين ان الالـــوف من عائلات العاطلين عن العمل تجوع ، والاطفال ينبشون اكوام القاذورات بحثا عن عظمة معروقة .

وهل يمكن الحديث بجد عن الاخاء في عالم الامبريالية حيث يعدم الزنوج على طريقة لنتش في الولايات المتحدة وحيث كان «الكلبانـــون» المتوحشون في فرنســـا يحرقون الوطنيين الجزائريين احياء ؟ ان البرجوازية في ايامنا هذه فقدت وداست المثل العليا التي سجلتها في زمن من الازمان على رايتها . والآن تقتنع جماهير اوسع فاوسع من الشعوب بان الحريـــة الحقـــة والمساواة الحقة والاخاء الحق لا يضمنها غير النظام الاشتراكي والشيوعي .

وتتجلى ازمة الايديولوجيا البرجوازية ايضا في انحطاط الثقافة . ففي رفوف المكتبات وعلى خشبات المسارح وعلى شاشات السينما والتلفيزيون كثرت المؤلفات المنحطة التي تمجد القسوة والعنف وتشيد بالفسق وتشجع الغرائـــز الحيوانية . ويصبح التيار الدارج في الرسم تراكب الخطوط واللطخات تراكبا لا معنى له يدّعى الكشف عن اعمق اسرار النفس البشرية . وفي الموسيقى يزول النغم والهارمونيا ليحل محلهما تنافر وحشي بين الاصوات . وفي النحت تظهر انشاءات فظيعـــة الشكـــل توحـــي بالقرف والتقزز .

وعند الحديث عن انحطاط الثقافة البرجوازية يكون من الخطأ التعامي عن وجود كثير من الفنانين الشرفاء في البلدان الرأسمالية ، الساعين باخلاص للمساعدة على انتصار العدالـــة والخير . ولكن القضية هي ان انتاج هؤلاء لا يمكن نسبه بكليته



محكمة لينتش . لوحة للرسام بروروكوف

الى الثقافة البرجوازية : فمنطق الحياة يدفع الفنانين الشرفاء الى فضح عيوب النظام الرأسمالي والى البحث عن مخرج من المآزق الذي تجر الرأسمالية المحتضرة اليه الشعوب . ومن المنطقي تماما ان كبار رجال الثقافة في عصرنا قد اعترفوا بعظمة افكار الشيوعية . ومن هؤلاء رومان رولان ، وتيودور درايزر ، وتوماس مان ، وهنريخ مان ، وجوليو كوري ، وبول لانجيفان ، وبرنارد شو ، وبابلو نيرودا ، ونيقولاس غيليين ، وكثيرون غيرهم . أوليس ذا دلالة ، مثلا ، ان اكبر شعراء فرنسا لوي آراغون واكبر رساميها بابلو بيكاسو هما عضوان في الحزب الشيوعي ؟ ان المثقفين الطليعيين يقطعون صلتهم بالرأسمالية ويكرسون جهودهم للنضال في سبيل انتصار الشيوعية .

الحركة الثورية للبروليتاريا

نمو نفوذ الاحزاب الشيوعية . ان تفاقم تناقضات الرأسمالية يؤدي الى النهوض بالنضال الطبقي للبروليتاريا . ويتخذ هذا النضال طابعا جماهيريا اوسع فاوسع .

ان موجة الاضرابات تعم العالم الرأسمالي ، وتصل الى ذروتها تارة في هذا البلد وتارة في ذاك . وتدل الاضرابات وغيرها

من الاعمال المنظمة للطبقة العاملة ، دلالة واضحة ، على نمو عزمها على النضال في سبيل مصالحها .

ومن المهم بشكل خاص هنا ان الكادحين ، في الاكثرية الساحقة من اضراباتهم ، لا يتقدمون فقط بمطالب اقتصادية بل بمطالب سياسية ايضا . ففي اليابان تناضل الطبقة العاملة والفلاحون ضد تحويل البلاد الى ساحة تجارب نووية اميركية . وفي فرنسا احبطت الجماهير الشعبية ، اكثر من مرة ، بقيادة البروليتاريا ، محاولة الرجعيين المتطرفين للاستيلاء على السلطة . وفي بريطانيا والولايات المتحدة ينظم الكادحون مسيرات للدفاع عن السلام وعن الحقوق المدنية .

ان النضالات الاقتصادية والسياسية للطبقة العاملة وغيرها من فئات السكان الكادحة هي بمثابة بارومتر يدل على نظام الكادحين ووعيهم المتزايدين . والدور الحاسم في تنظيم نضال الجماهير الشعبية هو للاحزاب الشيوعية التي تفضح بلا كلل السياسة الآثمة للاوساط الحاكمة الامبريالية ، وتجمع صفوف القوى التقدمية جمعاء للنضال في سبيل السلام والديموقراطية والاشتراكية .

ومن هنا النمو الذي لم يسبق له مثيل للحركة الشيوعية . فالاحزاب الماركسية ـ اللينينية موجودة الآن في ٩٠ بلدا في العالم وتضم في صفوفها اكثر من ٤٢ مليون شخص . وهناك اكثر من ٥ ملايين شيوعي في صفوف الاحزاب الشيوعية في البلدان الرأسمالية .

ان ملاحقة الاحزاب الشيوعية والدعاية المعادية للشيوعية تخلقان ظروفا صعبة جدا لنشاطها ، وتعيقان ، بطبيعة الحال ، نموها .

يكفي القول ان كثيرا من الاحزاب الشيوعية في البلدان الرأسمالية مضطرة للعمل في ظروف نصف علنية أو في سرية تامة . ورغم ذلك فان الاحزاب الشيوعية في كثير من البلدان الرأسمالية تضع نصب اعينها ، كمهمة ممكنة التحقيق للسنوات القريبة ، التحول الى احزاب جماهيرية .

لا تقاس نجاحات الحركة الشيوعية بزيادة عدد اعضاء الاحزاب الشيوعية نفسها وحسب بل بنمو نفوذها بين الجماهير ايضا . وتتمتع الاحزاب الشيوعية في البلدان الرأسمالية بنفوذ كبير في كثير من النقابات المهنية الكبيرة .

صحيفة اتهام ضد الرأسمالية . هلك في جميع حروب القرن السابع عشر ٣ ملايين نسمة ، وفي حروب القرن الثامن عشر – ٥,٥ ملايين ، وفي حروب القرن التاسع عشر – ١٦ مليونا .

ما في القرن العشرين فقد ذهب ضحية الحرب العالمية الاولى ١ ملايين وضحية الحرب العالمية الثانية ٥٠ مليون نسمة .

في حروب القرن السابع عشر كانت الوسيلة الرئيسية للحرب هي سلاح الرماية . وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت الغلبة للمدافع التي تحولت من قوة مساعدة الى «اله حرب» . وفي الحربين العالميتين تنازلت «الالوهية» الموحدة لـ«الثالوث» : المدفعية والدبابات والطائرات . واليوم اضيف اليها اشد الاسلحة تدميرا وهو السلاح النووي ، هذا مع العلم ان التكنيك الحربي لا يزال يتطور .

فالقنبلة الذرية الاولى كانت تعادل بقوتها ٢٠ الف طن من مادة التروتيل . أما الآن فقد صنعت قنابل هيدروجينية تعادل مئة واكثر من مئة مليون طن من المواد المتفجـرة . اضف الى ذلك الاشعاع المميت . فاحد اعظم اكتشافات العلم ، الذي يبشر البشرية ببحور من الطاقة المجانية ، يهدد بالتحول الى مصدر للخراب والموت . والذنب كله في هذا ذنب النظام الرأسمالي المعادي للبشرية .

ففي آب (اغسطس) سنة ١٩٤٥ ، قبل استسلام اليابان بأيام معدودات ، امر الرئيس الاميركي ترومان بالقاء قنبلتين

ذريتين على مدينتي هيروشيما وناغازاكي اليابانيتين . فذهب الانفجار في هيروشيما بـ٢٠٠ الف نسمة بين قتيل ومصاب بالاشعة ، ولم يبق من المدينة الا الرماد . ولن تنسى البشرية ابدا هذا اليوم الاسود من تاريخها .

لماذا استخدمت الاوساط الحاكمة للولايات المتحدة القنبلة الذرية بالرغم من عدم وجود ضرورة حربية لها ؟ الجواب : لانها كانت بحاجة الى «عرض عضلات» ، لانها كانت تحسب انها بهذه الطريقة سترعب حليفها الاتحاد السوفييتي وتجبر العالم كله على الاذعان لارادتها . ولما كانت الامبريالية الاميركية تحتكر السلاح النووي اصبحت تنهج سياسة الشنتاج الذري . وراح الجنرالات المتحمسون في البنتاغون (وزارة الحربية في الولايات المتحدة) يضعون الخطط لضرب كبريات المراكز الصناعية السوفييتية بالقنابل الذرية ، وكانوا مستعدين لابادة الملايين من السوفييتيين لكي يهدموا النظام الاشتراكي الذي يكرهونه .

في تلك الظروف اضطر الاتحاد السوفييتي الى امتلاك سلاحه النووي : فقد بلغ الامر حد الدفاع عن مكتسبات الشعب السوفييتي الاشتراكية واستقلال البلد . وقد قام العلماء السوفييتيون بمهمتهم على خير وجه . ووضع حد لاحتكار الولايات المتحدة في هذا الميدان . وكان ذلك اقوى ضربة اصابت خطط العسكريين الاميركيين العدوانية . وبدأت الولايات المتحدة تشدد الاستعداد لصنع قنبلة هيدروجينية اقوى من القنبلة الذرية بمئات المرات . ولكن حساباتها اخطأت في هذه المرة ايضا : ففي سنة ١٩٥٣ صنعت قنبلة هيدروجينية في الاتحاد السوفييتي قبل الولايات المتحدة .



لوحة للرسام آسلان

على كل حال لم تهدأ الاوساط العسكرية في الولايات المتحدة حتى بعد هذا . فقد كانت تقول : «ان القنابل ليست كل شيء . الاهم الطائرات قاذفات القنابل والقواعد الحربية قرب حدود الاتحاد السوفييتي . وبوسع الولايات المتحدة انزال الضربة دون ان تخشى الضربة الجوابية» .

تلك كانت خطتهم الاستراتيجية ، الفظيعة في نيتها . فحتى لو استطاعت الولايات المتحدة ان تتفادى الضربة الذرية الجوابية فلن تتفادى هذه الضربة حليفاتها في اوروبا وآسيا التي تقوم في اراضيها القواعد الحربية الاميركية . اضف الى ذلك انه حتى غير الاختصاصيين يدركون جيدا ان الحرب النووية ستكون مهلكة بشكل خاص للبلدان التي رقعة مساحتها صغيرة نسبيا وكثافة سكانها مرتفعة . أما الاختصاصيون فقد بينت حساباتهم انه تكفي بضع قنابل هيدروجينية لمحو بلدان كبريطانيا وفرنسا والمانيا الغربية من وجه الارض .

وبالرغم من هذا كان العسكريون الاميركيون يدعون الى العدوان على بلدان الاشتراكية . وما همهم ان تتعرض شعوب اوروبا وآسيا للخطر ؟ ان همهم الوحيد الحصول على الارباح الطائلة .

ولكن استراتيجيتهم فشلت من جديد . فقد انشئت في

الاتحاد السوفييتي صواريخ باليستيكية عابرة للقارات وصواريخ تدور حول الكرة الارضية قادرة على ضرب اية نقطة من الكرة الارضية بدقة متناهية . واصبح المعتدون الآن ، مهما احتموا وراء البحار والمحيطات ، يهددهم التعرض للضربة الجوابية القاضية .

بدل من الخاتمة

لا حاجة الآن للتكهن بما سيكون عليه المجتمع الشيوعي ، لان البرنامج الجديد للحزب الشيوعي السوفييتي لم يعد فكرة هندسية بل هو رسم تنفيذي لبناء الشيوعية يحققه الشعب السوفييتي . ان توجيهات المؤتمر الثالث والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتى بصدد الخطة الخمسية لتنمية الاقتصاد الوطني في الاتحاد السوفييتي هى دليل ملموس على تطورنا الصاعد . بديهي انه لا يمكن ، بعد ، الحكم حكما قطعيا على جميع تفاصيل المجتمع المقبل : فالحياة نفسها وممارسة البناء الشيوعي ستدلان على الحل لكثير من المسائل الخاصة الجزئية . ولكن ملامح المستقبل الرئيسية والجوهرية واضحة .

فالشيوعية ترسى في الارض الى الابد دعائم

السلام

ستتنفس البشرية الصعداء لاول مرة في تاريخها المليء بالآلام . ولن يهدد احد ولا شيء ازدهارها . وسيأتي اجل الانفاق الذي لا معنى له للقوى البشرية في انشاء وسائل الحرب المدمرة . وستتحول الوف المصانع التي تنتج الآن ، في جميع

بلدان العالم ، ادوات الموت ، – ستتحول الى صنع المنتجات التي تلبي حاجات الناس المتنوعة . وبدلا من المطاردات وقاذفات القنابل ستنتج طائرات الركاب السريعة وطائرات الشحن القوية ، وبدلا من الصواريخ الباليستيكية ستنتج الصواريخ الفضائية ، وبدلا من الدبابات ستنتج الجرارات وبدلا من المدافع والقذائف ستنتج ، مثلا ، الثلاجات والمكانس الكهربائية .

ثم تصور اية آفاق ساطعة جديدة ستتفتح امام العلم ! فالعديد من المؤسسات العلمية ومن العلماء المشغولين الآن بصنع انواع جديدة من الاسلحة ومما يحمي من الاسلحة ، ستحول جهودها نحو البحث عن انواع جديدة من الطاقة والمواد ، ونحو انشاء ماكنات تخفف عمل الانسان وتجمّل حياته ، ونحو النضال لاستئصال الامراض نهائيا واطالة حياة الانسان .

ولن تبقى كلمة «الحرب» الا بمعناها الانساني ، بمعنى الحرب على الامراض والشيخوخة ، الحرب على الجفاف والقحط ، الحرب على كوارث الطبيعة ، أما كلمة «السلام» فستبقى بمعناها الاصلي الوحيد – السلامة .

وستستطيع البشرية المزدهرة ذات الحول والطول ان توجه قواها لغزو عوالم اخرى في هذا الفضاء الذي لا نهاية له . وطبيعي ان المقصود هنا ليس ان نفرض ارادتنا بالقوة على سكان الكواكب الاخرى (ونحن لا نشك في ان اهل الارض سيلتقون عاجلا ام آجلا بـ«جيران لهم في السماء») . وانما المقصود استيعاب الفضاء ونشر الحضارة .

في رواية «حرب العوالم» لهربرت ويلز يأتي اهل المريخ الى الارض ويبيدون كل شيء حي لكي يمتلكوا كوكبنا ، ولا ينقذ البشرية من الهلاك الا تدخل الميكروبات . وبهذا الشكل تقريبا

يصور اللقاء القادم بين العوالم في الروايات والقصص الخيالية لكثير من الكتاب الاميركيين . فعند احد هؤلاء الكتاب يستعبد اهل الارض سكان الزهرة ويقيمون على هذا الكوكب نظام ... الاستعمار . ويشاء كاتب آخر ان تدور في الفضاء الخارجي رحى معارك طاحنة على «مناطق النفوذ» .

كلا ، لن يكون لقاء العوالم على هذا الشكل . لقد ابدى الكاتب السوفييتي المختص بالروايات الخيالية ايفان يفريموف ، في احدى رواياته ، الفكرة التالية : لا يستطيع غير الكائنات الفائقة الذكاء والبالغة اعلى ذرى العلم ان تنظم تحليقات بين الكواكب وان تتبادل الزيارات مع جيرانها . ولا يمكن ان يتطور العلم والتكنيك هذا التطور وان يقفز العقل هذه القفزة الا في مجتمع منظم على اسس عادلة ورشيدة . لن يكون في وسع رسل الارض (والكواكب الاخرى ايضا) ان يستهدفوا اهدافا قذرة وقاسية وان يزرعوا العنف والخراب والموت . لا يمكن ان يكون لهم الا هدف واحد هو اتحاد الكائنات المفكرة والتعاون في ترويض الطبيعة وفي تعظيم العقل والعمل .

ولكن لنعد من الفضاء الى الارض ، فلا يزال مجال العمل فيها واسعا . وكما قال مایاكوفسكي يجب ان يكون كوكبنا «مجهزا للحبور» . وهذه المهمة ينفذها

العمل

الذي يصبح في الشيوعية المحتوى الرئيسي لكل حياة المجتمع والمعنى الرئيسي للحياة الخاصة لكل انسان .

وسيتم بجهود المجتمع المنظمة بلوغ **تطور عملاق للقوى المنتجة يكفل الوفرة من كل المنتجات الضرورية للحياة** . قال

كارل ماركس ان الثروات ستتدفق في الشيوعية كالسيل المدرار ولم يعد برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي يكرر هذه الكلمات مجرد تكرار : بل انه يعطي قياسا دقيقا لمستوى الثروة الاجتماعية ويعبر عنه بتريليونات الكيلوواط ساعة من الطاقة الكهربائية وبعشرات ومئات ملايين الاطنان من البترول والفحم والفولاذ والاسمنت والحبوب واللحم والحليب وغير ذلك من المنتجات .

وفيما بعد سيزداد دفق الثروات بوتائر اسرع ، بفضل الاتحاد العضوي بين العلم والانتاج . ولقد اصبح العلم منذ الآن قوة منتجة عظيمة ، ولكن الخيرات التي يدرها علينا ليست شيئا يذكر امام ما سيدره على البشرية في المستقبل . ان العلم الآن ، ناهيك عن المستقبل الابعد ، يقف على عتبة حل عدد من المسائل القادرة على احداث ثورة حقيقية في انتاج القيم المادية .

واهم هذه المسائل هي ،بلا جدال ، مسألة امتلاك التفاعل النووي الحراري الموجه الذى سيكفل عمليا احتياطيات لا تنضب من الطاقة . وليس من الصعب ان نتصور اية اهمية ستكون لامتلاك طرائق التأثير الموجه في نمو النباتات والاجسام الحية ، أو التحكم بالطقس ، الذي سيسمح بالقضاء على مواسم الجدب ، أو التحضير الاصطناعي للزلال وكثير من المواد التي لم تجد الطبيعة متسعا من الوقت لصنعها لنا ...

وسيكون اساس ازدهار القوى المنتجة **انتاجية العمل الاجتماعي العالية للغاية** ، الحاصلة بفضل تطور العلم والتكنيك وارتفاع مستوى العاملين العلمي والتكنيكي والثقافي .

ان مصدر البحبوحة والفرح – **العمل ، سيصبح في الشيوعية حاجة حيوية لكل فرد من افراد المجتمع .**

يستطيع الانسان ان يعمل جيدا لاسباب متعددة : لانه يأمل بمكافأة كبيرة لعمله ، لانه يدرك واجبه امام المجتمع ، لانه مولع بعمله ولا يرى في غيره مجالا للكشف عن مؤهلاته الابداعية ، واخيرا لان العمل اصبح بالنسبة له عادة طبيعية ومألوفة كالحاجة الى التنفس أو معاشرة الناس .

اجمعوا هذه الحوافز كلها يكن امامكم العمل الشيوعي .

قد تعترضون قائلين : «يمكن ان نوافق على كل شيء الا على الحافز المادي للعمل . فقد سمى لينين العمل الشيوعي بانه عمل مجاني للمصلحة العامة . فكيف يمكن الحديث عن الأمل في المكافأة ؟»

لا شك ان الانسان الشيوعي لن يخطر في باله ان يطالب باعطائه لقاء عمله الجيد ، فورا وقبل غيره ، ما ليس بعد في متناول الجميع* . انه يعمل مجانا ولا يقيس عمله لا بالنقد الذي لن يكون لـــه وجود اصلا ، ولا بايـــة قيم مادية اخرى . ولكنه في الوقت نفسه مهتم بتنميـــة الثروة الاجتماعية ، الا ان اهتمامه هنا ليس انانيا ، فهو لا يفكر بنفسه بل بالمجتمع كله . واذن سيكون احد الحوافز للعمل في الشيوعية ، الاهتمام المادي الجماعي بزيادة الثروة الاجتماعية وبتحسين ظروف معيشة كل انسان باستمرار .

ولكن اذا اقتصرنا على التأكيد بان الانسان الشيوعي يمتاز عن غيره بالحاجة الى العمل ، فلا نكون قد قلنا كل شيء . يجب ان نقول : لا مجرد الحاجة الى العمل ، بل **الحاجة الى**

---

* خذوا على سبيل المقارنة اوركسترا او كورسا . فاذا كان يتألف من فنانين حقيقيين محبين للموسيقى ، فهل سيقوم احد ويعزف او يغني بتقاعس ، على اساس انه ، لقاء الاجتهاد ، لن يدفع له اجر خاص .

العمل حسب المقدرة . فبفضل هذا بالذات ستنمو الثروة الاجتماعية باستمرار وسيستطيع المجتمع ان يلبي تماما حاجات جميع اعضائه المعقولة .

وان تحقيق مبدأ الشيوعية الرئيسي «مـــن كل حسب كفاءاته ولكل حسب حاجاته» سيعني انه قد رسخت في المجتمع رسوخا تاما

المساواة

لنر الى اي حد يتناسب مبدأ التوزيع حسب الحاجة مع فكرة المساواة .

في الاشتراكية ينال الناس لقاء عمل واحد اجرة واحدة وفي هذا تكمن عدالة المبدأ الاشتراكي للتوزيع .

ولكن للناس كفاءة متفاوتة وعدد افراد الاسرة ليس واحدا ، ولهذا يكسب بعضهم اكثر من غيرهم ويعيشون احسن من غيرهم .

وعند تطبيق المبدأ الشيوعي للتوزيع يزول هذا الفرق ويغلب الى حد ما جور الطبيعة نفسها التي تمنح كل انسان مقدرة على العمل والابداع تختلف عن مقدرة غيره .

وهذا ، من وجهة نظر الحقوق الشكلية ، انتهاك للمساواة ، لان المجتمع الشيوعي يلبي حاجة كل انسان بكاملها مهما كانت كمية وكيفية عمله . ولكن الحقوق الشكلية لا تصلح للشيوعية ، فهي اذن تنبذ هذه الحقوق وترسي دعائم عدالة اسمى ، ترسي دعائم المثل الاعلى الانساني الحق في المساواة : ليعط كل امرئ المجتمع كل ما يقدر عليه ، وسيلبي المجتمع بسخاء كل حاجاته المعقولة !

وتتجلى المساواة الشيوعية ايضا في **تصفية الفروق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والمعيشية بين المدينة والقرية** . فسيتحول

العمل الزراعي الى شكل من اشكال العمل الصناعي ، وهذا يعني انه لن تكون بين العمل في الصناعة والعمل في الزراعة فروق اكثر من الفروق التي بين العمل في مختلف فروع الصناعة ، وانه ستتكون مع الزمن في الزراعة ، كما في الصناعة ، امكانيات ملائمة متماثلة **لتوحيد العمل العقلي والعمل الجسدي في نشاط الناس الانتاجي .**

وسيقضى نهائيا ايضا على بقايا التفاوت في وضع النساء الاجتماعي . والقصد هنا قبل كل شيء تحرير المرأة من الاعمال المنزلية المتعبة (كالطبخ والغسيل والخياطة وغيرها) والتخفيف من الصعوبات المتصلة بالعناية بالاطفال ولا سيما صغار السن منهم .

واخيرا سيمكن التغلب في الشيوعية ، من حيث الاساس ، على تفاوت الجنس المتصل الآن بكون المرأة قاصرة عن الرجل في القوة الجسدية . فبمقدار مكننة واتمتة الانتاج سيقل الاحساس بالفروق في القوة الجسدية . والآن تغلق الدولة السوفييتية امام المرأة ابواب بعض المهن التي يمكن ان تؤذي صحتها . ولكن عدد هذه المهن يتناقص باستمرار ، وليس بعيدا ذلك الزمن الذي تستطيع فيه المرأة ان تعمل في اي فرع من فروع الاقتصاد الوطني على قدم المساواة مع الرجل . قصارى القول ان استعمال التعابير الازلية كالجنس «الضعيف» والجنس «القوي» لن يكون على الارجح ملائما ولا صحيحا عندما يدور الحديث عن النشاط في العمل . فـ«الجنس الضعيف» السابق ، اذ يتسلح بالمعرفة ويدير تكنيك الشيوعية الجبار ، لن يقصر في شيء عن «الجنس القوي» .

ان تكوّن الملكية الشيوعية الواحدة لوسائل الانتاج ، وامحاء الفروق الطبقية ، سيؤديان الى انشاء **المجتمع اللاطبقي** .

وهذا هو المثل الاعلى النهائي للمساواة ، الذي اذا تجاوزه الحديث عنها فقد كل معنى : فالناس سيتمايزون دائما بعضهم عن بعض بالمؤهلات والاذواق ، ولا يكون معنى العدالة بذل المحاولات لجعل الناس سواسية كاسنان المشط بل ايجاد احسن ظروف الحيـاة والابداع لكل فرد على حدة وللجميع معا . ولهذا فان انشـاء المجتمع اللاطبقي هو الحد الذهني للمساواة ، الذي ببلوغه تفقد هذه الكلمة نفسها ، ككلمة «السلام» ، معناها الحالي الراهن وتزول من الاستعمال تدريجيا .

ومع المساواة تسير يدا بيد

الحرية

لانه لا حرية بلا مساواة ولا مساواة بلا حرية .

فالثورة الاشتراكية تحرر الكادحين من الاستغلال . وكل التطور اللاحق للمجتمع يتجه نحو ايجاد الظروف اللازمة لكي **يستطيع كل انسان ان يتطور بحرية وان يستخدم مؤهلاته الخلاقة بحرية** وفي هذا ، المثل الاعلى الشيوعي للحرية .

ولقد اكد الواقع الاشتراكي كل التأكيد ما قاله فلاديمير ايليتش لينين من ان ينبـوع مواهب الشعب مليء لم يمس . والآن يمكن القول بجرأة ان الينبوع قد تفجر وزان ارضنـا بالطلع البهي . ولكن الازدهار الحق للابداع الشعبي لم يبدأ بعد . فينبوع المواهب في الشيوعية سيتحول الى نهر فياض لانه كلما ازدادت الحياة غنى وكلما ازداد مستوى التعليم العام ارتفاعا ، ازدادت امكانيات الابداع في جميع فروع النشاط البشري ، وابدى الناس مؤهلاتهم بشكل اتم واكثر تنوعا .

وانسب الظروف للابداع الحر في الشيوعية هي المتصلة

بالقضاء على التقسيم القديم للعمل ، هذا التقسيم الذي يستعبد الانسان . فالعامل في الرأسمالية محكوم عليه ، طول حياته ، بان يقوم بعملية واحدة لا تتغير وحتى انه في بعض الاحيان لا يعرف اين ستستخدم القطعة التي صنعها هو . وهذه الرتابة والمعاودة اليومية للحركات نفسها تستنفدان القوى وتجففان القريحة .

أما في ظروف الاشتراكية فالعامل يدرك اهمية عمله الاجتماعية ويرى وراء القطعة التي يصنعها الماكنات التي ستساعد الكولخوزيين في جني موسم طيب أو ستساعد البنائين في تشييد دور جديدة . وهذا الادراك يثير الحماسة في العمل ، ويحفز الى التفكير بتحسين وتعجيل ما يجب عليه من مهمات في العمل . زد على ذلك ان العامل في النظام الاشتراكي ليس مقيدا بعملية واحدة : فامامه الامكانيات مفتوحة لرفع مستواه الثقافي والتكنيكي وتكديس المعارف والخبرات التي تسمح له بان ينتقل الى قطاعات انتاج اخرى اكثر تعقيدا .

ولكن العواقب السلبية للتقسيم القديم للعمل لا تزول نهائيا الا في الشيوعية ، حيث ستقوم الصفوف الاوتوماتيكية بجميع العمليات الرتيبة ، فيما يعكف الانسان على انشاء الماكنات وضبطها وتسييرها . وهكذا فان اي عمل يكتسب طابع الابداع . وسيتيح التعليم الواسع والافق الثقافي الرحب للانسان ان يعيش لا بمصالح مهنته الاساسية وحسب ، بل ان يطور ويستخدم مؤهلاته الاخرى ايضا . وبتعبير آخر فان انسان الشيوعية هو انسان **متطور من جميع النواحي يتحلى بالغنى الروحي والطهارة الاخلاقية والكمال الجسدي** .

وسيطول كثيرا عمر الانسان (فالعلماء يعينون رقم ١٥٠ سنة واكثرهم تفاؤلا يصلون حتى الى ٢٠٠ سنة) وذلك بفضل

ظروف المعيشة المادية والروحية الملائمة جدا وبفضل نجاحات البيولوجيا والطب وغيرهما من العلوم .

ولا يستفيد من اطالة العمر الناس انفسهم وحسب بل المجتمع بكامله ايضا . فالآن يبذل الانسان من عمره ١٠ ـ ٢٠ سنة للدراسة ولا تبقى للعمل والابداع الا ٢٥ ـ ٤٠ سنة . وعندما يصل الانسان الى ذروة نضجه ويكتسب الخبرات والمعارف ، تبدأ قواه الجسدية بالتدهور : وكم من الافكار الرائعة تبقى دون تحقيق وكم من قيم العقل التي لا يحصى لها عد نبقى محرومين منها بسبب ان الطبيعة حددت طول عمر الانسان بمثل هذا البخل والشح ! ولهذا فليس من الصعب ان نتصور مدى السرعة التي سيتقدم بها المجتمع عندما يكون جميع الناس ، وهم في المئة سنة من العمر ، في اوج ازدهار قواهم الجسدية .

وحتى لو تصورنا آفاق التطور الشامل للفرد بدون تعمق لبدأنا ندرك عظمة الحرية التي سترسي الشيوعية دعائمها . ان الكادحين في الرأسمالية يحلمون بالتحرر من الفاقة والاستغلال ومن انعدام الحقوق . فجاءت الاشتراكية بهذا التحرر . والآن تبني شعوب البلدان الاشتراكية ، بايديها ، مجتمعا تتجلى فيه الحرية باسمى معانيها ـ اذ تتجسد في ازدهار الفرد الانساني .

وسيكون من العناصر التي لا بد منها للتطور الحر للفرد ، ايضا ، **اشتراك كل انسان في التسيير الذاتي الاجتماعي الشيوعي .**

ان الشيوعية تفترض تحويل العمل الى حاجة حيوية اولية . وسيصبح النشاط الاجتماعي ايضا حاجة حيوية كهذه .

واشتراك كل انسان في الادارة ، والانضباط الواعي الرفيع سيضمنان تناسق ووضوح ودقة اعمال كل المنظمة التي تدير شؤون المجتمع . وبهذا تتصل مسألة الفهم الاخلاقي للحرية .

فالحرية في المجتمع لا تعني اطلاقا الانعتاق من المجتمع : ان حرية الفرد لا تعني اطلاقا ان يفعل المرء ما يشاء وكما يشاء له هواه . ان الحرية الحقة للارادة هي في التوفيق بين افكار الفرد واعماله وبين افكار واعمال الجماعة والمجتمع بأسره . وعندما تمتزج المصلحة الشخصية بالمصلحة الاجتماعية في وعي الناس **لا يعود هؤلاء يتصورون الحرية الا بكونها امكانية العمل لخير المجتمع** . وهذا الفهم للحرية ، الذي هو من صفات بناة الشيوعية الواعين ، ينتصر نهائيا في المجتمع الشيوعي .

وحيث تهيمن المساواة والحرية ، ترسخ حتمـــا دعائم

الاخوة

بين جميع الكادحين ، بين جميع الشعوب .

ان كلمة « اخ » لكلمة رائعة . وعندما نتحدث عن العلاقات الاخوية نريد التأكيد على ان هذه العلاقات ليست مجرد علاقات بين رفاق ولا مجرد علاقات بين اصدقاء ، بل علاقات بين الناس اجمل واسمى .

واعم تعبير عن هذه العلاقات هو **الجماعية** ، والتعـــاون ؛ والتـآزر بين الناس . ان الجماعية تعبر عن جوهر العلاقـات الاجتماعية في الاشتراكية ايضا . ولا يمكن ان يكون الامر بخلاف ذلك لان الملكية الاجتماعية على وسائل الانتاج تلد حتما العلاقات الجماعية والوعي الجماعي . وهذا يعني ان كل ما في الامر ان الجماعية تتطور بلا انقطاع في اثناء سير بناء الشيوعية ، وتغتني بمحتوى جديد ، وتكتسب اشكالا لم تكن معروفة من قبل .

هناك ثقة تقوم فقط بين جميع الناس الشرفاء ، وثقة متبادلة بين كل من يقوم بعمل واحد مشترك . وهل من حاجة

الى القول ان هذه الاخيرة اهـــم بكثير من الاولى من الناحية الاخلاقية ؟ فالناس في الجماعة مرتبطون دائما بعضهم ببعض وكثيرا ما يتوقف النجاح العام على عمل كل واحد . ومن قديم الزمان يعتبر القول «هذا الانسان يمكن الاعتماد عليه» اسمى مديح يكال . ومثل هذه الدرجة العالية من الثقة تقوم الآن في مصانع العمل الشيوعي ، حيث الجماعة ائتمنت كل عامل على شرفها وشرف ماركة المصنع ، وحيث يعمل الناس بدون مراقبة تكنيكية اعتمادا على الضمير .

ولا يمكن الوصول الى الشيوعية افرادا ، اذ لا يمكن بناؤها الا بالجهود الموحدة . ولهذا فان من يسير في الطليعة يرى من اول واجباته ان يساعد كل من يتأخر لسبب من الاسباب . وهذا ما يفعله السوفييتيون الطليعيون وجماعات كاملة طليعية ، اذ يقدمون المساعدة للمتأخرين . ومـــا اروع مـــا قاله المناضل الاجتماعي الفرنسي البارز داستيه دي لا فيجيري : «لا يمكن النضال في سبيل الاخاء بين الناس اذا لم يكن ثمة اخـاء بين الناس» .

ويتجسد الوعى الجماعي الذي ربـــاه الحزب الشيوعي في الشعب السوفيتي ، تجسدا ساطعا ، في استعداد السوفييتيين لمشاركة كادحي بلدان النظام الاشتراكي العالمي منجزاتهم ، وفي مساعداتهم النزيهة لشعوب آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية التي سارت أو تهم بالسير في طريق التطور المستقل . فالسوفييتيون — من مهندسين وعمال في مصنع بهيلاي في الهند ، وبنـــاة للسد العالي في الجمهورية العربية المتحدة ، وعمال طرق في افغانستان ، وجيولوجيين في اندونيسيا ، واطباء في اثيوبيا ... — يتحلون دائمـــا وابدا بروح الجماعية ويبذلون كل قواهم ومعارفهم للاهداف الساميـــة ، اهداف تقدم الشعـــوب والصداقـــة بين الشعوب .

وعندما ترسخ دعائم الاشتراكية والشيوعية في العالم كله تتحقق اجمل اماني وآمال الشعوب التي كتب عنها روبرت بيرنس بايمان ملهم :

مع هذا وفي كل ذا
مع هذا وفي كل ذا
استطيع ان اتنبأ لكم
بان يوما سيأتي
يصبح فيه الناس
كل الناس اخوانا .

وبالتدريج ستمحي الفروق القومية ، ولا يبقى غير الاسماء ذكرى للماضي . وعندما تتحد البشرية في اسرة شقيقة واحدة تصل الى ذرى قوتها وتحقق اجرأ المشاريع لترويض الطبيعة .

وهل العمل الانشائي لاناس اشقاء احرار ومتساوين في ظروف سلام ابدي غير

السعادة

التي ستأتي بها الشيوعية للشعوب !

لعلك غير واجد في العالم اثنين لا يختلفان في الاجابة على سؤال : ما هي السعادة ؟

طبيعي ان احدا لا يستطيع ان يقدم قسائم مضمونة للسعادة . فمصائر الناس مختلفة . والظاهر ان احدا لن يستطيع ابدا ان يطرد من الحياة تلك الاسباب الازلية للآلام والمشاحنات الروحية ، كعدم رضا الانسان عما يبدعه ، وكالامل المخدوع ، وكالغيرة والحب المخذول . وبكلمة واحدة لن يعدم مهندسو

النفس البشرية – الكتاب ، عملا : فالحياة ستلد مواضيع ليس فقط للفودفيل والكوميديا ، بل ايضا للدراما والتراجيديا . ولن يصدأ ايضا سلاح السخرية الصارم : فما دامت البشرية تسير الى امام سيساعد هذا السلاح الناس في مكافحة العيوب والمساوئ .

وانها ستسير دائما الى امام ، ولعل شيئا لا يمنح الناس سعادة اكثر مما تمنحهم اياها معرفتهم بانهم يشتركون في هذا المسير ويماشون الزمن . ولهذا فان السوفييتيين قد يتنازلون للخلف عن كل شيء الا الشيء الرئيسي – المقدرة على ان يكونوا سعداء .

كان الشعراء يصورون السعادة بصورة طير ازرق يفلت منا في اللحظة التي نظن اننا قد قبضنا على جناحه فيها . أما الآن فان السوفييتيين يقبضون بقوة على هذا الطير . وما هذا الطير الا العمل الانشائي السلمي ، والاهداف السامية ، والرغبة في النضال من اجل بلوغ هذه الاهداف باسرع ما يمكن . وعندئذ تتفتح آفاق جديدة ، وابعاد جديدة ...

محتويات

الفلسفة الماركسية — اللينينية

النظرية الفلسفية عن العالم وعن معرفته ١٢
المـــادة والحركـــة ١٢
نظرية التطور وقوانينه ١٧
الوعي هو صفة خاصة بالمادة البالغة شأوا رفيعا من التنظيم ٣١
المادية والمثاليـــة ٤٢
نظرية تطور المجتمع ٥١
الفهم المادي للتاريخ ٥١
التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية ٦٣
الضرورة التاريخية ونشاط الناس ٦٨
الطبقات والنضال الطبقي ٧٦
الرأسماليـــة ٨٨
الانتـــاج الرأسمالي ٨٨
استغلال الرأسمال للعمل ٩٧
الامبريالية ١١٠

ولادة المجتمع الجديد

من الرأسمالية الى الاشتراكية ١٢٥
الثورة الاشتراكية . ١٢٥
الخطة اللينينية لبناء الاشتراكية ١٣١

النظام الاقتصادي للاشتراكية ١٣٨
الملكية الاشتراكية ١٣٨
العمل والتوزيع ١٤٩
العلاقات البضاعية النقدية في الاشتراكية ١٥٨
التخطيط ١٦٣
نظام التوفير ١٧١
تجديد الانتاج ١٧٦
علاقات العمل ١٨٢
النظام الاجتماعي السياسي للاشتراكية ١٩٤
مجتمع الكادحين ١٩٤
الدولة الاشتراكية السوفييتية ٢٠٤
النظام الحقوقي السوفييتي ٢١٥
منظمات الكادحين الاجتماعية ٢١٩

الحزب الشيوعي

عقل العصر وشرفه وضميره ٢٢٩
برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي ونظامه الداخلي . . ٢٣٥
نمو دور الحزب الشيوعي السوفييتي في بناء الشيوعية ٢٤٤

الهدف العظيم

تحول الاشتراكية الى الشيوعية ٢٥١
القاعدة الاقتصادية للشيوعية ٢٥٦
اهم ما يجب لانتصار النظام الاجتماعي الجديد ٢٥٧
وفرة الطاقة ٢٥٩
المواد ٢٦٨
الاتجاه الرئيسي للتقدم التكنيكي ٢٧٨
كيف سينظم الاقتصاد الشيوعي ٢٨٥
التنظيم العلمي للزراعة ٢٩١
العلم قوة منتجة عظيمة ٢٩٧

تشكل العلاقات الاجتماعية الشيوعية ٣٠١
نحو مجتمع بلا طبقات ٣٠١
المدينة والقرية ٣٠٦
العمل العقلي والعمل الجسدي ٣١٠
نحو العمل الشيوعي والتوزيع الشيوعي ٣١٦
تطور نظام الدولة الى تسيير ذاتي اجتماعي شيوعي . . ٣٢٦
ازدهار وتقارب الامم السوفييتية ٣٣٢
تربية الانسان الجديد ٣٣٨
انسان الشيوعية يولد اليوم ٣٣٨
المذهب العلمي ٣٤٤
الانسان الجديد يشتد عوده في العمل ٣٤٨
الروح الجماعية والروح الانسانية ٣٥٤
الاخلاق الشيوعية والحياة اليومية ٣٦٠
يجب ان يكون كل شيء في الانسان جميلا ٣٦٤

في سبيل مستقبل افضل للشعوب

المنظومة العالمية للاشتراكية ٣٧٣
طرق الانتقال الى الاشتراكية. ٣٧٤
المنظومة الاشتراكية العالمية للاقتصاد. ٣٨٢
اسرة الدول الاشتراكية ٣٨٦

حركة الشعوب التحررية. ٣٩٩
مرحلة جديدة من الازمة العامة للرأسمالية ٤٠٥
الحركة الثورية للبروليتاريا ٤١٢

بدل من الخاتمة. ٤٢٧

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب ، وترجمته ، وشكل عرضه وطباعته واعربتم لها عن رغباتكم

العنوان : زوبوفسكي بولفار ٢١
موسكو – الاتحاد السوفييتي